

٥٥

تاريخ المصريين

# الحروب الصليبية

«الجزء الثاني»

تأليف: وليم الصوري  
ترجمة: دة حسن حبشي

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/عبد العظيم رمضان

القاهرة





٥٥

تاريخ المصريين

---



رئيس مجلس الإدارة  
د. سمير سرحان

رئيس التحرير  
د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:  
عبد العظيم الشبلي

# الحُرُوب الصَّليبيَّة

الجزء الثاني

تأليف  
وليم الصوري

ترجمة وتعليق  
د. حسن حبشي



المدينة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

**الاخراج الفني : مراد نسيم**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الجزء الثانى  
من كتاب ولیم الصورى  
عن الحروب الصليبية  
كتبها الأستاذ الدكتور حسن حبشى

الكتاب الحالى هو الجزء الثانى من أربعة أجزاء من الترجمة العربية لكتاب « تاريخ الحرب الصليبية » المعروف فى الغرب باسم « تاريخ الأعمال التى تمت وراء البحار » لوليم الصورى الذى ختم حياته رئيسا لأساقفة صور ، والذى عاش فى بلاد الشام وفلسطين فى فترة عاصر فيها بعض هذا الصراع العنيف الذى امتد حقبة من الزمن طالت حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، شهد خلالها الشرق الاسلامى بل والشرق المسيحى احوالا على أيدي مهاجرين أوروبيين تسربلوا بمسوح الدين والنصرانية ، وان لم يراعوا حتى حقوق المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس، كما أفصحت عن ذلك أحداث معارف بالحرب الصليبية الرابعة التى ازلت الامبراطورية البيزنطية

المسيحية ديناً ، الأرثوذكسية مذهباً ، لفترة من الزمن بلغت نصف قرن تقريباً ، ولم تشهر هذه الحملة المسماة بالرابعة سيقاً في وجه المسلمين ، ، ولاخلصت - كما هو مفهوم الصليبية الغربى - أرضاً من أيديهم بل نزلت كالأعصار الجارف على القسطنطينية التى كانت كنيستها احدى الكنائس الخمس الكبرى فى العالم المسيحي على اختلاف مذاهبه ، فغيرت هذه التجريدة الصليبية من معالم الوجود المذهبى ، وأزالت دولة الروم ولكن لترجع على أيدي ابنائها الذين لم يؤثر فيهم العنت ولا الاضطهاد ولا السيطرة الأوروبية ، ولا غلبة المسيحية الكاثوليكية .

\*\*\*

ويمتاز هذا الجزء الذى بين يدي القارئ فى صورته العربية بميزتين ، أولاهما انه امتداد فى أحداثه للجزء الأول ، وثانيتهما انه يتناول فترة عاصرها المؤلف فى شبابه ، وتعرف فيها على موازين الثقل فى توجيه التاريخ السياسى والمذهبى لبلاد الشام فى حقبة امتدت أمداً غير قصير من عمر هذا المشرق .

ويتجلى للقارئ المطامع الشخصية وتحقيق المصالح الذاتية فيما ضمنه وليم فى ثانياً هذا المجلد ، وهى مصالحي ارتبطت بالشخصيات القيادية الصليبية وزجت فى أتون معاركها بالجماعات الشعبية وعامة المسيحيين الغربيين ورعاعهم الذين تغلب عليهم الديماجوجية أكثر مما يسيرهم العقل ، فلما طفت هذه الأطماع على السطح - حتى قبل استيلائهم على بيت المقدس - راح كل زعيم من هؤلاء الزعماء الغربيين ينافس الآخر فى تحقيق ما فيه صالحه . وأدى ذلك الى ما يسميه وليم « بالشقاق الصليبي » الذى كان فى استطاعة القوى الإسلامية أن توظفه لصالحها ، لكنها أضاعت الفرصة - وما أكثر ما تكررت - من يدها بسبب الاثرة والأنانية وعدم

رعاية حقوق الرعية. ، وتمثل ذلك فى قيام البعض منهم لالتماس معونة هؤلاء الوافدين ، فأحدثوا شرخا فى جبهة كان فى مقدورهم أن يجعلوها جبهة صمود ومقاومة ترد المهاجمين مقهورين أن لم تزلهم ، وما كان هؤلاء الوافدون فى مجموعهم سوى شرانم من الأفاقين ، ساعدا ما تفكك المسلمين على أن تكون « قوة » وما كانت بالقوة ، كما يتضح من ثنايا هذا المجلد أن عوامل الشقاق الغربى كانت فرصة طيبة لتخليص المسلمين من هؤلاء الغزاة ، كما أن انتشار الأوبئة والطواعين كان فى صالح الجبهة الشرقية التى لم تعرف - للأسف - كيف تستغل هذه الظروف المواتية .

ويقدم هذا المجلد صورة قلمية عن بدأ قيام « مملكة » صليبية على يد « جود فروى » ، ولو كانت عند الشرق الاسلامى حينذاك نظرة استيعابية دقيقة واعية للظروف المحيطة به وبالصليبيين لأمكن تحويل دفة الأمور الى ما فيه صالح هذا الشرق على يد أبنائه ، ولكن بعض « المسئولين » راحوا يترامون على اقدام الصليبيين ، فكانوا يمدونهم بالمال حيناً وبالمعونة فى مغرفة الطرق حيناً آخر ، حتى مكثوهم من رقابهم ، ولقد وقف اهالى القدس فى بداية الأمر موقفا صلبا شريفا فى وجه الصليبيين الغزاة ، ولم يدخروا وسعا فى صدهم ، ولا تراخت عزائمهم عن مقاومتهم ، كما يشهد الكتاب ، ولكن يد واحدة لا تصفق .

وسقطت القدس غنيمة باردة فى أيدي الصليبيين الذين لم تأخذهم شفقة و رحمة بأحد ما من المقدسة الذين صادفهم ، فأعملوا فيهم القتل والذبح « حتى قاضت الأماكن بدماء الضحايا » ويصف ولیم فظاظة الصليبيين ووحشيتهم بل وهمجيتهم وصفا دقيقا وإن حاول تبريره فخان المنطق فكان تبريرا اعرج .

على أنه باحتلال القدس تبدأ مرحلة جديدة هي المرحلة التنظيمية للوجود الصليبي من الناحية الإدارية والدينية والمذهبية ، وبذلك تستقر أقدام الغزاة ليجعلوا من أرض الشام وفلسطين بلدا لهم ، وهم الأغراب عن هذا التراب .

وإذا لم يكن عهد جود فروى كملك ، « حام للقبر المقدس » كما لقب نفسه - قد استمر طويلا فإن الدولة أخذت الجد في وقفها على حساب القوى الإسلامية المبعثرة ، كما حاول رجالها في الوقت ذاته التوسع على حساب القوة البيزنطية ، وهي قوة « نصرانية ، لكن المصالح الذاتية لا تقيم وزنا للدين عند الصليبيين مما يكشف القناع عن أطماعهم الدنيوية وكذب ادعاءاتهم الدينية ، مما أدى الى ظهور قوى « أوربية » أخرى دفعتها أطماعها لأن يكون لها نصيب هي الأخرى من هذا العالم الشرقي ، ومع أن هذه الأطماع كانت في بداية الأمر قاصرة على بلاد الشام وفلسطين إلا أنها سوف تشرئب الى بلاد أخرى كمصر والعراق ، ورتب الغرب خطته هذه على مراحل تكشف عنها مجريات الحروب الصليبية عامة والاتفاقات التجارية ، لولا أن استطاعت مصر الوقوف في وجه هذه التطلعات الشرهة الآثمة .

إن هذه المقدمة ليست عرضا لمحتويات هذا المجلد لكنها المامة ببعض معامله ، وأننى لأدع الكتاب يحدث قارءه بالكثير والكثير من الأحداث والصراعات وما تمخضت عنه من تركها بصماتها في تاريخ المنطقة بل والعالم منذ ذلك الحين .

كما أننى أترك القارئ يستشف مايرى من مطالعة هذا الجزء ولا أملى عليه رأيا خاصا ، وسوف يكون لدى القارئ بعد مطالعة

هذا المجلد رأى سوف يستكمل ان شاء الله فى المجلدين الثالث والرابع .

وأحب أن أشير هنا الى أن الفهرست التفصيلى سوف يكون فى ختام الجزء الرابع .

كما أحب ألا يفوتنى الشكر لهيئة الكتاب على قيامها بطبع هذا السفر ، وأرانى مدينا بالشكر للصديق الكريم الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان فقد كان حقيقيا بهذه الترجمة فجعلها من سلسلة تاريخ المصريين التى يشرف على إصدارها .

وأرجو من الله العلى التوفيق .

حسن حبشى

القاهرة - الدقى



## الكتاب السابع

### الشقاق بين الصليبيين وزحفهم الى بيت المقدس

#### فصول الكتاب السابع :

- ١ - ارسال هييج الكبير وكوت هينولت مبعوثين الى الامبراطور ، واختفا- كوت بلدين أثناء الطريق وعدم رجوع هييج العظيم ووفاة أسقف بوى وظهور الجماعون .
- ٢ - الداح الناس الشديد بمتابعة السفر الى بيت المقدس ، لكن تأجل الرحيل الى اول اكتوبر ، كما ذهب « بوهيموند » الى قيليقية واستولى على الناحية بأجمعها .
- ٣ - صاحب « أعزاز » يناشد الدوق أن يساعده ضد مولاة رضوان ، فيستدعي الدوق أخاه بلدين فيسرع الى هناك .

- ٤ - بلدوين يخرج بقوة كبيرة لمقابلة أخيه ، كما أن الزعماء الآخرين يبعثون بالعون والمدد فيهرب رضوان ، ويهلك بعض رجالنا أثناء الزحف ، ويقتل حوالى عشرة آلاف من جند العدو .
- ٥ - الدوق يمضى الى بلد أخيه متجنباً خطر الوباء ، وهنا يخرب قلاع جماعة من الخونة كما يتوجه بعض الزعماء الآخرين الى الرها أيضاً لينعموا بكرم بلدوين الباذخ .
- ٦ - أهل الرها يتآمرون ضد حاكمهم ويغضبون منه لايتارهم اللاتين عليهم ، ولكن خبر هذا التآمر يصل الى سمع بلدوين فيأمر بقتل المتآمرين .
- ٧ - « بلاس » يدبر مؤامرة ضد الكونت الذى يتخذ من الاجراءات ما يضمن سلامته ، ويلقى القبض على طائفة من حلفائه ، ولكن فولبرت دى شارتر يهون من شأن هذه النكبة ، وينتهى الأمر بذبح « بلدوك » المتآمر .
- ٨ - كونت تولوز يستولى على مدينة « البارة » ويقوم أسقفية بها ، دخول سفن تيونونية فى الميناء وتناقض عدد القوم بسبب تفشى الموت .
- ٩ - الصليبيون يحاصرون المعرة ويستولون عليها . موت اسقف أورنج وذيوب صيت « جوفيه دى لاتور » .
- ١٠ - الدوق يعود الى أخيه ، ويستأذنه فى الرجوع فيقع فى كمين فى أثناء عودته الى الجيش ولكنه ينجو منه لم ينله اذى .

١١ - النزاع يشتد فى المعرة بين كونت تولوز وبوهيموند الذى استولى على أملاك الكونت بأنطاكية ، فيجتمع الزعماء فى « الروج » ولكنهم لا يصلون الى قرار حاسم ، ويصارع الناس المجاعة •

١٢ - اغسارة كونت(١) ( ريموند دى تولوز ) على أرض للعدو واستيلائه على ماشيته ، ثم شروعه فى الزحف على بيت المقدس حين رأى نفسه عاجزا عن مقاومة الحاحات الناس أكثر من ذلك ، فينضم اليه فى مسيرته هذه «كونت نرماندى» و « تانكريد » •

١٣ - اللصوص يهاجمون جيش الكونت ( ريموند ) أثناء زحفه لكنه يصددهم ببراعة ويستولى عنوة على قلعة حاولت مقاومته ، ثم ينصب معسكره أمام « عرقة » ويفد الى أبواب الزعماء ( الصليبيين ) رسل البلاد التى حولهم •

١٤ - وصف « عرقة » وتسلم رجالنا رسالة من بعض أسرانا فى طرابلس يحثونهم على وجوب محاصرة عرقة •

١٥ - مغادرة فريق من الصليبيين للمعسكر واستيلائهم على مدينة « انطربوس » بالقوة ، ثم عودتهم محملين بالأسلاب الضخمة والاستمرار فى محاصرة عرقة •

١٦ - وصول ( دوق ) جود فروى الى اللاذقية وبصحبه كونت فلاندرز وبقيه القوات • نجاح الدوق فى تحرير « جينيمار »

---

(١) لقبه وليم الصورى فى الأصل بالدوق ولكن الصواب هو «كونت» •

من الحبس كما يعيد اليه أسطوله • وقيام بوهيموند بمرافقة  
العسكر فى رحيلهم حتى « اللاذقية » •

١٧ - الدوق ( جو فروى ) وجيشه يصدقون بجيلة غير أن مكائد  
كونت تولوز ترغمه على رفع الحصار وتحمله على الاسراع  
الى « عرقة » فينضم الى القادة الآخرين ، ولكن حصار هذه  
المدينة ينتهى بالفشل •

١٨ - اثاره موضوع حربة المسيح من جديد ، بطرس ( بارتلميو )  
مكتشف الحربة يمشى وسط النار الملتهبة ولكنه يموت بعد  
أيام قلائل من ذلك •

١٩ - عودة السفراء الذين كان زعمائنا قد ارسلوهم الى مصر •

٢٠ - سفراء من الامبراطور ( البيزنطى ) يصلون الى الجيش  
شاكين من بوهيموند ، وينيعون النبا بقرب مجيء الامبراطور ،  
والتنازع بين قواتنا • شبوب معركة مع اهل طرابلس ينهزم  
فيها العدو ، ويعود الصليبيون منتصرين الى معسكرهم •

٢١ - صاحب طرابلس يحصل على اتفاقية مع الصليبيين بعد ان  
دفع لهم مبلغا كبيرا من المال ووصلهم بكثير من الهدايا •  
ثم يرحل القادة سالكين الطريق الساحلى نزولا على نصيحة  
المخلصين من سكان تلك النواحي •

٢٢ - الصليبيون يعاودون السير مرة ثانية ويمرون ببعض البلاد  
الساحلية ثم يصلون اخيرا الى اللد والرملة •

٢٣ - أهالى القدس يحصنون مدينتهم تحصينا قويا ضد الصليبيين،  
ويزودونها بالرجال الأبطال وبالسلاح والذخيرة ويخرجون  
منها معظم سكانها النصارى .

٢٤ - أهالى بيت لحم يبعثون الرسل الى القادة الذين يوفدون  
تأثيرا الى تلك المدينة فيستولى على كنيسها وعلى الموقع  
معا .

٢٥ - الجيش يواصل زحفه حتى يصل الى بيت المقدس ، لكن تقوم  
مناوشة فى نفس الوقت يهلك فيها بعض من رجال العدو .



## هنا يبدأ الكتاب السابع

---

### الشفاق بين الصليبيين وزحفهم الى بيت المقدس

- ٩ -

حين استقرت الأمور في أنطاكية على هذه الصورة (١) عزم القواد بالاجماع دون معارضة من أحد على ارسال مبعوثين الى الامبراطور يدعونه للحضور بذاته في الحال لمساعدتهم وفاء بالاتفاق الذي أبرمه معهم من قبل ، والقوا الى مبعوثيهم أن يخبروه بأن الصليبيين على وشك الزحف الى بيت المقدس ، ويسألونه أن يمضى حالا في اثرهم حسبما التزم به في المعاهدة التي أمضاها واياهم ، فان لم يف بشرط الاتفاق أصبحوا في حل عن الالتزام بعهدهم معه .

واختاروا لهذه السفارة اثنين من نبلائهم ووجوه القوم فيهم ،

---

(١) راجع الجزء الأول ص ٣١١ - ٣٦١ .

هما « هيج العظيم » Hugh اخو ملك فرنسا وبولدين « كوثت هينولت » Hainault الذى اختفى فى أثناء سفره فى معركة قاتل فيها العدو وكان مصيره محوطا بالغموض وموضع جدل ، فمن قائل يقول انه لاقى منيته فى هذا الاشتباك ، الى آخر يذهب للقول بوقوعه فى أسر العدو الذى حمله معه يرسف فى الأغلال الى بعض نواحي المشرق القاصية •

على أن لورد هيج نجح فى تجنب مكائد العدو فوصل سالما الى الامبراطور ، لكنه - وا أسفاه - عند بلوغه هذا المنعطف كسف بريق أعماله المجيدة بسحابة شديدة القتامة باعدت بعدا كبيرا بينه وبين أمجاد قومه الباهرة ، فإذا كان قد أتى فى أثناء مسيرة الحملة بكثير من أعمال البطولة التى اكسبته مجدا لا يبلى فإنه لطخ اسمه الكريم ومرغه فى الوحل فى أثناء هذه السفارة التى أنجزها لمن كلفوه بها ، لكنه لم يأت اليهم بالرد ، ولم يكبد نفسه مشقة الرجوع اليهم فأظهره تقصيره فى أداء هذا الموضوع بمظهر شديد الغرابة تنكره عليه مكانته السامية ، لأن كتاب جوفينال يقول « ان كل شائبة فى الخلق تنطوى فى حد ذاتها على جرم أكبر كلما كبر مقام مرتكبها وعلت مكانته » •



ما كاد حصار انطاكية ينتهى هذه النهاية الرائعة بالاستيلاء عليها ، وما كادت أمورها تستقر ويسودها الهدوء حتى ضرب الناس بطاعون لا يعلم أحد أسبابه ، وتزايد عدد ضحاياه زيادة مفرجة ، وفشى حتى قل أن كان ينقضى يوم الا ويخرج الناس لدفن ثلاثين جثة أو أربعين ، والحق أن القلة التى بقيت من الناس بعد الحصار قد تضاعلت حتى كادت أن تكون عدما •

ولقد هاجم هذا الطاعون الخبيث الجميع على اختلاف طبقاتهم،  
لم يفرق بين صغير وكبير ، وكان من بين الذين ساروا ان ذاك  
فى الطريق الذى لابد لكل مخلوق أن يسير فيه « أديمار أسقف بوى » ،  
Adhemar of Puy وهو رجل شريف الخلق ، عظيم القدر ،  
خالد الذكر ، فبكى الناس كلهم فيه أبا وهاديا لهم ، وشيعة الجميع  
الى جدته يزفرات باكية وآهات تصدح الأفئدة ، ودفنوه فى توقيير  
كبير فى كنيسة بطرس الطوبانى فى الموضع الذى يقال انهم وجدوا  
به حربة المسيح .

ولقد فتك هذا الطاعون القاتل فيمن فتك « بهنرى ديش »  
D'Esch الكريم نسبا السامى خلقا ، فمات ودفن فى قلعة  
« تل باشر » .

كما هلك بنفس الوباء « رينهولد فون أمرزباخ »  
Rhenauld Von Ammershach وهو محارب عظيم شرف قومه  
بشجاعته الذاتية ، فوورى جسده فى ساحة كنيسة أمير الرسل .

وقد تفشى هذا الطاعون أكثر ما تفشى فى النساء على وجه  
الخصوص ، حتى لقد هلك منهن فيه ما يقرب من خمسين ألف امرأة  
فى أيام قلائل .

وحاول بعض أهل حب الاستطلاع أن يستقصوا أسباب هذا  
الوباء الملعون فانتهوا الى خواتيم تخالف كل خاتمة منها الأخرى ،  
فقال بعضهم انه نشأ من جراثيم تسبح فى الهواء ولا تراها العين ،  
على حين قيل ان الجوع كان قد عض الناس بأنبيابه ، فلما تاتى لهم  
الحصول على الطعام الوفير أقبلوا فى نهم وشراهة على الأكل  
تعويضا عن أيام المسغبة ، فكانت بطونهم الجوعى علة هلاكهم ،  
وأشار هذا البعض الى الحقيقة القائلة ان من كانوا وسطا فى أكلهم

أو تقللوا منه كانوا أحسن حالا من غيرهم ، وأنهم سرعان ما عادوا إلى ما كانوا عليه في السالف من الصحة « (٢) » .

## - ٢ -

في هذه الأثناء عاد الناس يلحون على قادتهم الحاحا شديدا بمعاودة الاستعداد للسير إلى القدس ، وسواء أكان الحاحهم صادرا عن رغبة منهم في النجاة من الطاعون ، أو كان نابعا عن حبهم للحج إلى بيت المقدس التي هي بيت القصيد الذي جاءوا من أجله ، فإن الأمر الذي لامرأ فيه هو أنهم طالبوا قادتهم بالاستعداد للخروج والسير قدما بجيش السيد لانجاز الغرض الأساسى الذى دفع الجميع لترك أوطانهم ، ومن ثم اجتمع كبارهم وتشاوروا فيما بينهم بشأن رغبة العامة التي رأوها جديرة بالتلبية .

وقد اختلف رد الفعل الشخصى للقادة على هذا الطلب ، فرأى فريق منهم أن الواجب يقتضيهم ألا يتوانوا عن الخروج في ساعتهم ، وبذلك يكونون قد أرضوا رغبات الناس .

وأما غيرهم فقالوا ان العقل يفرض عليهم تأجيل الخروج حتى شهر أكتوبر ، وكانوا ناظرين في ذلك إلى ما هم فيه الآن من حر الصيف القائن الذى لا يطاق ، ومن ندرة المياه وقلة ما تحت يدهم من الخيول ، وتضعف الناس بسبب طول المجاعة التى كابدوها ، وقال أصحاب هذا الرأى ان الناس فى خلال هذه الفترة (٣) يكونون قد حصلوا على مزيد من الجياد ، كما تتاح فرصة من

---

(٢) ذكرت الترجمة الانجليزية أنه لم يمكن تحييد طبيعة هذا الطاعون تحديدا بآتا ، وانما كان وباء عم أقاليم البحر الأبيض المتوسط الشرقية .  
(٣) المقصود بذلك الفترة المنصرمة من هذه اللحظة حتى دخول شهر أكتوبر .

الراحة للخيول التى عندهم الآن ، وبذلك يعود الناس الى ما كانوا عليه من قبل بفضل ما نعموا به من الاستجمام والمطعم مما يمكنهم من النهوض بعافية ، ويجعلهم أقدر على تحمل مشاق الزحف ، وقد قوبلت هذه العواطف الأخيرة باستحسان الجميع ، واتفق رأيهم - دون استثناء - على البقاء حتى يحين ذلك الموعد المقترح .

حينئذ انصرفوا أملا منهم فى تجنب الموت الذى يهددهم ، كما بدا أنه من المحتمل أيضا أنهم قد يجدون فى هذه الأثناء فى ناحية أخرى غير التى هم فيها الآن وفرة من الميرة ، وأصبح مقهوما لديهم جميعا وجوب عودتهم فى الموعد المضروب دون تأخير ، فذهب بوهيموند الى قبليقية واستولى على مدن طرسوس ، وأذنة ، والمصيصة وعين زربة ، ونصب حكاما من قبله على هذه الأماكن ، وجعل من نفسه الأمير الأكبر على الأقليم بأكمله .

أما الزعماء الآخرون فقد تفرقوا فى المدن المجاورة بعيدين عن الجيش ، جاعلين همهم استرداد صحتهم وعافية جيادهم .

كما بادر كثير من أشراف الناس وعامتهم على السواء الى عبور نهر الفرات ، وأخذوا السير فى لهفة قاصدين الرها حيث كان الحكم فيها لبلدوين أخى الدوق ، وكانوا يطمعون فى نواله ورفده ، فأحسن الكونت لقاءهم ، وحباهم بآلائه ، ولم يدخر وسعا ولا قصر فى عطفه عليهم طول اقامتهم فى رحابه ، ثم ردهم فى النهاية الى اخوانهم وقد امتلأت نفوسهم بالغبطة ، وأيديهم بالعطايا الجمّة .

### - ٣ -

حدث فى ذلك الوقت أن استجلب رضوان - صاحب حلب - على نفسه نقمة واحد من أتباعه ، وكانت قلعة « أعزاز » فى يد هذا التابع .

ووصلت الخصومة بين الاثنين حدا حمل الأمير على است  
العسكر من كل النواحي التابعة له ، وضرب الحصار على  
القلعة التي ادرك متوليها الا قبل له في الوقوف في وجه  
مولاه القوي الحائق مالم ينجده الفرنجة ، فأرسل في الحال و  
من خاصته واهل بلده - وكان مسيحيا مخلصا له - الى  
( جود فروى ) يسأله محالفته ، وزوده بالهدايا اليه ضمانا  
تأييده ، وزاد بأن وعده أن يخلص له قلبا وروحا .

وأبدى رغبة في أن يرتبط به باتفاقية يلتزم بها التزاما  
وأفصح عن استعداده لارسال ولده الى الدوق رهينة عنده  
يكون على ثقة تامة فيما يقوله ، وحتى لا تخالجه لحة شك في  
بعده له .

والحف في الرجاء الى « جود فروى » أن ينهض في  
هذه ليخلصه من الخطر المهدق به ، واعد اياه أن يجازيه  
الأوفى على حسن جميله هذا في الوقت المناسب .

وأتت هذه الكلمات أكلها ، وحركت نفس ذلك الرجل .  
فوثق علاقات المودة بصاحب قلعة ( اعزاز ) وأظله بعطفه ، و  
فأرسل في لحظته رسلا من جهته الى أخيه بلدوين كونت  
يدعوه للقدوم عليه بعسكره ليكون عوناً له في رفع الحصار ،  
لذلك الصديق .



أما رضوان فقد نصب معسكره قبالة قلعة « أعزاز »  
خروج الدوق جودفروى من أنطاكية بخمسة أيام ، وكان في  
عدد كبير من أخلص أتباعه الذين دعاهم ليكونوا عوناً له في المشـ

الذى يزعم النهوض به ، فتألفت منهم جميعا طائفة قوية خرج بهم  
مغذا السير لنجدة أعزاز .

احس رسل صاحب أعزاز الذين بعث بهم الى الدوق أن قد  
لازمهم التوفيق فى انجاز سفارتهم على اكمل وجه فقد حصلوا على  
التأييد التام لسيدهم عند الدوق ، على انه كان من المستحيل عليهم  
القيام شخصيا باخبار مولاهم بما انتهوا اليه بسبب احاطة العسكر  
المعادى له للقلعة من كل جانب ، مما استحال معه قيام أحد ما  
بالدخول اليها أو الخروج منها ، لذلك أطلقوا حمامتين من الحمام  
الزاجل المدرب على مثل هذه المهمات لايصال الرسالة ، فربطوا فى  
ذيلى (٤) الحمامتين كتيباً تتضمن التفاصيل الوافية عن نجاحهم، ليكون  
مولاهم على علم تام بكل ما نسنى لهم القيام به ، وما كاد الطائران  
يطلقان فى الجو حتى طارا خفيفين الى ديارهما ، وهناك أمسكهما  
المسؤولون عن الحمام الزاجل ومن ربوهما ، وفضوا الرسائل ،  
وافضوا بمضمونها الى صاحب حلب ، فاستولى عليه الفرع الشديد  
من العدو المحيط به ، فأياسه الخوف وفل مقاومته ، ومع ذلك فان  
قراءته لهذه الرسالة ملأته بالأمل المفرح فى الا خوف عليه ان هو  
أخذ المبادرة فى مهاجمة عدوه .

## - ٤ -

كان الدوق ورفاقه قد قطعوا مسيرة يوم واحد حين صادفهم  
بلديون فى طائفة من ثلاثة آلاف مقاتل مدججين بأحسن السلاح ،

---

(٤) يبدو أن هنا خطأ من وليم الصورى فى قوله ان الرسالتين ربطتا  
الى ذيلى الحمامتين ، فالمعروف أن الرسالة كانت توضع تحت جناح الطائر  
حفظاً لتوازنه ، انظر الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب ، حاشية رقم ١  
صفحة ٣٠٢ .

فرحب جود فروى بأخيه ترحيبا يفيض بالحب العميق والود الصافى، وشرح له كل تفاصيل الحملة ، مركزا على وجه الخصوص على محالفة الصداقة التى أبرمها مع صاحب « أعزاز » ، فاستصوب بلدوين كل ما قصه عليه أخوه ، وإن حذر من أن قواته ليست بكافية لفرض حصار شديد كهذا الحصار الذى يزمع القيام به ونصحه غاية النصح أن يبعث الى القادة المقيمين بأنطاكية – قبل أن يقدم على أى شىء – يرجوهم مساعدته ، لأن مجيئهم اليه يقوى جانبه ويشد بهم ساعده ، فيتقدم فى تنفيذ مشروعه بمزيد من الثقة .

استمع الدوق بنفس راضية الى نصيحة شقيقه ، وبعث فى الحال برسول الى كل من بوهيموند وكونت تولوز يناشدهما مناشدة حارة – بحق مآبينه وبينهما من روابط الأخوة – أن يهبا من غير ابطاء الى مساعدته فى جهوده القائم بها من أجل حليفه ، وأكد لهما أنه راد لهما هذا الفضل فى الوقت المناسب ، والحق أنه كان قد سألهما هذه المعونة قبل مغادرته المدينة بطريقة فى غاية الود ، والتمس منهما الانضمام اليه ، ولكن الغيرة من أن صاحب « أعزاز » استنجد بجودفروى أولا حملتهما على رفض متابعتة والخروج معه ، فلما كانت هذه المرة الثانية عرفا أنه لم يعد بمقدورهما رفض التماس الدوق حفظا لشرفهما ، ومن ثم جمعاً قواتهما وخرجا بها فلحقاه فى حملته ، فلما تآتى لجميع القوات أن ينضم بعضها الى البعض بلغت زهاء ثلاثين ألف محارب .

ويقال انه كان عند رضوان أربعون ألفا من الترك ، ومع ذلك فانه لم يطمئن الى قوته هذه واستولى عليه الفزع من اقترابنا الذى أخبرته عيونه بأنه بات وشيكا ، فسرح جيشه وعاد الى حلب .

لم تعلم قوات « جود فروى » بفرار العدو فظلت توالى زحفها ،

وتبعها من خلفها كثير من الجند المشاة والفرسان القادمين من  
أنطاكية للانضمام للكثائب التي سبقتهم .

وبناكانوا على مسافة غير قصيرة وراء الجيش فقد شاء سوء  
طالع الكثيرين منهم أن يقعوا في الكمائن التي كان العدو قد عنى  
برصدها لهم ، وأن لم يكونوا مكافئين للترك في العدد ولا في البأس  
فقد تمت الغلبة عليهم في يسر ومن غير عنت ، فهلك الكثيرون منهم  
وأسر غيرهم .

ما كاد الدوق والزعماء الآخرون يعلمون بما جرى حتى توقفوا  
عن الزحف ، وانفقوا على أن يتعقبوا هؤلاء الجناة ، وشاء حسن  
طالعهم أن يصادفوا الترك قبل تمكنهم من الوصول إلى مواقعهم أو  
بلوغهم الأماكن التي اعتادوا الاختفاء بها ، فكر الصليبيون عليهم  
بسيوفهم كرة ضاربة ، وسرعان ما فرقوا صفوفهم وشتتوا شملهم  
وانقذوا طائفة من رجالنا الذين كانوا قد وقعوا أسرى في أيدي  
الترك ، وأسروا عددا كبيرا من رجال العدو وأعملوا القتل في  
الكثيرين منهم .

وفر من نجا فتضاءل عدد العدو حتى كاد ألا يكون شيئا مذكورا ،  
وكان هؤلاء من الصفوة المنتقاة من رجال رضوان وحاشيته ومن  
خاصته وهم قرابة عشرة آلاف شخص .

بعد أن أحرز جيشنا النصر مضى كله قدما صفا واحدا حتى  
بلغ غايته ، فخرج للترحيب به صاحب قلعة أمزاز في ثلاثمائة فارس  
من فرسانه ، وجثا - على مشهد من الجميع - على ركبتيه ، مطأطء  
الرأس ، مزجيا الشكر للدوق أولا ثم للزعماء الآخرين ثانية على  
ما فعلوه ، وأعلن على رؤوس الجميع أنه التسابع الأمين للقادة  
الصليبيين ، وقطع على نفسه يمين الولد مؤكدا أنه لن ينكث بشيء

من هذا العهد ، أو يخرج على تلك الطاعة ، أو يشجب الوفاء لهم  
مهما تغيرت الظروف أو تبدل الزمن •

وهكذا أدى الدوق لحليفه المساعدة المرجوة ، وانتهى الأمر  
على خير ما تكون النهاية ، وأذ ذاك انقلب بلدوين - أخو الدوق -  
راجعا الى الرها ، وعاد الجيش الى أنطاكية •

- ٥ -

لما كان الوباء لا يزال منتشرًا في أنطاكية ، والموت متفشيا بين  
سكانها ، وتزداد حدته يوما بعد يوم ، فقد قرر الدوق أن يستجيب  
لدعوة أخيه له ليزور بلده الرها ، وكان بلدوين يلح على «جودفروى»  
- أثناء اشتراكهما في الحملة الأخيرة - أن يتقبل رجاءه ويتجنب  
قيظ أغسطس ، ويفر من عدوى الوباء المنتشر في الجو ، ومن ثم  
اصطحب الدوق معه في سفرته هذه بطائفة الخاصة وطائفة كثيفة  
من فقراء الناس الذين كان يرى لزما عليه اعالتهم ، ونزل بهم أرض  
أخيه ، واستقر وإياهم في ناحية تل باشر<sup>(٥)</sup> وحطب وراوندال حيث  
يغدو ويروح كيفما شاء ، وينعم بين آن وآخر بصحبة أخيه •

وكثيرا ماحدث أثناء مقامه هنا أن قدم عليه أهل تلك النواحي  
من المتدينين لاسيما الزهاد المقيمون بالأديرة الكثيرة المنتشرة بها ،  
مستصرخين به من أخوين أرمنيين هما « بكراد » Pahard

---

(٥) في الأصل Hatab ولم استطع الاستدلال على مرادفها في  
العربية الا ان تكون « الحثا » التى أشار اليها ياقوت ومراسد الاطلاع ،  
انظر في ذلك Le Strange : Palestine Under Moslems P. 450.  
أو لعلاها « عيتاب » القرية من تل باشر •

و « كوراسيلويوس »<sup>(٦)</sup> Corasilins (أو كوخ فاسيل ) ، وكانا من ذوى المكانة الرفيعة فى قومهما ولكنهما كانا غاية فى الدهاء والمكر ، وكان بأيديهما قلاع حصينة قوية من قلاع هذا الاقليم يعتمدان عليها كل الاعتماد ، فكلقا السكان من أمرهم شططا - لاسيما أهل الأديرة - بابتزازهما الأموال الطائلة منهم بغير حق ، وبلغ عسف هذين الكبيرين غايته حين راحا يقطعان الطريق على سالكيه ويسلبانهم ما يحملون ، وكان ممن تعرضا لهم رجال بعثهم كونت الرها بالهدايا الى أخيه الذى كان لايزال انذاك مشددا الحصار على انطاكية ، وعمدا الى هذه الهدايا التى كانت مخصصة للدوق « جودفروى » ، فارسلاها الى لورد بوهيموند كسبا لتأييده لهما ضد بلدوين كونت الرها ، فلما سمع الدوق الشكرى غلا مرجل غضبه عليهما ، وبعث على الفور ضدهما رهطا من خمسين من خاصة فرسانه ، مع طائفة من أهل تلك الناحية ، فاقترحوا كلهم قلاعها بقوة السلاح وسووها بالأرض ، لتخضيد شوكة هذين الكبيرين - ولو الى حدما - وحملهما على الكف عن سفههما الذى لم يعد محتملا .

وقد يفتد على للدوق أثناء مقامه فى هذا البلد رهط كبير من أبرز رجال جيشنا ، كما تزاومت على يابه أعداد ضخمة من العامة راحوا يتدافعون طمعا فى نواله وفيض يديه ، وليدرا عنهم الفقر المدقع الذى ناء عليهم بكلكلة ، وأرهقهم أمدا طويلا ، وكان ذلك منهم على وجه الخصوص بعد أن صارت قلعة عزاز تحت حمايتنا ، وهى القلعة الواقعة فى منتصف الطريق المؤدى الى الرها ، فرحب الكونت بهؤلاء القوم أجمل ترحيب ، ثم ردهم بعد أن أغدق عليهم هداياه الجمّة ، مما أثار دهشة الجميع ومن جاءوا الى هنا يلتمسون فضل عطائه .

---

(٦) ذكرت الترجمة الانجليزية ، ج ١ ص ٣٠٤ حاشية رقم ٩ ، أنه ينعت « يكوخ » أى اللص ، ثم عادت وأشارت الى أن هناك من يتكر هذا النعت .

## - ٦ -

أخذت زرافات الصليبيين تتوالى فى القدوم الى الرها أرتالا بعضها نى اثر البعض ، حتى تبليت خواطر الأهالى جزعا من جموع اللاتين هذه ، وعلى الرغم مما لقيه هؤلاء الضيوف من كرم مضيفيهم الكبير الا أنهم سرعان ما أصبحوا مصدر ازعاج بسبب سلوكهم الذى كان ملؤه التصدى • كما راح بلدوين - من ناحية أخرى - يقلل من اعتماده على مشورة النبلاء المحليين الذين كان لهم الفضل فى استحوازه على تلك المدينة العظيمة ، مما أثار حنقا بالغاً ضده ، وضد بنى جنسه ، وندمت رعيته أشد الندم على أن جعلوا له الحكم فيهم ، يوم وضعوا زمام الأمور فى يديه ، وساورهم الخوف ، فلما رأوا الا نهاية لمطامعه وتطلعاته خافوا ان ينتهى الأمر به أخيراً الى تجريدهم من كل شىء يملكونه ، ومن ثم راحوا يحكيون ضده مؤامرة مع بعض ولاة الناحية الأتراك ، ويرسمون خطة تؤدى الى اغتياله دون توقع منه حتى يبدو الأمر وكأنه جرى بمحض الصدفة ، فان لم تسعفهم المؤامرة بقتله فلا أقل من أن تنتهى بطرده من المدينة واخراجه منها ، وحملتهم هذه المحاولة على أن يودعوا كل ثرواتهم وجميع ما يملكون عند أصدقائهم من أصحاب القلاع والمدن المجاورة ، وبينما كانوا منهمكين انهمسا كدقيقا نى تنفيذ مخططاتهم هذه اذا بكلمة عن هذه المؤامرة تصل الى سمع بلدوين نقلها اليه أحد أصدقائه الأوفياء ، فلما تقصى الكونت الخبر وتجمعت بين يديه البراهين التى لا تجحد عن صدق هذا المشروع بعث قوة كبيرة من خاصة رجاله للقبض على المتآمرين وتقييدهم واعتبارهم قتلة ، وأدت اعترافاتهم الى كشف كل جوانب القضية ، واذاً ذاك أمر يسمل عيون زعماء المؤامرة ، وحكم على من سونهم جرماً بالانفى من المدينة ومصادرة أملاكهم ، ، أما غير هؤلاء وهؤلاء فقد تفضل بالاذن لهم بالمقام فى الرها مع الزامهم

بدفع غرامة مالية ضخمة صادر بها كل ما ملكته أيديهم وجعله ملكا خالصا له لا يشاركه فيه مشارك ، واستطاع الكونت بهذه الرسيطة أن يحصل على قدر من الذهب بلغ عشرين ألف قطعة ، سخر بها كلها على ضيوفه (اللاتين) الذين أدت مساعدتهم اياه الى سيطرته على البلاد والقلاع المجاورة حتى أصبح ذكر اسمه مبعث فزع للمدن وسكان تلك الناحية ، مما حمل الكثيرين منهم على العمل جديا لتدبير ما فيه هلاكه ، حتى لقد فر حموه خلسة الى الجبال معتصما فيما له بها من المعقل ، وذلك خوفا من أن يلح في مطالبته بما تبقى له عنده من مهر ابنته الذي كان قد تعهد له بدفعه ، ولكن لم يف له بعهدته حتى الآن .

## - ٧ -

كان هناك شريف تركى الجنس اسمه « بالاس » يعيش فى تلك الناحية من البلاد ، ولى ذات مرة حكم مدينة « سروج » ، وقد ارتبط مع الكونت بحلف صارت الصداقة بمقتضاه بين الاثنين على أتم ما تكون الصداقة بين خدنين ، وذلك قبل وصول اللاتين فى هذه الأعداد الضخمة ، ثم لاحظ هذا الرجل تضاؤل ود بلدوين نحوه ، فذهب الى الكونت لأمر فى نفسه ، مدعيا أنه يرجوه أن يتفضل مشكورا بالحضور اليه ليتسلم بنفسه القلعة الوحيدة التى لازالت باقية فى حوزته ، وربما كان مدفوعا للقيام بهذا العمل باحساسه بالضيق ، أو ربما كان ذلك نزولا على التماس الأهلئ ، وصرح لبلدوين أنه قانع بعطفه عليه ، وأنه يعتبر ذلك جميلا يسديه اليه ويقدره هو كل التقدير له ، وأنه غاية ما يتمناه ، وأعلن اليه أنه معترم احضار زوجته وأطفاله وكل ما تملك يمينه الى الرها ، وتظاهر بأنه فى خوف مقيم من أهل بلده لما بينه وبين الصليبيين من روابط

اللود الأخوى ، وراح يلاحق الكونت لتحقيق اربته ، راجيا أن يضرب له بلدوين يوما يزور فيه ذلك المكان ، فلما جاء اليوم المحدد خرج الكونت على رأس مائتى فارس من فرسانه وسار الى القلعة وقد سبقه اليها « بالاس » الذى عمد سرا الى تقوية وسائل الدفاع عن القلعة ، فرتب بداخلها مائة فارس معلمين ، وزودهم بأقوى سلاح ، وأخفاهم داخل ذلك المكان بصورة لم يظهر معها أى واحد منهم .

فلما أصبح بلدوين أمام القلعة التمس منه « بالاس » أن لا يدخلها الا فى رهط قليل جدا من رجاله ، مبررا هذا بخوفه من الخطر على موجوده ان دخل الفرسان كلهم معه ، ونجحت توصلاته فى حمل الكونت على الرضوخ لكل ما طلبه منه « بالاس » ، غير أن حسن حظ بلدوين أبى الا أن بعضا ممن معه – من أهل الحجا والعقل – توجسوا خيفة وخشوا أن يكون الغدر وراء ذلك الالاح ، فحاولوا بالقوة بين الكونت – رغم احتجاجه – وبين السماح له بدخول الحصن ، وكانوا على حق فى شكهم فى نوايا هذا الرجل الخسيس ، وراوا السلامة تقتضى تقديم نفر سواء أولا ليعرف ماذا يكون مصيرهم ، فاستجاب الكونت لهذه المشورة الحكيمة ، وأمر أن يدخل المكان اثنا عشر رجلا من أشجع رجاله وعليهم من السلاح أحسنه ، على أن يقف هو مع بقية رجاله ساكنين فى الخارج على مقربة من المكان يرقبون ماذا تكون خاتمة التجربة ، فما جاوز هؤلاء الفرسان الأشاوس عتبة المكان حتى وقعوا ضحية الخيانة الدنيئة التى دبرها بالاس الخبيث ، ان طلع عليهم الأتراك المائة الذين أشرنا اليهم من قبل من مخابئهم وهم فى كامل سلاحهم ، وأمسكوا بالفرسان الذين جازت عليهم الحيلة غدا ، ولم تفلح مقاومتهم فوقعوا فى أسرهم فقيدهم بالسلاسل ، فكان حزن الكونت شديدا ، وأفزعه مآل رجاله الأوفياء اذ فقدهم بهذه المكيدة القذرة ، فراح

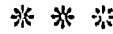
يدنو من الحصن حتى صار اقرب ما يكون اليه ومضى يهتف ببالاس ، مذكرا اياه بيمين الولاء الذى قطعه له على نفسه ، وحاثا اياه على اعادة الاسرى الذين اخذهم غدرا ، ووعده بقدر كبير من المال فدية لهم ، فأبى بالاس كل الابداء الا اذا رد الكونت عليه « سروج » فلما أيقن بلدوين عجزه عن عمل أى شيء أكثر من هذا لوقوع القلعة على أرض شديدة الانحدار واستحالة اقتحامها بسبب شدة حصانتها واحكام بنائها استبد به الغضب أن يأخذ بالاس رجاله أسرى ، وانقلب راجعا الى الرها يفكر مليا فى الخديعة التى جازت عليه .

فى ذلك الوقت كانت مدينة سروج المذكورة حالا فى حراسة « فولبيرت دى شارترز » صاحب الخبرة الكبيرة فى فن القتال ، وكان معه حامية مؤلفة من مائة فارس فى كامل عدتهم الحربية ، مجهزين تمام التجهيز للعمل ، فلما سمع بالحيلة التى جازت على موله تفتقر قلبه رحمة به ، وشرع يخطط جدياً كيف يرد هذه الاهانة، فنصب - ذات يوم لهذا الغرض - أمام قلعة بالاس كمينا تخبر له بقعة ملائمة كل الملاءمة لمشروعه ، ثم تعمد أن يخرج فى شرنمة قليلين من الحرس اقترب بهم من الحصن بصورة يخيل لرائيها كما لو كان يحاول نهب قطاعان من الغنم . أما غرضه الحقيقى فهو أن يغرى العدو بمطاردته ، فلما رأت الحامية التى بالداخل أنه يحاول سرقة القطاعان من سرحها هبت الى سلاحها ومضت تطارده ، فتظاهر « فولبيرت » بالفرار فألح العدو فى تقصيه حتى جاء عند الكمين الذى كان رجاله مختفين به فبرزوا من مخبئهم ، فاشتد عزم فولبيرت بهم وكر راجعا على مطارديه وهاجمهم ، فقتل بعضهم ، ونجا غيرهم بشق النفس ، ففروا الى الحصن معتمدين به ، ولكنه أسر منهم ستة نفر .

وتم بعد وقت قصير تبادل الأسرى بين الجانبين ، واسترد

« فولبيرت » ستة من الصليبيين مقابل من أسرههم ، كما نجح أربعة من نفس الاثنى عشر فى التخلص من حراسهم واسترداد حريتهم ، أما الاثنان الباقيان فقد قطعت رقابهما بأمر من ذلك الرجل الخبيث الفاسق .

ولقد أخذ بلدوين منذ ذلك اليوم يرفض عقد أى حلف صداقة مع الترك ولم يعد يثق بأيمانهم ، وقدم الدليل الواضح على ذلك بعد قليل .



كان فى نفس الناحية أمير تركى آخر اسمه « بالدوك » هداه تفكيره أن يبيع للكونت ( بلدوين ) مدينة سيمسماط القديمة المنيعة الحصين ، وكان « بالدوك » التزم حسب نص الاتفاق المبرم بينه وبين الكونت على أن يحضر زوجته وأولاده وكل أهل بيته الى الرها . غير أنه كان يقدم من الأعذار المقبولة كل مرة ما أرجأ معه الوفاء بعهوده هذه ، كل ذلك ارتقابا منه لفرصة تسعفه بانزال الضرر ببلدوين ، وحدث فى أحد الأيام أن جاء الرجل الى الكونت ليقدم كعادته عذرا تافها يبرر به تأخره فى الوفاء بما وعد ، فما كان من بلدوين الا أن أمر باطاحة رأسه ، واستطاع بهذا العمل الوجيز أن يمنع امكانية حدوث خيانة أخرى فى المستقبل .



بينما كان جودفروى لا يزال مقيما فى ناحية تل باشر ، وبينما كانت الأحداث التى سجلناها حالا تجرى فيما حول الرها ، اذا بكونت تولوز ينهض من انطاكية وفى صحبته أتباعه وطلائفة كبيرة من فقراء الناس بها ، واذا كان حريصا على ألا يبقى ساكنا

خلال فترة سيره هذه ، فانه قام بحصار « البارة » وهى من المدن القوية التحصين فى ولاية « أفامية » التى تبعد عن أنطاكية مسيرة يومين تقريبا ، فلما تم لريموند غزو جميع الاقليم المجاور له وسقوط « البارة » فى يده ، نصب فيها أسقفا هو بطرس النبرنى أحد خاصته ، وكان رجلا ورعاً طاهر السيرة ، كريم الخلق ، فوهب ( ريموند ) للأسقف الجديد فى لحظته هذه نصف المدينة ونصف ضاحيتها شكراً لله على ما أثابه من أن أصبح للشرق أسقف لاتينى .

واستجاب بطرس لتوجيهات الكونت فشخص الى أنطاكية لتتم فيها مقاليد الترسيم ، وهناك تقلد جميع الصلاحيات الكنسية ، وحدث فيما بعد - حين أخذ برنارد فى تنظيم الكنيسة بأنطاكية - أن نقل بطرس - وهو أول بطرك لاتينى للمدينة - تبعية مطرانيته الى تلك الكنيسة ، وأصبح هو ذاته كبير أساقفتها ، كما تسلم شارة الترسيم من يد برنارد .

كان فى رفقة كونت تولوز حينذاك شريف اسمه « وليم » شاء حسن طالعه أن يأسر - لحظة الاستيلاء على مدينة أنطاكية - زوجة واليها ياغى سيان وطفلين صغيرين لابنها شمس الدولة ، فبقى ثلاثهم فى رعاية « وليم » الذى بسط عليهم ظل رعايته ، فاقتداهم شمس الدولة منه بقدر كبير من المال ، فلما تسلم وليم الفدية أطلق سراح السيدة والطفلين وردوا الى حريتهم السابقة .



كذلك حدث قرب هذا الوقت أيضا أن أرست بميناء السويدية طائفة كبيرة من الناس تقدر بألف وخمسمائة شخص ، وكان رسوهم فى أعقاب رحلة حالفهم فيها التوفيق ، وأصلهم من اقليم « راتسبون »

من بلاد التيتوتون<sup>(٧)</sup> ، لكن مالبت هؤلاء القوم جميعا ان ضربهم الطاعون الذى كان منتشر اذ ذاك ، فماتوا فى فترة وجيزة ، وقد ظل هذا المرض الخبيث يفتك بالناس طوال ثلاثة أشهر متتالية حتى مستهل ديسمبر ، وفنى بسببه أكثر من خمسمائة رجل من طبقة الفرسان وحدهم ، أما ضحاياه من العامة فكانوا فوق الحصر .

- ٤ -

عاد الى المدينة يوم أول نوفمبر جميع القادة الذين كانوا قد غادروها فرارا من الطاعون حسب اتفاقهم على ذلك ، وكانت مدينة البارة قد سقطت فى أيديهم كما ذكرنا من قبل ، ثم جاء اجماعهم الآن على قبول الاقتراح القاضى بمهاجمة « المعرة » ، وهى مدينة شديدة المناعة بفضل تحصيناتها القوية ، وتبعد عن « البارة » ثمانية أميال ، وكان من الضرورى خلال هذه الفترة القيام بشيء من التحرك نظرا لالحاح الناس الدائم على قادتهم بوجوب متابعة الزحف الى بيت المقدس ، وهو الحاح لم يكن فى الاستطاعة التهرب منه ، ومن ثم اتخذت الاستعدادات اللازمة ، حتى اذا وافى اليوم المقسوم خرج كونت تولوز وكونت فلاندرز وكونت ترماندى ، كما نهض الدوق ( جودفروى ) ومعه اخوه استاس وتانكريد ، وزحفوا جميعين العزم على حصار مدينة المعرة التى كان أهلها شديدى الدل والتفاخر بثرائهم الفاحش ، وزاد من تيههم تباهيهم بأنهم فتكوا ذات مرة من قبل بعدد كبير من رجالنا ، وهو فتك عدوه نصرا باهرا لآلوا يعتقدون به اعتدادا حملهم على الاستهانة بالجيش الصليبي وتجريحهم قواده بالاهانات المؤلمة يصبونها عليهم صبا ، حتى انهم

---

(٧) تشير الترجمة الانجليزية ( ج ١ ص ٣١٠ ، حاشية رقم ١٢ ) الى أن العهدة على « البرت ديه » فى هذا الخبر .

رفعوا الصليبان على حصونهم وإبراجهم أزدراء منهم بشعبينا ،  
وتمادوا فى غيهم فأخذوا يبصقون على الآثار المقدسة •

وإذ بلغت هذه الفعال منهم حد انتهاك حرمة الأحرام الطاهرة  
فقد فاضت نفوس الصليبيين غيظا ، وتسعرت حنقا فلم يملكوا منع  
أنفسهم من القيام بشن سلسلة من الهجمات العنيفة على المدينة التى  
كان من الممكن سقوطها فى أيديهم غداة وصولهم لو كان قد توفر  
عندهم الكافى من السلاح •



ولما كان اليوم الثالث انضم اليهم بوهيموند بامدادات كبيرة ،  
واستمر فى محاصرة المدينة فأحرق بالجانب الذى ظل مفتوحا منها  
حتى هذه اللحظة ، وبعد بضعة أيام من وصوله تأفف الحجاج لطول  
توقفهم عند المعرة من غير طائل ، فصنعوا أبراجا خشبية ،  
وارادوا حمايتها فنسجوا لها عصائب من الليف جعلوها جدائل  
كسوها بها ، ثم نصبوا آلات الرمي •

غير أن صبرهم ارفض لطول تأخرهم وضاقوا به ذرعا ،  
وانطلقوا يقصفون المدينة هذه المرة قصفا فاق كل قصف سبقه ،  
فقاومهم المدافعون الواقفون خلف الأسوار مقاومة عنيفة ، ببائلين فى  
ذلك غاية جهدهم ، وراحوا يرمون أعداءهم بشتى صنوف القذائف ،  
حتى اذا يسوا من طرد العدو من تحصيناته راحوا يقذفونه بالنجارة  
وخلايا النحل وهى تشغى به ويرمونهم بالنيران والكلس ، ولكن  
الرحمة الالهية الواسعة لم تمكنهم من أن يوقعوا الضرر - إذ  
وقع - الا برهط قليل من رجالنا •

تبين الآن بوضوح تام أن جميع جهود المدافعين راحت هباء ،  
وأن قوتهم أخذت تتضعض مما شجع الصليبيين على أن يشددوا  
الحصار عن ذى قبل ، وراحوا يقذفون المدينة من كل ناحية ، واستمر  
الهجوم بلا انقطاع من مطلع النهار الى غروب الشمس ، فشب  
الارهاق فى أبدان المدافعين وأضناهم ما صرفوه من جهد عنيف ،  
فتراخى بأس مقاومتهم ، وقل عزمهم ، وحينذاك نصب الصليبيون  
السلام على الأسوار فنجحوا فى عبور الخنادق بالقوة . وكان أول  
المتسلقين « جلفيروس » المعروف « بجوفيه » « البرجى » وهو من  
أشراف أبراشية « ليموجس » وتبعه كثيرون غيره ، فسقطت فى  
أيديهم بعض الأبراج ، ولكن حال دخول الليل دون متابعتهم عملهم  
والاستحواذ على المدينة بأكملها ، ولذلك أجلوا هذا الأمر الى الغد ،  
واستعدوا لمعاودة الهجوم مع مطلع الفجر – واستمر الفرسان –  
ومعهم عدة طوائف من الرجال البارزين – يقومون بمراقبة ما حول  
المدينة طول الليل منعا للعدو من مغادرتها .



على أنه حدث فى هذه الأثناء أن ضاقت العامة ذرعا بالجهد  
الطويل الذى بذلوه ، واضنتهم قسوة المجاعة التى طال أمدها ،  
فاقتحموا البلد دون علم من كبارهم ، مغتتمين فرصة عدم ظهور  
أحد من الأعداء على أسوار المدينة التى بدت لهم وقد لفها الصمت  
المطبق ، فدخلوها ، فإذا هى بلا مدافع عنها ، فامتدت أيديهم الى  
الغنائم تنهبها ، وانصرفوا خلسة يحملونها معهم ، وكان الأهالى  
اذ ذاك قد قروا الى الخنادق التى تحت الأرض لضمان سلامتهم  
وحفاظا على أرواحهم ولو الى حين .

ولما طلع الصباح هب القادة واستولوا على المدينة من غير  
كيد ، ولكنهم لم يجلبوا أسلأيا كبيرة يأخذونها معهم ، وتبين لهم

أن الأهالي قد اختفوا في السرايب فأضرموا حولها نيرانا تعالت  
فعمدت سحبا كثيفة من الدخان حملت الهاربين على الاستسلام ،  
وبقى القتل بعض من اضطروا لمغادرة المخايء ، وأسر سواهم •

ومات في هذا الحصار وليم أسقف أورنج الطيب الذكر  
المخلص للرب ، الخائف منه •

وبقى الدوق ومن معه في المعرة خمسة عشر يوما ، ثم عاد  
الى أنطاكية حيث تطلبت شئونه الخاصة عودته هذه ، وكان في  
معيته في الرجوع كونت فلاندرز •

- ١٠ -

رأى جودفروي دوق اللورين في هذه الأثناء أن الناس يعدون  
العدة للخروج ، وأنهم دائبو الإلاحاح على القادة لمواصلة زحفهم  
شطر بيت المقدس ، غير أنه عزم قبل مغادرته تلك الناحية على زيارة  
أخيه ليسعد بالحديث معه ، ومن ثم خرج مع حرسه الخاص الى  
مملكة بلدوين ، وبعد أن انتشيت نفسه ببقائه أياه ، وفرغ من الأمر  
الذي جاء من أجله ، استأذنه في الرحيل وانقلب راجعا الى أنطاكية  
حيث كان القادة الآخرون في انتظاره ، فلما كان على بعد خمسة  
أميال أو ستة من المدينة استلقت نظره بقعة مخضرة لطيفة يجرى  
بجوارها نبع يتدفق منه الماء عذبا فزاتا ، فترجل عندها عن جواده  
ليتناول طعامه ، وبينما كان رفاقه مشغولين بعمل مثل هذه الترتيبات  
بقدر ما يسمح الزمان والمكان اذا بكوكبة من فرسان العدر تبرز لهم  
فجأة من بين عيدان القصب المتشابكة ، وكانت مدججة بالسلاح من  
رأسها الى أخمص قدميها ، فاندفعت نحو الدوق ورفاقه وهم متحلقون  
حول طعامهم ، فهب الدوق ورفاقه الى سلاحهم قبل أن يصل الترك

اليهم ، ووثبوا على صهوات جيادهم ، ونشب في أعقاب ذلك قتال خرج منه الدوق بفضل الرب منصورا ، اذ تمكن من قتل الكثيرين منهم ، وأرغم بقيتهم على الفرار ، ثم تابع سيره الى المدينة مظفرا منصورا .

## - ١١ -

حدث بعد الاستيلاء على المعرة أن شب خلاف عنيف بين بوهيموند وكونت تولوز الذي اقترح تسليم المدينة المفتوحة الى أسقف البارة ، فأبى بوهيموند أن يستجيب لاقتراح ريموند بالتنازل للأسقف عن ذلك الجزء من المدينة التي استولى هو بنفسه عليها الا اذا وافق الكونت أولا على أن يسلمه الأبراج التي لازالت في قبضته بأنطاكية ، وانتهى الأمر أخيرا الى انصراف بوهيموند عن القتال في المعرة ، وعاد غضبان حنقا الى أنطاكية حيث استولى عنوة على الأبراج التي كان اتباع الكونت ريموند قد حصنوها ، وكانت لم تزل في يدهم بعد ان أخرجوا قسرا منها المدافعين عنها ، واستطاع ( بوهيموند ) بهذه الحركة السريعة أن يستولى على المدينة كلها وجعل من نفسه سيدها ولا سيد لها سواه .

ولما رأى الكونت أن خصمه قد انسحب مما ترتب عليه أن أصبح في قدرته هو وحده أن يقضى في المدينة المفتوحة بما شاء فقد أقطعها لأسقف البارة حسب عزمه في الأصل ، ثم شرع في مفاوضة الأسقف بشأن حماية المكان من العدو ، وأقام حراسا من الفرسان والمشاة قبل أن يكشف الناس(\*) خطته ، فلما كشفوها سخطوا عليه

---

(\*) يقصد الصليبيين .

أشد السخط ، وعمت شكايه بعضهم لبعض من أن القادة يحاولون على الدوام اختلاق معاذير يبررون بها تراخيهم ، وقالوا أنه يبدو أنهم نسوا تمام النسيان هدفهم الأصلي من أمر حجبهم ، وذلك لأنه مامن مدينة كانت تقع في أيدي الزعماء حتى كانوا يتشاحنون فيما بينهم حولها ويختلفون عمن يملكها منهم ، لذلك قام العامة من تلقاء أنفسهم بعقد اجتماع من بينهم أسفر عن قيامهم بتخريب مدينة المعرة حالما يبعد الكونت عنها لأي سبب من الأسباب ، وكان هدفهم من هذا التدمير أن يزيلوا أي عائق يعوق المشروع الذي أقسموا الأيمان على انجازه .

وحدث في هذا الوقت (٨) بالذات أن اجتمع القادة في مدينة الروج الواقعة في منتصف الطريق بين أنطاكية والمعره ، وكان الغرض من اجتماعهم هذا هو النظر في طلبات العسكر الملحة بوجوب متابعة الحج ، وحدث أن تلقى الكونت ( ريموند الصنجيلى ) دعوة لحضور هذا الاجتماع فحضره ، واختلفت آراء القادة كلهم ، وتباينت حول هذا الموضوع تباينا أدى الى عدم وصولهم الى اتفاق مثمر أو قرار مفيد بشأنه .

لكن بينما كان الكونت في « الروج » اذا بالناس الذين تركهم في المعرة يفتنمون فرصة غيبابه لتنفيذ عزمهم ، فقاموا بهدم الأسوار والأبراج من أساسها رغم معارضة الأسقف وذهبه أياهم نهيا باتا عن ذلك العمل ، لكنهم لم ينتهوا ، فقد حطموا أسوارها وأبراجها وسوها بالأرض حتى لا يجد الكونت ( ريموند ) عند عودته أى مبرر لتأخير السير مرة أخرى .

---

(٨) كان ذلك في الأسبوع الأول من يناير ١٠٩٩ وتحددتها الترجمة الانجليزية بالربع منه .

ولما عاد ريموند شجته هذه الكارثة وغمته ، ولكنه ان كان يدرك رغبات الناس فقد رضى للعقل والحكمة فكتب مشاعره ، على حين ظل القوم متمسكين بمطالبهم لا يتزحزون عنها قيد أنملة ، وتضرعوا اليه أن يقوم بما يفرضه عليه واجبه كقائد لعيال الرب فى اتمام الحج الذى كانوا قد بدءوا رحلته ، ثم راحوا يهددونه – ان أبى عليهم ذلك – أنهم عامدون الى واحد من الجند وجاعلوه قائداً عليهم ليسير بهم فى طريق السيد .

ومما زاد فى بلاويهم تقضى المجاعة فى صفوف الجيش ان ذلك ، ونقص ما عندهم من الطعام نقصاً بينا حمل الكثيرين منهم على الخروج على العرف ، فنهجوا نهج الوحوش الكاسرة ان لم يعفوا عن اكل لحوم الحيوانات القذرة ، ويؤكد البعض – وان كان ذلك أمراً يكاد العقل لا يصدق – ان حاجتهم الى الطعام النظيف حملت الكثيرين منهم على التردى فى هوة سحيقة أكلوا معها لحوم البشر .

وتقضى الطاعون بين الحجاج أيضاً وهو امر لم يكن ثم مفر منه لاضطرار الناس التعساء الى العيش على الأطعمة الفاسدة القذرة (ان جازت تسمية هذه المأكولات المخالفة للطبيعة بالطعام ) ولم تكن هذه المجاعة القظيعة التى اجتاحت الناس حدثاً عابراً لا يلبث أن يزول بعد قليل ، بل ظل القوم عرضة لهذا الوباء لمدة طالت حتى بلغت خمسة أسابيع أو جاوزتها ، كل ذلك وهم مرابطون أمام المعرة يحاولون الاستيلاء عليها .

ولقد هلك أمام هذا البلد طائفة من السراة اصحاب الجاه العريض والرتب السامية ، ولم يكن هلاكهم بسبب أحداث القتال وحده ، بل وأيضاً نتيجة لشتى الأمراض ، وكان من بينهم واحد فى شرح الشباب يبشر طالعه بمستقبل زاه ، ذلك هو « انجراند بن هيج » كونت سنت بول ان ألم به مرض خطير أودى بحياته .

## - ١٢ -

اضطرب خاطر كونت تولوز - ذلك الرجل البارز العلم - وتبلبل فكره ، وتحير لا يدرى أى طريق يتحتم عليه سلوكه ، فكم كان ثقيلا على نفسه اليأس الذى ران على أتباعه المعرضين للخطر ، وأحزنه موقفهم العصيب ، فقد كانت قلوب القوم - صغيرهم وكبيرهم - وهم المعرضون للخطر تصطرم برغبة جامحة لتابعة الحج ، كما أن مطالبهم الدائمة وبكاءهم المستمر وتوسلاتهم الحارة حرمت الكونت من أن يذوق الراحة طعما ، ومن ثم فإن أمه فى ايجاد علاج ناجح لكل هذه المتاعب حمله على تحديد الخامس عشر من الشهر<sup>(٩)</sup> موعدا لبدء زحفهم الى بيت المقدس ، وقد فعل ذلك ارضاء لمطالب الناس وبدافع من ضميره رغم يقينه الجازم بعدم رضاء الزعماء الآخرين أن يتابعوه فى هذا المسلك •

ودفعت ريموند رغبته فى انقاذ القوم من خطر المجاعة الجائحة المتزايدة لأن يستعرض أشد رجاله بأسا ، وانتقى منهم طائفة من الفرسان وأخرى من المشاة ، واقتحم بهم أرض العدو • أما من سواهم فقد تركهم فى المدينة راحيا من وراء ذلك أن يحصل بأى ثمن على كل ما هو لازم لتوفير العيش للناس ، ودخل بهؤلاء الرجال الأقوياء أرضا للعدو كانت شديدة الخصب ، وأغار على كثير من بلدانها الحصينة ، وأحرق بعض أرباضها ، وعاد من هذه الغزاة بقطعان كثيرة من الماشية والدواب ، والعديد من العبيد والجوارى ، وكميات ضخمة من المأكلا اكتظت بها بطون الجوعى الخصاص فأكلوا حتى أصابتهم كظة ، كما أصبح فى مقدور ( ريموند دى

---

(٩) القسود يناير ١٠٩٩ م •

تولوز ) أيضا أن يبحث بجزء وفير من المئونة لمن ظلوا باقين فى مدينة المعرة لحراسستها •

\*\*\*

تردد الكونت ( ريموند دى تولوز ) بعد عودته من هذه الغزاة حول الطريق الذى يسلكه ، ذلك لأن الناس عادوا يصيحوون من جديد بأن اليوم المحدد للرحيل قد دنا ، ورفضوا أى توان عن الزحف ، ولما كان ريموند موقنا أن القوم فى الواقع على حق فقد شعر أنه لم يعد قادرا على الوقوف فى وجه توسلاتهم ، وأذ ذاك عمد الى اضرام النيران فى المدينة حتى صارت هشيما ، ذلك لأنه أصبح وحده فى جانب الخروج إذ لم يوافقه أحد من الزعماء الآخرين على السير معه ، ومن ثم شرع فى سفره ، لم يصحبه غير أتباعه وحدهم •

ولما لم يكن معه غير عدد ضئيل من الفرسان فقد التمس من أسقف البارة أن يرافقه فى زحفه ، فلم يخبى الأسقف التماسه ولم يرده خائبا فيما طلب ، فعهد بأموره الخاصة الى واحد من كبار النبلاء اسمه « وليم الكومليكو » تاركا معه سبعة من الفرسان وثلاثين من الجند المشاة ، وقد أدى هذا الرجل ما عهد اليه به باخلاص وصدق عظيمين ، حتى لقد زاد عدد فرسانه السبعة قبلوا أربعين ، وبلغ مشاته ثمانين أو أكثر ، بعد أن كانوا ثلاثين فقط ، وترتب على مجهوداته هذه أن اتسعت أملاك مولاه اتساعا كبيرا •

خرج الكونت فى اليوم المحدد للسير لم ينتظر أحدا ، وسار فى صحبته مايقرب من عشرة آلاف رجل ، ليس فيهم من الفرسان أكثر من ثلاثمائة وخمسين فارسا ، كما انضم اليه كونت نرماندى وتانكريد ، ومع كل واحد منهما أربعون فارسا ، ورفقة كثيرون من

العسكر والمشاة ، ولم يفارقاه قط فى سيره ، وصادفوا فى طريقهم بعد خروجهم وفرة كبيرة من كل مايحتاجونه حتى لم يعودوا فى حاجة الى مزيد •

ولما مروا بشيزر وحماة وحمص التى تسمى فى اللغة الدارجة « بكامبلا » أمدهم حكام هذه الأماكن بالحراس ، وجهزوا لهم أسواقا يتم فيها البيع والشراء على أحسن ما يكون البيع والشراء ، هذا بالإضافة الى مبادرة المدن الحصينة والقرى التى مروا بها الى اهدائهم الكثير من الذهب والفضة وتزويدهم بالماشية والأغنام ، كما قدمت اليهم جميع أنواع المثونة منعا لأيديهم من أن تمتد بالسوء الى تلك المناطق ، وأخذت قوة الجيش تزداد يوما بعد يوم ، وتتحسن أموره بسبب توفر كل مايلزم العسكر ، كما تمكنوا شيئا فشيئا من الحصول على أعداد كبيرة من الخيل التى كان نقصها يعود بالضرر العظيم عليهم ، فكان حصولهم عليها بالشراء تارة والهدية تارة أخرى ، أما الآن فقد صار تحت أيديهم - وقبل التقائهم بالزعماء الآخرين - أكثر من ألف جواد صالحة لخدمة الجيش ، لم تكن عندهم من قبل •

وبعد سيرهم بضعة أيام فى الطريق الداخلى اتفقوا جميعا على العودة الى الطريق الساحلى ، لأنه ييسر عليهم التأكد من وضع الزعماء الآخرين الذين كانوا قد خلفوهم وراءهم فى أرض أنطاكية ، كما انه يساعدهم على شراء ما قد يحتاجونه مما تحمله السفن القادمة من أنطاكية واللاذقية •

## - ١٣ -

جرت أمور الصليبيين طوال سفرهم - منذ مغادرتهم المعرة - على أحسن وجه ، ولم يضايقهم سوى أوشاب الناس الذين دأبوا

على الاغارة على مؤخرة الحملة ، وعلى القيام بين آن وآخر بسرقة المرضى والشيوخ الذين لم تسعفهم قوتهم بمجاراة الجيش فى سرعة زحفه ، فهلك بعضهم ، ووقع البعض الآخر منهم فى الأسر ، ولكن رد الكونت على هذه الهجمات كان عنيفا ، اذ أمر الجيش بالزحف بقيادة كل من تانكريد وروبرت دوق نرماندى وأسقف البارة ، أما هو فقد تخلف وراءهم مع رهط من رجاله الشجعان يتربصون للصوم فى كمين نصبه لهم ، وعزم على أن يتحين اللحظة الملائمة ليهاجم هؤلاء الأوغاد الذين كانوا يتعقبون مؤخرة العسكر الزاحف ، ويقطعون الطريق على كل ضال وشريد منه ، لذلك فانه ماكاد هؤلاء الأشرار يهاجمون المؤخرة على مألوف عادتهم حتى برز لهم الكونت فجأة من مخبئه ومن حيث لا يدرؤن ، وهاجمهم مستأصلا شافتهم ، ثم عاد الى جنده فرحا مسرورا ومعه ما استولى عليه من الخيول ، وما اصابه من الغنائم وطائفة من الأسرى استصحبهم معه ، واذ ذاك تابع الصليبيون سيرهم آمنين غير ملاقين نصبا ، بعد أن أصبح فى حوزتهم الكثير من كل احتياجاتهم الضرورية .

ولم توجد مدينة أو بلدة على يمين أو يسار هذا الاقليم الذى سار فيه الصليبيون الا وبعثت بهداياها الى الجيش وقواده مصحوبة بالتمسّساتها فى عقد معاهدات صداقة معه ، ولم يشذ عن هذه كلها سوى مدينة واحدة قد اخذت العزة اهلها بالثقة فى عددهم الكبير وحصانة الدفاع عن بلدهم ، فأنكروا عقد سوق للبيع والشراء ، ولم يسعوا فى عقد اتفاقية ، واستكبروا أن يبعثوا للقواد بالهدايا ، بل ساروا على النقيض من ذلك كله اذ جمعوا كل عسكرهم وحاولوا عرقلة مسير الحملة ، فلما رأى الصليبيون ذلك منهم اشتد سخطهم عليهم ، وكروا عليهم كرة رجل واحد ، وما لبثوا غير قليل حتى فرقوا صفوفهم وأسروا جماعة منهم ، واستولوا على المكان عنوة ،

وساقوا أمامهم ما وجدوه من قطعان الدواب والأغنام والخيول التي كانت في المراعى المجاورة ، وغنموا كل ما للعدو من متاع .

كان مع الجيش فى هذه الأثناء رسل من بعض الحكام المجاورين الذين جاءوا ينشدون السلام فشاهدوا بأنفسهم قوتنا واقدامنا ، فعادوا الى بلادهم وهم يرجون السلامة لمساكنهم الذين أوقدوهم ، وقصوا عليهم ما رأوا من عادات الصليبيين وبسالتهم ، ثم مالبتوا أن رجعوا على جناح السرعة الى الجيش الصليبي محملين بالهدايا من الجياد وشتى أنواع السلع .

وانقضت عدة أيام أمضاها الجيش آمنا فى عبور هذه المنطقة الوسطى ، ثم نزل بعدها سهلا قريبا من البحر ، قد حصنته الطبيعة أحسن تحصين ، وبه مدينة قديمة العهد اسمها « عرقة » ، فضرب الصليبيون معسكرهم قريبا غير بعيدين عن أسوارها .

## ١٤ -

وعرقة هذه هى إحدى مدن ولاية فينيقية ، وتقع على مرتفع شديد المناعة عند سفح جبل لبنان ، وتبعد عن البحر مسافة أربعة أو خمسة أميال ، ويمتاز السهل الفسيح الذى توجد فيه بخصبه وكثرة خيراته ، ومراعيه الفسيحة الرائعة ، كما تكثر به القنوات المائية ، وتقول الروايات القديمة أن اسمها مشتق من اسم مؤسسها « اراديوس » سابع أبناء كنعان ثم تحرف هذا الاسم فى وقت متأخر الى Archis أرخيس .

نصب الصليبيون - كما قلنا معسكرهم أمام هذه المدينة ، ولم يكن ذلك منهم اعتباطا ولكن نزولا على نصيحة تضمنتها الرسائل

التي بلغتهم من بعض قومنا الذين كانوا فى أسر العدو ، فقد كان هناك رهط من الصليبيين عوقوا رغم أنهم فى مدينة طرابلس الساحلية الرائعة التي تبعد مسافة خمسة أو ستة أميال عن عرقة ، ذلك أن قلة الميرة عند الصليبيين منذ بداية حصار مدينة أنطاكية حتى زمن متأخر بعد فتحها فرضت على هذا النفر ( من الصليبيين ) الضرب فى أرباض تلك النواحي التماسا للطعام ، ولما كانوا لا يأخذون حذرهم فى خروجهم فقد كان من الطبيعى أن يكونوا عرضة للوقوع فى يد العدو ، وترتب على ذلك أنه مامن مدينة أو قلعة فى تلك الناحية الا وكان بها من رجالنا نفر من الأسرى الذين كان منهم فى مدينة طرابلس - التي ذكرناها حالا - أكثر من مائتى أسير ، فلما سمعوا أن جيش الصليبيين أخذ فى الاقتراب بعثوا الى القادة يحذرونهم ان تفوتهم عرقة ، بل يتحتم عليهم حصارها بكل السبل ، اذ من اليسير عليهم الاستيلاء عليها فى أيام قلائل ، والا ففى مقدورهم أن يستخلصوا من والى طرابلس مبلغا كبيرا من المال ثمننا لمجاورتهم مدينة عرقة دون اخذهم اياها ، كما أنهم يستطيعون حين وضعهم شروطهم أن يخلصوا من بها من اخوانهم المعتقلين ، ونفذ الصليبيون هذه الوصية فزحفوا فى الحال على مدينة عرقة ، وضربوا مخيماتهم حولها ، وشرعوا فى حصارها ، واضعين نصب أعينهم أمرين : أولهما معرفة مدى صحة الخبر الذى جاءهم ، وثانيهما أن يشغلوا انفسهم بشى ما اثناء انتظارهم بقية الزعماء الذين كان من المتوقع حضورهم سريعا فى أعقابهم .

- ١٥ -

غادر المعسكر مائة فارس وطائفتان من المشاة تقدران بمائتى رجل بقيادة « ريموند بيليه » سعيا وراء حاجات المعيشة الضرورية ويبحثا عن العلف ، فلجوا فى السير وابتعدوا حتى بلغوا

مدينة « أنطرسوس » (١٠) المعروفة عادة باسم طرسوس والتي تبعد عن عرقة مسافة عشرين ميلا .

وتقع « أنطرسوس » أو « Tortosa » « طرسوس » على ساحل البحر ، ويوجد على بعد ميلين تقريبا منها جزيرة صغيرة كانت بها في الأزمنة الموعلة في القدم مدينة « أرواد » (١١) القديمة التي ذاعت شهرتها على مدى عدة عصور ، ويشير حزقيال (١٢) النبي الى هذا المكان حين يكتب الى أمير صور فيقول : أهل صيدون وأرواد كانوا ملاحيك ، ويقول في موضع آخر (١٣) : « بنو أرواد مع جيشك على الأسوار من حولك ، والأبطال كانوا في بروجك » .

وقد استمد المكان الذي هو موضوع كلامنا الآن اسمه من المدينة القديمة التي كانت تدعى « أنترادوس » لأنها كانت واقعة مقابل

---

(١٠) وردت هذه المدينة في الترجمة الانجليزية باسم Antarados ثم وُضع المترجمان مرادفا آخر لها هو Tortosa وبالرجوع الى

فهرست المدن الملحق بكتاب :

Le Strange : Palestine under Moslems, P. 562, Vol. I,  
P. 602, Col. 2.

نجد أنه وردت المرادفات التالية :  
Antaralus, Antradas, Antarsus & Tartus

وقد أشير اليها كلها بكلمتي « أنطرسوس » وأنطراطوس .

(١١) جزيرة « أرواد » - وتعرف أيضا باسم « رواد » - وأراديس Araddius وقد ورد ذكرها في سفر حزقيال كما سيورد وليم حالا وهي واقعة ( كما يقول الادريسي القرن الثاني عشر ) على مقربة من « أنطرسوس » ، انظر Le Strange : Op. Cit., PP. 399 — 400.

(١٢) حزقيال ٢٧ : ٨ .

(١٣) حزقيال ٢٧ ، ١١ .

المدينة الأخرى « أرواد » وكل من المكانين فى ولاية فينيقية ومؤسسهما واحد هو « أراديوس » أصغر أبناء كنعان بن حام بن نوح .



كانت الفصيلة من جيئز الكوذت المشار اليه حالا قد تقدمت الى انطرسوس وهاجمتها أعنف هجوم ، فقاومها المواطنون بروح عالية فلم يسعف هذا الهجوم الصليبيين فى الحصول على كثير مما كانوا يؤملون من ورائه ، ذلك لأنهم رأوا - وقد دخل الليل - أن يرجئوا كل عملياتهم الحربية الى صباح الغد حين ينضم اليهم رفاقهم الذين سوف يأتون فى اثرهم فى اليوم التالى ، مؤملين أن تكون هجمتهم التالية يومذاك أقوى مما عليه هجمتهم فى يومهم هذا ، غير أن الخوف تسرب الى قلوب أهل البلد وخافوا ان وصلت الامدادات الى عدوهم تحت جنح الظلام أن يصبحوا هم عاجزين عن المقاومة ، غير قادرين على الصمود ، ومن ثم تسربلوا بالظلام وحملوا نساءهم وأطفالهم وكل ماملكته ايديهم وفروا الى الجبال يلتمسون فيها الأمان .

ولما بدت طلائع الفجر الوليد حمل الصليبيون سلاحهم ، وهم لا يدرون شيئاً عما جرى من الأحداث تحت جنح الدجى ، وراح كل واحد منهم يصيح بصاحبه منتشياً ، وزحفوا على المدينة لاتمام هجومهم الذى بدأوه بالأمس ، غير أنهم لما قاربوها رأوها خاوية على عروشها قد دخلوها وقد زایلتهم الرهبة ، واقتحموها بقلوب شجاعة لا تحس خوفاً ، وأسعدهم الحظ اذ عثروا على كميات ضخمة من المثونة والغنائم ، وانقلبوا الى خيامهم فرحين بما أصابته ايديهم ، وقصوا على رفاقهم كل ما جرى لهم أثناء غيابهم عنهم ، ولقد اترع نجاح هذه الحملة قلوب الجيش كله بالفرخ الطاغى .

وأهل شهر مارس فاقترب اليوم المقسوم لمتابعة رحلة الحج ،  
وإذ ذلك شـسرع من كان قد تخلف فى أنطاكية من الصليبيين فى  
الضغط الشديد على الزعماء لحملهم على بدء السفر ، وراحوا  
يلحسون على « جودفروى » دوق اللورين وروبرت كونت فلاندرز  
والقائد الآخر<sup>(١٤)</sup> أن يتهيئوا للخروج وقيادة الناس الذين أمضهم  
الشوق للوفاء بأيمانهم التى قطعوها على أنفسهم<sup>(١٥)</sup> ، ولهجت  
ألسنتهم بالثناء على ما عليه كونت تولوز ودوق نرماندى وتانكريد  
من اخلاص راسخ ، وأطنبوا فى مدح ما أيداه هؤلاء القادة من  
العطف على شعب الرب حين قادوه أياما طويلة قيادة صادقة فى  
طريق السيد . وقد أثارت هذه الكلمات وأمثالها خامد همة القادة  
الذين ذكرناهم حالا ، فحسرتهم للعمل ، فأخذوا فى اعداد متاعهم  
وكل ما يحتاجه سفرهم هذا ، واستصحبوا معهم جميع الفرسان  
والجند المشاة ، وقد فاضت نفوس الجميع بالرغبة العارمة فى  
السير فى الطريق المؤدى الى بيت المقدس ، فلمّا كان  
اليوم الأول من مارس ، تجمع فى اللانقية بالشام خمسة وعشرون  
ألف محارب فى أحسن عدتهم الحربية تحت قيادة الزعماء المذكورة  
أسمائهم من قبل ، ورافقهم بوهيموند وجيشه حتى اللانقية ، ولم  
يستطع مزاملتهم الى ما بعدها ، أو اطالة مكثه فى ذلك الموضع حتى  
لا يترك أنطاكية - التى استحوذ عليها منذ قريب - من غير راع  
قوى ، إذ ما كان لها أن تظل ولو لفترة وجيزة بلا حام لها ، يدفع

---

(١٤) المقصود بكلمة « الآخر » هنا الكونت ريموند الصنجيلى ، كما  
سيرد بعد قليل .

(١٥) يقصد بذلك ما كانوا قد تعاهدوا عليه من الخروج والزحف الى  
بيت المقدس والوصول الى كنيسة القيامة .

عنها غائلة الأعداء<sup>(١٦)</sup> المحيطين بها من كل جانب ، لكن تذكره محالفته الزعماء الآخرين وروابط الصداقة التى قامت بينه وبينهم وهم جميعا فى طريق السيد دعاه الى مرافقتهم حتى اللانقية ، مخلصا لهم كل الاخلاص ، ومبديا تجاههم كل ضروب المجاملة والرقعة ، مما عمق ذكراه على الدوام فى نفوسهم حتى بعد افتراقهم بعضهم عن بعض ، فلما بلغوا جميعا اللانقية فارقهم ، وودع الزعماء بكبد تتفطر أسى وعيون دامعة ، ثم استأنزهم فى الرحيل وعاد ليولى المدينة صادق عنايته •



واللانقية من أجمل المدن الساحلية المطلة على البحر ، وهى ذات تاريخ موغل فى القدم ، وسكانها من النصارى ، كما أنها المدينة الوحيدة بالشام الخاضعة لسيادة الامبراطور الاغريقى ، وقد جاءها واحد اسمه « جينمار » من أهل بولونيا ، وكان قد أرسى كما ذكرنا من قبل<sup>(١٧)</sup> بأسطوله فى مدينة طرسوس من أعمال قيليقية وقت أن كان بلدوين - أخو الدوق جودفروى - يحتل هذه المدينة •

وقد فشّل جينمار « فى محاولته الاستيلاء على اللانقية وادخالها فى طاعته لعدم توفر القوات الكافية تحت يده اذ ذاك ، فأمسك به أهل البلد وزجوا به فى الحبس مع جميع من معه تقريبا •

---

(١٦) اذ كانوا يعدون انطاكية هذه اللحظة تابعة لهم ، وكانوا يتوقعون أن يردها الصليبيون اليهم بعد فتحهم اياها تنفيذا للاتفاق البرم بين الطرفين، انظر ترجمتنا لكتاب الكسباد للاميرة « أنا كومنين » ، راجع أيضا Chalandon, Alexius Comnènes I.

(١٧) راجع ص ٢٤٤ من الجزء الاول من ترجمتنا هذه •

فالتمس الدوق جودفروى من الحاكم ووجوه رجاله ان يطلقوا سراح «جينمار»، وكان الدافع له الى ذلك ان جينمار هذا كان قادما (١٨) من أرض جودفروى ، هذا بالإضافة الى ما أداه من خدمة جليلة لأخيه بلدوين فى طرسوس ، فاستجاب أهل اللانقية للدوق اذ كانوا لا يجرون على مخالفة كلمة واحدة مما يقول ، وزادوا فمنا على أسيرهم جينمار بفك سراحه هو وجميع رفاقه ، كما أسلموا الى الدوق الأسطول الذى جاء فيه هؤلاء الناس ، فبادر جودفروى بإعادة جينمار فى لحظته هذه الى قيادة سفينه ، وأشار عليه أن يتابع رحلته بحرا فى خط يوازى تقدمه هو ذاته برا ، فاطاعه جينمار فيما أشار به عليه .

## - ١٧ -

خرج الجيش بعدئذ من لاندقية الشام وقد اشقد بأسه بالمسيحيين من أهل تلك المدينة ، كما جاء غيرهم من أنطاكية وقيليقية ومدن تلك الناحية ممن لم يكونوا قادرين من قبل على المغامرة لأمر كانت تشغلهم ، فانضموا هم أيضا الى الجيش وساروا برا مصاقبين للساحل حتى بلغوا مدينة « جبلة » المعروفة أيضا باسم « جبلين » والواقعة على بعد اثنى عشر ميلا من اللاندقية ، فعسكروا متحلقين حول المدينة وشرعوا فى عمليات الحصار فترة من الوقت .

واذ كانت هذه هى أولى المدن الساحلية الخاضعة لنفوذ خليفة مصر ، فقد جاء واليها بصحبة نائبه الى الدوق يعرض عليه ستة آلاف قطعة من الذهب ، الى جانب العديد من الهدايا ان رفع الحصار عن المدينة ، لكنه لما رأى ازدياء جودفروى لعرضه الخسيس

---

(١٨) انظر الحاشية السابقة ، ص ٢٤٤ ، س ٤ من الجزء الاول .

وأنه ليس بالرجل الذى يقبل الرشوة فقد سلك طريقا آخر ، اذ ارسل مبعوثين من قبله الى كونت تولوز لما يعرفه فيه من الطمع ، وعرض عليه نفس القدر من المال ان هو انتزع المدينة من يد الدوق ، ويقال ان الكونت قبل هذه الرشوة سرا ، لكنه ادعى أن جيشا كثيفا من عسكر العدو بقيادة كربوغا موشك على المجيء من أرض فارس ، انتقاما للآهوال التى حافت ببنى جلدتهم الموجودين فى أنطاكية ، كما ادعى أنهم يتأهبون لمعاودة قتال قواتنا من جديد ، وعلى مجال أكبر من حربهم السابقة ، وزعم ( ريموند كونت تولوز ) انه تلقى هذه المعلومات المفصلة والموثوق بها من رسل لايمكن الشك فى صدق ما يقولون .

ثم بعث بأسقف « البارة » الموقر على رأس سفارة الى الدوق والى كونت فلاندرز ، وأرسل معه كتبا تلح عليهما الحاحا قويا برفع الحصار عن « جبلة » والاسراع لدرء الخطر المشترك بدافع ماينهم من الحب الأخوى ، فما كاد القادة يعلمون من ظاهر الأمر أن اخوانهم مههدون بمثل هذا الخطر حتى بادروا بحسن نية الى فك الحصار والزحف فى الحال ، وأسرعوا فى سيرهم فاجتازوا بفالينيا إحدى المدن البحرية الواقعة تحت حصن المرقب ، ثم ساروا فى « مراقبة » وهى أول مدينة فينيقية يصادفها القادم من الشمال ، ثم وصلوا بعد ذلك الى انطرطوس المسماة أيضا طرطوس فى الاقليم المذكور أعلاه ، والواقعة هى الأخرى أيضا على ساحل البحر . فابصروا المكان مقفرا من أهله ، ثم أعجبتهم جزيرة مجاورة فى مواجهة المدينة من الناحية الغربية ، وقد رست بعض سفننا فى إحدى المرافئ الملائمة ، واستفاد الصليبيون اذ سلكوا أقصر الطرق من طرطوس حتى أصبحوا بعد أيام قلائل بكامل جيشهم أمام أسوار « عرقة » فهب تانكريد لاستقبالهم ، وشرح للزعماء كل تفاصيل

خيانة الكونت ، فلما فرغوا من الانصات الى ما قاله تانكريد نصبوا معسكرهم على حدة ، وعلى مسافة بعيدة بعض الشيء من معسكر القوات التى سبقتهم •

سرعان ما تبين للكونت تغير قلوب الزعماء الآخرين عليه ، فراح يصلهم بالهدايا ويبذل الجهود الكبيرة لاسترضائهم ، ومالئث أن استمالهم اليه بهداياه التى أصلحت ذات البين بينه وبينهم ، ولم يشذ عنهم فى ذلك سوى تانكريد الذى لم يكف عن رمى الكونت بكل تهمة نكراء •

على أن جميع القوات أصبحت الآن حول عرقة متحدة كجسم واحد •



كان الكونت ( ريموند ) قد أعد كل عسكره أمام هذه المدينة قبل وصول الدوق ببضعة أيام ، فلم تأت جهوده هذه كلها ثمرتها المرجوة بل ضاعت هباء ، غير أن مجيء القادة الآخرين فتح له باب الأمل فى الاستيلاء على المدينة فى يسر وسهولة ، وفى الوصول الى الغاية المنشودة من جراء هذا الحصار المرهق ، بيد أن الخاتمة جاءت على غير ما كان يطمع فيه ، ذلك لأن الرب كان قد أمسك رحمته عن خطة الصليبيين قبل وصول هذه القوات وبعد وصولها ، فلطالما اغاروا على المدينة لكن بلا جدوى ، فتفننوا فى ابتداع وسائل يضابقون بها المحصورين كنقبهم السور ، لكن ما كان أكثر العقبات التى اعترضت طريقهم فأذهبت مساعيهم أدراج الرياح ، واتضح لهم أن العناية الالهية تخلت عنهم فى حصارهم هذا لعرقة ، وادركوا أن

من هلك من رجالهم انما هلك من غير طائل ، وان السراة الامجاد  
الذين ضحوا بحياتهم انما ضحوا بها من غير فائدة .

وشاء الحظ العاثر أن يلقي نفس هذا المصير اثنان من نوى  
الشرف الصاعد فيهم ، فأما أحدهما فهو « انسلم دى بيمونت » وكان  
أخ غمرات لا يهدأ عن خوض غمار الحرب فاستحق خلود الذكر ،  
وأما الآخر فهو « بونس دى بلazon » الرفيع القدر وأحد أصدقاء كونت  
تولوز العالى المنزلة ، وقد لقي هذان مصرعهما من قذيفة حجر  
أصابتهما ، وزيادة على ذلك فقد عوق الناس فى عرقة رغم أنوفهم ،  
لأن رغبتهم الوحيدة كانت تتمثل فى اتمامهم الحج الذى نهضوا من  
أجله ، ولم يعد يعينهم أمر حصار البلد ، ولا يهمهم ماذا تكون نتيجته ،  
لاسيما بعد وصول الدوق ، حتى ان أتباع الكونت وأصدقاءه الخالص  
ممن جاءوا فى معيته قد أقاموا هناك على كره منهم ورغم ما تملّهم  
ضمائهم ، ولم تكن إقامتهم هذه الا طاعة لمشيئة الكونت القوية ،  
حتى انتهى الأمر بهم أخيرا الى أن دبّروا خطة انسحابهم ، مؤملين  
من وراء ذلك أن يشاطرهم الكونت ضجرهم فينهج نهج القادة  
الآخرين ويقتفى أثرهم فى زحفهم فى طريق السيد .

## - ١٨ -

فى هذه الأثناء أثير من جديد موضوع الحربة التى عثروا  
عليها فى أنطاكية ، وتساءلوا : أحقا هى الحربة التى فجرت الدم  
والماء من جنب المسيح ؟ أم أن الأمر كله مجرد خدعة ؟ وتشكك  
الناس فى الخبر ، بل وتبليت خواطر القادة فأكد البعض أنها كانت  
نفس الأداة التى اخترقت جنبه ، وهو مرفوع على الصليب ، وما  
كان كشفها الا لأن العناية الالهية قد أرادت أن تشد عزائم الناس ،

وقال آخرون بل هي برهان صريح على خبث الكونت وأنها حيلة احتال بها لخدمة مآربه •

كما قالوا ان المؤلف الحقيقي لهذه القضية التي صارت مثار جدل انما هو رجل اسمه « ارنولف » وكان صديقا واشبيها لكونت نرماندى ، وكان يحيا حياة فاسقة شهوانية ، ويجد اللذة فى اثاره النزاع بين الناس على الرغم من انه كان رجلا عالما ، وسيرد الكثير عنه فى الفصول التالية •

ولقد ظلت هذه المسألة موضع جدل طويل بين الحجاج حتى انتهى الأمر أخيراً بقيام بطرس ( بارتلميو ) الذى زعم أنه قد أوصى اليه بخبر الحرية ، وسأل القوم أن يوقدوا نارا كبيرة ، وقال لهم انه بعون الرب سيبدد شكوك المتشككين عن طريق التحكيم الفعلى للنار ، وأن ليس فى الأمر شئ من الاحتيال ، وسيؤكد لهم - رغم ظنونهم - أن الروحى الالهى هو الذى كشف عن هذه الحرية : عزاء للناس وسلوى لهم •

ومن ثم أوقدت نار عظيمة أثارت حرارتها خوف الواقفين حولها ، وكان ذلك يوم الجمعة السابق لعيد القيامة الجيد ، وفى هذا اليوم الذى نقرأ عنه أن مخلصنا تعذب فيه من أجل خلاصنا اجتمع الناس قاطبة : عامتهم وخاصتهم ، صغيرهم وكبيرهم ، ليشهدوا التجربة الحية بشأن هذا الموضوع الهام ، فتنطوع لدخول هذه التجربة الشديدة الخطورة الرجل المدعو «بطرس بارتلميو» ، وكان خوريا قليل الحظ من التعليم ، قد أجمع الناس على سداخته وإخلاصه ، فتوجه بالخطاب أول ما توجه الى الجنود الذين تجمعوا حوله ، وتقدم حاملا فى يده حربة المسيح ، واقتحم النار فاجتازها ولم يبد للناظرين أن قد مسه ضرر ولا حاق به اذى •

غير أن عمله هذا لم يفشل فحسب في إزالة الشك من عقول الناس ، بل انه اثار مشكلة أكثر خطورة ، إذ مالبث بطرس هذا أن مات بعد أيام قلائل ، مما حدا بالبعض لأن يعلن أن تجربة النار هذه أدت الى هلاكه قبل أن يحين أجله ، وأنه كان سبب نمار نفسه لمعاونته على التدليس ، ودلل هذا البعض على صدق ما يقولون بأن مظاهر الصحة والقوة كانت بادية عليه قبل دخوله هذه التجربة •

وادعى آخرون أنه خرج من النار سالما معافى ، ولكن حدث ان تحمس الناس فاندفعوا اندفاعا قويا نحوه وتكاثروا عليه ، فأصابه منهم أذى أفضى الى موته •

وهكذا فان الموضوع الذى شب حوله الجدل لم يحسم فيه برأى قاطع ، بل بقى على النقيض أكثر من ذى قبل •

## - ١٩ -

في غضون هذا الوقت عاد الى زعمائنا المبعوثون الذين كانوا قد أوفدوهم استجابة لرجاء الرسل المصريين الذين يعثهم - كما ذكرت من قبل - خليفة مصر أثناء حصار أنطاكية ، ولقد ظل رسلنا هؤلاء في ذلك القطر مدة عام قسرا وحيلة ، فلما عادوا عادوا ومعهم رسل من أمير المصريين مزودين برسائل يختلف قواها هذه السنة اختلافا بينا عن فدوى ما تضمنته الرسالة السابقة ، ففي خلال فترة هذا العام بذلوا أشد الجهد وأصدق لاعتساب ود قادتنا ، راجين وقوفهم الى جانبهم ضد غطرسة الترك وعنجهية الفرس المتناهية ، أما الآن فقد تغير ذلك كله تمام التغيير ، وراحوا يلوحون بأنهم يسبقون فضلا كبيرا على الصليبيين حين ياذنون للحجاج غير

المسلحين بالذهاب الى بيت المقدس فى زمر تتألف كل واحدة منها من مائتين أو ثلاثمائة حاج ، ثم يعودون سالمين بعد اتمام حجهم •

غير أن قادة القوات الصليبية عدوا هذه الرسالة اهانة لهم ، وأرغموا المبعوثين ( المصريين ) على العودة حاملين الرد بأن الجيش لن يرضى بالذهاب الى هناك فى فئات قليلة حسب هذه الشروط التى اقترحتها مصر ، بل اذهب على العكس سوف يدخلون القدس كجيش موحد ويهددون مملكة مولاها •

كان السبب الذى أدى الى تغير موقف المصريين قد نشأ مما جد بعد انتصارنا فى انطاكية ، إذ كان الترك حينذاك يملكون بظروف حرجة ، مظهرها تزعزع قواهم الحربية فى كافة أرجاء الشرق ، وتدهور سمعتهم الى الحضيض بعد أن كانت قد بلغت الذرى ، فمأحاربوا أمة من أهم الأرض الا ودارت عليهم الدائرة ، مما ترتب عليه تصاعد قوة ملك مصر شيئاً فشيئاً وعلو نجمه على نجم الترك ، ثم مالبثت جهود أمير معين لهم هو ( الأفضل ) القائد العام للجيش المصرى أن أدت الى سلب مدينة بيت المقدس من أيدي الترك بعد أن كانوا قد انقزعوها من المصريين قبل ذلك بثلاثين سنة •

حينذاك رأى المصريون تدهور قوة خصومهم الترك بعد أن كان العرب يداخلهم منها ، باعتبارها تفوق قوتهم ، ويرجع السبب فى هذا التدهور الى ما قام به الصليبيون من عمل أدى الى سقوط بأس الترك الى الحضيض ، ومن ثم كان هذا سبباً فى ازدياد المصريين للمساعدة تأتيهم من جانب قومنا ، بعد أن كانوا حريصين كل الحرص عليها ، جادين كل الجد فى طلبها •

## - ٢٠ -

كذلك قدم رسل من قبل امبراطور القسطنطينية يشكون مر الشكوى من مسلك بوهيموند، ويعلنون أنه خالف شروط الاتفاق الذى كان قد أبرمه مع الامبراطور ، حين أعلن عزمه على الاحتفاظ بأنطاكية ملكا خالصا له ، وبذلك يكون قد حنث بيمين الولاء الذى قطعه على نفسه ، ووقف هؤلاء الرسل وسط الزعماء معلنين أن جميع من مروا عبر القسطنطينية قد أدوا يمين التبعية لمولاهم ، وأنهم قد أقسموا وأيديهم على الكتب المقدسة ألا يستبقوا لأنفسهم قلعة أو مدينة كانت تابعة من قبل للامبراطورية ، حتى ولا القدس ذاتها ، وكذلك جميع الأماكن التى يستولون عليها الا ردها فى الحال الى الامبراطور يدير بنفسه شئونها ، ثم سكت المبعوثون ( الاغريق ) عن غير هذا من شروط الاتفاق .

ومن الجلى الواضح أنه كان قد تم مثل هذا الاتفاق بين الامبراطور والقادة فى القسطنطينية ، على أنه فى ختام هذا الاتفاق اضعف شرط ينص على أن الكسيوس سوف يلحق بهم من غير توان بكل بطانته ، ويقوة كبيرة من عسكره ، وأنه همدهم ومعينهم بما يكونون فى حاجة اليه ، لذلك رد القادة باجماع الآراء على مطلب السفراء بأن الامبراطور هو أول من شجب الشروط التى اتفق عليها ، وعلى ذلك فالواجب الذى ليس غيره من واجب هو أن يتحمل خسارة ما كان يحق له حسب شروط الاتفاق ، إذ لا عدل فى الوفاء بعهد مع شخص سلك مسلكا مناقضا للعهد الذى نص فيه على أن يلتزم الامبراطور بجمع جيوشه والسير فى اثر القادة حالا فى زحفهم ، وأن يهيئ فرصة دائمة للحجاج للمتاجرة مع السفن القادمة بحرا ، وأن يعمل على تقديم وفره من السلع للبيع لهم جميعا طوال سيرهم ،

ولكنه تجاهل عن عمد هذه الشروط ولم يف بها رغم أن الوفاء بها كان يسيرا عليه . ومن ثم فإنهم يحبون أن يقرروا له أن الاجراء الذى اتخذه بشأن أنطاكية يجب أن يعتبر قرارا نهائيا لا رجعة فيه ولا نكوص عنه ، لأنهم لم يفعلوا الا ما تجيزه لهم حقوقهم ، يضاف الى ذلك أن تنازلهم عن أنطاكية بمحض ارادتهم لمن ارتضوه أميرا لها يجعله حريا بتملكها وتوارثه اياها للأبد .

\*\*\*

ولقد بذل رسل الامبراطور جهودا شاقة رجاء حمل الجيش على انتظار حضور مولاهم الذى سيكون يوم أول يوليوس ، وأضافوا الى ذلك قولهم انه سوف يصل كل الزعماء بالهدايا الجمّة، وسيصرف أجورا مجزية للعسكر تمكنهم بلا شك من أن يعيشوا عيشة شريفة ، لذلك عقد الزعماء مؤتمرا لبحث هذا الموضوع ، لكنهم اختلفوا حوله اختلافا جديا فيما بين بعضهم والبعض الآخر ، فكان من رأى كونت تولوز أن صالحيهم يتنصّسهم انتظار قدوم الأمير الكبير ( الكسيوس كومنين ) ، وراح الكونت يعضد هذه الفكرة ، وربما كان صادرا فى ذلك عن ايمان بها ، أى ربما كان بهذا الادعاء يحاول تعطيل القادة والجند حتى يفرغ من غزو المدينة التى كان لا يزال يحاصرها ، اذ كان يدرك مدى العار الذى يلحقه والشئنا الذى يمسّه ان لم ينجح فى مشروعه ، أو عجز عن الاستمرار فى تنفيذه .

وكان هناك آخرون يرون رأيا يخالف هذا الرأى كل المخالفة ويعتقدون انه من الأصوب ألا يتأخر الحجاج عن مسيرة حجهم التى بدأها ، فتمامها يؤدى فى النهاية الى خاتمة موفقة للمشروع الذى تحملوا المشاق الجمّة من أجله ، وكان قرار هذا الفريق الثانى قائما على تجنب حيل الامبراطور الماكرة وكلماته المعسولة التى جربوها

طويلا ، وأن قرارهم هذا أجدى عليهم من أن يلقوا بأنفسهم من جديد  
فى متاهات مراوغاته الماكرة التى قد يجدون من الصعب تخليص  
أنفسهم من حبالها أن هم سقطوا فيها •

ولقد نجم نزاع بين القادة حول هذا الموضوع ، أن كانت  
رغباتهم متباينة يستحيل التوفيق بينها •

وكان والى طرابلس قد عرض من قبل قدرا كبيرا من المال  
على الصليبيين ، عساهم يرفعون الحصار عن بلده ، وينزحون  
بقواتهم ، أما الآن - وقد علم بالخلاف الناشب بين قادة الجيش -  
فانه لم يكتف بالتراجع عن مدهم بالمال الذى كان قد تعهد لهم به ،  
بل زاد فسارع لأن يكون البادئ بمحاولة مواجهة الصليبيين وتجربة  
حظه فى محاربته اياهم •

لكن ترتب على ذلك أن أجمعوا بلا استثناء على النهوض لقتاله ،  
فخرجوا وقد خلفوا وراءهم لحماية العسكر ( فى عرقة ) أسقف  
« البارة » ومعه بعض من الزعماء المتمرسين بفنون الحصار • أما  
بقيتهم فقد صفوفهم للمعركة وزحفوا بهم شطر طرابلس ، فوجدوا  
والىها فى انتظارهم هو وأهلها ، فأخذت الحماسة الفرسان والمشاة  
أن أخذوا أماكنهم أمام المدينة متاهيين لقتالها ، أما كونت تولوز فقد  
ظل أكثر من شهرين متتاليين يحاول عبثا الاستيلاء على عرقة فلم  
تجده محاولته هذه نفعا ، بل راح الطرابلسيون ينظرون الى  
الصليبيين نظرة ازدراء ، وأخذ خوفهم منهم يتناقص شيئا فشيئا ،  
وتلاشى ما كانوا يظنونونه من شجاعة هؤلاء القوم ، لاسيما وقد قامت  
البينة على انحرافهم عن العزم القوى الذى كانوا يظهرونه •

\*\*\*

ولما بلغ الصليبيون طرابلس وأبصروا قوات العدو وقد أعدت صفوفها لقتالهم بادروهم فى الحال بكرة غاضبة ، أدت منذ اللحظة الأولى الى بث الفوضى فى عسكرهم وحملوه على الفوار ، كما أن اصرار الصليبيين القوى أرغم الأهالى على الهروب الى المدينة يرتجون الاستخفاء بها ، ولكن الصليبيين لم يكفوا عن مطاردتهم حتى قتلوا منهم سبعمائة شخص ، ولم يفقد من عسكرنا غير ثلاثة رجال أو أربعة ، وهنا كان الاحتفاء بعيد الفصح يوم ١٠ ابريل .

- ٢١ -

ثم عادوا الى معسكرهم بعد أن واثم النصر ، واذ ذاك بادر الناس قاطبة لرفع صوتهم عاليا مطالبين بوجوب تخلى القادة عن هذا الحصار المدمر ، وبضرورة البدء بالسسير الى بيت المقدس ، فالكل مشوق للزحف ، وقد أتى هذا الاصرار العنيد أكله المرجوة حين قرر الدوق وكونت فلاندرز وكونت نورماندى وتانكريد تقويض المعسكر وحرقة ارضاء للجماهير ورفع الحصار عن عرقة ، غير أن كونت تولوز رفض رفضا باتا التخلي عن خطته ، وراح يبذل غاية جهده فى مقاومة ما قرره الزعماء ، بيد أنهم ضربوا بمعارضته عرض الحائط ، ومضى الزحف فى طريقه شطر طرابلس لتعاود مسيرة الحج ما انقطع منها ، وكان من أكبر المتحمسين لتنفيذ هذا القرار رهط كانوا منذ البداية فى معسكر ريموند ( كونت تولوز ) لكنهم انفصلوا عن صاحبهم وساروا متحمسين وراء القادة الذين نكرناهم حالا .

ولما تكشف للمكونت ما فعله أصحابه ، وأدرك فشل كل ما يبذله لهم من وعود لصرفهم عن المسير ولارجاعهم اليه لم يجد بدا من الخضوع للضرورة. وما يفرضه الواقع ، فتتبع الآخرين ولكن على

كره منه ، وسار وساروا حتى اذا صاروا على بعد خمسة أميال  
تربيا من مدينة طرابلس نصبوا خيامهم أمامها ، فتخلى حاكم المنطقة  
الموكل اليه النظر فى شئون الخليفة بها عن مسئلكه المتعجرف الذى  
أظهره قبل ذلك الوقت بقليل ، حين حاول أن يتعامل مع قوادنا معاملة  
النذ للند ، فأرسل سفارة لاجراء مفاوضات الصلح وعرض خمس  
عشرة ألف قطعة ذهبية الى جانب هداياه من الجياد والبغال والحرير  
والأواني الغالية الثمن ، كما وعد برد جميع الأسرى الصليبيين  
الذين كانوا رهس قبضته ، فرضى الزعماء أن يغادروا ولايته على  
هذه الشروط . ثم زادوا على ذلك بأن وافقوا على التخلي له فى  
أثناء مسيرهم عن المدن الثلاث التابعة له ، وهى عرقة وطرابلس وجبيل  
بملحقاتها ، ثم زاد الوالى على هداياه التى ذكرناها فأرسل من لدنه  
الى الصليبيين قطعانا من الماشية والأغنام وكميات وفيرة من الزاد  
حتى لا يحملهم نقص الطعام على العيث فسادا فى المزارع التى  
يمرون بها ، وانزال الاذى بالفلاحين القاطنين بزراعة الأرض هناك .



وكان هناك طائفة معينة من نصارى الشام تعيش على قمم  
جبال لبنان الشاهقة التى تطل ذراها العالية على المدن الواقعة الى  
الشرق كما ذكرت حالا ، وجاء هؤلاء النصارى (المعروفون بالمارونين)  
مهنئين الحجاج ومبدين لهم حبهم الأخوى ، ولما كانوا على دراية  
تامة بالمنطقة وما حولها فقد استدعاهم القادة مستفسرين منهم  
— باعتبارهم أهل خبرة بالناحية — عن أسلم الطرق وأيسرها الى  
بيت المقدس ، فصدقهم هؤلاء السوريون القول ودلوهم على الدروب  
المختلفة المؤدية الى حيث يقصدون ، وبينوا أطوالها ، ثم زكوا لهم  
فى النهاية طريق الساحل لأنه أقصر الدروب المباشرة الى وجهتهم ،

ولأن الحجاج - ان سلكوا ما اشاروا به عليهم - امكنهم الحصول على العون من سفنهم التي سوف تتبع الجيش فى تقدمه .

لم يكن الأسطول الصليبي قاصرا على سفن جينمار ورفاقه التي قدمت من فلاندرز و نورماندى وانجلترا كما قلنا ، ولكن كان هناك أيضا شوان من جنوة والبندقية واليونان ، وان كانت أغلب السفن قادمة من قبرص ورودس وغيرهما من الجزر وهى محملة بشتى صنوف البضائع ذات الفائدة القصوى لكتائبنا .



وبالاضافة الى من ذكرنا من النصارى الشاميين فقد استعان الحجاج برجال من أهل بيت والى طرابلس يدلونهم على الطريق ، فساروا بهم فى محاذاة الساحل ، الى جانب من استعانوا بهم من نصارى الشام الذين ذكرناهم ، فساروا بهم فى محاذاة الساحل جاعلين جبال لبنان على يسارهم ، حتى اذا اجتازوا مدينة « جبيل » عسكروا على شاطئ نهر قرب مكان اسمه « ماوس » فتلبثوا به يوما فى انتظار القادمين وراءهم من أتباعهم الضعاف الخائرى القوى وممن لم تسعفهم صحتهم بمضاهاتهم فى سرعة سيرهم .



فلما كان اليوم الثالث نصبوا معسكرهم امام مدينة بيروت على شاطئ نهر يمر بها ، فهاداهم واليها بالمال ، وأمدهم بكليات وفيرة من المؤونة ، ليحملهم على كف أيديهم عن التعرض للمحاصيل والأشجار ، فأقاموا هنا ليلتهم هذه مستجمين ، حتى اذا طلع اليوم التالى بلغوا مدينة صيدا حيث نصبوا خيامهم على طول شاطئ

النهر ليتوفر عندهم الماء ، ولم يقدم حاكم هذه المدينة لقوادنا أى ضيافة ولم يبد لهم ودا ، ولست أدري دافعه الى ذلك الموقف ، الا أن تكون شدة وثوقه بقوته واعتماده الكلى عليها حملاه على مضايقة الجيش ، رغم أنه لم يوفق فى خطته هذه ، ولما ضاقت صدور بعض رجالنا ذرعا بهجمات الأهالى المتكررة عليهم ، ولم يعد فى قوس صبرهم منزع لاحتمالها كروا على الخصم كرة قتلوا فيها نفرا من رجاله ، وحملوا بقيتهم على الارتداد الى داخل المدينة ، وترتب على ذلك أن أمضى العسكر ليلتهم وهم فى هدوء لم يكدر خاطرهم أى مكر من جانب العدو ، فلما جاء الصباح عزموا على البقاء حيث هم فترة وجيزة من الوقت حتى يسترد الناس بعض قواهم ، كما بعثوا رهطا من رجالهم المسلحين بالأسلحة الخفيفة للحصول على ما يلزمهم من الطعام من الضواحي المجاورة ، فاصابوا غنيمة وفيرة وكثرة من الأغنام والماشية ، وعادوا بذلك كله سالمين لا ينقصهم غير واحد منهم اسمه « والتر دى فيرا » ألح فى البعد عنهم طلبا لمزيد من النهب ، فلم يقدر له الرجوع ولم يوقف له على خبر ، فاسنولى الحزن الشديد على رفاقه إذ جهلوا مصيره .

\*\*\*

كان الشطر الأول من طريقهم فى اليوم التالى يمر عبر اقليم جيسى بعض الشئ ، الا ان الزحف انتهى بهم الى ارض أكثر انبساطا ، فمروا وعلى يمينهم مدينة أهل صيدا القديمة المعروفة باسم « ساريتا » التى شب فيها « ايليا » (١٩) رجل الرب ، ثم عبروا هذا النهر المتعرج حتى بلغوا مدينة صور عاصمة هذه المنطقة الشهيرة

(١٩) ملوك أول ١٧ : ٩ - ١٠ .

والموطن القديم لكل من اجنور « وكادموس » ، وهنا نصبوا معسكرهم على مقربة من نبع الجنان المعروف ، وهو نبع غزير الماء يعد أعجوبة من اعاجيب الدنيا ، فأمضوا ليلتهم هناك فى بساطينه الفسيحة التى نفيض بكل ما تشتهيئه الأنفس من الطيبات ، ولما طلع الصباح تهيأوا ثانية للمسير بعد تغلبهم على ما صادفوه من صعاب الممر الضيق الواقع بين الجبال الشاهقة الارتفاع وبين البحر ، ثم نزلوا الى السهل القريب من مدينة عكا فنصبوا خيامهم على طول شاطئ نهر مجاور للمدينة التى سارع أهلوها وحاكمها لتقديم الهدايا اليهم ، وعقدوا سوقا على أحسن ما تكون السوق ، وبالحال والى فى اظهار صداقته نحو الزعماء وعقد معهم اتفاقا ووعدهم أنه مسلمهم مدينة عكا دون مقاومة ان هم نجحوا فى أخذ بيت المقدس وتمكنوا من الإقامة فى المملكة عشرين يوما بعد ذلك ، أو اذا استطاعوا هزيمة القوات المصرية •

ثم غادروا عكا سائرين فى طريق واقع بين جبل الكرمل والبحر، جاعلين الجليل على يسارهم حتى بلغوا قيصريّة التى هى ثانية مدن فلسطين العظمى المعروفة قديما ببرج ستراتون ، فعسكروا فيها على نهر ينبع من الأدغال القريبة منها ، وهنا على بعد ميلين فقط من قيصريّة احتفلوا يوم ٢٨ مايو ( ١٠٩٩ م ) بعيد الفصح •

ثم تابع الحجاج سيرهم الشاق فى اليوم الثالث تاركين على يمينهم مدينتى انتيباتريس ويافا ، وعبروا سهلا فسيحا ، ثم اجتازوا « اللتيريا » حتى بلغوا « اللد » التى هى « ديوسبوليس » فأروا فيها القبر العظيم للشهيد جورج الذى يسود الاعتقاد أن بقاياه ثاوية هناك برحمة السيد ، وكان الامبراطور النقي جستنيان الخالد الذكر حاكم الرومان الأرثوذكسى قد أمر بدافع اخلاصه القوى بتششييد كنيسة فى هذا الموضع تمجيدا لذكرى هذا القديس •

غير أنه قبل قليل من وصول الصليبيين قام العدو - وقد توقع قدومهم - بهدم هذه الكنيسة وتسويتها بالأرض مخافة أن يحيل الحجاج أعمدتها الخشبية الطويلة المستعملة فى بنائها الى عدد وآلات رمى لك المدينة .



وعلم قوادنا أنه توجد على مقربة من موضعهم هذا مدينة رائعة تدعى « الرملة » فبعثوا اليها كونت فلاندرز مع خمسمائة فارس ليعرفوا على وجه التأكيد موقف أهلها وما يقترحونه من الشروط ، فاقترب هؤلاء الكشافة من المدينة فلم يخف أحد لمقابلتهم ، فدخلوها من أبوابها المفتوحة على سعتها ، فاذا هى خاوية مهجورة تماما من سكانها الذين لم تكذب جيئهم الأخبار بقرب الصليبيين منهم حتى أمضوا الليلة السابقة فى مغادرتها هم ونساؤهم وابناؤهم ، وحملوا معهم كل أمتعتهم ، فأصبحت المدينة خاوية على عروشها ، فبادر الكونت ( دى فلاندرز ) فى لحظته هذه بإرسال رسول الى العسكر حاملا اليهم هذا الخبر ، ومشيرا عليهم بالاسراع الى المدينة ما وسععتهم السرعة ، ومن ثم فانه ما كاد الصليبيون يفرغون من صلواتهم المعتادة حتى زحفوا على الرملة وظلوا مقيمين بها ثلاثة أيام ، ينعمون بما فيها من غلال ونبيذ وزيت .

ثم جاءوا الى رجل نورماندى المولد من أسقفية « روان » اسمه روبرت ورسموه أسقفا على الكنيسة الموجودة فى ذلك الموضع ، ومنحوه مدينتى اللد والرملة ومايتبعهما من النواحي ، وجعلوهما منحة لا تسترد أبدا ، وبذلك أهدوا مخلصين أولى ثمار جهودهم الى الشهيد جورج العظيم .

## - ٢٣ -

فى هذه الأثناء ترددت الأخبار محذرة سكان بيت المقدس باقترابنا منها ، فأدركوا ادراكا صادقا أن ليس لهذا الحشد الكثيف الذى قيل باقترابه منهم من هدف سوى الاستيلاء على مدينتهم ، فلم يدخروا وسعا ، ولا تراخت عزائمهم عن تحصينها ، ونافس بعضهم بعضا فى احضار وجمع كل ما استطاعوه مما يلزمهم من الطعام ومن شتى صنوف السلاح والخشب والحديد والصلب ، أو فى كلمة واحدة بكل ذى جدوى لمن هم تحت الحصار .

وكان صاحب مصر قد نجح - فى خلال هذه السنة - فى استرداد سيادته على مدينة القدس بعد أن كانت فى أيدي الترك ، وبسط نفوذه عليها ، لذلك ما كاد يعلم بمغادرة جيشنا لأنطاكية حتى أمر القوم أن يجعلوا كل العجلة باصلاح جميع أبراج المدينة المقدسة وترميم ما يحتاج الى ترميم من أسوارها ، ثم عمل على كسب ولاء سكانها له ، فأمر بان تصرف لهم الأجور السخية من خزائنه الخاصة، وأن يسامحوا نهائيا فى ما عليهم من الضرائب والجمارك ، واذ رغب الأماهى فى الاستفادة من مثل هذه الامتيازات والعمل على ما فيه سلامتهم وخيرهم فقد كرسوا انفسهم لاطاعة الرغبة الخليفية ، فاستدعوا اليهم سكان المدن المجاورة لهم ، واعتنوا بتقوية وسائل الدفاع عن المدينة فحشدوا الكثيرين من الرجال الأقوياء المسلحين اكمل تسليح .

واجتمع الكل وهم يد واحدة فى ساحة المسجد الفسيح الأركان ليتدبروا ما يفعلون ازاء ما يتوقعون حدوثه ، وليمنعوا - ان أمكن - تقدمنا ، فقرروا الوثوب على جميع السكان النصارى وهدم كنيسة القيامة من أساسها وكذلك قبر السيد الموجود هناك حتى يكون ذلك

حائلاً فى المستقبل دون مجيء هذا السيل العرم من الحجاج الذين يتقاطرون زرافات بعضها فى أثر بعض لزيارة هذه البقاع وللصلاة فيها ، غير أنهم لما أخذوا يتدبرون ما قرروه خافوا أن يزيد هذا العمل من كراهية الصليبيين لهم ، وقد يحركهم هذا على القيام بمحاولات أشد عنفاً للقضاء على أهل بيت المقدس ، ومن ثم تغيرت هذه الخطط فعمدوا الى اغتصاب كل ما بيد سكانها النصارى من مال ومتاع ، وفرضوا عليهم دفع غرامة قدرها أربع عشرة ألف قطعة من الذهب تجبى من البطررك صاحب الولاية إذ ذاك فى مدينة القدس ، ويشاركه فى سدادها سكانها النصارى وأهل الأديرة الموجودة فى تلك الناحية .

على أن جميع ما كان يملكه النصارى الذين يعيشون فى بيت المقدس لم يكن كافياً لسداد هذا القدر من المال ، وعلى ذلك فقد أصبح من الضرورى على البطررك الموقر أن يقوم برحلة الى قبرص للحصول على ما يفى بهذا المطلب الفادح .

كذلك احتاج البطررك الى المال لسداد بعض احتياجاته ولسد عوز المؤمنين ، وكان يطمع أن يستجدى من مؤمنى هذه الجزيرة المخلصين صدقاتهم وزكاتهم فيرسسها الى أهل الرب المنهكين الجائعين ممن يسكنون القدس وأطرافها رجاء الإبقاء على حياتهم ، لكن يبدو أن كل هذه الابتزازات لم تسد جشع القوم الذين استعملوا التذويب والقهر فى اغتصاب كل ما بيد المؤمنين ، بل زادوا فنفوسهم جميعاً من البلد ، ولم يستثنوا من ذلك النفى سوى الشيوخ والمرضى والنساء والأطفال ، ولم يزل هؤلاء المطرودون هائمين على وجوههم فى القرى الصغيرة القريبة من المدينة حتى لحظة قدومنا ، وهم يتوقعون الموت بين ساعة وأخرى ، دون أن يجروا على دخول

القدس ، كما أنه لم يكن ثم موضع فى هذه الأماكن الخارجية يجدون فيه الأمن أو يمكنهم اللجوء اليه ، فقد كانوا محاطين أنى ذهبوا بمضطهدين ، وكانت كل حركة من جانبهم موضع ريبة سكان القرى الذين كلفوهم بأحط الأعمال وأقساها (٢٠) .

كان يعيش بالمدينة الحبيبة الى الرب ابان ذلك الحين رجل تقى نذر حياته لله اسمه « جيرالد » وهو القيم على النزل المذكور آنفا الذى ينزله القادمون الفقراء اذا قدموا القدس لأداء الصلاة ، فيجرى عليهم من الرزق ما يلائم ظروف الزمان والمكان .

واعتقد الأعداء ان بحوزة هذا الرجل مالا يخفيه ، وتوجسوا خيفة منه أن يبذله فى الحاق الضرر بهم حين يصل جيشنا ، فلم يتأخروا عن ضربه والزج به فى السجن حيث لاقى فيه أفظع ضروب التعذيب ، حتى تفسخت مفاصل يديه وقدميه ، ولم تعد أطرافه قادرة على الحركة .

## - ٢٤ -

أمضى الجيش ثلاثة أيام فى الرملة عين بعدها حراسا لحماية أمنع جزء بالمدينة من هجمات الخصوم ، فلما فرغ من ذلك تأهب لمتابعة زحفه الى غايته المنشودة ، حتى اذا كان فجر اليوم التالى وصل الجنود الى « نيكوبوليس » ، مسترشدين برجال من أهل الخبرة الملمين بالأقاليم أحسن الامام .

---

(٢٠) راجع الجزء الاول من هذه الترجمة العربية ، الكتاب ١ ، ف ١١ ، ص ٩٠ - ٩٢ .

ونيكوبوليس هي إحدى مدن فلسطين، وقد ورد في كتب الانجيليين انها هي قرية «عمواس» ، ويقول القديس لوقا الانجيلي انها على بعد ثلاثة مراحل من بيت المقدس (٢١) ، ويتكلم عنها «أسوزو مينوس» في الكتاب السادس من تاريخه التثليثي فيقول «بعد أن فتح الرومان يهوذا وخربوا اورشليم سميت عمواس بنيكوبوليس تمجيدا لذلك النصر» ، ويوجد أمام المدينة (وعند مفترق الطريق المعروف بأن المسيح مشى فيه مع كليوبا بعد قيامه كما لو كان قاصدا قرية أخرى) أقول انه يجري هنا نبع في مائه شفاء للناس ، اذا اغتسلوا فيه زالت عنهم أوجاعهم ، وتبرا في الحيوانات الدنيا من كل ماتتعرض له من أمراض خاصة بها ، وتقول الرواية في تفسير هذا الاعتقاد ان المسيح ذاته تجلى في اثناء هذا السير لتلاميذه عند هذا النبع وغسل بنفسه اقدامهم في مياهه التي أصبحت منذ ذلك الحين براء لكل الأسقام .

هذه هي الحقائق التي أوردها هذا المؤرخ (سوزو مينوس) المشار اليه عن قرية عمواس .

\*\*\*

أمضى الصليبيون تلك الليلة في هدوء متمتعين بالماء الغزير والطعام الشهى الوفير ، حتى اذا انتصف الليل أو كاد جاءتهم رسل من المؤمنين المقيمين ببيت لحم يرجون من الدوق جود فروى رجا حارا أن يبعث اليهم بطائفة من رجاله ، ولم يكن الحاحهم عليه راجعا فحسب لرغبتهم في أن يمد لهم يد العون ضد العدو الذي كان يسرع من كل البلاد ومن جميع قرى الناحية قاصدا بيت المقدس ، بل

---

(٢١) لوقا ٢٤ : ١٣ .

وأيضا ليجدوا هم ذاتهم مكانا آمنا لأنفسهم ، واشتد الفزع بمؤمني بيت لحم مخافة أن يهاجم هؤلاء الكفار مدينتهم ، وأن يهدموا الكنيسة التي طالما تكرر انقاذ المسيحيين لها من الدمار الذي كان هؤلاء الأعداء يصبونونه عليها ، وكان انقاذهم اياها بدفعهم بمبالغ نقدية كبيرة لهم .

استمتع الدوق جود فروي الى التماسات هؤلاء الاخوة المؤمنين بنفس حانية ، فقام باصطفاء مائة من أتباعه الفرسان الأشاوس المدججين بالسلاح الخفيف ، وأمرهم أن يسرعوا في التوجه للحظة الى بيت لحم لمساعدة مسيحييها ، وانضم تانكريد الى هذه الحملة ، وألقيت اليه قيادة تلك الجماعة التي وصلت مع مطلع النهار الى طيتها المنشودة مسترشدة بهداية الرسل ، فاستقبلها الأهالي بالترحاب العظيم ، وساروا بهم الى الكنيسة ومن حولهم العامة ورجال الدين يزفونهم بالأهازيج ، وينشدون بين أيديهم الأناشيد الدينية ، ففاضت القلوب بالفرحة الغامرة وهم يطالعون موضع الميلاد المجيد والمزود الذي كان مهد المخلص ذات مرة ، ثم رفع الأهالي راية تانكريد فوق الكنيسة رمزا للنصر وسط هتافات الغبطة الحماسية ووسط ترتيلهم المزامير وترديدهم اناشيد الشكر الدينية .

في هذه الأثناء كانت قلوب الذين خلفوهم وراءهم تتحرق شوقا لتابعة الزحف ، وجافاهم النوم اذ عرفوا أنهم صاروا على مقربة من الأماكن الطاهرة ، وعز عليهم الرقاد لما انطوت عليه قلوبهم من حبا وتوقيرها حبا وتوقيرا أعاناهم على احتمال كثير من المشاق والأموال على مدى ثلاث سنوات سويا ، وراحوا يترقبون في شوق بزوغ الفجر ليروا نجاح سفرهم وما أسفر عنه حجهم الطويل من خاتمة سعيدة ، وخيل اليهم كأن ليل حراستهم قد طال فوق كل حد ، وانه جاوز كل معقول في انتظار الغد ، وكان كل انتظار عبئا ثقيلا

وخطروا على قلوبهم الخفاقة ، مصداقاً للمثل القائل « ان كل عجلة للقلوب المشتاقة ليست مستغربة » ، وقول الآخر « انه كلما طال الوقت ازداد الشوق لهيباً » .

— ٢٥ —

عندما ذاع فى المعسكر أن رسلاً من أهل بيت لحم جاءوا الى الدوق وانه بعث بقوات من الجيش لمساعدتهم هاج الناس غضباً وراح كل يحث الآخر على الثورة ، ولم ينتظروا أحداً يأذن لهم بالرحيل ، أو يترقبوا لحظة انسب من اللحظة التى يقدمها لهم طلوع الفجر ، وتذمروا من كل ابطاء فخرجوا تحت جنح الظلام البهيم غير مكترئين بمعارضة قوادهم لهم .

وما كادوا يسيرون مسافة قصيرة وتتخضب السماء قليلاً بلون مشرق حتى غادرهم رجل نبيل شجاع هو « جاستون دى بيزيه » على رأس ثلاثين من الفرسان المدججين بالسلاح الخفيف ، واتجه بهم سريعاً ناحية بيت المقدس ، مؤملاً أن يجد خارج أسوارها قطعاناً من الماشية والأغنام فيستولى عليها ويعود بها الى الجيش ، وصح ما أمله اذ وجد قرب المدينة بعض الماشية فى حراسة رعاة قلائل ماكادوا يبصرون رجالنا حتى فروا مذعورين الى المدينة .

وانطلق جاستون مسرعاً الى المدينة بما استولى عليه من الماشية التى قرعها رعاتها الذين صحا أهل البلد من سباتهم على صراخهم ، فبادروا الى حمل سلاحهم وهبوا انشط ما يكونون لطاردة جاستون وهو فى طريق عودته الى المعسكر ، أملاً منهم فى استرداد الغنيمة التى سلبها منهم عنوة ، فاستولى على الفارس المعلم الخوف من كثرة عدد مطارديه ، فتخلى سريعاً عما نهب ،

وهرب مع أصحابه طلباً للسلامة ، حتى اذا بلغوا بقعة واقعة على أحد التلال توقفوا ينتظرون ما يسفر عنه الأمر ، حينما ظهر فجأة من أحد الأودية القريبة تانكريد مع فرسانه المائة وهم قافلون الى المعسكر من بيت لحم ، فأسرع جاستون اليه ، وقص عليه ما حاق به من سوء الحظ ونكد الطالع ، فضم القائدان قواتهما بعضاً الى بعض وكر الجميع في أثر العدو الذي كان عائداً بقطعانه فهاجمه عسكرنا قبل أن يتيسر له الوصول الى المدينة ، وقتلوا الكثيرين من رجاله وفر الباقون ، وعاد القائدان الصليبيان الى المعسكر ظافرين يسوقان مرة ثانية الغنيمة المستردة .

ولما سئلوا من أين كان حصولهم على ما نهبوا قالوا انهم جاءوا بها من الحقول التي في أرياحس اورشليم ، فلما صافحت كلمة «اورشليم» سمع الحجاج اعترتهم نشوة روحية عارمة ، لم يستطيعوا معها أن يمسكوا دموعهم من أن تسيل أو يكبتوا آهاتهم ، فهاهى ذى القدس التي تحملوا من أجلها كثيراً من الأهوال على مرأى العين منهم ، واذ ذاك خروا سجداً على الأرض معجدين الرب وحامدين من منح شعبه المؤمن نعمة خدمته الجلييلة المشكورة ، ومثنين على السيد الذى تفضل فاستمع الى دعوات شعبه ورآهم أهلاً لأن يتحقق أملمهم فى أن يبلغوا المدينة التى استبد الشوق بهم اليها .

وكان الحجاج – ومعظمهم مشاة حفاة – كلما دنوا من المدينة المقدسة واكتحلت عيونهم بمرآها على قرب عنهم أفصحت دموعهم وزفراتهم الصادرة من قلوب مخلصه عن فرحتهم الروحية ، وتزايدت حماستهم فى الاندفاع نحو هدفهم ، وما لبثوا الا قليلاً حتى كانوا واقفين أمام مدينة بيت المقدس فنصبوا خيامهم حولها حسب الترتيب الذى وضعه زعمائهم .

وهنا تمت نبوة أشعيا وصحت كلمة السيد اذ قال « ارفعوا عيونكم الى بيت المقدس ، وتأملوا قوة الرب ، وانظروا مخلصكم ياتى ليخلصكم من قيودكم (٢٢) ، وقوله : « انتبهوا انتبهوا واستيقظوا ، وأنت يا اورشليم حررى نفسك من أغلال الرقبة ٠٠ أيتها الأسيرة يابنت صهيون » ٠

\*\*\*

## هنا ينتهى الكتاب السابع

---

(٢٢) هذه هى الترجمة الحرفية لما أورده وليم فى الاصل ، فهو لم يتقيد تماما - وذلك على غير عادته - بنص ما جاء فى التوراة فى سفر أشعيا ١٧/٥١ اذ قال : « انهضى انهضى يا اورشليم ، وقومى يا اورشليم التى شربت من يد الرب كأس غضبه قبل كأس » ٠

## الكتاب الثامن

---

### خاتمة رحلة الحج : الاستيلاء على القدس

#### الفصول :

- ١ - وصف موقع المدينة المقدسة وذكر النواحي والأماكن الموجودة داخل حدودها .
- ٢ - استعراض الأسماء العديدة التي أطلقت على هذه المدينة ، وكيف جعلها داود عاصمة لمملكته ، وكيف نقلها الامبراطور هادريان من سفح الجبل الى قمته ، وبعض ملاحظات أخرى عن موقعها .
- ٣ - بيان أى جزء من التلين يقع فى نطاق السور ، وكذلك تحديد موقع كنيسة قيامة السيد وهيكله على المرتفعات ووصف شكل الكنيستين .
- ٤ - الخبر فى كيفية تشييد المدينة فى بقعة جرداء ليس بها ماء ،

ونذكر خبر سلوام أيضا ، وكيف أن الأهالي حين سماعهم  
باقترابنا طموا اليناابيع وأفسدوا الصهاريج .

٥ - تحديد موعد وصول الجيش الصليبي أمام المدينة وذكر عدد  
قواتنا وقدرات العدو وشرح كيفية ترتيب العسكر .

٦ - الصليبيون يهاجمون المدينة في اليوم الثالث بعد ترتيب أماكن  
العسكر ، ويستترشدون بأحد النصارى المخلصين في الذهاب  
الى الغابات لقطع الأشجار التي يصنعون منها آلات  
الحصار .

٧ - إصابة الناس بالاغماء بسبب حاجتهم الى الماء وسقوطهم في  
يد العدو مرة أخرى أثناء سعيهم وراء الماء وغيره من  
ضرورات الحياة .

٨ - الأهالي يصنعون الآلات ويستعدون للمقاومة ويرغمون  
المؤمنين الساكنين معهم في المدينة على القيام بأعمال كثيرة  
فيها جور كثير عليهم .

٩ - وصول أسطول من جنوه الى يافا وإرسال الأدلاء من الجيش  
لمصاحبة رجاله في ذهابهم الى موضع الحصار ، ولكن  
الحرس يتعرضون في طريقهم لكمين نصبه العدو لهم .

١٠ - القادمون بحرا يذهبون الى الجيش ويمدون يد العون الفعال  
في بناء الآلات ، كما تم عقد الصلح بين ريموند كونت تولوز  
وتانكريد .

١١ - اعلان الصيام وصعود كل طوائف الحجاج الى جبل الزيتون .

- ١٢ - الدوق والكونتان العظيمان يتحركون بعسكرهم أثناء الليل ،  
وينصبون الآلات حول المدينة •
- ١٣ - قصف المدينة وشبوب قتال عنيف بين الجانبين ولكن المعركة  
تتوقف لدخول الليل •
- ١٤ - المحاصرون والمدافعون على السواء يقضون الليل فى حال  
من القلق البالغ •
- ١٥ - العودة للقتال فى اليوم التالى ، واشتداد الهجوم على المدينة  
اشتدادا أقطع من سابقه ، ومصرع الساحرات •
- ١٦ - ظهور آية فى السماء على جبل الزيتون ، واذا ذلك يعود من  
ارندوا منذ قليل منهكين ولكنهم يتلهفون على القتال •
- ١٧ - كونت تولوز وقواته يهاجمون المدينة بعنف شديد من الناحية  
الجنوبية •
- ١٨ - الدوق وأصدقائه يدلون الجسر من فوق البرج الخشبى الى  
ال سور ويدخلون قواتهم ، واذا ذلك تستسلم المدينة وتفتح  
ابوابها ويدخل عسكرنا بيت المقدس •
- ١٩ - الدوق يمضى على جواده متجولا فى المدينة هنا وهناك مع  
اتباعه ، ويأتى من أعمال التخريب ما هو فوق الوصف ، واما  
كونت تولوز فيقتدم المدينة من ناحيتها الجنوبية ويدخل  
رجالها ، فيرتد بعض المواطنين الى القلعة •
- ٢٠ - الأهالى يجتمعون بساحة المسجد فيتعقبهم تانكريد الى هناك  
ويتمخض الأمر عن مذبحة مروعة وبسفك دم كثير هناك •

٢١ - الهدوء يعود الى المدينة ، وتسكن الجلبة ، وتنحى الأسلحة  
جانبا للصلاة ، ثم يتجول الصليبيون فى القدس لزيارة  
الأماكن المقدسة وينقضى اليوم فى أداء شعائر وقورة •

٢٢ - أسقف بوى وغيره ممن توفاهم الرب اثناء هذا الحج يظهرون  
فى المدينة ويتجلون للكثيرين •

٢٣ - المؤمنون الساكنون بيت المقدس يقدمون الشكر الصادق  
لبطرس الناسك الذى حملوه من قبل رسالتهم وكرموا  
الاکرام الذى يستحقه عن حق •

٢٤ - تنظيف المدينة من جيف القتلى ، واستسلام الهاريين بالقلعة  
الى ريموند كونت تولوز ، واعتبار هذا اليوم يوما خالدا  
ابدا •

\* \* \*

## هنا يبدأ الكتاب الثامن

---

### خاتمة رحلة الحج : الاستيلاء على بيت المقدس

- ١ -

من الحقائق المعروفة تمام المعرفة أن اورشليم المدينة المقدسة  
الحبيبة الى الرب تقع على تلال عالية ، وتقول الأخبار القديمة أنها  
كانت تابعة لقبيلة بنيامين •

ويقع الى الغرب منها أرض شمعون وأرض الفلسطينيين ،  
وكذلك البحر الأبيض المتوسط الذي تبعد أقرب نقطة منه عنها بأربعة  
وعشرين ميلاً وذلك عن مدينة يافا القديمة •

وتوجد قرية عمواس بين بيت المقدس وبين البحر ، وهي التي  
سميت فيما بعد بنيكوبوليس ، حيث تجلى السيد - بعد قيامته -  
لأثنين من تلاميذه •

كذلك تقع قلعة « مودين » وهى إحدى قلاع المكابيين الطاهرين الشديدة التحصين ، وأيضا القرية المباركة « نوب » التى أطاع فيها داود وخدمه - اذ جاءوا - الكاهن « اخيمالك »<sup>(١)</sup> فاكلوا الخبز المقدس ، كما يوجد هناك أيضا ، ديوسبوليس « وهى اللد ، التى أبرا فيها بطرس الرجل المقعد التمسيح<sup>(٢)</sup> الذى ظل طسريح الفرائس مضطجعا على السرير مفلوجا منذ أن كان فى الثامنة من عمره .

كذلك توجد يافا حيث أحيى بطرس من بين الموتى التلميذة المسماة « طابيتا »<sup>(٣)</sup> صاحبة الأعمال الخيرة والاحسان ، وردها الى الحياة فى وجود القديسين والأرامل .

كذلك حدث فى يافا أن تلقى بطرس - وهو مقيم فى بيت سمعّا - الدباغ - رسول « كورنيليوس » كما هو وارد فى أعمال الرسل<sup>(٤)</sup> .

ويوجد فى شرقى المدينة ، وعلى بعد أربعة عشر ميلا ، مياه الأردن والصحراء المتاخمة له التى كانت معروفة قديما كل المعرفة لأبناء الأنبياء ، كما يوجد هناك الوادى الخشبي ، حيث يوجد الآن بحر الملح المعروف أيضا ببخيرة الاسفلت أو البحر الميت ، وكان

(١) صمويل الأول ٢١ : ١ - ٦ .

(٢) الرجل الذى يشير اليه وليم الصورى فى المتن ولم يذكر اسمه ولا الترجمة الانجليزية هو « اينياس » كما ورد فى أعمال الرسل ، ٩ : ٣ .  
(٣) جاء فى التوراة أن معنى « طابيتا » هو « الغزالة » ونضيف فى هذه الترجمة العربية ما جاء فى أعمال الرسل ، ٩ : ٣٦ من « انها كانت ممتلئة أعمالا صالحة واحسانات كانت تعملها ، ولما ماتت استدعى بعضهم بطرس فصلى ثم أمرها - وهى ميتة - بالقيام ففتحت عينيها وجلست .

(٤) أعمال الرسل ٩ : ٣٦ وما بعدها .

كل هذا الاقليم - كما نقرأ في سفر التكوين(٥) - يروى مثل جنة الرب وذلك قبل أن يعصف الرب بسدوم فيدمرها .

وتقع على هذا الجانب من الأردن مدينة « أريحا » التي تغلب عليها « يوشع » خليفة موسى بالصلاة أكثر من تغلبه عليها بالحرب ، وهنا رد السيد - فيما بعد أثناء مروره بها - النظر الى الرجل الأعمى (٦) ، كما يوجد هنا أيضا ( جبل ) الجلجلة ، وهو المكان الذي انصرف اليه ايليا .

وتقع فيما وراء الأردن جلعاد وبيشان وعمون ، ومؤاب التي انتهت من بعد الى الروبيين والجاديين ، والى نصف سبط منسى(٧)، ويعرف كل هذا الاقليم باسم عام هو « بلاد العرب » .

يوجد الى الجنوب من اورشليم القسم الذى به نصيب يهوذا ، وفيه بيت لحم ، وهو المكان الذى سلكه المخلص ، والموضع الذى سعد بمولد المسيح وكان مهده ، وتوجد هنا مدينة « تقوع » موطن النبيين حبقوق وعاموس ، والخليل الذى يعرف أيضا باسم كارياترب التى توجد بها المقابر الطاهرة للبطاركة الباركيين .

وتقع الى الشمال من بيت المقدس مدينة « جبعون » التى ذاعت شهرتها بسبب انتصار يوشع بن نون « التى شهدت معجزة وقوف

(٥) سفر التكوين ، ١٣ : ١٠ .

(٦) المغرب أن وليم الصورى ، وهو من هو فى حفظه للانجيل - يشير الى أن معجزة السيد المسيح كانت لرجل واحد أعمى ، على حين أن الوارد صراحة فى انجيل متى ٢٠ : ٣٠ - ٣٣ أنهما كانا اثنين « وكانا جالسين على الطريق » ، ومن شاء المزيد من خبر هذه المعجزة فليرجع الى متى .

(٧) انظر يوشع ، الاصحاح ٢٢ .

الشمس ساكنة له فى كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل ،  
وهى أرض سبط افراييم التى يوجد فيها « شلواه » الذى كان ذات  
مرة حارسا لهيكل السيد ، « وسخار » ، وهى أرض المرأة السامرية  
التي تكلمت مع المسيح ، و « بيتل » عابد العجل الذهبى والشاهد  
على خطيئة جيرويام ،<sup>(٨)</sup> .

كما يوجد هنا أيضا « سسبطيه » المدفون بها كل من يوحنا  
المعمدان وإيليا و « عديا » ، وقد سميت هذه الناحية فيما بعد  
« بالسامرة » نسبة الى تل « شمر » الذى بنيت عليه ، كما كانت  
ذات مرة عاصمة ملوك اسرائيل ، فعرف ذلك الاقليم منذ ذلك الحين  
باسم « السامرة » .<sup>(٩)</sup>

كذلك يوجد الى الشمال مدينة نابلس التى كانت تسمى قديما  
« بشكيم » نسبة الى مؤسسها ، ونقول كلمات سفر التكوين ان  
شمعون ولاوى ابني يعقوب قاما لدفع العار الذى جلبه « شكيم بن  
حمور » على اختهما « دينة » ، بفعلته الشهوانية الحمقاء ، فذبحا  
شكيم بن حمور وأولاده بالسيف ، وأضرما النار فى المدينة حتى  
صارت رمادا<sup>(٩)</sup> .

## - ٢ -

وتقع اورشليم كبرى مدة اليهودية فى بقعة عديمة المياه  
والينابيع والغابات والمراعى ، واذا أخذنا بما جاء فى التواريخ

---

(٨) انظر هذا الخبر فى الاصحاح العاشر من سفر يوشع .

(٩) سفر التكوين ٣٤ : ٢٥ .

القديمة وفى أخبار الشعوب الشرقية فإن هذه المدينة كانت تسمى فى البداية باسم « سالم » ، ثم صارت « ييوس » ، وبعد أن حكم داود سبع سنوات فى الخليل أخرج اليبوسيين من سالم وزاد فى حجم المدينة وجعلها قاعدة ملكية (١٠) ، وسماها أورشليم ، ونطالع فى أخبار الأيام الأول أن داود رحل بعدئذ ومعه كل اسرائيل الى أورشليم أى « ييوس » حيث كان اليبوسيون هم سكانها ، وقال سكان ييوس لداود : « لا تدخل الى هنا » - ومع ذلك فقد استولى داود على قلعة صهيون التى هى مدينة داود ، وقال داود « أن أول من يضرب اليبوسيين يكون « رأسا وقائدا » ، ولذلك كان يואب بن صرويه أول المتقدمين فصار رأسا ، ثم سكن داود الحصن الذى سموه مدينة داود ، وبنى المدينة حوله ، فامتدت من ميلو ، كما أن يؤاب جدد بقيتها •

ثم لما حكم سليمان بن داود هذه المدينة فيما بعد سُميت « بهيوسوليم » ، أى أورشليم سليمان ، ويذكر المؤرخان الشهيران ايجسبوس ويوسيفوس انه بسبب خطايا شعب يهوذا فان « تيتوس بن قيسباسيان » أمير الرومان العظيم حاصر أورشليم فى السنة الثانية والأربعين التالية لعذاب السيد، واستولى عليها وهدمها من أساسها، فصددت كلمة المسيح انه « لن يبقى فيها حجر على حجر لم ينقض » (١١) •

ثم جددت أورشليم بعد ذلك على يد « ايلوس هادريان » امبراطور الرومان ، وهو الرابع فى سلسلة الملوك بعد تيتوس ، فسميت اذ ذاك « ايليا » تمجيذا لاسمه حسبما نطالع ذلك فى أخبار مجمع نيقية

---

(١٠) الأيام الأول ، ١١ : ٤ - ٨ •  
(١١) حتى ٢٤ : ٢ •

المسكونى ، حيث جاء « ويكون أسواقا إيليا مبالغين عند  
الجميع » (١٢) .

كانت المدينة تقوم أصلا عند منحدر التل ، وهى تواجه المشرق  
والمغرب على السواء وكانت تقع على منحدر كل من جبل صهيون  
و «موريا» ولم يكن على المرتفعات سوى الهيكل وقلعة «أنتونيا» وقد  
نقل هادريان المدينة كلها الى قمة الجبل فصار مكان آلام السيد  
وقيامته داخلين ضمن نطاق نفس الموقع حين أعيد بناؤها بعد أن كان  
هذان الموضعان خارج المدينة قبلا .

\*\*\*

وبيت المقدس أصغر من المدن الكبرى وإن كانت أكبر من  
أى مدينة عادية ، وهى ذات شكل رباعى بعض الشيء وإن كان أميل  
الى الاستطالة ، إذ أن أحد أضلاعها أطول من بقية أضلاعها الأخرى،  
وتحدها من جوانبها الثلاثة وديان عميقة ، ويقع شرقيها وادى  
« يهوشافاط » الذى يشير اليه النبي يوشيا (١٣) فى قوله « لأنه هو  
ذا فى تلك الأيام وفى ذلك الوقت عندما ارد سبى يهوذا وأورشليم  
أجمع كل الأمم وأنزلهم الى واد يهو شافاط وأحكمهم هناك على  
شعبى وميراثى إسرائيل » .

ويوجد فى قاع هذا الوادى كنيسة رائعة أقيمت تمجيدا للعذراء  
أم المسيح التى يسود الاعتقاد أنها مدفونة بها ولا يزال قبرها المبارك  
مزارا للجموع المتدفقة الى ذلك المكان ، كما يشق هذا الوادى  
جدول « قدرون » الذى يفيض شتاء بمياه الأمطار المنهمرة ويشير

---

Canon VII, first Council of Niceae. انظر (١٢)

(١٢) يوشيا ٣ : ١ - ٢ .

اليه القديس يوحنا الانجيلي حيث يقول « وخرج يسوع مع تلاميذه الى عبر وادى قدرون حيث كان بستان(١٤) » .

ويتصل بهذا الوادى من الناحية الجنوبية رافد آخر اسمه « هنوم » ، الذى صار - حين وزعت الأرض بين أبناء اسرائيل - حداً للأنصبة المخصصة لـ « بن » ، ويهوذا ، كما هو مكتوب فى يوشع : « وصعد التخم فى وادى ابن هنوم الى جانب اليبوسى من الجنوب هى اورشليم ، وصعد التخم الى رأس الجبل الذى هو قبالة وادى هنوم غرباً » (١٥) .

ولا يزال يرى هنا الحقل الذى اشتراه أكبر التجار الملعونين يهوذا بالمال الذى قبضه ثمناً لتسليمه المخلص لليهود ، ويعرف هذا الحقل باسم « الخدمة » ثم جعلوه مدفنًا للحجاج .

كما نقرأ أيضاً عن هذا الوادى فى « أخبار الأيام الثانى » فيما يتصل بأحاز ( بن داود ) ، وهو « أوقد فى وادى هنوم وأحرق بنيه بالنار حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى اسرائيل » (١٦) .

ويحد بيت المقدس من الغرب جزء من نفس هذا الوادى الذى كانت فيه بركة قديمة زهبت بالشهرة فى أزمان ملوك يهوذا ، ويمتد الوادى من هنا الى البحيرة العليا المسماة عادة ببحيرة البطرك المجاورة للمقبرة العتيقة فى جب الأسد .

---

(١٤) يوحنا ١٨ : ١ .

(١٥) يشوع ١٥ .

(١٦) الايام الثانى ٢٨ : ٣ .

ويقارب المدينة من الشمال طريق مستو لا يزال يرى به الموضع الذى رجم اليهود فيه استيفان أول الشهداء وهو الموضع الذى رجم فيه واستغفر لمضطهديه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة (١٧) .

٢

يقع بيت المقدس على جبلين بناء على ما يقوله داود « أساسه فى الجبال المقدسة » .

وتقع قمتا هذين الجبلين داخل نطاق الأسوار ويفصلهما عن بعضهما واد صغير يقسم المدينة الى قسمين ، ويسمى الجبل الواقع الى الغرب بجبل صهيون وقد أشير اليه فى قول القائل : « الرب أحب ابواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب » (١٨) .

أما الجبل الآخر الواقع الى الشرق ويعرف بجبل « المريا » ، وقد وردت الإشارة اليه فى أخبار الأيام الثانى (١٩) . حيث قيل : « وشرع سليمان فى بناء بيت الرب فى اورشليم فى جبل المريا حيث تراءى لداود أبيه حيث هب داود مكانا فى بيدر ارنان اليبوسى » .

ويوجد الى الغرب على نفس قمة الجبل كنيسة تسمى بكنيسة صهيون ، ويقوم على مسافة قصيرة منها برج داود ، وهو بناء شديد الضخامة ، سامق الأبراج والأسوار والتحصينات المتصلة به وبذلك يشرف على المدينة التى تجثم تحته ويكون هو قلعتها .

(١٧) المزمير ٨٧ : ١ .

(١٨) المزمير ٨٧ : ٢ .

(١٩) الأيام الثانى ٣ : ١ .

كما يوجد على مقربة منها كنيسة القيامة الطاهرة الدائرية الشكل ، ولما كانت هذه الكنيسة تقع على منحدر التل الذى ذكرنا حالا أنه يشرف عليها من أعلى ويتأخمها فانه يجعل داخلها حالك الظلمة ، على أن سقفها مشيد من عروق الخشب الشديدة الارتفاع ، المصنوعة أبدع صنعة على شكل تاج ، وهى مبنية هكذا لتكون مفتوحة دائما الى السماء مما يتيح للداخل ما يحتاجه من الضوء ، ويقع تحت هذه الفتحة المتسعة قبر المخلص .

كان موضع آلام السيد المسمى « كلفارى » أو الجبلية يقع قبل مجيء شعوبنا اللاتينية خارج حدود هذه الكنيسة ويقال انه وجدت هنا خشبة الصليب الأسمى ، كما تذكر الأخبار أيضا أنهم لما أنزلوا جسد المخلص من على الصليب مسحوه هنا بالزيت وضمخوه بالعطور الزكية ، وأدرجوه فى درج لفائفه من الكتان كما جرب عادة اليهود فى الدفن ، ولم تكن هناك فى ذلك الوقت سوى كنيسة صغيرة جدا ، ولكن بعد أن تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيت المقدس بعون الرب وأحكموا قبضتهم عليها رأوا ما عليه هذا المبنى الأسمى من شدة الصغر فزادوا فيه ثم استخدموا اللافتة بناء جديدا من الحجر المصمت ، شاهق الارتفاع ، أحاط بالكنيسة القديمة ، ورتب ترتيبا محكما ليضم فى داخله الأماكن المقدسة التى وصفناها .

ويطل هيكل السيد على المنحدرات الشرقية والغربية لجبل « مريا » وقد شيد فى المكان الذى اشترى فيه داود الملك حقلا من « أرونة » اليبوسى وذلك حسبما ورد فى سفر صمويل الثانى (٢٠) ، وفى أخبار الأيام الثانى ، وقد جاء هنا الأمر له ببناء مذبح للسيد

---

(٢٠) صمويل الثانى ٢٤ : ١٦ وما بعده .

فبناه وقدم عليه فيما بعد « بقرا محرقة وذبائح سلامة » ، وهناك نادى هو الرب بصوت سمع فى النار الآتية من السماء على مذبح القربان المحرق كما قام سليمان بعد موت أبيه ببناء الهيكل فى نفس المكان استجابة لأمر الرب(٢١) .

ونعرف من التواريخ القديمة كيف كانت هيئة هذا الهيكل وكيف سقط فى يد نابخذا نصر ملك بابل ثم أعيد بناؤه زمن كورش ملك فارس على يد زربابيل ويوسو الكاهن الأعظم ، كما نعرف من هذه التواريخ كيف دمر تيتوس أمير الرومان نفس هذا الهيكل والمدينة كلها فيما بعد .

ويكفى أن نشير هنا الى من خطط رسم هذا البناء وأن نصف شكله لأننا قلنا فى الكتاب الأول(٢٢) من هذا التأليف أن عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء هو باني هذا الهيكل ، ويؤكد هذا القول النقوش القديمة الموجودة على جدران البناء من الداخل والخارج على السواء .

أما صفة البناء فكما يلى :

توجد ساحة مربعة متساوية الأضلاع ، يحوطها سور متوسط الارتفاع ، وتقع هذه الساحة على مضبة يقدر كل من طولها وعرضها مسافة رمية سهم من قوس ، ولها من الناحية الغربية بابان يؤديان الى داخلها ، ويعرف أحدهما بالباب الجميل ، ويقول الخبر الوارد فى أعمال الرسل انه « كان رجل أعرج من بطن أمه يحملونه ٠٠٠ وكانوا يضعونه كل يوم عند باب الهيكل الذى يقال له الجميل يسأل صدقة من الذين يدخلون الهيكل »(٢٣) .

(٢١) الأيام الثانى ، ٣ : ١ .

(٢٢) راجع الجزء الاول من هذه الترجمة العربية ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢٣) اعمال الرسل ٣ : ١٠ - ٨ .

أما الباب الآخر فقد نسينا اسمه •

كما يوجد باب واحد فى السور الشمالى ، وآخر فى الناحية الشرقية •

أما القصر الملكى المعروف الآن باسم هيكى سليمان ، فيقوم فى الناحية الجنوبية، كما توجد مآذن شاهقة الارتفاع يصعد إليها مؤذنو الاسلام فى ساعات معينة لدعوة الناس الى الصلاة ، وهذه المآذن تعلو كل باب من الأبواب المؤدية الى المدينة ، وكانت تقوم - فى كل ركن من اركان الساحة المربعة - التى أشرت إليها حالا - مآذن لايزال بعضها موجودا حتى اليوم ، أما غيرها فقد زال بسبب شتى المصائب التى نزلت بها •

ولم يكن مسموحا لأحد من الناس أن يعيش فى داخل هذه المواضع ، بل لم يكن أحد ما بقادر على الدخول الى هناك الا وهو حافى القدمين قد غسلهما منذ قليل ، وكان يقف على كل باب من الأبواب حرس مهمتهم مراعاة هذا الأمر مراعاة دقيقة •

وكان فى وسط تلك البقعة المجاورة ساحة أخرى ترتفع عن هذه بعض الشيء ، وصورتها أقرب ما تكون الى المربع المتساوى الأضلاع ، ويوجد الى الغرب والجنوب سلمان مدرجان يصعدان الى الساحة •

أما من الناحية الشرقية فنم مدخل واحد فقط ، ويوجد فى كل ركن من هذه الساحة مسجد صغير ، ولايزال بعض هذه المساجد قائما حتى اليوم ، أما ماسواها فقد هدمت لتفسح مكانا لأبنية مستحدثة حلت محلها •

وفى وسط هذه الساحة العليا يقوم المسجد ، وهو مئمن الشكل متساوى الاضلاع ، كما أن جدرانه الداخلية والخارجية على السواء مرخمة ومحلاة بالفسيقساء ، أما السقف فدائرى مكسو بالرصاص الدقيق الصنعة ، وقد رصفت الساحتان العليا والسفلى ومدرجاتهما بالرخام الأبيض ، ومن ثم فإن الأمطار التى تسقط بغزارة فى الشتاء ، وما ينحدر من المسجد ذاته وكذلك المياه التى تتدفق من جهات أخرى نقية صافية فائها كلها تنساب الى الصهاريج الكثيرة الواقعة داخل هذه الناحية التى وصفناها •

ويوجد فى وسط المسجد - وفى نطاق الصف الداخلى من الأعمدة - صخرة ليست شاهقة الارتفاع ولكنها تعلو كهفا ، وتقول الأخبار أن الملاك جلس هناك حينما صرع الناس بأمر الرب قصاصا على جرم داود فى تعدادهم ، ولم يتوقف السيف حتى أمر الرب ثانية بالعفو عنهم ، ثم قام داود بعدئذ واشترى هذا الحقل بستمئة شاقل من الذهب كاملة غير منقوصة الوزن وبنى مذبحا هناك كما ذكرنا من قبل ، والحق أن هذا المكان ظل خمسة عشر عاما قبل مجيء اللاتين وبعدهم مجردا من كل ما يغطيه ، حتى رخمه أخيرا بالرخام الأبيض من استولوا عليه ، كما بنى أعلاه مذبح وهيكلا لجوقة المرتلين ، وعين قسيس هناك لاداء الخدمات الدينية •

وتقع مدينة أورشلیم المؤمنة بالله فى أرض يهوذا التى تعرف أيضا باسم فلسطين الأولى، ويرجع اسم يهودية هذا الى الوقت الذى انفصل فيه الأسباط العشرة عن « ريغام بن سليمان ليتبعوا جيروبيم ابن نياث ، ولم يبق مع ريهوبوم سوى جماعتى بن ويهوذا ، ومنذ ذلك الحين سميت أرض هذين الشعبين بأرض يهوذا من اسم يهوذا كما نقرأ هذا فى الانجيل « انهم عادوا الى أرض يهوذا » ومنذ ذلك الحين سمى « ريهوبوم » وخلفاؤه بملوك يهوذا ، أما حكام القبائل العشرة الأخرى فقد عرفوا باسم ملوك اسرائيل أو السامرة •



وتعرف فلسطين أيضا باسم «فلسطينا» ، وهو مشتق من أصحابها الفلسطينيين ، ويقال ان هناك ثلاث بقاع تعرف كل منها بفلسطين ، أولاها تنفرد باسم يهوذا وعاصمتها اورشليم ، وأما الثانية فمدينتها العظمى قيسارية البحرية ، وأما عاصمة الثالثة فهي بيسان أو سكيثوبوليس التى تطل عليها الآن كنيسة الناصرة ، وإذا خيلنا جانباً الاسم الذى يمكن إطلاقه عليها فليس من شك فى أن يهوذا « كانت تعتبر من أرض الميعاد وبلاد الشام ، ونستدل على ذلك من كلمات تلك الرسالة التى نقرأ فيها : « وفى سورية لاسيما فى إقليم فلسطين التى هى جزء من سورية ، وفى الأرض التى تعطف الرب فتجسد فيها بشراً من لحم ودم فقد جرت العادة اطلاق الحرية فى المسميات » .

وتقع هذه المدينة فى الحقيقة وسط أرض الميعاد بناء على ما يستفاد من وصف الحدود حيث قيل (٢٤) « من البرية ولبنان ، هدا الى النهر الكبير : نهر الفرات جميع أرض الحثيثيين « وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم » .

وتقع المدينة وسط بقاع جدياء خالية تماماً من الماء ، ونظراً لخلوها من الجداول والينابيع والأنهار فكل اعتماد أهلها يكون على مياه الأمطار التى اعتادوا - إذا ما حل الشتاء - أن يجمعوها فى الصهاريج الموجودة بكثرة فى كل أنحاء المدينة (٢٥) ، ويدخرونها للاستعمال على مدار السنة ، ومن ثم فإن الدهشة تملكنى مما يقرره سولينوس من اشتهاى أرض يهوذا بمياهها إذ يقول فى تاريخه « وتشتهر كورة يهوذا بمياهها وإن اختلفت طبيعة هذه المياه بعضها عن بعض » .

(٢٤) يشوع ١ : ٤ .

(٢٥) أخبار الأيام الثانى ٢٨ . ٢ - ٥ .

ولا يمكننى التعليق على هذا التباين الا بقولى : اما ان سولينوس جانب الحق فى هذا الأمر فلم يقل الواقع ، واما ان عوامل التغيير قد اعترت فيما بعد سطح البسيطة ، ومن المعروف جيدا ان حزقيا ملك يهوذا وهو صديق الرب قد توقف عند الينابيع الموجودة خارج المدينة حينما سمع ان جيش سنخريب بن «شلما نصر» أصبح على الأبواب . ونقرأ فى هذا الصدد فى أخبار الأيام الثانى (٢٦) ولما رأى حزقيا ان سنخريب قد أتى وقصده محاربة اورشليم تشاور هو ورؤساؤه وجبابرته على طم مياه العيون التى هى فى خارج المدينة ، فساعدوه ، فتجمع شعب كثير وطموا جميع الينابيع والنهر الجارى فى وسط الأرض قائلين لماذا يأتى ملوك آشور ويجدون مياهها غزيرة . وأهم هذه الأنهار هو المسمى جيحون (٢٧) المشار اليه فى نفس الكتاب بقوله : « وحزقيا هذا سد مخرج مياه جيحون وأجراها تحت الأرض الى الجهة القريبة من مدينة داود » (٢٨) .

ويقع جيحون الى الجنوب وسط وادى هنوم ببית المقدس حيث تقوم الآن الكنيسة التى شيدت تمجيذا للشهيد المبارك «بروكوبيوس» ، ويقال ان سليمان مسح فى هذا المكان ليكون ملكا وذلك طبقا لما جاء فى سفر الملوك الأول فقال الملك لهم (٢٩) « خذوا معكم عبيد سيديكم واركبوا سليمان ابنى على البغلة التى لى وانزلوا به الى جيحون ، وليمسحه هناك صادوق الكاهن وناثان النبى ملكا على اسرائيل ،

---

(٢٦) الكلام هنا على لسان المؤلف وليم الصورى ، ونلمح فيه وفى السطور التالية مقدرة وليم على نقد ما يقرأ .  
 (٢٧) أخبار الأيام الثانى ٣٢ : ٣ .  
 (٢٨) الملوك الأول ١ : ٣٣ - ٣٤ .  
 (٢٩) المقصود بهم هنا صادوق الكاهن وناثان النبى ونباياهن بن يهويا .

واضربوا بالبوق ، وقولوا « ليحيى الملك سليمان » • على أنه يتضح أن هذه الحوادث وقعت قبل زمن ( المؤرخ ) سولينوس ، لأن مطالعة كتابه المسمى « بوليستور » يوضح تمام الايضاح أن هذا الكاتب كان موجودا بعد عصر تيتوس أمير الرومان الذى خرب بيت المقدس ، وقبل زمن ايليوس هادريان الذى أعاد بناءها ، اذ تقرأ فى الفصل الأربعين من هذا المؤلف (٣٠) أن أورشليم كانت عاصمة يهوذا ولكنها خربت ، فحلت محلها أريحا لتكون هى العاصمة ، بيد أنه لم تعد لها الصدارة بعد أن غزاها أرتا اجرسييس •

وعلى بعد ميلين أو ثلاثة أميال فيما وراء المدينة توجد بعض الينابيع ، ولكنها قليلة العدد ، شحيحة المياه ، ومع ذلك فعلى بعد ميل واحد تقريبا الى الجنوب من القدس حيث يلتقى الوديان اللذان أشرنا اليهما من قبل توجد بركة « سلوام » الشهيرة التى بعث اليها المسيح بالرجل الكفيف منذ مولده ليغتسل فيها ويرتد اليه بصسر (٣١) •

وسلوام هذه بركة صغيرة توجد فى القسم الأسفل من الوادى، وليس ماؤها بالمعذب ولا هو بالدائم التدفق ، لأنه يخرج متقطعا ، ثم أنها تجرى يوما وتتوقف يوما آخر •

\*\*\*

ما كاد الأهالى يعلمون باقتراب الجيش الصليبي حتى طموا منابع الآبار وأفسدوا مخازن المياه التى حول المدينة الى مسافة

Solinus : Polyhistor, XXXV.

(٣٠) نقلا عن الترجمة الانجليزية

(٣١) انظر يوحنا ٩ : ٧ •

خمس أو ست مراحل ، أملا منهم فى أن ينصرف الصليبيون عن حصار المدينة حين يجدون أنفسهم يعانون الظم الشديد ، وقد نجحت خطة الأهالى هذه فى تكبيد جيشنا عذابا ليس من بعده عذاب أثناء الحصار الذى أعقب ذلك الأمر ، حسبما نورده فى الفصول التالية ،

ومن ناحية أخرى فقد توفرت المياه الكثيرة لمن كانوا فى داخل المدينة بفضل ما كانوا قد خزنوه من مياه الأمطار ، بالإضافة الى ما جلبوه اليها من الينابيع الموجودة خارجها ، والتي كانوا يجلبونها فى القنوات فتصب فى بحيرتين كبيرتين ملاصقتين تماما لجدران المعبد من الخارج ، وان كانتا داخل حدود المدينة ، ولاتزال احدهما تعرف حتى اليوم « ببركة الضأن » لأنها كانت مخصصة لغسيل أغنام الأضاحى ، ويشير يوحنا الانجيلى الى أنه كان لهذه البحيرة خمسة أروقة ، ويقول انه كان ينزل اليها من وقت لآخر ملاك يحرك ماءها ، فمن نزل أولا بعد تحريك الماء براً من أى مرض اعتراه ، ولقد شفى السيد هنا الرجل المفلوج وأمره أن يحمل سريره ويمشى(٣٢) •

## - ٥ -

ولما كان اليوم السابع من يونيو من عام ١٠٩٩ لمولد المسيح عسكرت كتائب الجيش الصليبي أمام بيت المقدس ، ويقال ان عدد الحجاج كان يقرب من أربعين ألفا من كلا الجنسين ومن شتى الأعمار والطبقات ، وكان فيهم من المشاة عشرون ألف راجل ، ومن الفرسان ألف وخمسمائة الى جانب حشد لارجاء فيه من المرضى والعجزة •

---

(٣٢) راجع القصة كاملة فى يوحنا ٥ : ٢ - ١٢ •

وتقول الأخبار انه كان بداخل بيت المقدس أربعون ألفا من المحاربين الشجعان (٣٣) المزودين بأحسن السلاح ، الى جانب من انهال عليها من أهل القلاع الموجودة فى منطقتها وما جاورها ، وكانوا أعدادا كبيرة جاءوها هربا من وجه الجيش ( الصليبي ) وطلبنا للسلامة ، فقد كانت تحدوهم أيضا الرغبة فى مد يد المساعدة للدفاع عن المدينة الملوكية لانقاذها من الخطر الذى يهددها ، كما جاءوا معهم بامدادات من الرجال المسلحين وبكميات وفيرة من الزاد .

فلما اقترب الصليبيون من المدينة حرص قوادهم على عقد اجتماع مع أهل الخبرة والدراية للاستفسار عن الجهة التى يمكنهم منها مهاجمة المدينة هجوما يكفل لهم النجاح ، واذ كانت الدروب العميقة المشار إليها من قبل تحول دون الاغارة عليها من الشرق أو من الجنوب ، فقد قرر القادة مباغثة البلد من الشمال ، فرتبوا الأمر على أن تمتد صفوف عسكرهم من الباب المعروف اليوم بباب القديس استيفان المواجه للناحية الشمالية حتى الباب الموجود أسفل برج داود القائم فى الطرف الغربى من المدينة ، والذى يشارك البرج نفسه فى التسمية باسم هذا الملك ذاته .

ورتب العسكر على الصورة التالية :

كان أولهم فى الترتيب عسكر جود فروى دوق اللورين ، ثم يليه عسكر روبرت كونت فلاندرز ، ثم الثالث بقيادة روبرت كونت نورماندى ، فالرابع وهو مؤلف من قوات تانكريد وبعض الأشراف

---

(٣٣) كان هؤلاء بطبيعة الحال من المسلمين كما يستدل من سياق الكلام .

الذين وقفوا حول البرج القائم بالركن هناك ، والذي عرف فيما بعد  
ببرج تانكريد •

أما ( ريموند ) كونت تولوز ومن معه فقد أكملوا خط الحصار  
المعتد من البرج حتى البوابة الغربية ، غير أنه وجد بعدئذ أن موضعه  
هذا لن يساعده كثيرا على نجاح الهجوم على المدينة من تلك الناحية،  
اذ كان يسيطر على معسكره البرج الموجود فوقه ، والذي كان فى  
الوقت ذاته يحمى البوابة من أسفلها حماية قوية ، كذلك كانت  
مجاورته الشديدة للوادي الواقع بين معسكره وبين المدينة تقف سدا  
فى وجه تحركاته ، ومن ثم فقد نزل على مشورة رهط من الرجال  
الأنكياء الخبيرين بالموضع ، ونقل جزءا من جنده الى التل الذى يقوم  
عليه بيت المقدس ، وكانت هذه الناحية واقعة بين البلد وبين كنيسة  
صهيون التى هى على بعد رمية قوس من المدينة من ناحية الشمال ،  
كما خلف الكونت جزءا من معسكره فى موضعه الأصلي ، ويقال انه  
فعل ذلك كله لهدفين : أولهما أنه أراد أن يكون رجاله على مقربة  
من المدينة قربا ييسر لهم الهجوم عليها ، وثانيهما انه أراد أيضا  
حماية كنيسة صهيون من أى أذى يريد العدو انزاله بها •

وكان هذا هو المكان الذى يعتقد الناس أن المخلص تناول فيه  
عشاءه الأخير مع تلاميذه وغسل لهم أقدامهم فيه ، كما يقال أيضا انه  
الموضع الذى نزل فيه الروح القدس على حواريه على شكل لسان  
من اللهب فى يوم عيد العنصرة ، ويضاف الى ذلك ما تقوله الرواية  
القديمة من أنه المكان الذى ماتت فيه مريم الطاهرة ، كما أن به  
أيضا موضع قبر ستيقان أول الشهداء •

## - ٦ -

على هذه الصورة التى وصفناها كان ترتيب العسكر .

وهكذا كانت قوات الحصار تحوط بما يقرب من نصف المدينة ، ولم يبق خارج دائرة الحصار سوى القسم الممتد من البوابة الشمالية - السماء عادة ببوابة القديس استيفان - الى البرج الواقع فى الركن والمشرى على وادى يهر شافاط ، وكذلك المنحطة الممتدة من البرج المقابل لزاوية المدينة فى الجنوب والكائن فرق منحدر نفس الوادى ، ثم يمتد من هناك الى البوابة الجنوبية المعروفة الآن باسم بوابة جبل صهيون .

فلما كان اليوم الخامس من مرابطة جيشنا أمام الأسوار نودى فيهم - صفارا وكبارا - بالاستعداد لغزو المدينة ، وان يكونوا فى كامل سلاحهم ودروعهم ، فتم ذلك على أكمل وجه ، اذ قام الجميع قومة رجل واحد لانجاز هذه المهمة ، وشنوا على شتى النواحي المحاصرة من المدينة هجوما ضاريا نشيطا عجل بالقضاء على التحصينات الخارجية ، وأقزع العدو فزعا حملة على الارتداد على أعقابها لحماية الأسوار الداخلية ، والواقع ان الشك أخذ يساور الأمل عما اذا كان ثم جدوى فى بذل المزيد من المقاومة .

والحق انه لو كان قد توفر للصليبيين يومئذ سلالمة التسلق ، او كان لديهم الآلات التى يتمكنون بها من الاستيلاء على الحصون ، لاستطاعوا من غير شك أخذ المدينة فى ذلك اليوم حين هاجموها بهذه الحماسة ، لكنهم بذلوا من الجهد العظيم ما ذهب هباء منذ مطلع الفجر حتى الساعة السابعة تقريبا ، واذاً ذلك تبدد أملهم فى النجاح لعدم وجود الآلات معهم ، لذلك أرجأوا القيام بأى عمليات أخرى.

٩٧

( ٧ م - الحروب الصليبية )

حتى يتم صنع هذه الآلات التي سوف تمكنهم بمعونة الرب من معاودة الهجوم هجوما يضمن لهم نجاحا أكبر .

لذلك ركز الزعماء اهتمامهم على موضوع الحصول على المواد اللازمة لبناء آلات الحصار ، فأروا أن ليس فى النواحي التي حولهم ما يحقق لهم غرضهم ، لكن شاء حسن طالعهم أن يكون فى المعسكر اذ ذاك نصرانى من أهل الشام خرج مع بعض القادة وارشدهم الى واد منزل يبعد عن القدس ستة اميال أو سبعة ، وهو واد غنى بالأشجار الباسقة الكثيرة ، وان لم تكن كلها ملائمة تماما للوفاء بالغرض المنشود ، وان وجدوا بينها قدرا كافيا لتحقيق اربتهم فاستدعوا اعدادا كبيرة من الفعلة والنجارين ، فقطعوا الأشجار وحملوها على ظهور الجمال وعربات النقل ونقلوها الى المدينة ، ثم بعثوا فى طلب الصناع والمهرة الحاذقين فى هذا النوع من العمل ، فاقبلوا جميعا عليه بنفوس متحمسة ، وقلوب لا يتطرق اليها الكلل ، ولا تكل عن المثابرة على استعمال الفؤوس وغيرها من الأدوات المستعملة فى عمليات الحفر حتى استطاعوا بما توفر بين أيديهم أن يبنوا ما شاءوا من الأبراج وآلات الرمي المعروفة بالمنجنيق وصنعوا كباش الهمد والمدكات لتنفذ الأسوار .

أما العمال الذين تطوعوا للعمل بلا أجر رغم نقص المأنة بين أيديهم ، فقد كانت أجورهم من الهبات التي قدمها المخلصون ، والواقع أنه لم يكن عند أحد من الزعماء من المال مايزيد عما لدى غيره وما يكفى لسداد أجور البنائين باستثناء كونت تولوز الذي كان أكثرهم ثراء ، فقام وحده من غير مساعدة من أى أحد آخر بدفع نفقات العمال التابعين له من جيبه وخالص ماله ، كما مد يد العون بالمال الى كثير من النبلاء الذين نضبت مواردهم .

بينما كان اكبر الزعماء مشغولين بهذه الأمور الهامة خرج  
غيرهم من وجوه القوم والبارزين فيهم ناشرين الويتهم ، وساروا  
بالناس الى الأماكن التى كانت زاخرة بالغابات القصيرة الأشجار  
والأحراج ، فأخذوا منها أعواد الخيزران المستوية والفروع اللدنة ،  
وعادوا بها الى المعسكر على ظهور الجياد والحمير وكل مالديهم من  
دواب النقل ليعملوا منها شبكا لا بد منها لاستكمال أعمال البنائين  
الهامة ، ودب النشاط فى كل ناحية ، وعمل الجميع فى حماسة لا تهن،  
ولم يعد هناك واحد فى هذه المجموعة الكبيرة من الناس نراه عاطلا  
أو لاهيا ، بل اشتغل كل منهم بمايناسبه دون تفرقة بين فرد وآخر ،  
أو اعتبار لمكانة الشخص منهم فعد كل عمل مجد عملا شريفا ،  
وهكذا تعاون القوم : غنيهم وفقيرهم على السواء فى القيام بما بين  
أيديهم من الأعمال حتى لم يعد فيهم أحد الا وهو متحمس للعمل  
مقبل عليه اقبالا يستوى فيه الجميع ، لا يتأخر من كان منهم رفيع  
القدر عن مد يد المعونة لصغيرهم الذى كان ملتزما بما فرض عليه ،  
وشعر الكل ان جميع ما أنجزوه فى حجهم لن يكون شيئا مذكورا  
ان لم يؤد بهم الى دخول المدينة ، فذلك ثمرة جهدهم والغاية التى  
تحملوا من أجلها كثيرا من الأموال ، واعتبروا كل ما يكلفون به  
شيئا تافها ان أدى الى ما يصبون اليه ، وفاء بالعهد التى قطعوها  
على أنفسهم .

## - ٧ -

ثم بدأ الجش يكابد الظما مكابدة فظيعة وذلك لوقوع بيت  
المقدس - كما قلنا - فى أرض مجدبة تماما خالية من الماء ، أما  
القنوات والينابيع والآبار العذبة فكانت بعيدة عنها ، وزاد الأمر  
مشقة أن لم يكد الأعداء يسمعون باقتراب الصليبيين حتى أفسدوا  
مصادر المياه هذه ، إذ راحوا يلغون فيها بالأوساخ ومختلف

الفضلات ليفدو المكان غير صالح لحصار طويل المدى ، وعمدوا الى بعض الصهاريج وخزانات مياه المطر فتقبوها فلم تعد تمسك ماء ، ومضوا الى البعض الآخر منها فآخفوها عن عيون الحجاج حتى لا يجدوا ما يروى لهم غلة أو يبل لهم صدق وهم فى حالة تبعث على اليأس .

ومع ذلك فطالما تردد أهل بيت لحم ومؤمنو مدينة الرسل «تقوع» على الجيش فيسترشد بهم الحجاج فى خروجهم الى العيون التى تبعد أربعة أو خمسة أميال من موضع الحصار ، فكانوا اذا بلغوها - وما يبلغونها الا يشق النفس - تدافعوا بالمناكب ، وزاحم بعضهم بعضا عليها ، وحاول كل منهم أن يستأثر وحده دون صاحبه بالماء فيشرب العراك بينهم فيؤخرهم ذلك طويلا ، حتى اذا عادوا الى المعسكر عادوا بقرهم الجلدية وفيها الماء الممزوج بالطين الذى قل أن تشفى القطرة منه ظمأ الظمآن ، ثم يبيعونه جرعات صغيرة بأثمان باهظة .

ولم تكن بركة سلوام القريبة من المدينة والتى وصفناها حالا بقدرة على اسعاف العطاش المتضررين بما يكفيهم ، لأن مياهها - وان تكن كثيرة - لم تكن موصولة التدفق فى اوقات منتظمة ، كما ساعد الجو وقيظ يونيو على مضاعفة عذاب الحجاج ، فتزايدت شدة ظمئهم حدة حتى جفت حلوقهم ، وضائق صدورهم بسبب طبيعة عملهم والتراب المتصاعد ، اذلك أصبحوا يخرجون فى زمر متفرقة وينتشرون فى فجاج الأرض متحملين المشقة بحثا عن الماء ، وكان يحدث فى بعض الأحيان أن تظن هذه الجماعات الصغيرة أنها عثرت على الماء الذى سعت اليه طويلا لكنها تصادف عند بلوغها اياه جموعا كثيفة تسعى الى الأخرى اليه أيضا ، ولذلك فكثيرا ما كانت تشب المنازعات بين بعضهم والبعض حين يعثرون على الينابيع ، واذا كان

كل فريق منهم يحاول صد الآخر عنها فكثيرا ما كان ينتهى الأمر بهم الى قتال بعضهم البعض ، وكان المترجلون منهم أقدر - الى حد ما - على التخلص من عذابهم اذ يقتصدون فى استعمال الماء حين يعثرون عليه ، أما أصحاب الجياد الكثيرة فكان خطبهم جسيما ، اذ كان عليهم قيادة هذه الحيوانات الظمأى أربعة أو خمسة أميال حتى يصلوا الى الماء .

وكانت الحيوانات الشاردة التى عجز أصحابها عن امدادها بالماء تهيم وحدها على وجوها فى الحقول وتمضى خائفة القوى فى خطى قصيرة ، وكانت الجياد والبغال والحمير وقطعان الماشية والأغنام وقد أمضتها الظمأ القاتل تنفق حيث هى ، وترتب على ذلك أنفسد هواء المعسكر من جراء الروائح الكريهة المربوذة المتصاعدة من رمم هذه الحيوانات النافقة .

ولقد أصاب الناس خلال هذا الحصار - ما أصابهم وهم أمام انطاكية - من ظمأ قاس لا يقل عن حاجتهم للطعام ، معاً دفعهم الى التجوال فى غير حذر فيما يحيط بهم من النواحي يذرعونها بحثاً عن الطعام ، وطلباً للعلف اللازم للجياد ، واذ كان العدو عارفاً تمام المعرفة بحاجة هذه الجموع الى العلف فكثيرا كان يباغتهم بالهجوم عليهم من نواحي المدينة التى خلت ممن يحرسها فيفتك بالكثيرين منهم ويسلبهم خيولهم ، أما الذين يفرون وقد اثقلتهم جراحهم فكانوا هم السعداء .

أخذ عدد رجالنا يتقلص يوماً بعد يوم ، اذ لم يكن ينقضى يوم الا ويهلك الكثيرون بسبب شتى الحوادث التى يتعرض لها الانسان ، بالإضافة الى انقطاع أية امدادات أخرى تصلهم لتحل محل هؤلاء الهلكى وتؤدى ما كانوا يؤدونه من الأعمال .

أما قوات العدو فكانت فى تزايد مستمر وتكاثر موصول إذ  
كان حلفاؤهم يجدون طريقهم الى المدينة مفتوحا أمامهم من خلال  
النواحي التى لم يفرض عليها الحصار ، فيسرعون اليهم منضمين  
الى قوات الأهالى لتدميرنا •

## ٨ -

كان عسكرينا فى هذه الأثناء يبذلون فى العمل أقصى جهدهم  
ويصنعون الآلات وينسجون الشباك المجدولة ، ويشدون السلاسل  
بعضها الى بعض فى مهارة عظيمة ، كما كان المحصورون دائما على  
أتم أهبة لمقابلة المكيدة بالمكيدة ، ويحسنون الاستفادة من كل حيلة  
تساعدهم على المقاومة ، هذا الى ما كان متوفرا بالمدينة من العروق  
الخشبية المقطوعة من الأشجار الباسقة التى حملهم بعد نظرهم فى  
الدفاع عن القدس الى جلبها قبل وصول الصليبيين ، كما راحوا  
يعملون ما نعمله فصنعوا من هذه الكتل فيما وراء الأسوار آلات  
تطاول آلاتنا فى الارتفاع ، وإن تكن من مادة أفضل ، وبذلوا فى  
ذلك غاية البذل حتى لا تكون آلاتهم دون آلاتنا صنعة ولا مادة ، ولم  
يقصروا فى أن يقيموا على الأسوار والأبراج الكشافين الذين لاتغمض  
لهم عين عن مراقبة كل ما يجرى فى معسكرنا ، لاسيما فيما يتعلق  
بالفنون الخاصة بآلات الحرب ، فكانت لا تقوتهم شاردة ولا واردة  
وإن دقت الا وينقلونها فى الحال الى كبار رجال القدس الذين  
يجاهدون فى مهارة فائقة فى محاكاة عمل الصليبيين ومقابلة كل  
جهودهم بنفس البراعة ، وكان هذا أمرا ميسورا نسبيا بسبب ما  
توفر لأهل بيت المقدس من العمال الذين هم أمهر من عاملنا ، كما كان  
عندهم من أدوات البناء مايفوق أدواتنا دقة صنعة • هذا الى جانب  
أنهم كانوا ظاهرين علينا بفضل ما توفر عندهم من الحديد والنحاس

والحبال وغير ذلك من الأشياء اللازمة لهم ، كما أصدرنا مرسوما عاما يلزم جميع المواطنين بالمساعدة فى العمل وفرضوا كثيرا من الالتزامات المهرقة على المؤمنين القاطنين بالمدينة ، المتحملين عذاب الرق اذ يرغمونهم على ممارسة أعمال لم يألوها ، ويغتصبون منهم الأموال الجمة بالعنف ويسوقونهم الى السجون مصفدين فى الأغلال، حذرا من أن يؤدى تعاطفهم مع الصليبيين لأن يكشفوا لهم عن عورات البلد الخفية ، ولم يكن أحد من المؤمنين يجرؤ على اعتلاء الأسوار أو حتى على الظهور علانية مالم يكن معه حمل يحمله ويجرى به كأنه الدابة ، كما أرغموهم على رفع الأحمال الثقال ، وأجبروا كل من هو متقن لحرفة على القيام بها ، وكانوا يسرعون بتوقيع العقاب عليهم لأتفه التهم والوشايات التى يرمون بها ، ويلزمونهم بأن يستضيفوا فى بيوتهم من فروا الى القدس من اللاجئين من القلاع والقرى المجاورة ، ويحملونهم على امدادهم بكل ضروريات العيش ، وعلى الرغم من أن مواد معيشتهم لم تكن كافية لسد أدنى احتياجاتهم هم أنفسهم وحاجات أهل بيوتهم ومن يعولونهم الا أنهم فرضوا عليهم السماح للأغراب أن يشاطروهم القليل الذى يملكون ، مع أنهم هم ذاتهم كانوا فى ميسيس الحاجة الى هذا القليل هم وذوهم ، وكان أولو الأمر اذا احتاجوا لشيء ما فى عمل عام يادروا الى اقتحام بيوت المؤمنين فيأخذون غضبا من ملاكها كل ما هم فى حاجة اليه وكان المسيحيون اننى وجدوا وفى أى ساعة من ليل أو نهار عرضة للاستدعاء ، فإن حال أى حائل بينهم وبين الاستجابة فى الحال لما طلب منهم أمسكوهم فى الحال مسكا فاحشا اذ يجذبونهم من شعورهم ، أو يأخذونهم من لحاهم ويسحبونهم على وجوههم فى فظاظة تحمل حتى العدو على الرثاء لهم •

ويبدو أنه لم يكن ثم حد ولا نهاية للأهوال والصعاب التي  
تطحنهم بثقلها ، ولاقوا من العذاب فوق ما يحتمل مما أسلمهم الى  
اليأس الذي ليس بعده يأس حتى تمنوا الموت فى سبيل السيد على  
استمرارهم فى الحياة على ظهر الأرض ، ولامراء فى أن وجودهم  
التعس لم يكن يزيد عن أن يكون كالعدم ، إذ لم يعودوا ينعمون ولو  
بיום راحة أو هدوء تخمض لهم فيه عين .

فكان إذا حدث شيء كرهه نسب حدوثه اليهم مما حملهم على  
اغلاق دورهم فاغلقوها على انفسهم ، لا يجروون على مغادرتها والا  
ثارت حولهم الشكوك وتعرضوا للاهانات من كل واحد ، وما مرت  
لحظة الا واتهموا ظلما وبهتاناً .

## - ٩ -

بينما كانت هذه الأمور تجرى على هذا المنوال والحصار  
مضروباً على القدس اذا برسول يفد مخبراً بوصول مراكب من جنوة  
الى ميناء يافا ، وقد بعث هؤلاء القسامون الجدد الى الزعماء  
الصليبيين يلتصقون منهم أن يزودوهم بعسكر من الجيش يحرسهم  
عناهم يمشون فى حراستهم وقيادتهم سالمين الى القدس .

ويافا مدينة على ساحل البحر يتكلم عنها «سولينوس» فى الفصل  
التاسع والثلاثين من كتابه « أخبار عالمية » فيقول : انها أقدم مدن  
العالم كلها ، إذ يرجع تأسيسها الى زمن ما قبل الطوفان ، ويمكن  
للإنسان أن يشاهد هناك صخرة لاتزال تحمل آثار السلاسل قيدت

بها « اندروميديا » التى تعرضت فى هذا الموضع ( حسبما جاء فى احدى القصص القديمة الصادقة ) لوحش بحرى ، كما أن « ماركوس سكاوروس » يشير الى حقيقة هى أنه فى أثناء ولايته لروما عرض عظام هذا الوحش مع أشياء أخرى عجيبة ، وقد وردت هذه الحقيقة فى الحوليات ، كما ذكرت مقاييس الوحش الحقيقية ، فأضلاعه تجاوزت الأربعين قدما طولا ، أما ارتفاعه فأعلى من فيلة الهند ، كما أن الواحدة من فقرات ظهره كانت أكثر من نصف قدم عرضا » .

ويشير جيروم — فى وثيقة رثائه سنت باولا — الى نفس الشيء فيقول هذه الكلمات : « لقد رأت هى أيضا ميناء يافا الذى هرب اليه « جوناس » ، وهى نفس المدينة التى شاهدت « اندروميديا » مقيدة الى الصخرة كما تقول قصص الشعراء » .

ولقد استجاب الى هذا الالتماس (٣٤) كونت تولوز الذى كان له من الأموال مايفوق به بقوة الزعماء ، فأرسل — بموافقة الجميع — الى هناك واحدا من النبلاء الذين فى معيته وهو « جيلدمار » الملقب « بكارينيل » على رأس جماعة تتألف من ثلاثين فارسا وخمسين من المشاة ، ولكن تبين للزعماء بعد رحيل تلك الجماعة أن هذه القوة ليست بكافية لأداء مهمة شاقة كهذه المهمة ، فالتمسوا من الكونت أن ينجدهم بقوات اضافية ، فاستجاب لهم ، وأرسل زيادة على ذلك خمسين فارسا آخرين يشدون أزر الطائفة الأولى ، وجعل عليهم «رجلين قادرين بارزين ، هما « ريموند » بيليه ووليم «السابرائى» » .

---

(٣٤) المقصود بهذا الالتماس ماطلبه بحارة الأسطول الجنوى من ارسال طائفة من العسكر الصليبي لحمايتهم فى التقدم الى بيت المقدس .

كان جيلدمار - الذى سبق هذه الجماعة فى الخروج - قد دخل السهل المحيط بالملك والرملة حين اعترضته جماعة من العدو تقدر بستمائة من الرجال الأشداء الذين سرعان ما وثبوا عليه وفتكوا بأربعة من فرسانه ، وبالعديد من مشاته ، وعلى الرغم من قلة المسيحيين الا أنهم قاوموا ، وأسعفتهم المقاومة وراح كل منهم يشد من عزم أخيه على القتال ، حين شاء حسن الطالع أن يصل إليهم القائدان الآخران اللذان كانا وراءهم ، وذلك قبل الفراغ من المعركة ، فرميا بنفسيهما فيها بمن معهما ، وانضم العسكر كلهم بعضا الى بعض وكروا على العدو كرة مكنتهم بفضل المعونة الالهية من قتل مائتين من رجاله ، وأجبروا بقيتهم على الفرار ، أما المسيحيون فقد هلك منهم فى هذا الصراع اثنان من كبارهم ، هما جيلبرت دى تريف « وايكارد دى مونتميرل » فلما عرف الجيش خبر مصيرهما عمه اسى غير قليل . وبعد أن جادت العناية الالهية عليهم بهذا النصر تابعت الكتيبة مسيرها الى يافا التى هى غايتهم ، فوصلوها آمنين ، فتلقاهم البحارة الجنوبيون بالفرحة ، وعمتهم السعادة لفرط ما صار بينهم من ود ، وما كان بينهم من شيق الحديث ، ثم أقاموا بها فترة من الوقت فى انتظار أن يفرغ هؤلاء القادمون بحرا من انزال متاعهم واعداد أنفسهم للسير .

لكن ظهر الأسطول المصرى فجأة ذات ليلة أمام المدينة على غير توقع من أحد ، وكان هذا الأسطول راسيا عند « عسقلان » يتحين الفرصة لايقاع الأذى بالصليبيين ، فما سمع الناس بهذا النبأ حتى هبوا مسرعين الى الساحل ، وحاولوا فى بادئ الأمر حماية السفن مما يدبره العدو ، بيد أنهم سرعان ما أدركوا ضآلة قواتهم ضآلة لا تسعفهم بمقاومة مثل هذا العدد الكبير ، ومن ثم جردوا المراكب

من اشرعتها وحبالها وبقية تجهيزاتها وحملوا كل ذلك معهم ، ثم انسحبوا بما حملوا الى القلعة •

غير أن سفينة واحدة كانت غائبة فى حملة استكشافية ثم عادت موسوقة بالغنائم ، فلما رأت العدو قد ملك ميناء يافا تابعت اذ ذاك أبحارها وكانت الريح رخاء فمضت حتى بلغت اللاذقية سالمة •

كانت مدينة يافا فى هذه الآونة مقفرة تماما من سكانها الذين تضاءلت ثقتهم فى قدرة تحصيناتها فهجروها قبل وقت قصير من وصول المسيحيين ، فانصرف جنودنا لاحتلال القلعة دون سواها ، حتى اذا أصبح كل شىء على اھية الرحيل شخص الواقدون الجدد الى بيت المقدس بكل ما معهم من المتاع ، ومضوا تحت الحراسة المسلحة التى جاءتهم لتدلمهم على الطريق ، فلقيتهم الفيالق العسكرية امام القدس بالفرحة الغامرة ، لأن حضورهم جدد الأمل فى النفوس بالعون الكبير ، اذ كانوا اهل تجربة ومراس ، كما كانوا مهرة فى فن البناء كعادة البحارة دائما ، هذا الى جانب براعتهم فى قطع الأشجار ومسحها وتهيئة الكتل الخشبية المناسبة وصنع الآلات فى أقصر وقت ممكن ، يضاف الى هذا ما أحضروه معهم من أشياء متنوعة برهنت على جدواها فى الحملات الحربية ، وتيسر لهؤلاء الحجاج – بمساعدة أولئك الجنوبية لهم – من انجاز ما كان صعبا مستحيلا قبل مجيء هؤلاء الجنوبية •

— ١٠ —

دأب الذين تخلفوا فى مكان الحصار على القيام ببناء الآلات، وتم لهم اتمام جانب من عملهم هذا ، وكان الدوق وكونت فلاندرز وكونت نورماندى قد وكلوا الاشراف العام على العمل الى « جاستون

دى بيارن » وكان رجلا حازما عظيم القدر ، فالتمسوا منه أن يشدد الرقابة الفعالة على العمال حتى لا يتراخوا فى العمل الموكول اليهم اداؤه ، كما أن الزعماء طالما خرجوا بأنفسهم على رأس طوائف كبيرة من الناس لتقطع الخشب الذى يعودون به الى المعسكر لاتمام عمليات البناء المختلفة ، وكان البعض منهم يقوم بقطع الفروع والشجيرات والأغصان وتكويمها ، ثم يجدلونها ضفائر يكسون بها الآلات من الخارج ، ويقوم غيرهم بسلخ جلود الحيوانات النظيفة منها والقذرة على السواء ، التى تكون قد نفقت ظمأ أو ذبحت وراحوا يغطون أسطح الآلات بهذه الجلود لحمايتها من أن ينالها ضرر ان قذفها العدو بالنار من أعلى حتى يعطبها .

ولقد اذت حماسة الدوق والكوثين المذكورين الى بث النشاط العظيم فى المعسكر الموجودين على الجانب الشمالى من السور ، كما دبت نفس الحماسة فى القائمين على امتداد هذا الجزء من التحصينات من البرج الموجود فى الركن حتى البوابة الغربية الموجودة تحت برج داود ، كما أن قوات لورد تانكريد وغيره من السادة الآخرين الميثوثة معسكراتهم فى تلك الناحية قاموا بنفس العمل ، وأظهروا من النشاط مالا يقل عما أظهره غيرهم .

وتابع عسكر كونت تولوز وجميع من معه عملهم فى الناحية الجنوبية فى حماسة لا يتطرق اليها الكلل ولا يعتريها الفتور ، بل ان حماسهم فى هذا المجال لم يكن لها مثل ، ذلك لأن الوسائل المادية المتوفرة لريموند ( كونت تولوز ) كانت أكبر مما توفر للزعماء الآخرين ، بالإضافة الى ما جاء له منذ قريب من امدادات جديدة من الرجال والعتاد ، فقد انضم الى معسكره كل الذين جاءوا على السفن ( الجنوبية ) وجلبوا معهم كثيرا من المعونات كالحبال

والفؤوس وغيرها من الأدوات الحديدية التي لا يمكن الاستغناء عنها لصنع الآلات الحربية ، وكان في هؤلاء الرجال عمال ماهرة دربوا على صنعها وإقامتها ، وكانوا - كما قلنا - أهل خبرة . فنادى بن على ابتداء كل جديد يؤدي الى سرعة العمل ، كما أن الشريف وأبم « أمير ياكوس » قائد الجنوية لم يدخر جهدا ولا وقتا في موضوع بناء الآلات .

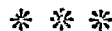
ظل الجيش بأكمله يبذل قصارى جهده على مدى أربعة أسابيع في أداء العمل الذي تم بعد مشقة كبيرة ، واذ ذاك أخذ الزعماء من التشاور فيما بينهم فاتفقوا على يوم معين للهجوم على المدينة .

على أنه في هذه الأثناء شب خلاف حاد بين كونت تولوز ولورد تانكريد ، كما دب الشقاق بين بعض النبلاء الآخرين لأسباب متعددة . وحينذاك رأى الزعماء والأساقفة ورجال الدين ، بل وعامة الناس أن الضرورة تحتم - قبل كل شيء - إعادة الوفاق والود على أحسن ما يكون الوفاق والود ، فاتجهوا بقلوب صافية الى العناية الإلهية يسألونها العون .

- ١١ -

لذلك نودى في الناس نداء عام بصوم يوم حدد لهم ، فلما جاء هذا اليوم المحدد خرج الأساقفة ورجال الدين حفاة في مسيحين الكهنوتية يجلبهم الوفاق التام ، وساروا وعن خلفهم كل دباعهم ، ويمموا وجوههم شطر جبل الزيتون ، رافعين في أيديهم الصلبان وأثار القديسين ، ووقف الموقر بطرس الناسك وأرنؤف الرجل العالم صديق كونت نورماندى في الناس خطيبين ، وأسعفتهم بلاغتهما ،

قطالبا الجميع بالتمسك بالصبر ، والتحدى بروح التسامح تجاه بعضهم البعض .



ويقع جبل الزيتون على مسافة ميل واحد من شرقي المدينة وراء وادى يهوشافاط ، الذى يتكلم عنه القديس لوقا فيقول انه على مسيرة مرحلة (٣٥) يوم من بيت المقدس ، وقد صعد من هذا الجبل مخلصنا الى السماء بعد أربعين يوما من قيامته ، وكان ذلك على مشهد من تلاميذه ، فلفته سحابة حجبته عن أنظارهم .

ولما وصل المؤمنون الى هذا المكان توجهوا الى الله بقلوب خاشعة ونفوس منكسرة ، يرجون منه العون ، وقد تصاعدت زفراتهم وأناتهم من صميم أفئدتهم ، وتصافى الزعماء بعضهم مع بعض ، قلما فرغوا من ذلك كله نزلوا من الجبل ، ودخلوا ثانية كنيسة جبل صهيون ، الواقعة كما قلنا قرب المدينة من الناحية الجنوبية على قمة التل .

واذ ذاك استبدت الدهشة بالأهالى من رؤية هذا الموكب وهو يدور حول المدينة ، ولم يدركوا مغزى هذا الدوران ، ثم اتخذوا أماكنهم على الأسوار والأبراج ، وشرعوا يقذفون السهام ويرمون بالمنجنيق صفوف الصليبيين المتراسة ، فأصيب بعض من رجالنا الذين لم يأخذوا حذرهم .

وعمد الأعداء الى اظهار احتقارهم وازدراءهم للصليبيين اذ رقعوا الصليبان على الأسوار وراحوا ينالونها بكل قبيح وزادوا

---

(٣٥) ورد بدلها كلمة « سبت » فى اعمال الد سل ١ . ١٢ - حدث بقول « جبل الزيتون بالقرب من اورشليم على سقر سبت » .

فبصقوا عليها ، وتالوها بالفاظ زرية ، كما راحوا يجدفون فى حق سيدنا عيسى المسيح وفكرة الخلاص •

أما المسيحيون فعلى الرغم من تسعر غضبهم عليهم الا أنهم استمروا فى الوفاء بما عاهدوا أنفسهم عليه حتى بلغوا الكنيسة وهى قبلتهم •

ولما فرغوا للمرة الثانية من صلاتهم أجمعوا على تحديد يوم يشنون فيه هجومهم على المدينة ، ثم عاد الجيش الى معسكرهم بعد أن فرغ المركب من دورانه حول البلد ، وصدرت الأوامر أنه اذا تبين لهم نقصان أى شئ لابد منه لاتمام نجاح مهمتهم فعليهم أحضاره فى الحال حتى لا يترتب على ذلك أى تأخير فى الهجوم •

واقترب اليوم المحدد للهجوم على المدينة ، فلما كانت الليلة السابقة له نقل الدوق والكونت العظيمان معسكرهما لأنهما رأيا أن سور هذه الناحية التى يحاصرانها كان شديد الحصانة ، بسبب ما هو متوفر فيه من الآلات والأسلحة والمحاربين المهرة ، ولما كان الأعداء على حق فى توجسهم الخيفة من هذه الناحية فقد اهتموا بتحسينها تحصينا عرف منه القادة ( اللاتين ) الا أمل لهم فى انجاز الكثير فى غدهم •

ثم نظروا فرأوا - عن حق - ما عليه الجانب الآخر من القدس الذى لم يحاصروه من ضعف فى الحراسة ، ومن ثم عمدوا فى ليلتهم هذه الى اعمال النظر وبذل الجهد الكبير فى نقل آلاتهم الحربية - والبرج الذى شيده - قطعة قطعة قبل ضم بعضها الى بعض الى ذلك القسم من المدينة ، وهو القسم الواقع بين بوابة القديس استيفان وبين البرج الموجود فى الركن الشمالى المطل على وادى يهوشافاط ،

وانتقل المعسكر الى هناك ، وكان العمل الشاق الذى نهضوا به طوال الليل قد مكثهم من نقل الآلات الحربية وتركيبها ووضعها فى الأماكن المناسبة قبل شروق الشمس ، كما نصبوا البرج المتحرك على التحصينات عند مكان كان السور فيه منخفضا بعض الشيء ، والوصول اليه سهلا ، وقد تم وضعه على هذه الصورة حتى يستطيع المدافعون الذين فى البرج القتال بالأيدي ، ومن هذا يستدل على أن المهمة التى أنجزوها لم تكن يسيرة ، لأنه كان قد تم نقل الآلات قبل بزوغ الشمس مسافة نصف ميل من الموضع السابق للمعسكر ، ثم ضموا الأجزاء بعضها الى بعض ، ووضعوا الآلات فى أماكنها الجديدة .

ولما بزغ الفجر أسرع الأهالى الى الأسوار لمشاهدة ما كان يفعله الصليبيون وراءها ، فراعهم أنهم لم يروا أثرا للقسم من المعسكر الذى كان موجودا على مدى اليومين السالفين ولا لمعداته هناك ، لكنهم لما تفرسوا فى ناحية منطقة السور تكشفه لهم أن معسكر الدوق قد انتقل من هذا الموضع ، ونصبت بدله المعدات الحربية .

وفى خلال هذه الليلة ذاتها ، تابع الزعماء الآخرون أيضا عملهم فى جهات أخرى من المدينة ، فنقلوا معسكراتهم على النسق الذى اتفقوا عليه ، واستمروا قائمين بالحراسة بعين لا يغمض جفنها ، ونصبوا آلاتهم ، وقام كونت تولوز فى الوقت ذاته الى البرج الذى اهتم بصناعته كل الاهتمام ، ونصبه على الاستحكامات الموجودة فيما بين كنيسة جبل صهيون وبين المدينة ، كما أن الزعماء الآخرين الذين يحتلون المكان الواقع حول البرج الموجود فى الزاوية والمعروف الآن ببرج تانكريد كانوا قد نقلوا - بمثل هذه العناية وذلك الجهد - برجا خشبيا يكاد يضاهى الأبراج الأخرى فى ارتفاعه وقوة بنيانه .

كان الشبه قويا بين الآلات الثلاث فى الشكل وفى دقة الصنعة ،  
فهى مربعة الصورة ، كما كان هناك سور مزدوج يحمى جانب كل  
واحدة من هذه الآلات القائمة فى مواجهة المدينة •

ثم عمدوا الى حيلة ماهرة مكنتهم من انزال البرج الخارجى  
بصورة معينة ليصبح معها جسرا يربط بالسور ، مما أمد الجنود  
بالموسيلة التى ساعدتهم على دخول المدينة ، ولم تدع هذه الحيلة  
القسم الذى به الآلة معرضا لشيء ما ، لأنه حين ارخاء الساتر  
الخارجى فان الطبقة الثانية التى تحته تتيح حماية كالحماية التى  
تنعم بها الجوانب الأخرى •

- ١٣ -

رتب الصليبيون أمرهم على أن يكون جيشهم واقفا باجمعه  
وفى كامل عدته أمام المدينة عند طلوع النهار استعدادا للهجوم ،  
ولم يكن يشغل القلوب سوى شاغل واحد هو : اما أن يستردوا بيت  
المقدس لتنعم بحريتها المسيحية ، واما أن يضحوا بأنفسهم من أجل  
المسيح ، ولم يكن فى هذا الجيش الكثيف مسن أو مريض أو غلام  
الا وقد تملكته الحماسة وعصفت به اللهفة واستبد به الشوق الى  
القتال ، حتى ان النساء لم تمنعهن أنوثتهن ولا ضعفهن الطبيعى  
من الاقدام بلا مبالاة على حمل السلاح لخوض المعركة بجنان ثابت  
فوق طاقتهن ، وهكذا تقدم الصليبيون جميعهم صفا واحدا للمعركة ،  
محاولين دفع الآلات المستحدثة البناء الى السور عسى أن تسهل  
عليهم مهاجمة من يشدون فى مقاومتهم فوق الحواجز والأبراج •

أما الأهالى فقد صمموا من ناحيتهم على صد عدوهم حتى  
آخِر رمق فيهم ، فراحوا يمطرونهم بوابل هتان من النبال

١١٣

( ٨ - الحروب الصليبية )

والسهام ، ويرمونهم بالحجارة تقذف بها الأيدي أو الآلات بصورة مروعة ، لأنهم كانوا مجمعين العزم على أن يحولوا بين رجالنا وبين الاقتراب من السور ، غير أن الصليبيين الحجاج لم يكونوا يقولون عنهم نشاطا ، فاحتموا بدروعهم ، ونشروا أمامهم ستائرهم المجدولة ، وراحوا يمحرونهم بسيل من السهام يطلقونها من أقواسهم ، واكتنفوهم بالقذائف وبالطلقات تنصب عليهم من الآلات ، كل ذلك والحجاج يحاولون الاقتراب من التحصينات ، وكانوا يبذلون غاية جهدهم لفل عزائم خصومهم ، فلم يكونوا يتيحون لهم لحظة واحدة يلتقطون فيها أنفاسهم ، وحاول بعض من فى داخل البرج المتحرك أن يدفعوه الى الأمام بواسطة الأعمدة ، كما أن غيرهم من الواقفين عند الآلات شرعوا يقذفون الأسوار بالأحجار الضخمة ، أملا منهم فى أن يدب فيها الضعف فتسقط من الرمى المستمر والقذائف الموصولة ، المتصل بعضها ببعض . وكان هناك قوم غير هؤلاء قد تسلحوا بأسلحة صغيرة يسمونها المنجنيق ، ترمى حجارة دون هذه حجما ، ويعملون فى غير تراخ عساهم يمنعون المدافعين الموجودين بالأبراج من إصابة مقاتلينا بأى ضرر .

على أن الصليبيين الذين كانوا يحاولون دفع الآلة الى الأمام لم ينجحوا النجاح الذى كانوا يطمعون فيه بسبب وجود خندق واسع عميق أمام المتاريس ، وقد وقف هذا الخندق عقبة كأداء عطلت تقدم الآلة الى الأمام ، كما أن الذين كانوا يحاولون عمل ثغرة فى الأسوار لم يحرزوا النتائج المرجوة ، وذلك لأن الأهالى الذين كانوا وراء الأسوار دلوا زكائب مملوءة بالقش ، وعلقوا كتل الخشب الضخمة والوسائد المحشوة بالحريز ، فافسدت هذه الأشياء اللينة اللينة مفعول ضربات القذائف ، وقضت على جميع محاولات المهاجمين ، هذا بالإضافة الى أن ما نصبه العدو داخل المدينة من

الآلات كان أكثر عددا مما عندنا ، وكانت السهام والأحجار التي لا تكف آلاتهم عن رميها تفوق عمل الصليبيين •

على أنه كان كل من الجانبين يبذل أقصى جهده ، كما تدفعه كراهية حادة نحو الآخر لقتاله • لذلك استمرت المعركة من الصباح حتى المساء ، وكانت معركة حامية الوطيس موصولة بصورة تجاوز كل ظن ، فكانت الرماح والقسي تنهال كصيب من السماء على كلا الجانبين ، وكانت قذائف الأحجار التي يرمى بها كل خصم خصمه يصطدم بعضها ببعض وهى مازالت فى الجو ، ثم تسقط فتهلك المقاتلين وتصيبهم بشتى أنواع الهلاك •

وتساوى جميع مقاتلينا فيما لاقوه من عنت ، سواء منهم من كان مع الدوق ، أو كان مستظلا بعلم كونت تولوز ، أو غيرهما من القادة ، ذلك الهجوم كما قلنا كان يأتى فى آن واحد من ثلاثة محاور ، ويتسم بنفس السمة من العنف والضرارة ، كما أن العمل تزايد أمام الصليبيين زيادة كبرى ، لأنه كان يتحتم عليهم ردم الخندق بالأنقاض والأحجار والتراب ، قبل أن يتمكنوا من شق طريق تتحرك عبره آلات القتال •

وكانت مهمة المدافعين فى اعاقه القوات المحاصرة شاقة كل المشقة ، فقد استمروا فى بذل الجهد الجبار لصد أنشطة المحاصرين العنيفة ، كما دفعهم اليأس الى محاولة إشعال النار بآلات الصليبيين الحربية فشرعوا يقذفونها بالجمر المتقد ، ويرمونها بالسهام المحملة بالكبريت المشتعل والقار والزيت ، وبكل ما يؤجج النيران ضراما ، وزيادة على ذلك فقد كانت آلات العدو الضخمة التى بنيت داخل المدينة تسدد قذائفها تسديدا محكما الى آلات الصليبيين الموجودة فى الخارج ، حتى أخذت هذه الآلات تضعف وكثرت فى جوانبها

الثقوب ، فاشتد جزع المقاتلين المسيحيين الذين كانوا قد صعدوا الى ادوار البرج العليا لمهاجمة المدينة من هذا الارتفاع ، ولم تقدر لهم الحياة الا بطرح انفسهم من شاهق ، وأخيرا عمد الصليبيون الى صب المياه بكثرة من عل ، فقيض لهم النجاح فى تعطيل جهود رماة النيران ، وبذلك أمكنهم اخماد لهيبها •

## - ١٤ -

ادى دخول الليل لوضع خاتمة لهذا القتال الذى كان قد اضطرم اضطراما كبيرا وسط الخطر البالغ وان لم يحسم الامر ، غير ان المقاتلين اصابوا خلال الحراسة الليلية - قسطا من الراحة الجثمانية، وان كان القلق النفسى الذى لم ينقطع اطار النوم من عيونهم ولم يقلل من مشقتهم ، فقد كانت قلوبهم التى اترعت غما تضطرب بين صدورهم حرصا منهم على تحقيق غرضهم ، فانتظروا طلوع النهار حتى يعاود كل جانب منهم القتال ، وكانوا اثناء ذلك يتحرقون شوقا لخوض المعركة مرة اخرى ، لأن ايمانهم بالرب كان يحملهم على الثقة فى انهم ملاقون حظا اطيب يؤتيهم بالنصر •

بيد ان ذلك لم يقلل من فزعهم من أن يتمكن العدو - بحيلة أو بأخرى - من أن يضرم النار خلسة فى الآلات ، ومن ثم فرضوا عليها الحراسة المستمرة ، وامضوا ليلة لم تنق عيونهم فيها للكرى طعما •

وكان فزع المحصورين لا يقل عن فزع هؤلاء ، فقد كان اشد ما يقلق بالهم ويزعج خاطرهم أن يغتتم العدو فرصة سكون الليل فيدخل عليهم المدينة لاسيما بعدما رأوا هجمته الشرسة بالأمس عليهم ، وقد يكون سبيله فى ذلك اما باحداث ثغرة فى سورها أو بتسليق حصونها، لذلك امضوا الليل باكملة وهم يبذلون أقصى العناية فى حراسة

منطقة التحصينات ، وكان الوضع يتطلب منهم غاية الجِد لأن الأمر عندهم كان أمر حياة أو موت ، لذلك أقاموا فى كل برج نسباً للحراسة الليلية .

وكان كبارهم فى هذه الأثناء ، ومن وكلت اليهم مسئولية حفظ المدينة لا يكفون عن السير فى شوارعها ، يوصون الناس باليقظة التامة حفاظاً على نساءهم وأبنائهم وماملكت أيديهم ، ورعاية للسلامة العامة ، كما أخذوا أنفسهم بالتدقيق فى فحص الأبواب وضبط الطرق ، حتى لاتتاح للعدو فرصة يباغتهم فيها بجرائله .

هكذا كانت الكروب تضرب هذا الجانب بما تضرب به الجانب الآخر فلم يبق أحدهما طعاماً للراحة لانشغال باله ، وكان الفزع العلقى الدائم الذى ران على قلوبهم قد وقر فى أذهانهم من الاضطراب ما هو أشد هولاً فى الواقع من معركة الأمس .

## — ١٥ —

أوشك الليل على الانصرام ، وبدأت خيوط الضياء الأولى تعلن اقتراب النهار الذى كانوا يترقبونه بفارغ الصبر حين نودى فى الناس مرة أخرى للمقاتل الذى كانوا يشفقونه اشتقاقاً كبيراً ويتحمسون له حماسة بالغة ، فبادر كل منهم فى لحظته الى المهمة التى نيّطت به البسارحة ، فوقف البعض عند آلات الرمي قاذفين الأسوار بالأحجار الضخمة الثقيلة الوزن ، ووقف البعض الآخر فى أماكن تحت هذه الباذلين أقصى الجهد ومنتهى القوة فى دفع آلة الحصار الى الأمام .

وكان هناك غير هؤلاء وهؤلاء من اتخذوا مكانهم فى الطابق العلوى من نفس الآلة ينضحون العدو الموجود فى الأبراج المواجهة

بوابل هتان عن اقواسهم وسهامهم وبما عندهم من الأسلحة ، وهكذا كان القصف مستمرا وفعالا حتى عجز المدافعون عن رفع أيديهم عما هي مشغولة به ، واضطروا الى البقاء حيث هم ، فلما تم ردم الخندق ونقب الأسوار الأمامية استمات بعض المحاصرين فى دفع البرج ليصبح أقرب مايكون الى السور ، كما أن قوة أكبر من هذه القوة واصلت فى هذه الأثناء رمى الحجارة والسهام لرد المهاجمين على أعقابهم ، حتى لا يكونوا عقبة فى وجه من يقومون بدفع الآلة الى  
الأمام •

فلما رأى الأهالى تزايد جهود الصليبيين استماتوا من جانبهم فى شجب كل خطة فيقابلونها بخطة مثلها ، وراحوا يردون القوة بالقوة ، وتابعوا نشاطهم فى صد المحاصرين ومن يحاولون التقدم بالبرج ، فأخذوا فى رميهم بالسهام والأحجار ، وأسفر نشاطهم العجيب عن نجاحهم فى صد تقدمنا ، ولما كانوا يطمعون فى القضاء المبرم على محاولتنا هذه فقد عمدوا الى قذف الآلات بالنار يصبونها عليها فى جرار هشة وماشاكلها مما يتوفر بين أيديهم ، كما رموهم بالكبريت والقطران والزيت والدهون والشمع والخشب اليابس والحشائش الجافة وبكل مايصلح أن يكون وقودا يذكى النار اشتعالا، مما أسفر عن انزال الأضرار الفادحة المزعجة بكلا الجانبين المتقاتلين فهلك كثير من الفرسان والجند المشاة بسبب تلك الأهوال والأحداث التى لم تكن فى الحسبان إذ أصابت بعضهم القذائف من الآلات فتفتتوا ومزقوا تمزيقا ، وسقط بعضهم فجأة بسبب القسى والحراب ، فأنحسروا ما بين جواشئهم ودروعهم ، وربما مات بعضهم فى لحظته من حجر رمت به يد أو من قذيفة قذفته بها آلة فصرعته ، وخرج بعضهم ليعيشوا أياما أو الى آخر عمرهم بأطراف مبتورة ، أو أصابهم الشلل فلم يعودوا يستطيعون حراكا • على أن هذه الأخطاء

كلها لم تكن قادرة على منع الرجال من الجانبين المتصارعين من الاستمرار فيما هم فيه ، أو قل عزمهم عن مواصلة القتال في اصرار متسم بالعنف ، وما كان هناك من أحد ما بقادر على أن يقرر أي الفريقين كان أكثر حماسة من الآخر .

على انه ليس من الحق أن نمسك عن الاشارة الى حادث بارز يقال انه حدث في هذا اليوم ، وذلك انه كان عند الصليبيين آلة من بين آلاتهم التي كانت خارج الأسوار أحدثت هلاكاً مدمراً في صفوف المدافعين بسبب ما كانت ترميهم به من صخور ثقيلة رمياً جبّاراً ، فلما رأى المارقون أن ليس عندهم آلة تضاهي هذه الآلة في عنفها ، جاءوا بساحرتين عسى أن يبطل سحرهما فعل الآلة ابطالا لا تعود فيه للعمل . فارتقت المراتان السور ، وراحتا تمارسان سحرهما ، وإذا بحجر ضخّم ينطلق من نفس الآلة فيصيبهما ويسحقهما ومعهما ثلاث بنات كن في خدمتهما ، فهوت جثثهن جميعاً من السور ، فلما طالع الجيش الصليبي هذا المنظر ، تعالى تصفيقه وضج بالهتاف ، ولم يبق أحد في معسكرنا الا وقد غمرت الفرحة قلبه ، أما اهل بيت المقدس فقد امتلأت نفوسهم غماً بسبب هذه النكبة .

## — ١٦ —

على الرغم من استمرار القتال حتى الساعة السابعة من ذلك اليوم الا انه لم يسفر تماماً عن أي الجانبين سوف يحرز النصر . وبدأ اليأس يتسرب الى نفوس الصليبيين الذين أثقلتهم فداحة الجهد الذي بذلوه ، فقرأخوا في عملهم ورأوا البرج يكاد أن يكون قد دمر تمام التدمير بسبب ما ناله من القذائف المستمر ، كما تعالى الدخان من الآلات الأخرى من جراء ما رميت بما جاورها من الحطب المشتعل، فرأى الصليبيون أن خبر ما يفعلونه في هذه الظروف هو أن يسحبوا

هذه الآلات الى الوراء قليلا على نية مراصلة القتال فى الغد ، وترتب على ذلك أن تشكك قومهم فى نجاحهم فراحوا يتسللون لواذا •

أما العدو فكان الأمر عنده على العكس من ذلك ، اذ ضاعف من ضراوته وعريدته ، واندفع يقاتل بعنف أشد من العنف الذى اتسم به قتاله حتى الآن •

على انه فى وسط هذا اليأس الغامر المطلق جاءت النجدة السماوية للمؤمنين قاسعفتهم بما يرتجون ، اذ تراءى لهم على جبل الزيتون محارب لم يره أحد أبدا بعدئذ فى هذا الموضع ، وقد راح يلوح لهم بدرع يكاد بريقه يأخذ بالابصار ، ويشير به الى العسكر أن يعودوا للمتابعة ما هم فيه من قتال •

وكان دوق جود فروى وأخوه استاس قد اخذا مكانهما فى الطابق الأعلى من البرج المتحرك ليساهما بدورهما فى الهجوم وليتأكدا من صيانة آلة الحصار صيانة تامة ، فلما شاهد الدوق هذا الشبح العجيب صفقت جوانحه سرورا ، وشرع فى لحظته ينادى على الناس وكبار القواد بصوت جهورى أن عودوا لما كنتم فيه ، فعاد الناس جميعهم برحمة الرب الى ساحة القتال وقد قويت عزائمهم ، ودبت الحماسة فيهم من جديد دببها كان يخيل معه للناظر اليهم أنهم يعاودون المعركة بقوة فتية جديدة ، حتى أن من كانوا قد انسحبوا منذ قليل متخنيين بجراحهم ، ومن أعياهم الارهاق حتى كادوا أن يغمى عليهم ، عادوا الآن من تلقاء انفسهم وتقدموا للهجوم بعزيمة جبارة وحماسة طاغية ، كما أن القادة والرجال البارزين الذين كانوا يعتبرون سند الجيش تقدموا وشقوا الطريق فكانوا مثالا احتذاه سواهم واقتدى بهم غيرهم ، كما زاد من شجاعة هؤلاء ما رآوه من تلهف النساء على أن يكون لهن نصيب فى القتال ، ورحن يثرن

نخوة المحاربين ويلقيهم اليهم من القول ما يرد عليهم بأسهم ،  
ويدفعن عنهم الاغماء بما يجلبنه لهم من الماء وهم فى ساحة المعركة .  
ورفرت الفرقة فى كل أرجاء المعسكر كما لو كانوا قد انتصروا ،  
فما انقضت ساعة من نهار حتى كان الخندق قد طم عن آخره ، وحتى  
كان السور الخارجى قد تصدع وأسندت آلة الحصان عنوة الى  
الأسوار .

ولقد أشرنا حالا الى أن الأهالى كانوا قد دلوا من الجدران  
كتلا ثقيلة بالغة الطول ليبتلوا مفعول ضربات الآلات ، غير أن  
مقاتلينا الموجودين فى برج الحصار نجحوا فى قطع الدبال التى  
تشد اثنين من هذه الحواجز فسقطا الى الأرض فتلقاهما من كانوا  
تحتهما ، وإن لم يخل الأمر من خطر كبير ، فحملوا العارضتين فى  
الحال الى داخل الآلة ، واستعملتا فى دعم الجسر الذى جعلوه  
— كما سنشرح ذلك فيما بعد — يصل من البرج المتحرك الى السور،  
لأن الخشب الذى كان الجسر مصنوعا منه كان أوهى من أن يتحمل  
ثقل من يجتازونه إن لم تدعمه هذه العوارض القوية التى وضعت  
أسفله .

## - ١٧ -

بينما كان الهجوم يشن بهذا العنف القوى من جانب المدينة  
الشمالى كان كونت تولوز ومن معه يهاجمونها من الجنوب بنفس  
الضراوة ، وقد ظلوا ثلاثة أيام سويا يعملون بلا انقطاع فى ردم  
الخندق ، فلما أتموا ردمه ألصقوا إحدى آلات الحصار بالسور  
بالقوة ، وجعلوها فى وضع يجعل كلا من الدافع الموجود داخل  
الأبراج والصلبى الموجود فى آلات الحصار قادرا على أن يطول  
الواحد منهما الآخر برمحه فيصيبه ، وكانت الحماسة قد عممت

المقاتلين انى كانوا ، ولم تقل عنها مثابرتهم فاستعروا فيما هم قائمون ، به رغم الصعاب المحيطة بهم ، وزاد نشاطهم عما يكون عليه فى العادة ، لأن خادما معينا من خدم المسيح اتخذ مقامه على جبل الزيتون ، وكان وعدهم وعدا أكيدا أن القدس واقعة فى أيديهم فى يومهم هذا ، كما أن شارة (٣٦) الرحمة التى شاهدها هم أيضا من فوق جبل الزيتون زادت من تأجيج حماسهم وجعلتهم أكثر ايمانا بأنهم هم الغالبون ، فتقدم هذان الجيشان الصليبيان الى الامام فى خطى متساوية ، وخيل اليهم كما لو أن الأمر كان موجها بعناية محكمة من نفس القائد الأعظم الذى عزم على أن يعوض عبيده لقاء اخلاصهم فيجازيهم المجازاة اللائقة ، والحق ان الوقت كان قد حان ليجنوا ثمار هذه الجهود الشاقة ، وان يكافوا على خدماتهم الحربية التى اخلصوا النية من اجلها .

## - ١٨ -

استطاعت كتائب الدوق والكونتين التى كانت - كما قلنا - تهاجم المدينة من الناحية الشمالية أن تنجح بعون الرب فى تحطيم التحصينات الخارجية وردم الخندق ، ولم يعد العدو قادرا على مزيد من المقاومة لما ناله من الارهاق ، على حين أصبحت العساكر الصليبية قادرة على الاقتراب من السور دون أن تخشى خطرا ما ، لأنهم لم يجدوا هنا وهناك سوى خصوم اقتصررت جراتهم على محاولة مهاجمتهم من خلال المنافذ الصغيرة فى الأسوار .

وصدع المقاتلون الموجودون فى آلات الحصار لأمر الدوق ، فأشعلوا النار فى زكائب القش وفى الحشائيا المملوءة بالقطن ،

---

(٣٦) يعنى بها شبح الفارس الذى تراءى لهم وهم فى لحظة قد غلبهم اليأس فيها انظر ما سبق ص ١٢٠ .

وهبت ريح الشمال فزادت اللهب ضراما وانعقدت سحائب من الدخان الكثيف ساققتها الريح الى المدينة ، حتى ان الذين كانوا يحاولون الدفاع عن السور عجزوا عن فتح أفواههم أو عيونهم فانصرفوا عن الدفاع عن الحصون لما حدث فيهم من الاضطراب واختلط عليهم الأمر من جراء سحب الدخان الأسود ، فلما تبين الدوق ما هو حادث أمر القوم أن يجيئوا في الحال الى أعلى بالعوارض التي استخلصوها من العدو ، وان يضعوها على صورة يكون أحد طرفيها مثبتا الى الآلة ، والطرف الآخر على السور ، ثم أمر بعدئذ بتدلية الجانب المتحرك من برج الحصار فكان منها جسر قوى زاد من قدرة احتماله ما وضع تحته من الكتل الثقيلة ، وهكذا فان الأداة التي جاء بها العدو لنفقه عادت عليه بالضررة • فلما تم نصب البرج على هذه الصورة قام الدوق فرؤى الشريف البارز واستصحب أخاه أسستاس وتقدما الناس الى داخل مدينة القدس ، وراح ( جود فروى ) يحرض الباقين ويشجعهم على النسيج على منواله ، فتبعه في الحال الأخوان لودولف وجيسلبيرت من مواطني مدينة تورناي ، فاستحقا الذكر الخالد ، واذ ذاك زحف جمع كثيف من الفرسان والمشاة ، حتى لم تعد الآلة ولا الجسر بقادرين على تحمل المزيد ، فلما رأى الأعداء أن السور أصبح في حوزة الصليبيين وشاهدوا راية الدوق تخفق من فوقه غادروا الحصون والأبراج فارين بأنفسهم الى الشوارع الضيقة •

لم يكد رجالنا يشاهدون استيلاء الدوق وأغلب القواد على الأبراج حتى بادروا الى ارتقاء الآلة ، وراحوا يتنافسون فيما بينهم في نصب ما معهم من سلالم الصعود الى الأسوار ، وكانت كثيرة في أيديهم ، ذلك لأنهم كانوا قد اطاعوا ما نودى به فيهم ، فقام كل اثنين من الفرسان باعداد سلم ليكون في خدمة الجميع ، واستطاعوا

بهذه السلالم أن ينضموا الى الموجودين على السور دون انتظار  
الاذن لهم بذلك من الدوق .

وجاء فى أعقاب جود فروى فى الحال كونت فلاندرز ، ودوق  
نورماندى ، وتانكريد الباسل الذى لا تأتية من أية ناحية الا وجدته  
اهلا لكل ثناء . كما سعد مع هؤلاء هيچ الكبير كونت سنت بول ،  
ويلدوين دى بورج ، وجاستون دى بيارن ، وجاستون دى بزيه ،  
وجرارد دى روسيلون ، وتوماس دى لافير ، وكوتان البريتونى .  
وكونت رينبولد الذى هو من مدينة أورنج ، ولودوفج دى مونكون ،  
وكونون دى مونتاج ، وابنه لامبرت ، وكثيرون غيرهم أعجز عن  
ذكر أسمائهم وحصرهم .

فلما اطمان الدوق الى دخول جميع هؤلاء الفرسان سالمين  
لم يصابوا بأذى أنفذ بعضهم فى صحبة حرس أشداء لفتح الباب  
الشمالى المعروف الآن باسم باب القديس استيفان ليدخل منه من  
كانوا ينتظرون فى الخارج ، ففتح على مصراعيه بلا توان ،  
فتهاقت الجيش بأجمعه فى الدخول من غير نظام .

وكان اليوم الجمعة ، وكانت الساعة التاسعة ولاح كأن قد تم  
بترتيب الهى أن تتحقق رغبة الذين حاربوا من أجل مجد المخلص ،  
وان يكون تحقيقها فى نفس اليوم الذى لاقى فيه السيد العذاب  
بالمدينة من أجل خلاص العالم ، ونقرأ أنه فى ذلك اليوم كان خلق  
اول انسان ، وان الانسان الثانى أسلم للموت لخلاص الأول ، ومن  
ثم فقد كان من الخير أن يكتب النصر باسمه على أعدائه لمن كانوا  
من جسمه وتشبهوا به .

ضم الدوق ومن معه قواتهم بعضها الى بعض ، وانطلقوا هنا وهناك عليهم دروعهم ومعافرههم ، وراحوا يذرعون شوارع المدينة مشرعين سيوفهم فاتكين بكل من يصادفون من الأعداء لايراعون فى ذلك عمرا ولا وضعا ، فكان فى كل ناحية مذبحه مروعة ، وفى كل ركن أكوام من الرؤوس المقطوعة، حتى استحال السير فى كل الأماكن أو الانتقال من موضع الى آخر الا على جثث القتلى ، وكان الزعماء قد شققوا طريقهم الى وسط المدينة سالكين طرقا مختلفة ، ومرتكبين من المذابح فى أثناء تقدمهم ما لا يمكن التحدث عنه ، ونهج نهجهم جمع من الناس الظالمين الى دماء العدو ، والذين لا قصد لهم سوى التدمير .

فى هذه الأثناء لم يكن كونت قولوز والقواد الذين يحاربون معه فى ناحية جبل صهيون يدرون شيئا قط عن خبر الاستيلاء على المدينة ، ولا يعلمون أن قد كتب لنا النصر ، غير أن هتافات الصليبيين العالية وهم يدخلون بيت المقدس ، وصرخات المارقين المخيفة وهم يلقون متيتهم ذبعا بثت الذعر فى نفوس المدافعين عن هذا القسم من المدينة ، فتحيروا كأعظم ما تكون الحيرة بين الهتاف غير المألوف وبين الصراخ المعبر عن الشر ، وسرعان ما اكتشفوا ان قد قضت بيضة المدينة ، وان كتائب الصليبيين قد اقتحمتها عنوة ، فلم يتوانوا حينذاك عن مغادرة الأبراج والتخلى عن الحصون ، وفروا على وجوههم فى شتى النواحي لا ينشدون غير النجاة ولا يطلبون سواها، واعتصم أغلبهم بالقلعة لأنها كانت أقرب المواقع اليهم .

وانزل العسكر الجسر لم يعارضهم فى ذلك معارض ، ثم رفعوا ساللهم الى الأسوار ، ودخلوا المدينة دون أن يلحقوا أدنى مقاومة

من جانب العدو ، وما كادوا يرون أنفسهم بها حتى فتحوا البوابة الجنوبية التي كانت أقرب الأبواب اليهم على مصاريعها وأدخلوا بقية الناس ، فكان من الداخلين من هنا كونت تولوز الباسل الشجاع ومعه أيزورد كونت داي « وريموند بيليه » و « وليم دى سابران » أسقف البارة ورهط غير هؤلاء من النبلاء الذين فات التاريخ أن يحفظ لنا أسماءهم وعددهم ، ومشيت هذه الجموع وحدة واحدة ، مسلحة تمام التسليح . وانتشرت في كل ناحية من نواحي وسط المدينة وليس لها من هدف سوى بث الدمار المخيف ، ثم راحت تعترض طريق من لم تصيهم نعمة الدوق ومن معه ، فهربوا الى نواح أخرى من المدينة ، ظانين أنهم بذلك قد قروا من الموت ، لكن تصدت لهم هذه الجموع ، وهكذا فأنهم بينما كانوا يحاولون تجنب Scylla اذا بهم يقعون في ما هو أشد خطرا منها ، الا وهو خطر Chardydis وشهدت أرجاء المدينة مذبحة فظيعة الشناعة ، وكان الدم المسفوك مخيفا ، حتى ان المنتصرين انفسهم ساورهم الاحساس بالخوف وشعروا بالتقرز .

- ٢٠ -

فر الجانب الأكبر من الناس الى فناء المسجد لوقوعه في موضع قاص من المدينة كان محصنا أشد التحصين بسور وأبراج وأبواب ، لكن فرارهم الى هناك لم يسعفهم بالخلاص ، اذ سرعان ما اقتفى تانكريد اثرهم على رأس معظم رجال الجيش الذين اقتحم بهم المسجد ، وأعمل مذبحة شرسة حمل بعدها معه - كما نقول الخبر - كميات كبيرة من الذهب والفضة والجواهر ، ومع ذلك فالاعتقاد السائد انه لما هدأت العاصفة فيما بعد قام فرد هذه الثروات دون أن تمسها يد .

أما القادة الآخرون فقد ترامي الى علمهم - بعد فتكهم بكل من صنادقهم في شتى نواحي المدينة - أن الكثيرين قد فروا الى أطراف المسجد الطاهر ، فأسرعوا كما لو كانوا على اتفاق فيما بينهم وانطلقوا يتعقبونهم • ودخل المسجد حشد من الفرسان والمشاة ، فذبحوا ذبوح الشاة كل من لجأ الى هنا يبتغي الحماية ، وأعملوا القتل فيهم لم تأخذهم رحمة بأحد ما ، حتى فاض المكان كله بدماء الضحايا •

وكان ذلك قضاء عادلا من الرب أمضاه في من دنسوا هيكل السيد بشعائيرهم الخرافية وحرموه على شعبه المؤمنين ، فكان لابد لهم من أن يكفروا عن خطيئتهم بالموت ، وأن تطهر الأماكن المقدسة بدمهم المهرق •

كان من المستحيل أن يطالع المرء كثرة القتلى دون أن يستولى عليه الفزع ، فقد كانت الأشلاء البشرية في كل ناحية ، وغطت الأرض بدماء المذبوحين ، ولم تكن مطالعة الجثث - وقد فارقتها رؤوسها - ورؤية الأعضاء المبتورة المبعثرة في جميع الأرجاء هي وحدها التي أثارت الرعب في نفوس جميع من شاهدها ، بل كان هناك ما هو أبعث على الفزع ألا هو منظر المنتصرين انفسهم وقد تخضبوا بالدماء ففطتهم من رؤوسهم الى اخمص اقدامهم ، فكان منظرا مروعا بث الرعب في قلوب كل من قابلوهم ، ويقال انه قتل في داخل ساحة المسجد وحدها عشرة آلاف من المارقين ، بالإضافة الى أن القتلى الذين تناثرت جثثهم في كل شوارع المدينة وميادينها لم يكونوا أقل عددا ممن نكرناهم •

وانطلق بقية العسكر يجوسون خلال الديار بحثا عن لازال حيا من التعساء الذين قد يكونون مختفين في الأزقة والدروب الجانبية

فراراً من الموت ، فكانوا اذا عثروا عليهم سحبوهم على مشهد من الناس وذبحوهم ذبح الشياه .

وجعل بعض العسكر من انفسهم عصابات انطلقت تسطو على البيوت ممسكين بأصحابها ونسائهم وأطفالهم ، وأخذوا كل ما عندهم ، ثم راحوا يقتلون البعض بالسيف ، ويقذفون البعض الآخر من الأمكنة العالية الى الأرض فنتهشم أعضاؤهم ويهلكون هلاكاً مروعاً ، ومضى معتصب كل بيت يدعى أن البيت الذى اقتحمه إنما هو ملك خاص له بكل ما احتواه ، وذلك لأن الحجاج كانوا قد اتفقوا قبل الاستيلاء على المدينة على أنها اذا وقعت فى أيديهم يكون كل ما يستولى عليه الواحد منهم ملكاً خالصاً له الى الأبد لا ينازعه فيه أحد ولا يعارضه فيه معارض ، ومن ثم فقد مضى الحجاج يفتشون المدينة تفتيشاً دقيقاً . ويقتلون أهلها فى غير خوف ، ووصلوا فى ذلك الى أقصى الأماكن حتى ما لا يكون منها على قارعة الطريق ، ومضوا يحطمون مساكن العدو ، ويعلق كل منتصر منهم على مدخل البيت الذى اغتصبه مجنة وسلاحه حتى لا يتوقف بالمكان من يمر به ، بل عليه أن يجاوزه فقد صار ملكاً لغيره .

— ٢١ —

لما تم للقادة فتح المدينة كلها وفرغوا من الفتك بمخالفهم فى العقيدة ، ولما هدأت الجلبة بعض الشيء التقى هؤلاء القادة للتشاور فيما بينهم ، واذ كانوا راغبين فى توفير الحماية للمدينة فقد قرروا — قبل اللقاء السلاح — أن يقيموا بكل برج حراساً ، ويرتبوا على كل باب من أبواب البلد رجالاً مسئولين يوكل اليهم الحفاظ عليه ، وقرروا أن تظل هذه الحراسة قائمة حتى يتفق اجماع الزعماء على

اختيار واحد ينصبونه علانية حاكما على بيت المقدس ، ويكون قادرا على تحمل مسئوليتها وإدارة كل شئونها حسبما يرى الأمر ملائما •

والواقع انهم كانوا على حق فى التخوف من مكر العدو المحقق بهم ، فهداهم بعد نظرهم للحذر من غارات فجائية يشنها هذا الخصم عليهم •

ولما انتظمت أمور المدينة أخيراً على ما تهوى نفوسهم ، وضعوا السلاح جانبا وخرجوا مرتدين من الثياب جديدها ، ومضوا بأيد نظيفة ، وساروا حفاة فى خشوع ومذلة يطوفون بالأماكن الطاهرة التى تنازل المخلص وكرسها للعبادة ، ومجدها بحضوره بالجسد ، وراحوا يقبلون هذه البقاع الموقرة قبيلات ممزجة بالزفرات والدموع ، وتبعث عليها العواطف القلبية وساروا تجلهم السكينة ويغشاهم الوقار حتى صاروا الدنى ما يكونون الى كنيسة القيامة وهنا كان اللقاء القادة برجال الدين وبالمخلصين من أهل القدس ، وكان النصارى - الذين عانوا أعواما طويلا مرارة الأسر من غير ذنب - أكثر الجميع اشتياقا لظهور ما يكونون من شكرهم للقادى الذى ردهم الى الحرية ، فيمموا وجوههم شطر الكنيسة وهم ينشدون الأناشيد الدينية ، ويرتلون الأغاني المقدسة ، ويحملون الصليبان وآثار القديسين •

وكان مما يسر العين ويثلج الصدر ما كان عليه الحجاج من حماسة دينية عميقة تجلت وهم يقتربون من الأماكن الطاهرة ، وماهم عليه من غبطة القلب ونشوة الروح وهم يقبلون آثار زيارة السيد القصيرة للأرض ، وكنت لا ترى فى أى ناحية الا دموعا منهمرة ، ولا تسمع الا زفرات متصاعدة غير أنها لم تكن كالدموع ولا كالزفرات التى تصدر عن الحزن والجزع بل تبعثها التقوى والفرحة الروحية

الغامرة يقدمونها الى الله ، وتردد في الكنيسة وفي عامة أرجاء القدس صوت الشعب وهو يرفع عقيرته بالشكر للرب في صوت يخيّل لسامعه أنه لابد بالغ السماء ذاتها ، والحق أنهم كانوا كما جاء في قول القائل : « ان صوت الفرحة والخلّاص يكون تحت مظلة المستقيمين(٣٧) » .

وأخذت مظاهر الرحمة النابعة عن الاخلاص الصادق تسرى في جميع أنحاء المدينة ، وراح الكثيرون يبكون وهم يعترفون للسيد بما ارتكبوا من الآثام ، ويقطعون العهد على أنفسهم الا يعودوا ثانية الى اقتراف هذه الخطايا .

ومضى غيرهم - وقد بلغ الكرم منهم غايته - يخلعون كل ما ملكوا على الشيوخ والمرضى وذوى الحاجة ، ويعدون ذلك النعمة الكبرى ، ويرون الغنى كل الغنى فيما قدره الله لهم من أن تعمد بهم الحياة حتى يشاهدوا هذا اليوم .

وزحف غيرهم الى الأماكن الطاهرة على ركبهم وقد تصاعدت زفراتهم عن قلوب فاضت بالعاطفة العميقة ، وانطلقوا يغسلون كل شيء بدموعهم ، ويوجهون قولهم الله : « ان انهأرا من المياه تنهل من عيني »(\*) .

اذن ماذا أقول أكثر من هذا ؟

---

(٣٧) لم أجد هذا النص ولا ما يليه في المزامير ، ويظهر أن الطبعة الانجليزية أخطأت فنكرت المزمور المائة والسابع عشر ، آية ١٥ مع أن هذا المزمور اقتصر على ١٤ آية فقط وكذلك المزمور ١١٨ قآياته ٢٩ فقط ولذلك ترجمته محاولا ان تكون الترجمة العربية أقرب ما تكون للنص الانجليزي ولأسلوب التوراة .

(\*) انظر الحاشية السابقة .

انه لمن الصعب ان تعبر الكلمات عن مدى ما كان عليه هؤلاء القوم المؤمنون من صادق الاخلاص وطاهره وقد راح كل واحد منهم ينافس الآخر فى عمل البر والاحسان ، شاكرين العناية الالهية ما تفضلت باسبأغه عليهم مجازاة لهم على ما بذلوا من مجهودات كبيرة •

فأى امرئ مهمما بلغ من غلظة القلب وصعوبة المراس - لا تصفق روحه فرحا بين جوانحه حين يؤذن له أن يشارك فى قطف ثمرة هذا الحج الغالية ، وحين يجزى الجزاء الأوفى على الجهاد الذى خاضه •

ولقد كانت هذه النعمة عند أصحاب الطبيعة الشفافة تعتبر مكافأة عن البذل القادم الذى وعد السيد اصفاءه على قديسيه فى انه على قدر العطايا التى ينالونها فى هذه الحياة الدنيا يكون أملهم الأكيد فى ثواب الآخرة ، ذلك ان رحلة حجبهم التى يقومون بها الآن فى هذه الدنيا الى بيت المقدس ليست سوى وعد أكيد بأنهم لابد وان يتالوا نصيبا من الثواب فى الحياة الأخرى •

ثم قام الأساقفة والقسس بعد ذلك بالاحتفال بالقداس فى الكنائس ، وصلوا لله من أجل الناس ، وقدموا الشكر للرب على النعم التى حباهم بها •

- ٢٢ -

فى هذا اليوم ذاته تجلى فى المدينة المقدسة - بشهادة الكثيرين - اديمار أسقف بوى ، تلك الشخصية الفاضلة ، الخالدة الذكر التى ودعت الحياة فى انطاكية كما قلنا من قبل ، وقد شهد

الكثيرون على حقيقة تجليه، كما أن هناك فى الواقع نفرا غير قليل من الموقرين الثقات أكدوا تأكيدا جازما أنهم رأوه بأعينهم حيث كان هو أول من اعتلى الأسوار ، وأخذ يحث الآخرين ويشد عزائمهم ليتبعوه ، وتعددت مرات تجليه فى هذا اليوم ذاته لكثير من الناس وهم فى طريقهم الى الأماكن الطاهرة ، كما شهد العديدون من زوار البقاع المقدسة كثيرين ممن ماتوا وجرى عليهم قضاء الرب الذى لا مفر منه ، أقول شاهدهم الكثيرون فى هذا الحج وأصبح جليا من هذه الحقيقة الثابتة أن من ودعوا هذه الحياة الفانية لينعموا بالرحمة الأبدية لم يحرموا من تحقيق الرغبة (٣٨) التى ملكت عليهم قلوبهم ، لكنهم نالوا غاية ما كانوا يسعون اليه سعيا خالصا ، وهذا يقدم لنا دليلا قاطعا عن القيامة (٣٩) بعد الموت .

وكما حدث للسيد من قيامه من بين الموتى كذلك نام مباركون كثيرون ثم قاموا بالجسد ، وتجلوا للكثيرين فى المدينة المقدسة ، لذلك كان من الملائم أن تتكرر المعجزة الأولى لشدة أزر المؤمنين وهم يطهرون موضع القيامة المقدس من خرافات الأمم ، يضاف الى ذلك انه من الخير ان يعتقد الناس بأن الذين رضوا منهم بقضاء الله فيهم قد قاموا ثانية بالروح .

ولقد تعدد ظهور هذه الآيات وكثير غيرها مما شابهها لشعب الرب بفضل الرحمة الإلهية وبدت كمعجزات أكثر منها عجائب ، لذلك فقد عم الناس فرح فى الروح والفكر انساهم ما كابدهوا من الصعاب التى لا حصر لها ، وعدوا أنفسهم سعداء ان أتيح لهم ان يشاهدوا هذا العطف الإلهي .

---

(٣٨) يعنى الحج الى بيت القدس والاستيلاء عليه .

(٣٩) يقصد المؤلف رؤية أشباح من ماتوا .

وعمت المدينة المقدسة فرحة روحية صعدت الى السيد ، فتعددت  
اقامة الشعائر الدينية كأنها استجابة من السيد ، وبدا كأن كلمات  
النبي ( أشعيا ) قد تحققت حرفيا « افرحوا مع اورشليم وابتهجوا  
معه يا جميع محبيها » (٤٠) .

كان يعيش فى بيت المقدس نصارى أتاحت لهم رؤية بطرس  
الناسك فيها منذ أربع أو خمس سنوات ، حين حمله البطريرك الموقر  
وكبار رجال الدين فيها والأهالى على السواء رسائل آملين أن تحرك  
أمرأه ممالك الغرب فتعطفهم عليهم ، فلما رآه هؤلاء الناس مرة ثانية  
عرفوه ، فخرجوا على ركبهم ساجدين أمامه اعترافا بجميله عليهم ،  
اذ تذكروا أول يوم جاءهم فيه والصدقة التى ربطتهم به ، وشكروه  
شكرا صادرا من الأعماق ، فقد حملته شفقتة وحدها عليهم أن ينجز  
فى صدق واخلاص ومن غير ملل المهمة التى كانوا قد أناطوها به  
وعهدوا بها اليه ، وكان شكرهم فوق كل شيء الله المتجلى على عبده  
لأنه قاد خطوات هذا الرجل فى طريق أدركوا معه من الآمال فوق  
مايرجوه البشر ، اذ الواقع أن السيد هو الذى وهب بطرس لسانا  
مؤثرا حمل الناس والممالك على أن يتحملوا المشاق الكبيرة بلا تافف  
ولا ضجر من أجل اسم المسيح .

والحق كل الحق أن كلام هذا الرجل بدأ وكأنه موصى به من  
السيد الذى قال : « هكذا تكون كلمتى التى تخرج من فمى لاترجع الى  
فارغة ، بل تعمل ماسررت به وتنجح فيما أرسلتها له » (٤١) . وترتب  
على هذا الأمر أن تنافس الناس - أفرادا وجماعات - فيما بينهم فى  
اظهار شتى ضروب التعظيم له ، ونسبوا اليه وحده - بعد الرب -

---

(٤٠) اشعيا : ٦٦ . ١٠ .

(٤١) اشعيا : ٥٥ : ١١ .

خلاصهم من رقهم القاسى الذى تحملوه سنوات طويلا ، كما عزوا اليه الفضل فى عودة المدينة المقدسة الى حريتها الأولى •

وكان البطرك - كما قلنا حالا - قد أبحر الى قبرص ليحصل من المال على ما ينجد به المدينة ويخلصها ويسعد المواطنين ، وتركزت سفارته فى التماس الصدقات من المؤمنين فى تلك البلاد عساه يدفع بهذه الصدقات الجزية والضرائب الزائدة التى كانت قد فرضت على نصارى بيت المقدس فرضا جاوز قدرتهم على دفعها ، وساورهم الخوف ان عجزوا عن الوفاء بهذه الالتزامات أن يقوم مبتزورهم بهدم الكنائس أو الفتك بالناس كما فعلوا ذلك مرارا من قبل •

كان هذا الرجل الموقر جاهلا كل الجهل بما كان قد جرى فى المدينة ، كما أنه كان وجلا من العودة فتصادفه نفس تلك الأوضاع الفظيعة ، بيد ان الرب كان قد أفاء على المدينة حالة من الهدوء الشامل غشى تلك الناحية ، وهو هدوء كان فوق كل ما كان متوقعا •

- ٢٤ -

حين فرغ الناس من صلواتهم وزياراتهم للأماكن الطاهرة التى قاموا بها فى صدق وإخلاص رأى الزعماء أن الضرورة تتطلب قبل كل شيء تنظيف المدينة ولاسيما نواحي الهيكل حتى لا يتفشى الطاعون بسبب الهواء الملوث بالنفن المتصاعد من جيف القتلى ، فقرروا أن يقوم بهذا العمل السكان الأسرى الذين شاءت الصدقة أن يتخطأهم منجل الموت ليلقوا فى السجون ، بيد أن عددهم لم يكن

كافيا لانجاز مهمة كبيرة كهذه المهمة ، ومن ثم قدم الزعماء اجرا يوميا لفقراء الجيش ( الصليبي ) لقاء مدهم يد المساعدة فى تنظيف المدينة من غير ابطاء .

ولما تم تنفيذ هذا الأمر عاد كل قائد الى الدار التى اتخذها مستقرا له ومقاما ، وكان قد تم اعداد هذه الدور لهم خلال تلك الفترة ، ورتبها لهم من كان بها من خدمها أحسن ترتيب .

وقد وجدت المدينة غاصة بشتى أنواع السلع والبضائع حتى توفر لكل فرد من الناس - من أصغرهم الى أكبرهم - كم هائل من كل شئ ، وعثروا فى الدور التى اغتصبوها على كميات ضخمة من الذهب والفضة سوى المجوهرات وغالى الثياب ، ووجدوا المخازن مملآى بالحبوب والنبذ والزيت ، وأصابوا مقادير وافرة من الماء الذى أدى نقصه عند الصليبيين الى تحملهم آلاما فظيعة أثناء الحصار ، ومن ثم فان الذين اتخذوا تلك الدور سكنا لهم أصبحوا قادرين على اسعاف اخوانهم المحتاجين عن طيب خاطر .

فلما كان اليومان الثانى والثالث لاحتلال القدس نصبت سوق عامة لبيع شتى أنواع المتجر من غير تطفيف ، يتال كل واحد ما يريده وما تصبو اليه نفسه ، حتى ان العامة حصلوا على جميع ما يشاءون فى كميات كبيرة وانقضت الأيام فى احتفالات رائعة ، نعم الحجاج فيها بقسط وافر من الراحة ونالوا كل ما كانت تهفو اليه نفوسهم من الطعام ، كما كانت النعم الكريمة الجمة التى جادت بها السماء عليهم مثار دهشة لا انتهاء لها وكانت تذكرة على الدوام بالخير الذى افاضه السيد عليهم الذى يحكى الغيث الهتان .

ورغبة من القوم فى ان يظل خبر هذا الحدث الجليل حيا على أفضل صورة فقد صدر قرار عام ، قوبل باستحسان الجميع

وتأييدهم ، يقضى باعتبار ذلك اليوم مقدسا يختلف عن غيره من الأيام ، وتقرر اعتباره يوم تمجيد وثناء للاسم المسيحى حيث يذكر بكل تعظيم ما تنبأ به الانبياء بشأن هذا الحدث ، كما تقرر أن يبتهلوا الى الرب على الدوام فى مثل هذا اليوم ابتهاالا يستمطرون فيه شأبيب الرحمة على أرواح من يرجع الى جهودهم المشكورة الناجحة الفضل فى رجوع مدينة الله الحبيبة سالمة الى حريتها الأولى فى ظل الايمان المسيحى .

وفى هذه الأثناء رأى الأعداء الذين لجأوا الى قلعة داود - فرارا من غضبة السيف - ان المدينة آلت تماما الى أيدي الصليبيين ، وأيقنوا أنه لم تعد لهم قدرة على تحمل الحصار ، واذ ذاك راحوا يفتشون عن كوزت تولوز الذى كان مقيما فى الناحية التى بها البرج ، وحصاوا منه على وعد بأن يأذن لهم بالخروج من المدينة هم وذووهم ، وان يؤمن ذهابهم الى عسقلان ، كما انه سمح لهم باستصحاب كل متاعهم الذى كانوا قد جاءوا به معهم الى داخل البرج ، وبذلك أسلموا القلعة للكونت على هذه الشروط .



أما الذين عهد اليهم بتطهير المدينة فقد بذلوا - فيما كلفوا به - همة وجهدا كبيرين ، فأحرقت بعض الجيف ، ودفن البعض الآخر حسبما يأذن الوقت ، وأنجزوا عملهم هذا كله فى أيام قلائل معدودات، وعادت المدينة الى ماكانت عليه من النظافة ، وانطلق الناس زرافات وفى ثقة أكبر الى الأماكن الطاهرة ، وأصبح فى مقدورهم ان تتلاقى زمهرم الكبيرة فى شوارع المدينة وميادينها ، وان ينعموا بالتحدث بعضا الى بعض .

ولقد تم الاستيلاء على القدس حوالى الساعة التاسعة من نهار الجمعة الخامس عشر من يوليو عام ١٠٩٩ من ميلاد المسيح ، وذلك بعد ثلاث سنوات من السنة التى شرع فيها الشعب المؤمن فى تحمل مشقة هذا الحج العظيم ، وكان ذلك زمن « البابا ايربان الثانى » الجالس على كرسى الكنيسة الرومانية الطاهرة وفى عهد الامبراطور هنرى الرابع صاحب امبراطورية الرومان ، وفى زمن فيليب ملك فرنسا ، كما كان بيد الكسيوس صولجان الحكم على الاغريق ، وكانت يد السيد الرحيمة تقودهم وتوجههم جميعا •

له الشرف والمجد الى الأبد •

هنا ينتهى الكتاب الثامن



## الكتاب التاسع

---

### جودفروى حامى القبر المقدس بيت المقدس وأنطاكية

#### فصول الكتاب التاسع :

- ١ - اجتماع الزعماء بعد ثمانية أيام من الاستيلاء على بيت المقدس لانتخاب واحد منهم ليتولى أمر المدينة والأقاليم المجاورة ، أما رجال الدين عامة فكانوا يحاولون منع هذا الأمر .
- ٢ - القادة لا يكثرثون بمعارضة رجال الدين ويختارون الدوق ( جود فروى ) ويمضون به الى بيت المقدس وسط أهازيج الفرخ والتراثيل الدينية .
- ٣ - حين تؤول مقاليد الحكم الى الدوق ( جود فروى ) يعمد الى مطالبة ( ريموند ) كونت تولوز بتسليمه برج داود الذى كان

العدو قد سلمه اليه ، فيثسب النزاع بين القائدين ولكن  
جود فروى ينجح أخيرا فى تملك البرج حسب طلبه .

٤ - أسقف مطيرة الخبيث الغامض يحاول رفع أرنولف - الذى  
هر من جبلته - الى كرسى البطركية ولكنه يفشل فى محاولته  
هذه ثم العثور على صليب السيد .

٥ - القول عمن يكون الدوق جود فروى ، ومن أين جاء ، ومن هم  
أسلافه .

٦ - تنبؤات أمه بمستقبل أولادها .

٧ - ما تم على يد جود فروى من الانجازات الخالدة فى احدى  
المعارك .

٨ - العمل الذى لا مثيل له الذى قام به جود فروى وأدى الى  
انتصار الامبراطور هنرى على رودلف مفتصسب عرش  
سكسونيا .

٩ - سخاء الدوق الطيب على كنائس بيت المقدس ، وكيف دفعه  
تواضعه لأن يرفض وضع التاج الملكى على رأسه .

١٠ - خليفة مصر يستدعى مختلف قواته الحربية ويزحف على  
بلاد الشام ضد الصليبيين .

١١ - بعد أن يفرغ الدوق من اتمام فرائضه الدينية فى بيت المقدس  
يقوم بجمع قواته فى الرملة التى كان القادة قد تجمعوا  
فيها .

- ١٢ - نشوب القتال وانتصارنا بعون الله واستدواذنا على غنائم  
لا يحصيها العد .
- ١٣ - انفصال الزعماء بعضهم عن بعض وعودة كونت نرمندي ،  
وكونت فلاندرز الى وطنهما ورجوع كونت تولوز الى  
القسطنطينية ، واذ ذاك تصبح قيادة طبرية في يد تانكريد .
- ١٤ - ذهاب يوهيموند أمير أنطاكية وبلدوين كونت الرها الى بيت  
القدس للاحتفال بعيد ميلاد المسيح .
- ١٥ - دامبرت - رئيس أساقفة كنيسة بيزا - يصبح بطرك بيت  
القدس .
- ١٦ - نجاح مكائد الشريرين في بث الشقاق الحاد الذي يصل الى  
حد الصراع بين الدوق والبطرك حول ملكية برج داود وربع  
المدينة .
- ١٧ - لماذا وضع ربع المدينة تحت ادارة فخامة البطريرك وسلطانته .
- ١٨ - استمرار نفس الموضوع وبيان أي الأماكن الطاهرة تدخل في  
نطاق جزء المدينة الذي تكثر الإشارة اليه .
- ١٩ - وصف أحوال المملكة في ذلك الوقت وذكر حصار الدوق  
لمدينة أرسوف الساحلية ، ثم السبب في رفعه ذلك الحصار  
عنها .
- ٢٠ - ذكر حادث يستحق التسجيل جرى لهذا الرجل العظيم  
( جود فروي ) أثناء ذلك الحصار .

٢١ - وقوع بوهيموند - أمير أنطساكية - في الأسر عند مدينة  
ملطية •

٢٢ - ذكر عمل رائع يستحق التخليد قام به الدوق في بلاد  
العرب •

٢٣ - موت الدوق جودفروى ودفنه •

\* \* \*

هنا يبدأ

## الكتاب التاسع

---

جودفروي حامى القبر المقدس والملك  
غير المتوج لبيت المقدس وأنطاكية

- ١ -

عادت المدينة المقدسة الى الشعب المسيحى بفضل رعاية الرب  
الغامرة ، وسعدت بشيء من النظام ، ومرت على الناس سبعة أيام  
نعموا فيها اقصى غايات النعمة والسرور ، وان مازج فرحتهم  
الشاملة شيء من خشية الله ومن الفرح الروحية ، فلما وافى اليوم  
الثامن التأم عقد القادة للمتشاور ، وكان غرضهم - بعد التوسل  
بالروح القدس - أن يختاروا واحدا من بينهم يلقون اليه بحكم البلد  
ويحملونه المسئولية الملوكية لتلك الولاية .

لكن بينما كانوا يبحثون هذا الأمر كان رجال الدين يجتمعون  
هم أيضا فيما بينهم وقد استولت عليهم روح الصلف ، وقدموا

مصالحهم الذاتية على مصالح عيسى المسيح ، وأرسلوا رسالة الى الزعماء الصليبيين قالوا لهم فيها ان عندهم مسائل خاصة معينة . يريدون أن يتحدثوا فيها أمام أولئك الذين يتشاورون الآن فيما بينهم، فلما استجاب القادة لطلبهم قالوا لهم ، « لقد علم رجال الدين انكم قد اجتمعتم لاختيار أحدكم لتنصبوه ملكا ، وما نشك في شرف هدفكم وصوابه ، فان قدر هذا الأمر أن يتم على الوجه الصحيح كان قرارا دقيقا جديرا بالتنفيذ ، غير أن الذى لا مشاحة فيه هو أن المسائل الروحية اسمى من المشاكل الزمنية وأعظم منها خطورة ، مما يختم ان تكون لها الصدارة ، وفى رأينا أنه يجب عليكم – قبل أن تفكروا فى انتخاب أحد لمنصب علمانى – أن تختاروا رجلا قضى حياته فى خدمة الملة ، ويرضى عنه الرب ، ويكون قادرا على رئاسة كنيسة وتدير أمورها بما يؤدى الى تقدمها وخيرها ، فان قبلتم أن تسير الأمور على هذا السمت قبلناه نحن أيضا بكل الرضا ، وأيدناكم عقلا ووجدانا ، أما ان أبستم وأعرضتم فأننا سوف نشجب كل ما قررتموه ، لأنه يكون قد تم بدون موافقتنا ، ولا يعود لهذا الشخص الذى اخترتموه نمة فى عنق أحد »

وعلى الرغم من أن اقترح رجال الدين هذا كان فى ظاهره مقبولا وعظيما ، الا أنه كان ينطوى فى واقعه على كثير من سوء النية ، كما ستبين الخواتيم »

وكان اكبر المتزعمين لهذا الشقاق أسقف « كلابريا » من اقليم « مطيرة » وكان هو الصديق الحميم للمدعو « أرنولف » الذى ورد عنه الشيء الكثير فى الصفحات السابقة ، وكان أسقف كلابريا هذا يرمى الى أن يسوق كرسى البطريركية لأرنولف الذى وان كان من رجال الدين الا أنه مذموم السيرة مغموزها ، ثم انه فوق ذلك ابن أحد القساوسة ، وكانت الألسن تلوك طول الرحلة سيرته بالسوء

وتتغامز عليه ، كما أن سفلة المهرجين فى الجوق كانوا يجعلون منه أضحوكة أغانيهم الجنسية .

هذا هو الرجل الذى كان أسقف كلابريا يحاول أن يرفعه إلى منصب بطركية القدس ، مخالفا جميع القوانين الكنسية المقدسة مخالفة صريحة وعلى كره من الرجال الشرفاء ، كما أن ذلك الأسقف ذاته كان رجلا ساقط الهمة ، دنىء النفس ، فلا عجب أن تمكن فى سهولة ويسر من الوصول الى اتفاق مع أرنولف ، فقديما جاء فى الأمثال « ان الطبيعة تحمل الطيور على الوقوع على أشكالها ، وشبيه الشيء منجذب إليه » .

لقد أخذ هذا الرجل نفسه يساوم على كنيسة بيت لحم ، إذ عقد صفقة مع أرنولف ، اتفقا بمقتضاها على أنه إذا ارتقى الأخير كرسي البطركية بفضل سعى الأسقف فعلى أرنولف ألا يقف أبدا فى وجهه فى أن تؤول الكنيسة (١) المذكورة ليكون أسقفها . غير أن الموت وضع خاتمة لكل مشاريعه ، كما سنروى خبر ذلك فى الصفحات التالية .

### \*\*\*

لقد هوى الدين القيم وكل معانى الشرف الى الحضيض عند رجال الدين ، فاستشرى الفساد فى كل ناحية ، وسار فى مسيرات محرمة منذ أن غادر دنيانا النائب الرسولى ، الطاهر الذيل والسيرة « انديمار أسقف بوى » ، ثم قام مكانه فى حمل مسئولية هذه الملة وليم أسقف أورنج ، الذى كان رجلا ورعا يخشى الله حق خشيته ، فأدى الأمانة على أحسن ما يكون الأداء ، لكنه مالبت أن مات هو الآخر بعد قليل ، وكان موته بالمعرة . فصدق ( بعد هذين الرجلين ) قول القائل (٢) « كما الشعب هكذا الكاهن » .

(١) أى كنيسة بيت لحم .

(٢) هوشع ٤ : ٩ .

ولم يبق بعدهما سوى أسقف البارة وقليلين من أمثالهم ،  
فاضت قلوبهم بخشية الرب ، ونظرت عيونهم صوب الطريق  
بحسب يسلكه .

## - ٢ -

لم يكثرث الأمراء باعتراضات رجال الدين التي أشرنا إليها في  
الأسبق ، وعدوها سفسطة غير ذات موضوع ، وعلى الرغم  
عزمهم على تنفيذ مشروعاتهم إلا أنه لم يفتهم أخذ اقتراح رجال  
ن بعين الاعتبار ، وتقول بعض الأخبار أنه من أجل أن تجري  
خبايا بما يرضى الرب ، وحتى تلقى ميزات المرشحين لهذا  
ف ماتستحق من العناية ، فقد استدعى الزعماء اليهم في السر  
ناصا من أهل المتنافسين وأتباعهم ، وأخذوا على كل منهم العهد  
بصدق فيما يقول ، وألا يحيد أحدهم عن ذكر الحقائق المتطابقة  
له وبخلقه ، وقد سلك الزعماء هذا السبيل حتى تتوفر لدى  
خبين المعلومات الكاملة الدقيقة عن قدر كل مرشح .

ولما سئل هؤلاء الناس أخيراً أسئلة استفسارية من جانب  
خبين التزموا بإيمانهم التي أقسموها ، ألا وهي بيان عيوب  
اتهم وقضايلهم ، غير مخفين من هذه أو تلك شيئاً ، على أن يبقى  
صرحوا به سرا مكتوماً ، وتوقعوا أن تؤدي هذه الطريقة إلى  
دور حكم بعيد عن الهوى ، يفصح عن طبيعة كل مرشح  
خصيته .

ولما سئل بعض أتباع جود فروى - فيمن سئلوا - عما يعرفونه  
فعال مولاهم الدوق ، قالوا أن أشد ما ضايقهم منه هو أنه دخل  
مرة إحدى الكنائس ، فلم يستطيعوا حمله على مفادرتها رغم  
اغ من الصلاة ، إذ استمر يسأل القسس وغيرهم من أهل المعرفة

عن مغزى كل صورة وكل أيقونة ، حتى استبد الضجر بأصحابه الذين كان هواهم يخالف هواه ، وترتب على طول انتظارهم أن ظلت الأطعمة على النار زمنا أطول مما كان مقدرا لنضجها حتى أصبحت غير ذات مذاق •

ولما سمع النابخون هذه الشكاية منهم فى حقه تعجبوا وقالوا « سعيد والله ذلك الرجل الذى له كل هذه الصفات الحميدة ، والذى تكون نقيصته فضيلة يتفاخر بها الآخرون » •

وبعد أن استعرض النابخون كل جوانب المسألة استعراضا دقيقا انعقد اجماعهم على اختيار الدوق جود فروى ، فتم انتخابه ثم ساروا به فى موكب مهيب الى قبر المسيح ، تزفه اغانى المتشدين والمرتلين •



ومع ذلك فقد قيل ان معظم النابخين كانوا قد اتفقوا على اختيار ريموند كونت قولوز ، لولا أنهم عرفوا عزمه على الرجوع الى وطنه فى الحال ان لم ينول أمر المملكة •

واذا كانوا فى حنين شديد الى ديارهم الحبيبة فقد تذرعوا بشتى الذرائع حتى وان كانت ترفضها ضمائرهم ، والتي تزعم أن الكونت غير أهل لهذا المنصب ، ومع ذلك فان ريموند أصم أذنيه عن نداء أرض آبائه وأجداده ، وأخلص النية فى متابعة المسيح فلم يعد الى وطنه وخالف ظن الجميع إذ استمر فى الحج الذى ارتضاه ولم ينصرف عنه ، واتبع بمحض اختياره طريق الفقر حتى النهاية لأنه كان يؤمن بقول القائل (٣) : « ولكن الذى يصير الى المنتهى فهذا

---

(٣) متى ٢٤ : ١٣ •

يخلص » ، كما آمن بقول الآخر (٤) ( اذ قال يسوع ) « ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر الى الوراء يصلح للمكوث الله » .

### - ٣ -

فى الوقت الذى تقلد فيه الدوق مقاليد السلطة العليا فى المملكة برضاء الجميع ، كان كونت صنجيل لايزال مستحوذا على قلعة المدينة وأعنى بها برج داود ، الذى سلمه العدو اليه فى البداية كما قلنا . وكان البرج بناء تحت من الحجر الصلد ، ويقع فى الناحية الغربية فى أعلى بقعة من المدينة التى يمكن رؤيتها كلها من هذا الارتفاع الشاهق وهى جاثمة تحته .

ولما رأى الدوق ( جود فروى ) فراغ يده من هذا الحصن القوى الذى هو آخر معاقل البلد أحس بنقص سيادته ، لذلك اغتنم اجتماع القادة وطلب من الكونت أمامهم أن يسلمه البرج ، فرد عليه ريموند انه لما كان العدو قد سلمه اليه هو وحده دون سواه ، فانه راغب فى بقاءه بيده حتى يقلع بحرا الى وطنه يوم عيد الفصح ، اذ أن بقاء القلعة فى يده يضيف أهمية كبرى على مركزه طوال مدة مكثه برجاله فى المملكة ، فكان جواب الدوق أنه سوف يتخلى عن الحكم كله وينفض يده منه أن لم يرد ( الكونت ) البرج اليه ، كما صرح أنه سيكون من العار عليه - وقد نودى به حاكما أعلى - أن يظل حصن المدينة تحت سلطان غيره ، فيعتبر هذا الغير اذ ذاك ندا له أو اسما منه مكانة .

وانضم الى جانب الدوق ( جود فروى ) حينئذ كل من كونت فلاندرز ، وكونت نرماندى ، بل ان أصحاب كونت صنجيل ايدوا

---

(٤) لوقا : ٩ : ٦٢ .

معارضيه ، وجاء أن يؤدي موقفهم هذا لايجاد مبرر لمولاهم ريموند يحمله على مغادرة البلاد ، وكانت النتيجة هي اجماع الكل على بقاء الحصن تحت اشراف اسقف البارة ، ليكون قواما عليه حتى يتم البت فيمن يؤول اليه شرعاً . على أنه يقال ان الاسقف اسلم الحصن للدوق قبل أن يصل القوم الى القول الفصل فيه ، وحدث فيما بعد أنه لما قام نفر يلومون الاسقف على ما فعل بحق الكونت ( ريموند ) والحصن ، بادر الاسقف فأعلن على رؤوس الاشهاد انه لم يفعل ما فعل الا مرغماً .

حينذاك احتدم الكونت غضبا وثارت ثائرتة ، لأنه أحس بحرمانه من البرج بطريقة أذرت به ، وزيادة على ذلك فقد أدرك عدم أنسام موقف الزعماء الآخرين نحوه بالود الذي هو أهل له ، ورآهم يتناسون أفضاله الجمة التي طالما أغدقها عليهم خلال الحج ، فغادرهم الى الأردن ، وبعد أن سبج في مائه أخذ يعد العدة للعودة الى بلده نزولا على هوى رفاقه ورغباتهم .

## ٤ -

أما أسقف « مطيرة » الخبيث المحتال فقد دأب طوال هذه الفترة على اغراء الجهال بالتطاول على الزعماء الطاهري الذيل ، حتى لقد دفعه الحسد الذي يملأ جوانحه الى الزعم بأن القادة دبروا عدم تنصيب راع للكنيسة ليتمكنوا من بسط سيطرتهم الكاملة عليها، طالما لا يوجد لها رئيس يدير شئونها ، ومن ثم قام هذا الاسقف فاخترار أرنولف المذكور - رغم معارضة سواه - ووضعه على رأس البطركية ، وعاونته في هذا المسعى رجال ممن كانوا على شاكلته في التفكير .

ولقد اعتمد في هذه الخطسوة على تأييد ( روبرت ) كونت نرماندى صديق أرنولف الحميم ورفيقه في الرحلة ، كما اعتمد

على أصوات أوشاب الناس ورعاعهم الذين ساندوه فى مسعاه  
استجابة للمشورة الفاسدة ، بيد أنه لم يقدر لأحد هذين الرجلين  
أن يتمتع طويلا بثمره هذا التدبير الكريه ، إذ سرعان ما اضطر  
أرنولف رغم أنفـه للتخلـى عن هذا المركز الذى اندفع فى طيش  
للحصول عليه ، وكذلك كان الحال مع مؤيده البذئ الذى شجعه  
على سلوك هذا المسلك المعيب ، فلقى هو الآخر جزاءه .

\*\*\*

حدث فى هذا الوقت ذاته أن اكتشف فى ركن قاص من أركان  
كنيسة القبر المقدس جزء من صليب المسيح ، كان قد أخفاه هنا  
منذ زمن بعيد المؤمنون الذين كانوا يعيشون تحت عسف « الأمم »  
ولم يطلع على هذا السر غير نفر قليل .

ويرجع الفضل فى كشف هذا الكنز الثمين الموجود فى علبة  
فضية الى إيمان رجل سورى كان قد عرف مخبأه ، فحملة القوم وهم  
يرتلون الأناشيد والأغاني الدينية ، وساروا به أولا الى قبر السيد  
ثم الى الهيكل ، ومضى خلفهم رجال الدين والشعب جنبا الى جنب ،  
وسرى بين الصليبيين شعور عام هو أن الله العلى جاد عليهم بهذه  
المنحة عزاء لهم عما تحملوه من الأهوال ، وما صادفوه من المشاق .

- ٥ -

كان الدوق جود قروى الذى يتردد اسمه كثيرا فى ثنايا هذا  
التاريخ قد استقر - برحمة الرب - رئيسا أعلى للمملكة ، كما قضى  
على جميع المنازعات ان كان قد حدث منها شيء وأخذت المملكة فى  
أيامه تزداد قوة ويأسى حتى تثبتت دعائمها ورسخت أركانها ، لكن  
لم تجاوز حكومته عاما واحدا ، لأن آثام الناس لم تساعد - رغم

الدعاء الكثير له - على أن تطول أيام هذا الأمير العظيم ، فلم يقو  
عود السيطرة المسيحية الغض ، وانتزعه الموت من بين الرجال حتى  
لا يتبدل قلبه فيمتلىء بالكبرياء لأنه مكتوب فى أشعيا : « باد الصديق ،  
وليس أحد يضع ذلك فى قلبه ورجال الاحسان يضمنون ، وليس من  
يقطن بأنه من وجد الشر يضم الصديق » (٥) .



نشأ جود فروى أول ما نشأ فى مملكة الفرنجة اذ ولد فى اقليم  
« ريمز » بمدينة « بولونيا » المطلة على القنال الانجليزى ، وهو  
سليل آباء كرام المحدث اتقياء . فقد قام أبوه « استاس » الكبير  
أحد كونتات هذه الولاية البارزين النابهين بكثير من الأعمال الجليلة ،  
ولا يزال اسمه كرجل تقى يخاف الله محل توقير ، ولا يذكره كبار  
رجال النواحي المجاورة الا ويثنون عليه الثناء العاطر .

وأما أمه « ايدا » فكريمة الأصل ، قد ذهبت هى الأخرى بين  
نساء الغرب الشريقات بحسن الأحداث لخلقها الرفيع ومكانتها  
السامية ، وهى أخت « جود فروى » ( الكبير ) المبجل دوق اللورين  
الملقب « بستروما » ولما لم يكن لهذا الدوق أولاد من صلبه فقد تبنى  
ابن أخته وسميه وأوصى له بكل ما يملك ، ومن ثم خلف جود فروى  
خاله على الدوقية عند موته .

وكان لجود فروى الصغير ثلاثة أشقاء : أهلهم سمو خلقهم ،  
وشجاعتهم الفائقة لأن يكونوا عن جدارة اخوة لمولى عظيم مثله ،

---

(٥) اشعيا ٥٧ : ١ .

هم : بلدوين كونت الرها الذى خلف فيما بعد ( أخاه ) جود فروى  
فى حكم بيت المقدس ، وأما ثانيهما ، فاستاس « كونت بولونيا » الذى  
سمى باسم أبيه ، وورث أملاكه ، كما آل اليه حكم المقاطعة بعد  
موته ، ثم هناك « ماتيلدا » ابنة استاس ، وهى التى تزوجت من  
« ستيفن » ملك الانجليز العظيم المبجل .

ولما مات بلدوين دون ولد يرثه فقد استدعى رجال الشرق  
البارزون « استاس » ليخلفه فى المملكة ، لكنه كان عازفا عن الذهاب  
الى هناك ، مخافة ألا يتم استخلافه على العرش من غير حرب .

أما الأخ الثالث لجود فروى فهو « وليم » ، وكان رجلا ذا  
شرف صاعد ، لا تنقصه الشجاعة ولا الخلق السوى اللذان كانا  
يميزان أباه وأخويه ، وقد صحب الأخوان اللذان ذكرناهما مولاهما  
وشقيقتهما فى حملته ، على حين بقى ثالثهما « وليم » فى البلاد لم  
يبرحها .

كان جود فروى العظيم أكبر اخوته ، وله الصدارة عليهم  
والتقدمة فيهم لما تميز به من نبل الطبع وعمق الايمان ، كما بزهم  
برحمته وتقواه وعدله ، وكان يغلب عليه الجد . ويمتاز بصدق الكلمة  
والبعد تماما عن كل شر ، مع ازدياء لأبهة الدنيا ، وكانت هذه  
صفة نادرة فى تلك الأيام ، وهى أشد ندرة فى الرجل الذى يتخذ  
الحرب حرفة له ، ثم انه كان ملازما للصلاة ، دؤوبا على صالح  
الأعمال ، معروفا بسخاء كفه ، واذ كان مقضالا لين الجانب رحيمًا ،  
مالكا لنفسه عند الغضب فقد كان محمودا عند الله ، مرضيا عليه  
منه .

وكان طويل القامة من غير اسراف كبير ، ولكنه اذا ما قيس  
بالرجل العادى كان أطول منه « ولم يكن هناك أحد يماثله فى شدة

باسه ، فهو عبل الساعدين ، عريض المنكبين ، تسر طلعتة الناظرين ، وكان شعر لحيته ورأسه أشقر بعض الشيء ، وقد أجمع الكل على أنه معدوم النظير فى استعمال السلاح وفى ممارسته أفانين الحرب •

## - ٦ -

كانت أم هؤلاء الأمراء العظام امرأة متمسكة بالدين فى حياتها ، عاملة على ما فيه مرضاة الله ، وبينما كان هؤلاء الأمراء لايزالون فى سنواتهم الأولى رأت أمهم - وقد قاضت نفسها بروحانية طاهرة - أحداث أيامهم القادمة ، والوضع المقدر لهم حين يشبون عن الطوق وتتقدم بهم الأعوام ، وكان ما رآته يشبه أن يكون وحيا أوحى به إليها ، ففى ذات مرة من المرات كان صغارها يلعبون جميعا حولها ويتدافعون كمادة أمثالهم من الأطفال ، ويزاحم الواحد منهم الآخر ، ثم يفر كل منهم الى حجر أمه معتصما بها ، حين دخل عليهم أبوهم الموقر كونت استاس ، فاستخفوا منه تحت طيات عباؤها ، وكل منهم يدفع أخاه دفعا هينا بيديه وقدميه ، فلاحظ الكونت عباءة الأم تهتز عليها فسألها ما سر هذه الهزات القوية فردت عليه كما يقولون بقولها : « انهم ثلاثة أمراء عظام ، سيكون أولهم دوقا ، وثانيهم ملكا وثالثهم كونتا » ، فكان ما قالته أشبه بنبوءة علوية تمت كما قالت ، وأكدت الأحداث فيما بعد صدق ما تنبأت به ، فقد خلف الابن الأول خاله فى الدوقية ، ثم اختاره الزعماء بالاجماع فيما بعد حاكما لمملكة بيت المقدس ، وأما من يليه مباشرة وهو بلدوين فقد ولى عرش المملكة من بعده ، على حين أن الأخ الثالث استاس ، خلف أباه بعد موته كوريث لكل الولاية لا يشاركه فيها أحد ، كما قائلت أمهم •

واننى أتجاوز عامدا قصة البجعة التى تزعم الأسطورة أن

هؤلاء الأخوة جاءوا منها ، اذ على الرغم من أن كثيرا من الكتاب يقصونها كحقيقة مؤكدة ، الا أنه لا أساس لها من الصحة عندى •

فلنجاوز هذه القصص ، ولنعد الى تاريخ الدوق ، الذى نبدا فى سرده ، فتذكر الأخبار أنه من بين الأعاجيب التى فعلها - كعادته - اعجوبة تستحق الاشارة ، حتى لنرى أنه ينبغى ادراجها فى مؤلفى الحالى هذا •

## - ٧ -

هناك معركة من معارك هذا الدوق العظيم الخالدة ، لها الصدارة بين غيرها ، وتستحق أن نرويها هنا ، وهى اضطرابه - رغم ارادته - للدخول فى مبارزة كان لابد أن يخسر فيها ذبوع صيته كعالموف عادات البلاد لمو أنه اعتذر عنها ، ذلك أن قد آذاه وهو فى البلاط الامبراطورى - نبيل من وجوه النبلاء هناك ، وان قيل انه من ذوى قرياه ، وكان الأمر يتعلق بأملك شاسعة وولاية فسيحة الأرجاء ، فتحدد يوم معين للمحاكمة للفصل فيما رمى به ، فلما وافت الساعة المحددة حضر الى البلاط الامبراطورى كل من المدعى والمدعى عليه ، وعرض موضوع النزاع فتقدم الشريف المشار اليه بدعواه ، فدافع الدوق عن نفسه كأحسن ما يكون الدفاع ، ولكن قوانين البلاد كانت تحتم المبارزة الشخصية بين طرفى الخصومة ، فبذل سراة الامبراطورية جهودهم لمنع هذين الرجلين العظيمين من القيام أمام الناس بعمل ليس من اللائق أن يراه النظارة ، اذ كان من الضروري أن تتمخض المبارزة عن تلويث شرف أحدهما وسمعته من غير فائدة ، لكن راحت جهودهم فى هذا الموضوع هباء ، حين صدر القرار الامبراطورى بالتنفيذ ، وتحلق النبلاء حول الاثنين كما

هى العادة ، وتزاحمت العامة حين دخل المتنازعان الساحة المخصصة للمبارزة الفردية لمعرفة ما تسفر عنه هذه المبارزة •

وبينما كان هذان العظيمان المبدلان يتصارعان فى شجاعة بكل ما أوتيا من قوة اذا بدرع الخصم يصب الدوق سيفه ويتهشم السيف حتى لا يبقى منه فى يده من عند مقبضه سوى قطعة لاتكاد تبلغ نصف قدم ، فلما رأى النبلاء الشهود أن موقف الدوق قد أوفى على الخطر الذى ما بعده خطر نادوا بوقف المبارزة قليلا ، وذهبوا الى الامبراطور يلتمسون منه أن يأذن لهم باقتراح يكون حلا وسطا بين النبيلين العظميين ، وبينما كانوا منهمكين فى عرض آرائهم اذا بالدوق يعلن رفضه للبأت لما قد يستقيده من جهود وسطاء السلام بينه وبين منافسه ، واذا به يعود الى الحلقة وكله اصرار تام على معاودة المبارزة •

كان سيف الخصم لايزال سليما ، وقد صارت له اليد العليا . فراح يضاعف من الشد على الدوق ويأبى أن يتيح له لحظة يلتقط فيها أنفاسه ، ومع ذلك فقد استطاع جود فروى فى النهاية أن يسترد براعته المعهودة التى كان الناس يعرفونها فيه ، واندفع الى الأمام غاضبا أشد الغضب ، ومقبض سيفه المكسور فى يده ، وضرب خصمه ضربة نكراء أصابت صدغه الأيسر فجندلته على الأرض وهو بين الحياة والموت ، حتى ظنه الجميع قد فارق الحياة تماما •

ثم طوح جودى فروى جانبا بحطام سيفه من يده وأمسك بحسام خصمه المسجى على الأرض واستدعى اليه السادة الذين كانوا يتحدثون اليه منذ قليل عن حل وسط بينهما ، والتمس منهم أن يضعوا شروط الصلح ، وأن ينصرفوا للعمل على انقاذ هذا الرجل العظيم من تلك الميته الشائنة إذ حاقت به الهزيمة ، فتملكهم الاعجاب بشجاعة

الدوق الفائقة ، وانهلهم رحمته التى لاتقاس بها رحمة ، وراحوا يرتبون امر الصلح ، وهكذا انتهت المباراة الى نهاية شريفة ، خرج منها الدوق منصورا ، واستحق فى نظر الجميع ثناء لا يبلى .

## - ٨ -

وهناك عمل آخر لا يقل عن هذا العمل روعة ، وسوف يبقى خالدا ابد الدهر فى اذهان الناس ، ونراه نحن جديرا بالاثبات فى هذا الكتاب ، ذلك ان السكسون - وهم اشد الشعوب الألمانية غلظة - انفوا ان يظلوا يرسفون فى قيد الامبراطورية الرومانية ، ولما كانوا يؤثرون التنقل احرارا دون قيد اثنى شاءوا فقد تخلصوا من كل الاغلال التى كان يفرضها النظام عليهم ، وتمردوا على الامبراطور هنرى ، راوغلوا فى تمردهم المتعمد فنصبوا على انفسهم ملكا معارضا للامبراطور ، وكان هذا الملك اُحد كونتاتهم وكبيرا من كبارهم يدعى « رودلف » .

اغضبت هذه الالهانة الامبراطور واثارت خفيظته فدعى اليه كل امراء المملكة ، حتى اذا صاروا فى حضرته استعرض امامهم الالهانات التى لم تعد خافية عن اُحد ، وطالبهم بالانتقام ، فغضبوا حمية لجد الامبراطورية ، وساءهم مسلك السكسون الهمجى ، ولم يتوان اى واحد منهم عن عرض خدماته ، ووعدوه بامدادات عسكرية .

ولما لم يكن من المستطاع غض الطرف عن اساءة كهذه الاساءة فقد اعلنوا انه ما من شىء غير الموت يلقيه السكسون يكفرون به عما اجترحوه من جرم فى حق الامبراطورية ، وانه لايمكن محو هذه الجريمة الكبرى الا بالسيف يفسل عارها .

وجاء اليوم الذى حدده الامبراطور لاجتماع أمراء المملكة ،  
فالتقوا فى الموضع الذى ضربه لهم وهم يقودن الآلاف المؤلفة من  
العسكر ومن الأمراء الدينيين والعلمانيين على السواء ، وقد جاءوا  
بهم من كل أرجاء الامبراطورية ، وكلهم مجمع العزم على مهاجمة  
بلاد السكسون ، والثأر لهذه الجريمة النكراء والفعلة الشنعاء •

### • واقترب يوم القتال

### • واصطف عساكر الجانبين استعدادا للمعركة

وحينذاك استدعى الامبراطور اليه كبار قادته ، واستفسر منهم  
عمن يسلمه علمه الامبراطورى ويكون مطمئنا اليه ، ويجعله القائد  
العام لهذا الجيش العرمم ، فردوا عليه فى الحال وباجماع تام منهم  
على أن ذلك الشخص هو « جود فروى » دوق اللورين ، لأنه أقدر  
الجميع واكفأهم لتحمل المسؤولية ، فلما عرف الامبراطور أنه المختار  
من بين الألوف المؤلفة ، وأنه فى نظر الجميع الرجل الذى لا يبيزه  
غيره فقد أسلمه راية النسر ، فلم يبطره ماجرى ولكنه قبل هذا  
الشرف على كره منه •

وبينما كان جيشا الجانبين فى هذا اليوم يتقاتلان فى براعة ،  
ويشد كل منهما على الآخر بالسيف شدا عنيفا ، اذا بالدوق الذى كان  
على رأس قوات الامبراطور ويحمل نسرته يتحرك ويزحف مواجهها  
الصفوف التى كان يتودها « رودلف » الملك المغتصب ، فاتجهت كل  
القوات التى تحت قيادة الامبراطور الى حيث اتجه ، فعمت الفوضى  
كتائب الملك ( رودلف ) واضطربت صفوفها حين جاءها جود فروى  
الذى رآه الامبراطور ( هنرى ) ذاته وبعض كبار رجالاته بأعينهم  
وقد ضرب قلب رودلف بالراية التى يحملها ضربة طرحتها أرضا

نسقط جثة هامة لاحراك بها ، واذ ذاك رفع جود فروى الراية  
الامبراطورية ثانية ، وقد لطخت كلها بدم الملك •

فلما شاهد السكوسون هلاك ملكهم نكسوا على أعقابهم  
واستسلموا للامبراطور ( هنرى ) ففرضت عليهم التعويضات التى  
تتكافأ وطبيعة جرمهم ، فأعطوه الرهائن ، وأسلموه أسلحتهم ، تأكيداً  
على عدم عودتهم مرة أخرى لمثل هذه المحاولة ، وهكذا عادوا من  
جديد يستظلون بعطفه •

لقد دوننا هذه الأحداث لندلل كم كانت هيبة هذا الرجل  
العظيم (٦) - الذى نتحدث عنه - عظيمة بين أقوى أمراء الدنيا ،  
ولايستطيع أحد ان يشك فى أنه انفرد بالمعظمة دون بقية الرجال ،  
وقد شهد له بذلك الأمراء المشهورون الذين قيل فيهم أن ليس لهم من  
ند أو ضريب ، وقد اثبت صدق هذا الرأى فيهم ما برهن عليه حكمهم  
عليه وما كان من فعالة النابهة التى جاءت بالدليل البين على أن  
تقديرهم كان فى موضعه •

ولقد قام هذا الرجل الجليل ( جود فروى ) بعد ذلك بكثير  
من الأعمال الباهرة التى تستحوذ على الاعجاب والتى لاتزال حتى  
اليوم تروى كقصص يستحب سماعه ، ومن هذه الأعمال انه لما عزم  
على المضى الى الحج تنازل عن رضا وطيب خاطر لكنيسة المسيح  
عن قلعة « بويون » المشهورة المنسوب هو اليها ، والتى تشتهر  
بأراضيها وموقعها وتحصيناتها ، وبما تنتجها اقاليمها الفسيحة  
الواسعة من شتى الخيرات •

---

(٦) يقصد بذلك الدوق جودفروى •

لكن لما كنا قد أخذنا أنفسنا بالاعتصار على نكر أعماله التي قام بها وهو بيننا ، فهيا بنا نعود الى ما كنا فيه •

## - ٩ -

كان جود فروى رجلا مخلصا ، يفيض قلبه بالرعاية الكريمة لكل من ينتمى لبית الرب الشريف ، ذلك انه بعد انقضاء بضعة أيام ، على اختياره رئيسا للمملكة شرع فى تقديم أولى ثمار مسئوليته الى الرب ، فأقام رجلا من الكهنوت فى كنيسة القبر المقدس وفى الهيكل ، وأغدق عليهم من فيض جوده الحسنات الوافرة التى عرفت بالمرتبات الكنسية ، كما قام فى الوقت ذاته بتوفير المسكن الملائم لهم فى تلك الرحاب الحبيبة الى الرب ، وحافظ على القاعدة والتعاليم التى تتبعها الكنائس العظمى الثرية التى أنشأها الأمراء الاتقياء فيما وراء الجبال ، وكان المرجو منه أن تزداد انعاماته عليها لو لم يعاجله الموت فيحول دون ما يرتجى •

ولما شرع هذا الرجل حبيب الله فى الخروج للحج أخذ فى معيته رهبانا من أحسن الأديرة تنظيما ، ورجالا اتقياء عرفوا بطهارة الذيل ، فكانوا طوال الحج لا يكفون ليلا ولا نهارا عن أداء الخدمات الدينية للدوق فى ساعاتها المقررة ، ووفق طقوس الكنيسة ، فلما آلت اليه السلطة الملوكية أقامهم - حسب طلبهم - فى وادى « يهوشافاط » وجازاهم على خدماتهم باقطاعهم الأراضى الشاسعة •

ان الأمر يطول بنا جدا ان رحنا نعدد المنح التى أغدقها فى سحاء كريم على كنائس الرب ، ومع ذلك فان استعراض مضمون الامتيازات التى منحت للكنائس يبين مدى كثرتها وقيمة تلك العطايا - التى أقطعها ذلك الرجل المتفانى فى خدمة الرب للأماكن المقدسة سعيا وراء خلاص روحه ، كما حمله تواضعه - حين ولى السلطة -

على رفض ما جرت به عادة الملوك من أن يتوج بتاج من الذهب في المدينة الطاهرة التي توج فيها مخلص الجنس البشري بتاج من الشوك لبسه راضيا من أجل خلاصنا ، ومن أجل هذا فان طائفة من الناس لم يقدرُوا خدمات جود فروى حق قدرها ، يترددون في ادراجه في عداد الملوك ، ومرجع ذلك أنهم يضعون الأعمال الجسدية في مرتبة اسمى من مرتبة الأعمال التي تؤديها النفس المؤمنة بالرب ، أما نحن فنعده ملكا - كان من أحسن الملوك قاطبة وكان هاديا وقدوة لغيرهم ، والحق أنه لا ينبغي لأحد ما أن يظن أن هذا الأمير المؤمن ازدرى هدية تكريس الكنيسة وقربانها المقدس ، لكنه كان يحتقر زهو الدنيا وباطلها الذي يتعرض له كل مخلوق ، فأملى عليه تواضعه أن يرفض التاج الذي مآله الفناء ، طمعا منه في أن يحصل فيما بعد على تاج لا زوال له أبدا .

## - ١٠ -

كانت المدينة قد سقطت منذ أمد قريب ولم يبرحها بعض القادة الذين استولوا عليها لخدمة الرب حين سرت شائعة مالبت أن تؤكد صدقها ، تلك هي أن خليفة (٧) مصر ( الفاطمي ) - أقوى الحكام بين الشعوب الشرقية - قد استدعى العسكر من كل البلاد الخاضعة لسلطانه ، وجمع منهم جيشا واحدا كثيفا ، ذلك لأنه كان غاضبا أشد الغضب أن يجيء شعب همجي من أقصى مناطق العالم فيغزو مملكته ، ويستولى عنوة على إحدى الولايات الخاضعة له ، فاستدعى اليه أمير جيوشه الأفضل المعروف كذلك باسم أمير الجيوش (٨)

---

(٧) في الأصل « أمير »

(٨) في الأصل « **EMIREUS** » ولكن الأفضل معروف في المصادر

الاسلامية باسم « أمير الجيوش » .

وكلفه بحشد جيش يضم كل زهرة شباب مصر وعسكر الامبراطورية  
أيضا ويزحف بهم على بلاد الشام ليقضى القضاء المبرم على الشعب  
المتنقل ، ويمحوه من على وجه البسيطة ، حتى يتلاشى اسمه من  
الوجود •

وكان الأفضل أرمنى الأصل ، مسيحي الوالدين ، لكن  
أضلته الثروة الفاحشة فأنكر خالفه ، وتخلّى عن إيمانه الذى يؤدى  
وحده الى الطريق المستقيم ، وكان هذا الرجل قد استرد من قبل  
لمولاه مدينة القدس من أيدي الترك ، ثم جاء الصليبيون فى نفس  
العام ليحاصروها بفضل الله ويردوها الى الايمان ، لذلك لم ينقض  
أحد عشر شهرا على فرجة الأفضل بامتلاكها حتى جاء العسكر  
الصليبي فحررها من وثاق الرق الذى لا يليق بها ، وهكذا فانه لم  
يتمتع بثمار انتصاره الا لفترة وجيزة جدا ، مرت كأنها اللمحة  
الخاطفة ، ولما كان الفضل يرجع الى جهوده فى استعادة مولاه  
( الخليفة ) للمدينة فقد سره أن يقوم بالمهمة التى نيطت به •

كان ( الأفضل ) يطمح أن يحرز النصر فى يسر على أولئك  
الذين كسفوا شمس مجده ، ومن ثم مضى الى بلاد الشام على رأس  
كل القوات التى استطاعت مصر أن تمدّه بها ، تقيض نفسه سخطا  
ويملؤه الكبرياء الطاغى ، مجمعا العزم على تدمير الصليبيين تدميرا  
تاما فلا يبقى لهم ذكر فى الوجود ، لكن الرب الذى جاء وصفه<sup>(١)</sup>  
بان «فعله مرهب نحو بنى آدم» قضى بشيء غير الذى أراداه الأفضل  
الذى سار بهذا الجيش الجرار والحشد الرائع من الفرسان وتقدم  
فى بلاد الشام حتى خيم أمام عسقلان ، وانضمت الى حملته قوات

---

(١) المزامير ٦٦ : ٥ •

ثُغفيرة جاءتة من كل بلاد العرب ودمشقي ، ولم يكن بين الترك والمصريين مودة ، حسدا من كل منهما للآخر على بأسه الحربى ، وسعى كل منهما سعيًا حثيثًا لمد رقعة مملكته على حساب خصمه ، غير أن فزعهما من الصليبيين فى هذه اللحظة أنسى كلا منهما ما يضرر للآخر من الكراهية ، وقرب هوة الخلاف بينهما ، فانضمت قواتهما بعضهما الى بعض لتنفيذ مخطط يستهدف الاطاحة بالصليبيين الذى قدموا حديثًا الى البلاد ، ورآى كل جانب من الجانبين ان احتمال غطرسه خصمه - حتى ولو ضاق به ذرعا - أهون عليه من أن يكابد سيوف المتبربرين الخشنة الفظة .

واذ وضع الجانبان هذا الهدف أمام نظرهم فقد تجمعت لديهم قوات لا عد لها من المصريين والعرب والترك ، وضربت مخيماتهما فى السهول الواقعة أمام عسقلان التى قرروا أن يجعلوها نقطة زحفهم على بيت المقدس ، لأنه كان يخيل اليهم أنه ليس من المعقول أن يجرؤ جيشنا على المخاطرة بمواجهة مثل هذا الحشد الكبير فى ساحة القتال .

- ١١ -

حين بلغت هذه الأخبار الصليبيين تجمعوا على بكرة أبيهم : قادة وأساقفة ورجال دين وعامة ، وكان إيمانهم سلاحهم ، وخرؤا سجدا على وجوههم أمام القبر الطاهر ، داعين الله بين الأنات والدموع ، ومتوجهين اليه بقلوب خاشعة ، يسألونه أن يكلاهم برحمته وينقذهم من الخطر الموشك على الالمام بهم ، وأنه اذا كان قد قدر لهم النصر حتى الآن وشاء أن يظهر موضع عبادته فهيهات أن يرضى له أن يلوث حفاظا على اسمه المجيد .

وأمسكوا أنفاسهم خاشعين منصرفين لسماع التراتيل والأناشيد الدينية ، ثم أسرعوا حفاة الى الهيكل ، وانطلقت قلوبهم مرة أخرى تصلى للرب قائلة : « اشفق يارب على شعبك ولا تسلم ميراثك للعار(١٠) » .

ولما فرغوا من صلاتهم على مألوف العادة ، وباركهم الأسقف قام الدوق ( جودفروى ) فاختار رجالا ألباء أهل خبرة لحراسة المدينة وإدارتها ، أما هو فقد مضى ومعه كونت فلاندرز الى سهول الرملة ، وبقي غيرهما من الزعماء ببيت المقدس .

كان « أستلس » الفاضل - أخو الدوق - فى صحبة تانكريد بنابلس التى شخص اليها انصياعا لأمر الدوق ( جود فروى ) ، واستجابة لدعوة تلقاها من أهلها ، يقولون له فيها انهم مسلموه المدينة من غير مقاومة ، فطال لبثهما بها ، ولم يكن هذا المكث الطويل راجعا فحسب الى ما كان بها من الثروات الضخمة ، بل وايضا لوضع حامية تكفى لحراستها ، ولذلك فقد كانا يجهلان ماذا جرى بالمقدس ، لكن ما كادت تصلهما دعوة الدوق بالرجوع حتى خفا للعودة فى لحظتهما ، وانضما الى بقية الزعماء .

ولما أصبح الدوق وكونت فلاندرز فى الرملة ، جاءتهما الأخبار الصحيحة تؤكد أن الأفضل قد عسكر أمام عسقلان بقواته ، فبادر الدوق فى الحال بإرسال رسول من قبله لدعوة القادة الآخرين الذين كانوا باقين ببيت المقدس فى انتظار الخبر اليقين .

---

(١٠) يوثيل ٢ : ١٧ .

## ... ١٢ -

تضمنت رسالة الدوق ( جود فروى ) خبر تدفق العدو بأعداد كبيرة ، وأنه نصب خيامه على مقربة منهم ، فلم يتوان ( ريموند ) كونت تولوز ولا الزعماء الآخرون المخلصون لله - بعد سؤالهم الرب !المعونة - فى جمع العسكر الذين كانوا اذ ذاك حولهم ، ودخلوا بهم فى أرض الفلسطينيين ، ميممين الموقع المعروف الآن باسم « ابلين » اذ علموا بوجود الدوق به ، واصطحبوا معهم قوة مؤلفة من ألف ومائتى فارس ، وما يقرب من تسعة آلاف جندى من المشاة ، وظل جيشنا مقيما فى « ابلين » مدة يوم ، حتى اذا قاربت الساعة الحادية عشرة نظروا فرأوا على البعد فى السهل قوة كبيرة ، فظنوها عسكر العدو ، فارسلوا أمامهم مائتى فارس مدججين بالسلاح الخفيف للتأكد من عدد هذه القوات وما هيتها ، أما هم ذاتهم فقد أعدوا انفسهم فى الوقت ذاته للقتال .

ولما صارت كتيبة الاستطلاع أقرب ما تكون الى هذا الحشد تبينت فيه أعدادا ضخمة من الماشية والخيول والجمال ، وقد قام على حراستها طائفة من الفرسان على جيادهم ، وكانوا لها شبه رعاة ، فتقدمت كتائبنا حتى اذا صارت قاب قوسين أو أدنى منهم فر الرعاة والفرسان القائمون بالحراسة ، وولوا الأديار ، تاركين قطعانهم وأسراب مواشيهم من غير حراسة ، فاستولى عليها الصليبيون بلا قتال .

ومع ذلك فقد سقط فى الأسر من العدو جماعة ، عرفنا منهم كل ما تجدينا معرفته ، من وضع العدو وخططه ، وصرحوا أن أميرهم الكافر نصب معسكره فى بقعة دائية كل الدنو ، لا تبعد عن هنا أكثر من سبعة أميال ، وأنه مجمع العزم على الزحف بعد يومين لاستئصال شافة الجيش الصليبي .

حينذاك أيقن القادة أن المعركة لا بد ناشبة عن قريب ، فرتبوا صفوفهم وجعلوها تسع فرق : ثلاثا منها فى الطليعة ، ومثلها فى القلب ، والثلاث الباقيات فى الساقة ، فلو هاجمهم العدو من أية ناحية تصدت له ثلاث فرق .

لكن لم يمكن الحصول على بيان قاطع بحقيقة عدد العدو ، لأن عسكره كان من الكثرة بالصورة التى يعجز عنها الحصر ، هذا بالإضافة الى الامدادات التى كانت ترد اليه كل يوم .

كانت الغنيمة التى استولى عليها الصليبيون من غير قتال (١١) غنيمة فوق التصور كما قلنا ، فقضوا الليلة فى هذا الموضع فى فرحة غامرة ، غير أن هذا لم يصرفهم - وهم الألباء الخيبرون بالحرب - عن أن يقيموا حول المعسكر عددا كافيا من الحراس الذين لم تغفل لهم عين عن حراسته .

فلما كان اليوم التالى نادى المنادى فى الصليبيين بالنهوض للقتال ، فنظموا صفوفهم وتقدموا كأنهم البنيان المرصوص لحرب العدو . تاركين الخاتمة الى الله يدبرها كيف شاء ، إذ النصر من عنده لأنه هو وحده القادر أن يمكن فئة قليلة من التغلب على فئة كبيرة فى غير عسر .

ولقد رأى المصريون ومن انضم اليهم من بلاد الشام من عزم الصليبيين الجاد ومن وضعهم القوى ما زعزع ثقتهم فى بأسهم ، فصاروا الآن أكثر تعقلا عن ذى قبل ، وأخذ أملمهم فى أن تكون لهم الغلبة - اعتمادا على كثافة عددهم - يتضاءل شيئا فشيئا ، إذ كان ظنهم أن كل قوام الجيش الزاحف ضدهم من الجند المشاة .

---

(١١) انظر ما سبق ص ١٦٤ ، س ١٣ - ١٩ .

حقيقة أن عدونا كان صغيرا ، ولكن الذى حدث هو أن قطعان الماشية والدواب التى غنمناها سارت خلفنا عن تلقاء ذاتها فكانت تقف إذ يقف الجيش ، وتعاود السير مباشرة إذ يعاود العسكر الزحف رغم عدم وجود راع لها يرشدها ، وترتب على هذا أن اعتقد العدو أن عدونا لانهاية له ، وأن بأسنا لايمثله بأس ، فلانوا بأنيال الفرار رغم عدم مطاردة أحد لهم ، لكن أملهم فى السلامة – حتى فى هربهم هذا – كان أملا واهيا •

بيد أنه عرض فى ذلك العام عارض سوء لايدرى أحد كنهه ، اختفى معه أسقف « مطيرة » موقد المنازعات ومثير الشقاق اختفاء غامضا ، ولم يعد له يد فى تصريف أمور الدنيا ، ولم ير بعد ذلك قط أبدا ، وكان الدوق قد بعث به لاستدعاء من تخلف ببית المقدس من الزعماء ، ويقال انه وقع فى أثناء عودته فى يد العدو فقتله أو سجنه سجنًا لم يخرج منه أبدا •

ولما منح الله النصر للجيش الصليبي انطلق حجاجه الى معسكر العدو فعثروا على كميات ضخمة من شتى أنواع المؤنة ، فأتخمتهم وفرتها حتى انهم تعالوا عن اكل الكعك وعسل النحل ، وحق لأفقرهم ان يقول : « اتخمتنى الوفرة حتى جعلتنى بائسا » •

وكان فرار العدو ممتحا النصر للصليبيين من غير جهد يبذلونه أو مشقة يكابدونها ، ومن ثم عاد الناس والقادة الى القدس شاكرين انعم الله عليهم ، مثقلين بالأسلاب والغنائم التى فاضت بها أيديهم ، وهكذا عادوا يسحبون أنيال الغبطة ، وتستبد بهم الفرحة ، وراحوا فى انتصارهم يوزعون ما غنموا من الثروات ذات اليمين وذات الشمال •

## - ١٣ -

حين انتهت هذه المعركة قرر القائدان (١٢) الحبيبان الى الله والمخلصان فى خدمته العودة الى بلديهما فقد كللت بالنجاح رحلة الحج التى شاركها فيها ، ومن ثم خرجا مبحرين الى القسطنطينية التى تلقاهم امبراطورها بالترحاب ، ووصلهما بعطاياها الكريمة ، ثم سافرا منها فبلغ كل منهما مأمنا سسالما فى روحه ، معا فى بدنه .

### \* \* \*

عاد كونت نرمندى الى بلده ليجد الأمور قد تبدلت تماما عما كانت عليه حين خرج للحج ، وأنها بعيدة كل البعد عما يحب لها أن تكون عليه ، فقد حدث وهو يحارب من أجل المسيح أن مات أخوه الأكبر وليم الملقب بروفوس ملك الانجليز دون وريث ، مما يقضى معه أن يؤول حكم المملكة - نفاذا لولاية العهد - الى الكونت .

غير أن أخاه الأصغر هنرى أقنع أمراء المملكة أن روبرت قد أصبح ملكا على بيت المقدس ، ولم تعد لديه نية العودة ، ونجح بهذه الخديعة فى تبوء العرش بدلا منه .

لكن ما كاد الكونت يعود حتى طالب فى الحال بحقه فى المملكة ، بيد أن أخاه هنرى رفض طلبه هذا رفضا باتا وأبى إباء لا رجوع فيه أن يتخلى عنها ، فجمع الكونت العسكر ، وجهز أسطولا وهاجم انجلترا بالعسكر المدجج بالسلاح ، فحشد أخوه كل قوة المملكة وتقدم لمحاربتة ، وكان القتال على وشك الوقوع بين الاثنين لولا وساطة الوسطاء بينهما ، فتم الوصول الى حل وسط مرض للطرفين ، يدفع بمقتضاه الملك لأخيه الأكبر ( كونت نرمندى ) مبلغا سنويا على أنه ضريبة ، فهذأت ثائرة الدوق بهذا الاتفاق ، وكر راجعا الى بلده ،

---

(١٢) هما كونت نرمندى وكونت فلاندرز .

لكنه مالبت ان طالب أخاه بقلع معينة فى نرمندى كان هنرى قد استولى عليها قبل اعتلائه العرش ، فلما رفض الملك التخلّى له عنها حاصرها روبرت وأخذها عنوة ، فلم يكدهنرى الملك يسمع هذا الخبر حتى عبر البحر الى نرمنديا على رأس قوات كبيرة ، ونازل أخاه ، وأسره وألقى به فى السجن ، فظل رهينة طول أيامه الباقية حتى وافاه أجله وهو به ، فخلفه أخوه الملك فى كل ممتلكاته (١٣) .

\*\*\*

أما ( ريموند ) كونت صـنـجيل فقد عاد الى اللانقية ببلاد الشام حيث كان قد خلف بها زوجته على عزم الرجوع اليها بعد قليل ، ثم شد رحاله ثانية فى حاششية كريمة الى القسطنطينية ، فاستقبله امبراطورها العظيم استقبالا رائعا ، وعامله أحسن معاملة ، ثم رده سالما الى سورية محملا بالهدايا الرائعة ، فرجع الكونت الى زوجته وأهل بيته بعد غيبة طالّت عامين ، كما سنقص خبر ذلك .

أما الدوق فقد استبقى معه النزيل المبجل تانكريد وكونت « جارنييه دى جرائ » ورهطا معينا من النبلاء ، وراح يدير دفة أمور المملكة التى خصه الله لها بحكمة وهمة ، فأسبغ كرمه المعتاد على تانكريد ، اذ خلع عليه مدينة طبرية الواقعة على بحيرة « جيتيسارت » ، وجعلها ورأثية فيه الى الأبد ، ومعها كل ولاية الجليل ، كما منحه فى الوقت ذاته حيفا الساحلية المسماة « بورفيريون » بكل ملحقاتها .

ولقد أدار تانكريد شئون هذه الولاية بهدوء رضى الرب عنه ، حتى أن أهل تلك البلاد لا يذكرونه الى يومنا هذا الا بكل احترام .

---

(١٣) اشارت الترجمة الانجليزية الى أن وفاة روبرت كورتيهوز هذا كانت فى سنة ١١٣٤ بقلعة كارديف فى ويلز ، وقد أحالت هذه الترجمة القارئ ان شاء المزيد من التوسع فى اخباره الى :  
David Robert Curthose, PP, 120 — 129.

كما عني عناية فائقة بتشبيد الكنائس فى نواحي تلك الأسقفية ، لاسيما فى الناصرة وطبرية وعلى جبل تابور ، وحبس عليها الحبوس الواسعة ، وزودها أيضا بالتجهيزات والتهابويل الدينية ، لكن جزءا كبيرا من هذه المنح تولى الأمراء الذين خلفوا تانكريد توزيعه تارة بالحيلة وتارة أخرى بالخدعة • ومع ذلك فان ما بقى منها ساعد الكنائس على الصرف على نفسها لسد احتياجاتها ، ولم يفتها الترحم على روح من سخا على كنائس الرب هذا السخاء الدينى العظيم ، وغمرها بالحب العميق •

ولما كان تانكريد مخلصا حتى فى الأمور الصغيرة فقد كانت نعم الرب عليه كثيرة بصورة أشعرته بما يحسه رب الأسرة من الغبطة ، وجازاه على كل شىء بذله مائة ضعف ، فكوفىء بعد سنتين على خدماته بأن استدعى الى اماره أنطاكية ، فأغدق عطاياه الكثيرة على كنيستها التى أخذ مجدها وشهرتها فى التزايد منذ عهد الرسل ، مضافا الى ذلك توسيعه رقعة الامارة بما ضمه اليها من المدن والحصون التى استولى عليها ، حتى انبسطت طولا وعرضا ، كما سنورد ذلك فى الصفحات التالية •

## - ١٤ -

بينما كانت الأمور تسير قدما على هذه الصورة فى المملكة قرر الدوق بوهيموند أمير أنطاكية وأخوه بلدوين كونت الرها الذهاب الى بيت المقدس ، فقد جاءتهما الأخبار الجمة بما أتممت به العناية الالهية على اخوانهما ورفاقهما فى هذا الحج الأعظم من النجاح فى الاستيلاء على المدينة المقدسة مما كان انجازا سعييدا لهدف رحلتهم ، فحركهما هذا الخبر لتحديد يوم يرحلان فيه تحت رعاية الرب الى المدينة الطاهرة ، وذلك حين يفرغان من اتمام كل الاجراءات

الضرورية لهذه الرحلة التي كان غرضهما منها أن يكملا جهودهما باللقاء بما عاهدا الله عليه حتى يؤدي حضورهما الأخوي الى بث الطمأنينة في نفس الدوق وتانكريد وغيرهما من الزعماء ، اذ كان قد تخلف عنهم النبيسلان العظيمان بوهيموند في انطاكية لرعاية الامارة ، وبلدوين في الرها لحفظ البلد من غارات العدو .

وكان الأمر قد تقرر منذ البداية ومنذ الاستيلاء على انطاكية على أن الصالح العام يقتضى من هذين الزعيمين الا يترك أحدهما أرضه التي منحها له السماء ، وأن واجبهما يحتم عليهما أن يبذلا ما في وسعهما من الاهتمام بالدفاع عنها ، فلم يكن من المستبعد أن يعاود العدو القتال بقوات جديدة وفي عنف أكبر مما كان عليه من قبل ، وحينذاك لا يجدى الصليبيين ما أنجزوه نفعا .

وعلى الرغم من انشغال كل من هذين الحاكمين أشد الانشغال بأمور مملكته ، الا انهما عزموا عزمًا أكيدا على الحج ، ومن ثم شرعا في السفر في اليوم المحدد ، فاستصحب بوهيموند معه رهطا كبيرا من أصحاب الخيل ومن المشاة ، كما سار على الأقدام كثيرون ممن كان الشوق ينازع نفوسهم للقيام بنفس الحج ، ووصل بوهيموند الى مدينة « فالينيسا » البحرية الواقعة عند سفح حصن المرقب حيث ضرب مخيمه وأن كان ذلك على كره شديد من الأهالي ، وهنا انضم اليه بلدوين الذي كان على مقربة منه فاتحدت قواتهما وتابعا الرحلة التي قاما بها .

\*\*\*

وحدث في هذا الوقت بالذات أن أرسط في لاذقية الشام طائفة من حجاج ايطاليا ، من بينهم دامبرت رئيس أساقفة البيازنة ، وكان رجلا عاقلا متعلما ، رحيم القلب ، ميالا لكل عمل شريف ، كما كان

فى هؤلاء الحجاج أيضا أسقف<sup>(١٤)</sup> « أريانوس » فى « أبوليا » وقد انضم هؤلاء الناس الى معسكر القائد الذين اشترنا اليهما ، فزادت بذلك القوات زيادة ضخمة ، ويقال ان عدد هذا الحشد من الرجال والنساء ، ممن عندهم ظهر ومن سار راجلا كان يقرب من خمسة وعشرين ألف نسمة •

تابع الحجاج سيرهم مصاقبين للساحل مارين بعدن العدو ، مما جعلهم لا يبلغون هدفهم الا يشق النفس ومكابدة المتاعب الجمة بسبب نقص الطعام عندهم ، فقد نفذ كل ما كانوا يحملونه منه فى صررهم ، ولم تتح لهم قط فرصة للشراء ، كما لم يجدوا شيئا يبتاعونه ، يضاف الى ذلك ما قاساه الكثيرون من العذاب الشديد بسبب زمهرير البرد القارس وهطول المطر الغزير ، لأنهم كانوا فى شهر ديسمبر ، والوقت شتاء ، وقد انفرد أهل طرابلس وقيصريه وحدهم طول هذه الرحلة الطويلة بتمكن هؤلاء المسافرين فى عبورهم البلاد من شراء الطعام • وعلى الرغم من ندرته عند الحجاج ومقاساتهم أهوال الجوع الا أنهم تابعوا مسيرتهم غير عابئين بما يكرثهم من عدم وجود دواب النقل لحمل متاعهم •

لكن رعاية الله أبى الا أن تحرسهم ، فبلغوا القدس حيث رحب بهم الدوق ( جود فروى ) ورجال الدين والأهالى اصدق ترحيب ، ثم زاروا الأماكن المقدسة بقلوب واجفة • ونفوس ملؤها الخشوع ، وشاهدوا بأعينهم صدق ما كانت تأتيهم به الأخبار مما كانوا لا يعرفونه

---

(١٤) جاء فى حاشية ٣٥ ، ص ٤٠١ ، ج ١ من الترجمة الانجليزية ما يرجح القول بان أسقف « أريانوس » كان مع بوهيموند منذ سنة ١٠٩٦ ، وتبنى الترجمة هذا الترجج على ما جاء فى كل من  
A.B. Yewdale : Bohemond, I, Prince of Antioch, P. 38, & H. Hagenmeyer, ed., Fulcher Carantensis Herosolymitana. P. 327.

الا سماعا ، فلما صاروا بمدينة بيت لحم الطاهرة احتفلوا بمولد المسيح ، وهنا راحوا يحملقون بدهشة فى المذود والكهف العجيب الذى أقامت فيه الأم الحنون التى جاءت بمفتاح الخلاص ، فلفت السيد فى الأقمشة البسيطة ، وراحت تهدد من بكائه على صدورهما .

\*\*\*

- ١٥ -

على أنه قبل هذا الأمر بخمسة أشهر تقريبا خلى كرسى كنيسة بيت المقدس من صاحبه ، ومن ثم صارت الحاجة ماسة الى سواه يدبر أمورها ، لذلك اجتمع من كان وقتئذ بهذه المدينة من الأمراء ليوفروا لكنيسة الرب من يشغل هذا المكان ، وطالت بينهم المداورات العقلانية حتى انتهت الى اجماعهم على تنصيب « دامبرت » الموقر فى كرسى البطركية فتم انتخابه ، فشجب اختياره ما كان من انتخاب أرنولف الذى نكرتاه ، وعد انتخابه باطلا ، وأنه يجب التجاوز عنه لأنه تم فى عجلة وغير تبصر .

وما كاد رجل الرب « دامبرت » ينصب فى كرسى البطركية حتى سلم بيده كلا من الدوق جود فروى والأمير بوهيموند تقليديهما بما فى يدهما ، فتسلماه فى خشوع ، فاما الأول فمنحه مقاليد المملكة ، وأما الثانى فقد وكل اليه أمر الامارة ، فكان ذلك توقيرا منهما باعتبار البطرک نائب السيد على الأرض .

وما كادوا يفرغون من مراسيم هذا الحفل حتى رصدت للبطرك المجل الأموال المناسبة للمصرف على أسقفيته الموقرة ، ولم يقف الأمر عند حد منحه الأملاك التى كانت تابعة من قبل للبطرك اليونانى منذ أيام البيزنطيين زمن « الأمم » ، بل أضيفت اليها أملاك جديدة .

وبعد أن تمت هذه الأمور على الوجه الأكمل استأذن بوهيموند وبلدوين من الدوق فى عودة كل منهما الى بلده ، وفضلا الى نهر الأردن ، فظلا سائرين على طول شاطئه عبر الوادى الشهير ، ومضيا الى « بيسان سكيتوبوليس » حتى انتهيا أخيرا الى طبرية ، فتزودا – ومن معهما – بما يحتاجونه من الطعام اللازم للرحلة التى تابعوها من جديد على طول بحر الجليل الى فينيقية اللبنانية ، جاعلين « بانياس » التى هى قيصرية قيليبي على يمينهما ، ثم دخلا اقليم ايتوريا وجاءا الى الموضع المسمى هليوبوليس والمعروف أيضا باسم « بعلبك » وهنا عادا مرة ثانية الى ساحل البحر حتى أوصلتهما رعاية الله الى أنطاكية سالمين بمن معهم فى أنفسهم وأبدانهم .

## - ١٦ -

فى هذه الأثناء نجمت مشكلة فى القدس بين البطررك والدوق ، وزاد من حدتها تدخل فئة معينة من مثيرى الفتن الذين يستوقد الحسد ضلوعهم لمن يعيشون فى هدوء ، ويفرحون غاية الفرح فى بذرهم بذور الشقاق بينهم ، ذلك أن البطررك طالب أن يعيد الدوق اليه مدينة الرب المقدسة بقلعتها وكذلك مدينة يافا بملحقاتها ، وطال النقاش واحتد بينهما بعض الوقت ، حتى اذا كان يوم (١٥) الاحتفال بدخول السيد المسيح الى الهيكل وقنزيه مريم المباركة وقف الدوق وهو الرجل المتواضع الأريحي التقى وتنازل أمام رجال الدين وكافة الناس عن ربع مدينة يافا لكنيسة القيامة المباركة .

ثم لما كان يوم عيد الفصح التالى المبارك قام الدوق فى حضرة رجال الدين وبين الناس الذين احتشدوا للاحتفال بهذا اليوم ، وأسلم البطررك مدينة بيت المقدس وبرج داود وكل ما يلحق به ، والحق

(١٥) وذلك يوم ٢ فبراير سنة ١١٠٠ م .

الشرط التالى بالعطية الا وهو أن يتمتع هو ذاته (١٦) بالمدينة المشار اليها ، ويكون له الحق فى استعمال ضواحيها حتى يأذن الرب له بإخذ مدينة أو اثنتين أخريين ، وبذلك يزيد فى رقعة المملكة ، كما اشترط أنه اذا مات دون وريث شرعى فان جميع الأملاك المشار اليها تنتقل من غير معارضة أو مشاحنة الى سلطة البطرک المعظم داميرت .

ولقد أدرجنا كل هذه التفاصيل فى كتابنا الحالى هذا على الرغم من أنها واردة فى كتابات (١٧) الآخرين ، كما أن هناك اشخاصا من شتى المراتب بذلوا جهدا فى تدوينها قدونت ، ومع ذلك فاننا نتساءل فى دهشة عن الدوافع التى حملت البطرک على اثاره هذه المشكلة ضد الدوق إذ أننا لم نقرأ أبدا ، ولا حدثتنا الأخبار الموثوق بها أن عهد القادة ( الصليبيون ) المنتصرون بالمملكة للدوق على مثل هذه الشروط التى تجعله يحس بالتزامه بمنح وعود حولية أو عهود دائمية لأى شخص ، أيا كان هذا الشخص .

ولا يظنن أحد بنا الغفلة أو الجهل التام حين ندقق النظر أكثر من أى شخص آخر للوقوف على حقيقة هذه الأمور ، فما غرضنا الا تسجيل واقع هذا الخبر ، وهو غاية كانت فى ذهننا منذ زمن بعيد .

---

(١٦) أى الدوق جودفروى .

(١٧) يتفق المترجم مع ما ورد فى الترجمة الانجليزية من ان هذا دليل بين على أن وليم الصورى رجع فى تدوين أخباره الى بعض مؤلفات معاصريه .

## - ١٧ -

مما لا مرأ فيه أنه منذ دخول اللاتين بيت المقدس - بل وقبل ذلك بسنوات طويلة - كان ربع المدينة معتبرا ملكا للبطرك ، ويمكن أن نوجز كيف تم ذلك الأمر مع الإشارة الى أصل هذا التملك وسببه ، ولقد توصلنا الى حقائق هذا الموضوع بعد استقراء عميق لهذه المسألة وكثرة السؤال بشأنها •

تقول الأخبار القديمة ان هذه المدينة لم تنعم قط بالسلام الدائم ولو لأمد قصير حتى يومنا هذا منذ وقوعها فى أيدي المارقين ، بل سارت الأمور فيها على النقيض ، فقد اجتاحتها الحروب المتكررة ، وتعددت مرات حصارها بسبب طمع الأمراء المجاورين فى الاستحواذ عليها لأنفسهم ، مما تمخض عن هدم أسوارها ، فتحولت أبراجها الى أطلال خلال أيام الحصار ونكباته ، وأصبح البلد عرضة لمكائد الأعداء من كل ناحية •

وكانت مملكة المصريين فى هذا الوقت قد برزت غيرها من ممالك الشرق والغرب قاطبة ، ليس فى كثرة سكانها وثروتها فحسب ، بل وفى السيطرة الدنيوية أيضا ، ولما كان خليفة مصر يريد مد رقعة حدود امبراطوريته ، وبسط سلطان سيادته على القريب والبعيد ، فقد أنفذ جيوشه فاحتلت كل بلاد الشام قسرا وتوغلت حتى بلغت مدينة اللاذقية المجاورة لأنطاكية ، والتى تعتبر حدودا لموسط الشام ، ثم عين نوابا يقولون حكم جميع مدنها البحرية والبرية على السواء ، وفرض عليها الجزية ، والزمها بالارتباط به برباط التبعية ، وزاد على ذلك بأن أرغم كل مدينة أن تعيد ترميم أسوارها ، وأن تشيد حولها أبراجا منيعة ، وترتب على هذا المرسوم العام قيام عامله على بيت المقدس بالزام سكانها بهذه الأوامر الشاملة وإعادة السور والأبراج الى ما كانت عليه من قبل •

وتعمنوا - عن سوء نية فى أثناء توزيع هذا العمل - الزام  
النصارى التعساء المقيمين ببيت المقدس باعادة تعمير ربع تلك  
العمائر ، وكان هؤلاء المؤمنون قد طحنتهم السخرة وكابدوا ما هو  
أشد منها قسوة ، فقد أجهدتهم الضرائب ، وأثقلتهم الاتاوات ،  
والزموهم القيام بالأعمال المزرية حتى لم يعد كل ما تملكه هذه  
الجماعات كافيا لتمكينها من اعادة برج أو اثنين من هذه الأبراج .

وحين رأى النصارى أن عدوهم يتلمس كل فرصة لمضايقتهم  
مضايقة لا يملكون لدفعها حولا ولا قوة فقد يمموا وجوههم شطر  
الوالى ، واستعطفوه فى مذلة وانكسار سائليه أن يكلفهم بعمه  
تناسب وظاقتهم ، لعجزهم التام عن انجاز ما كلفوا به ، فلم يرحمهم  
الوالى ولم تعطفه عليهم سموعهم بل أمرهم أن يغريوا عن وجهه ،  
ويالغ فى تهديدهم قائلا لهم « ان شجب قرار الأمير (١٨) الأعظم فيه  
تدنيس ، فعليكم أما أن تنجزوا العمل الذى وكل اليكم ، أو أن  
تستسلموا للمسيح كمنبيين فى حق صاحب الجلالة » .

وأدى تدخل الكثيرين من الوسطاء وكثرة ما قدمه النصارى  
من الهدايا الى حصولهم على تأجيل تنفيذ حكم الوالى الى حين  
التمكن من ارسال مبعوثين الى الامبراطور بالقسطنطينية يسألونه  
أن يتصدق عليهم بما يستطيعون به اكمال ما كلفوا به .

- ١٨ -

فأوفدوا فى الحال الى الامبراطور الرسل الذين ما ان صاروا  
بين يديه حتى مضوا يشرحون له فى تفصيل وضاع المسيحيين  
المحزن ، وماهم فيه من البلاء المقيم والحزن الموجع ، فحركوا بكلامهم

---

(١٨) يقصد بذلك الخليفة الفاطمى .

أشجان سامعيهم ، وفصلوا لهم ما فيه النصارى من نكد عظيم ، وما يتعرضون له من الضرب المهين والبصق والتقييد والزج فى الحبس بسبب اسم المسيح ، وأفاضوا فى ما يكابده هؤلاء التمساء على الدوام من ضياع ما يملكون بسبب المصادرات الواقعة عليهم ، ناهيك بأنهم عرضة للصلب وشتى أنواع التعذيب ، وأسهبوا فى ذكر ما يتذرع به خصومهم من الحجج للقضاء على هذا الشعب التعيس .

كان الجالس على عرش امبراطورية القسطنطينية وحساحب الصولجان يومذاك هو « قسطنطين » مونو ماخوس « (١٩) وكان رجلا عاقلا سوريا ، يدير دفة شئون امبراطوريته بنشاط جم ، وسرعان ما استجاب للتماسات أتباع المسيح المحزنة ، ووعدهم بالمال الذى يستطيعون به انجاز ما كلفوا به ، وكان الامبراطور صادرا فيما فعل عن احساسه بالعطف الشديد الصادق على ما هم فيه من الكرب والهموم التى لا انقطاع لها ، غير أنه اشترط عليهم أنه غير قابض عنهم المال ان هم استطاعوا الحصول من والى الناحية (٢٠) على وعد بالا يسمح لغير النصارى بالسكن داخل نطاق السور الذى اقترحوا أن يقيموه من هذه المنحة الامبراطورية ، كما كتب هو من توه الى أهل جزيرة قبرص طالبا اليهم أن يعينوا هؤلاء النصارى – اذا ما حصلوا على هذا الامتياز فى بيت المقدس – بمبلغ كاف للصرف على

---

(١٩) حكم قسطنطين مونوماخوس الامبراطورية البيزنطية ما يقرب من ثلاثة عشر عاما ( ١٠٤٢ – ١٠٥٥ ) ، وتجمع المصادر التى كتبت عنه على ذم عهده ، كما أن الشقاق بين الكنديستين الشرقية والغربية بلغ ذروته فى اخريات أيامه ، ونرجح ان وليم الصورى اخطأ حين جعل الامبراطور هو مونوماخوس ، والأغلب أنه يقصد الامبراطور قسطنطين دوكاس العاشر ، يؤكد هذا ما جاء فى صفحة ١٧٨ ، من النص على سنة ١٠٦٣ .

(٢٠) المقصود بها القسم الخاص فى القدس .

العمل المشار اليه ، على أن يخصم من الضرائب والأموال الواجب عليهم دفعها للخزانة •

فلما حصل الرسل على هذا الوعد من الامبراطور عادوا من حيث جاءوا ، وأخبروا البطريرك الجليل وشعب الله بتفصيل ما فعلوه ، فقوبل ما فعلوا بالغبطة ، وبذلت الجهود الصادقة المتحمسة لتحقيق الشرط الذى طلبه الامبراطور ، وفى الحال أوفد النصارى الرسل الى مولاهم الكبير وصاحب الأمر فيهم : خليفة مصر ، وصحبت العناية الالهية هؤلاء المبعوثين فقد نجحوا فى سفارتهم ، وحصلوا على مرسوم مهمور بامضاء الخليفة وخاتمه •

عاد القصاص الى بلدهم بعد أن نجحوا فى أداء مهمتهم ، واستطاع النصارى بعون الرب أن يتموا من السور الجزء الذى فرض عليهم بناؤه ، وكان ذلك فى سنة ١٠٦٣ من مولد المسيح وقبل تحرير المدينة المقدسة بست وثلاثين سنة وفى زمن الخليفة المصرى ( الفاطمى ) المستنصر ( ١٠٣٥ - ١٠٩٤ ) •

كان المسلمون والمسيحيون حتى ذلك الحين يعيشون جنباً الى جنب على السواء لا تمييز لواحد منهم على الآخر ولا تفرقة بينهم ، لكن نجم عن هذا القرار اضطرار المسلمين للنزوح الى نواح أخرى من بيت المقدس غير التى كانوا بها ، تاركين الربع المذكور للمؤمنين ( النصارى ) غير منازعيهم فيه، وترتب على هذا التغيير تحسن أوضاع خدام المسيح المادية ، غير أن ما كان قد فرض عليهم من العيش مع القوم الضالين ، أدى فى كثير من الأحيان الى حدوث منازعات بين الجانبين عملت على زيادة متاعبهم زيادة فادحة ، فلما استطاعوا أخيراً الانفراد بسكنهم من غير ازعاج ، سارت حياتهم رخية مطمئنة ، فما من نزاع شب بينهم الا رجعوا فيه الى الكنيسة ليفصل فيه البطريرك الذى كان قوله وحده هو الفاصل •

لم يعد لهذا الحى من المدينة منذئذ ، - وفى الخلف الذى وصفناه - من قاض أو رئيس سوى البطرك ، ومن ثم فقد تمسكت الكنيسة بهذا الجزء كملك خاص بها لا ينازعها فيه منازع .

أما صفة هذا الحى فكانت كما يلى :

كان يتألف حده الخارجى من السور الذى يمتد من الباب الغربى - أو باب داود - مارا بالبرج الكائن فى الزاوية والمسمى ببرج تانكريد حتى يصل الى الباب الشمالى المسمى بباب اسطقان أول الشهداء .

أما حده الداخلى فهو الشارع العام الذى يمتد من باب اسطقان حتى يصل الى الموضع الذى يجلس فيه الصيارفة الى موائدهم ، ثم يرتد الى وراء ثمانية الى الباب الغربى .

ويقع داخل هذين الحدين طريق الآلام وكنيسة القيامة ، والبيمارستان ، كما يوجد أيضا ديران أحدهما للرهبان وثانيهما للنسوة الطاهرات ، ويعرفان بديرى اللاتين .

كما يقع سكن البطرك ودير حماة القبر المقدس وملحقاته داخل هذه النواحي .

١٩ -

فى هذه الأثناء كان معظم الزعماء الذين شاركوا فى الحملة قد عادوا الى أوطانهم ، لم يتخلف عنهم سوى الدوق الذى عهد اليه بحفظ المملكة ، وغير تانكريد الذى استبقاه جود فروى الى جانبه ليشاركه فى حمل المسؤولية لما رآه فيه من رجاحة عقله ونشاطه ونجاحه ، وكانت مصادر الصليبيين المالية وقوتهم الحربية ضئيلة

جدا حينذاك ، فلى جمع كل عسكرهم لما بلغوا بعد طول الكد أكثر من ثلاثمائة فارس ولم يجاوز مشاتهم الألفين •

ثم ان المدن التى كنا قد استولينا عليها كانت قليلة العدد ، هذا الى جانب وجودها وسط محيط العدو بصورة لم يكن الصليبيون بقادرين معها على الذهاب من احدى هذه المدن الى الأخرى اذا اقتضت الضرورة ذلك والا كانوا عرضة لخطر جسيم ، كما أن معظم الاقليم المحيط بأملأهم كان يسكنه الشرقيين المارقون الذين كانوا أشد الناس وحشية فى عداؤهم لقومنا ، وكانوا أخطر الجميع علينا لقربهم الكبير منا ، اذ ليس هناك بلاء أشد بلاء بالمراء أو أقفل فى خطبه من عدو يكون له بالمرصاد على الأبواب ، ولم يكن ثم مسيحي يسير فى الطريق العام دون أن يأخذ حذره الشديد والا لقى الهلاك على أيدي الشرقيين ، أو وقع فى أيدى تسلمه للأعداء فيسترقونه •

يضاف الى ذلك أنهم كانوا يرفضون زرع الحقول عسى أن تفتك المجاعة بقومنا ، بل انهم كانوا يؤثرون أن يكابدوا هم أنفسهم الجوع حتى لا يصل القوات الى المسيحيين الذين يعدونهم أعداء لهم •

لم يكن الخطر قاصرا على الطرق العامة فحسب ، بل كان رابضا ايضا داخل أسوار المدينة وفى البيوت ذاتها ، فما كان ثم مكان ما يستطيع المراء الاطمئنان فيه على نفسه ، ويرجع ذلك الى قلة عدد السكان وبعثرتهم فى كل ناحية ، كما أن ما كانت عليه الأسوار من هدم جعل كل موضع مكشوقا أمام العدو ، فكان اللصوص يشنون هجماتهم خلسة تحت جنح الظلام ، ويهاجمون المدن المهجورة التى فر عنها أصحابها القلائل وبعثروا عنها ، ويغيرون على الناس فى عقر دورهم ، مما ترتب عليه أن تخلص بعضهم فى السر عما بيدهم من الدور التى كانت فى حوزتهم ، كما تركها معظمهم جهرا ، وشرعوا فى العودة من حيث جاءوا مخافة ان يهاجم العدو من

يسهرون على حمايتهم فلا يوجد اذ ذاك من يقيهم شر مذبة توشك أن تلم بهم ، وقد أدى هذا الوضع الى اصدار قرار باجراء احصاء سنوى ارعاية مصالح أولئك الذين ظلوا مقيمين حيث هم وسط هذه اليلايا متمسكين بأملهم لمدة عام ويوم بعده ، ولقد صدر هذا القانون - كما قلنا - فى مواجهة أولئك الذين جبنوا فتخلوا عما بأيديهم من الأملاك حتى لا يكونوا قادرين على العودة بعد مرور عام وتجديد دعواهم .

وعلى الرغم من أن المملكة كانت فى صراع مع الفقر الا أن جود فروى - حبيب الله الخائف منه - لم يأل جهدا فى مد رقعة المملكة ، مستعينا بالعناية الالهية ، فجمع العسكر واهل الناحية جميعا وخرج بهم محاصرا احدى المدن الساحلية القريبة من يافا والتي كانت تدعى من قبل « انتيباتريس » أما الآن فتعرف باسم « أرسوف » ، وكان يتولى الدفاع عنها وقتئذ رجال شجعان مهرة فى استعمال السلاح ، قد توفرت الميرة بين أيديهم ، ولديهم كل ما هو لازم لمعاشهم ، على حين كان الدوق يقاسى فى الخارج الحاجة الملحة لاسيما وأنه لم يكن عنده سفن يستطيع أن يمنع بها من فى المدينة من المحصورين من الخروج منها أو الدخول اليها ، ومن ثم فقد اضطر تحت هذه الحاجة لرفع الحصار عنها عسى أن تواتيه رحمة الله فى المستقبل بفرصة أحسن تمكنه من انجاز غايته ، غير أن موته المبكر حال بينه وبين تنفيذ قصده ، فلم يتسن له أبدا تحقيق رغبته .

- ٢٠ -

لقد رأينا أنه من الخير أن ندرج فى هذا التاريخ حادثا يستحق الاشارة جرى فى اثناء هذا الحصار بالذات ، ذلك أن رهطا من صغار الزعماء المقيمين فى نواحي الاقليم المحيط بجبال السامرة

حيث تقع مدينة نابلس - جاءوا اليها حاملين هداياهم من الخبز والنبيد والتين والزبيب ، ويبدو لى أن الدافع لقومهم كان لكشف أحدى لنا أكثر من تقديمهم الهدايا للدوق الذى طلبوا الثول بين يديه حال بلوغهم المعسكر الصليبي ، فلما صاروا بحضرته قدموا اليه ما جاءوا به من الهدايا ، واذا كان الدوق رجلا شديد التواضع ، نابذا نبذا تماما زينة الدنيا وأيهتها فقد استقبلهم وهو مفترش الأرض على غرارة محشوة بالمتبن حيث كان فى انتظار رجوع رجاله الذين كان قد أرسلهم سعيا وراء الكلا ، فلما رآه الشيوخ القادمون عليه على هذه الصورة ألجمت الدهشة ألسنتهم ، وراحوا يتهامسون فيما بينهم : « كيف لأمر جليل القدر كهذا الأمير ، وسيد عظيم كهذا السيد قادم من الغرب ، وقد هز الشرق كله واستولى على مملكة شديد البأس بيد قوية - كيف له أن يجلس هذه الجلسة الزرية ؟ ولماذا لا يحيط نفسه بالطنافس والحريز ، ويقيم حوله جيشا من الحرس المدجج بالسلاح ليظهر للقادمين عليه بمظهر الباطش ؟ » ولما رآهم يتهامسون بذلك فيما بينهم سألهم عم يتسارون ، فلما وقف على ما يتهامسون به قال لهم : « ان الأرض تكفى لتكون مقعدا مؤقتا للأدنى الفانى طالما أنها ستكون مضجعه الأبدى بعد موته » ، ففاضت نفوسهم اعجابا برده ، واكبروا فيه تواضعه ورجاحة عقله ، وانصرف الذين جاءوا لسبر غوره وهم يقولون : « ما أجدر هذا الرجل بامتلاك كل الدنيا ، وانه لحرى - وهذه صفته - أن يكون له الحكم على الشعوب والممالك » .



وكان سكان النواحي المجاورة ينظرون الى هؤلاء الناس الحجاج بعين الاعجاب ، وان كانوا فى الوقت ذاته يخشون بأسهم ويخافون أن يغلبوهم على أمرهم ، وازداد هذا الخوف والاعجاب

حينما علموا بهذه الحقائق التى تلقوها من أفواه خاصة أصدقائهم ،  
وقد وثقوا فى كل ما حدثوهم به \* ومن ثم شرق هذا الخبر المدهش  
وغرب حتى وصل الى أقصى ربوع المشرق \*

## - ٢١ -

فى أثناء هذه الأحداث الجارية بمملكة بيت المقدس كان يحكم  
مدينة ملطية الواقعة بالجزيرة فيما وراء الفرات رجل أرمنى اسمه  
« جبريل » ، دفعه خوفه من هجوم الفرس ( الدانشمندان ) عليه  
ويقينه بعدم قدرته على مقاومتهم الى ارسال رسل من قبله الى  
بوهيموند أمير أنطاكية يلتمس منه القدوم عليه فى الحال ليسلمه  
على الفور المدينة تحت شروط خاصة محددة ، فما كاد بوهيموند  
الشجاع يتسلم الرسالة حتى هب فى لحظته مستجيبا هذه الدعوة ،  
وخرج بأتباعه الذين جرت عادته أن يخرج بهم ، وعبر الفرات وترغل  
فى أرض الجزيرة ، وبينما هو موشك على بلوغ غايته اذا بوال  
تركى قوى اسمه « دانشمند » يباغت رجال بوهيموند وكانت قد  
بلغته أخبار زحفهم من قبل ، فترصدهم فى بعض الطريق ودهمهم  
فجأة من حيث لا يدرون ، فأما الذين أمسكهم فقد عرضهم على  
السيف ، وأما الذين لم يستطيعوا الصمود أمام هذا الجيش فقد  
لاذوا بأذيال الفرار \*

وشاء قدر الأمير بوهيموند وسوء طالعه أن يقع بسبب خطايا  
فى يد عدوه فقبله بالسلاسل (٢١) ، فكان ذلك نصرا لدانشمند ملا

---

(٢١) فى الترجمة الانجليزية ( ج ٢ ص ٤١١ ، حاشية رقم ٥٠ ) اشارة  
الى أن هذا الاسر وقع حوالى ١٥ أغسطس سنة ١١٠٠ ، وأن أسرى بوهيموند  
حملوه الى « نكسار » التى هى قيصرية الجديدة عند الرومان \*

عطفه كبرياء ، فمضى قدما يسعى لمحصرة « ملطية » اعتمادا منه على كثرة جنده الذين يقودهم ، وقد طمع فى الاستيلاء عليها فى لحظته .

غير أن، الفارين كانوا قد نجحوا فى الوصول الى الرها ، وأناضوا لكونتها فى تفصيل أمر النكبة التى حاقت بهم وبالأمر (بوهيموند) ، فلما سمع ذلك الحاكم الشجاع قصتهم تحرك قلبه شفقة على الأمير إذ هو أخوه ، وتأثر تأثرا عميقا من هذه النكبة الفادحة ، واشتد جزعه من عواقبها ، فأسرع باستدعاء قواته الحربية ، وتزود بكل ما هو ضرورى للزحف الذى تعجله ما وسعته العجلة .

والمعروف أن مدينة ملطية تقع على مسيرة ثلاثة أيام من الرها، لكن الكونت طواها فى سرعة كبيرة حتى اذا قاربها ترمى خبر اقترابه الى سمع دانشمند فرقع الحصار عنها ، وارتد بأسسيره بوهيموند والقيد فى يديه الى أقصى ناحية من المملكة ليتحاشى الاشتباك فى القتال .

فلما علم الكونت ( بلدوين ) بفزع دانشمند من مجيئه فزعا حمله على رفع الحصار ( عن ملطية ) مضى يتعقبه ثلاثة أيام سويا، أدرك بعدها الا جدوى من هذه المطاردة فعاد أدراجه الى ملطية ، حيث رحب به حاكمها « جبريل » ترحيبا لا يليق الا بالملوك ، وببالغ فى تعظيمه ، ثم سلمه المدينة على نفس الشروط، التى كان قد قدمها لبوهيموند ، فلما تم ذلك كله عاد الكونت الى امارته .

- ٢٢ -

فى هذه الأثناء كان الدوق ( جود فروى ) العظيم ومن اقاموا معه بالقدس لحماية المملكة بعد رحيل القادة الآخرين يقومون بعملهم

وهم يقاسون قضاظة المتربة ، وكانوا قد بلغوا من الفقر مبلغا تعجز  
الكلمات عن شرحه .

وقد جد أمر لم يكن بالحسبان ، ذلك هو مجيء الكشافة الثقاة  
بخبر تأكد صدقه ، يشير الى وجود قبائل عربية فى بعض البلاد  
العربية عبر الاردن وفى أرض العمونيين ليس لديها وسائل دفاع  
قوية عن نفسها ، وأنه لو هاجمها أحد أو باغتها بالهجوم لغنم منها  
الشيء الكثير ، فأغرى بعض القوم جود فروى على مباغتتها ، ومن  
ثم راح يجمع سرا ما استطاعت المملكة الششابة أن تمدده به من  
الفرسان والمشاة ، فلما تم حشدتهم فى صعيد واحد عبر بهم الأردن  
مقحمًا أرض العدو . وكللت الغارة بتأنجاح .

وبينما كان جود فروى عائدا وقد فاضت يداها بما غنم من  
الماشية والدواب والأسرى ، إذا بشريف عربى بارز من الأبطال  
المشهورين فى عشيرته بولعه بالحرب قد بعث إليه رسلا من قبله  
يرجو مهادنته ، فلم يبخل عليه بما تمنى ، ثم مالبت هذا الشريف أن  
قدم وفى ركبه جماعة من أهل الجاه من العرب لزيارة الدوق ، إذ  
كانت الأخبار الكثيرة قد جاءت محمّدة إياه بقوة هؤلاء الناس  
الوافدين من الغرب وذيوخ شهرتهم ، وأهم اجتازوا هذه المسافات  
البعيدة وتحملوا المشاق الجمة حتى تمكنوا فى النهاية من قهر  
الشرق بأجمعه والاستيلاء عليه ، كما ترمى الى سمعه فوق ذلك  
خبر شجاعة الدوق التى لا تماثلها شجاعة ، وعلم بعزمه الماضى  
الذى لا يلين ، فملا الشوق قلبه تطلعا لرؤيته .

فلما وقف الشيخ العربى بحضرة الدوق جود فروى وحياء  
التحية اللائقة به توسل اليه أن يتفضل فيذبح بسيفه جملا ضخما جاء  
به اليه لهذا الغرض ، لأنه يريد أن يكون قادرا على أن يشهد عند

الآخرين بما عليه الدوق من قوة يكون قد رآها رأى العين ، فقبل جود فروى سؤال الشريف اكراما لقدمه عليه من بلاد نائية لرؤيته ، وتناول سيفه دون أن يشحذه وضرب به البعير ضربة قطعت عنقه دون أن يكلفه ذلك جهدا وكأنه كان يحطم شيئا هاشا ، فتملكت الدهشة العربى من هذه القوة الخارقة ، وان كان قد خامره ما جعله ينسب سرا هذا العمل الى حدة مضاء السيف ، ومن ثم استأذنه أن يتكلم اليه فى صراحة وسأله عما اذا كان يستطيع القيام بهذا العمل ذاته ولكن بسيف غير سيفه ، فارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتى الدوق الذى التمس من العربى أن يناوله سيفه هو ، فلما صار فى يده أمر أن يأتوه بمثل لهذا الجمل ، فلما جىء له به رفع السيف وأهوى به مرة واحدة أطاحت عنق الحيوان .

فأظهر الشيخ العربى لأول مرة دهشته وتملكه الاعجاب حتى ألجم لسانه ، وأدرك أن فعل الضربة الثانية لم يكن من حدة السلاح ومضائه ، ولكن بسبب قوة الدوق نفسه ، وصدق لديه كل ما سمعه عن بأس جود فروى ، وبأدب فقدم اليه هداياه من الذهب والفضة وما جاء به له من الخيل ، وكسب ود الدوق ، حتى اذا عاد الى بلده كان لسانا يذيع على الجميع ما كان من خبر الدوق ويعلن لكل من يلقاه ما رآه بعينى رأسه من شدة بأسه .

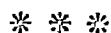
وعاد الدوق الى بيت المقدس بأسراده وغنائمه .

- ٢٣ -

وفى شهر يوليو هذا أصيب جود فروى الشجاع حاكم مملكة بيت المقدس بمرض استعصى برؤه منه ، واستشترى به الداء الخبيث وتزايد ، حتى لم يعد يجدى معه أى دواء ، وان لم يكف من حوله عن التماس الدواء فى كل مكان قريب أو بعيد .

وأخيرا قدر لتابع المسيح هذا ، الصادق التوبة أن يذهب بعد تناول القربان المقدس فى الطريق الذى لابد أن يذهب فيه كل مذلق ، حيث يجازيه الرب مائة ضعف عن كل ما قدمت يداه ، وتخلد روحه الخلود الأبدى مع المرضى عنهم .

وكانت وفاته فى اليوم الثامن عشر من شهر يوليو فى عام ١١٠٠ من مولد المسيح ، ودفن فى كنيسة القبر المقدس حيث صلب السيد وعذب ، وقد خصصت ناحية معينة أيضا لخلفائه مازالت باقية حتى اليوم .



هنا ينتهى الكتاب التاسع



## الكتاب العاشر

---

### الملك بلدوين الأول وازدياد رقعة المملكة

#### فصول الكتاب العاشر :

- ١ - بلدوين كونت الرها يتولى المملكة عند موت أخيه جودفروي .
- ٢ - صفات لورد بلدوين الجثمانية والخلقية .
- ٣ - كونت جاراننيه يستولى على البرج عند موت الدوق جودفروي ، ويبعث الرسل سرا لاستدعاء بلدوين .
- ٤ - رسالة دامبييرت الى أمير أنطاكية .
- ٥ - بلدوين يسرع فى سيره الى القدس فيجد العدو قد نصب له كمينا قرب نهر الكلب .
- ٦ - استئصال شافة العدو ووصول بلدوين الى بيت المقدس بعد رحلة هائلة .

- ٧ - البطررك دامبيرت يتخوف من وصول بلدوين فيغادر قصر البطرركية ويعتصم بكنيسة جبل صهيون .
- ٨ - الكونت يقود حملة ضد عسقلان ويعبر الأردن ويهاجم بلاد العدو بالقوة ثم يعود أخيرا الى بيت المقدس .
- ٩ - الوفاق بين البطررك والكونت ، ثم اعتلاء الكونت بلدوين العرش .
- ١٠ - الأنطاكيون يستدعون تانكريد الذى لا ينسى مطلقا الاهانة التى الحقها به بلدوين وينفصل عنه .
- ١١ - الملك يعبر نهر الأردن ويستحوذ على غنائم كثيرة من أرض العدو . ووصف عمل من أروع الأعمال قام بها الملك .
- ١٢ - امراء الخرب يخرجون ثانية للحج ويبلغون القسطنطينية بفقرات ضخمة .
- ١٣ - الامبراطور الكسيريوس ينهج النهج المعتاد فيجعل الترك ينصبون الكمائن للحجاج مما يؤدى الى هلاك الجانب الأكبر منهم ، أما الباقون فيبلغون القدس فى صحبة كونت تولوز .
- ١٤ - الملك ( بلدوين ) يحاصر أرسوف ويستولى عليها قسرا .
- ١٥ - الملك ( بلدوين ) يحاصر أيضا مدينة قيسرية الساحلية ويستولى عليها .
- ١٦ - هلاك كثير من الأهالى فى أحد مساجد المدينة ، وتعيين رئيس اساقفة للمدينة المغلوبة .
- ١٧ - الملك ( بلدوين ) يصل الى الرملة فى انتظار العدو الذى ذاع خبر اقترابه ثم يشتبك وایاه فى قتال يخرج منه منصورا .

- ١٨ - الملك ( بلدوين ) يمضى بعدئذ الى يافا فتطمئن نفوس الأهالى الذين استبد بهم الفزع حتى كاد أن يهلكهم .
- ١٩ - الوافدون الجدد يستولون على مدينة طرطوس ويسلمونها الى كونت تولوز ، ثم يتابعون السفر بعد ذلك الى بيت المقدس فيقابلهم الملك فى بيروت .
- ٢٠ - المصريون يهاجمون بلاد الصليبيين بقوات كبيرة فيزحف الملك ( بلدوين ) لصددهم ويقاثلهم فتدور الدائرة عليه اذ لم يأخذ حذره .
- ٢١ - فى اثناء هروب الملك من ساحة القتال يرتد الى قلعة الرملة وتكتب له الحياة بفضل شفقة شيخ عربى عليه ، اما غيره فيلاقون مصرعهم فى ذلك المكان .
- ٢٢ - الملك ( بلدوين ) يسلك فى اثناء هربه طرقا متعرجة فيصل أولا الى أرسوف ثم الى يافا ، وتذهب جميع قوات المملكة الى نجدته وتنشب معركة تنتهى بانتصار الصليبيين .
- ٢٣ - فى هذه الأثناء يبسط تانكريد حمايته على مدينتى أقلامية واللائقية الرائعتين .
- ٢٤ - زواج بلدوين دى بورج كونت الرها من ابنة الدوق جبريل .
- ٢٥ - بوهيموند يتخلص من أسر العدو له ويعود الى أنطاكية ، فيلجأ البطرك دامبرت اليه فيحسن لقاءه .
- ٢٦ - تعيين شخص اسمه ابريمار - بعد اخراج دامبيرت - بطركا لكنيسة القدس من غير أهلية شرعية . فشل الملك ( بلدوين ) فى حصاره لعكا واصابته بجروح شديدة الخطورة اثناء عودته .

- ٢٧ - كونت تولوز يشيد حصنا أمام مدينة طرابلس ويسميه بتل  
الحجاج .
- ٢٨ - الملك يحاصر عكا للمرة الثانية ويستولى عليها قسرا  
بمساعدة الجنوية له .
- ٢٩ - قيام تانكريد وبلدوين وغيرهما بمحاصرة مدينة « حران »  
بالجزيرة ، واضطرار الأهالى لتسليم البلد بسبب اشتداد  
وطأة الجوع عليهم .
- ٣٠ - ضياع المدينة من يد الصليبيين أثناء تنازعهم فيما بينهم عن  
يكون له الحكم فيها ، وصول النجدة الى المحصورين ونشوب  
معركة هناك فى الأحياء القريبة وهلاك الصليبيين من جراء  
الخطر الداهم المحيى بهم .

\*\*\*

## هنا يبدأ الكتاب العاشر

---

### الملك بلدوين الأول وازدياد رقعة المملكة

- ١ -

كان المعظم جود فروى - الخالد الذكر بفضل المسيح - أول حاكم لاتينى لمملكة بيت المقدس ، فلما رحل عن هذه الدنيا ليحيى فى العالم الآخر حياة خيرا من حياته فى عالمنا هنا ، ظل العرش شاغرا ثلاثة أشهر حتى بعث القوم فى استدعاء أخيه وشقيقه من أمه وأبيه بلدوين كونت الرها ليخلفه فى تدبير شئون المملكة التى آلت اليه بالوراثة ، وربما كان الداعى لهذه الدعوة هو احترام رغبات الدوق الأخيرة ، أو ربما كان ذلك استجابة لاجماع الزعماء الذين كان عددهم قد تضاعف تضاعفا كبيرا جدا .

وكان بلدوين فى شبابه قد ألتزم بكثير من العلوم الانسانية ، ويقال انه لبس مسوح رجل الدين فصار واحدا منهم فكان يجرى.

١٩٢

( ١٢ م - الحروب الصليبية ٤ )

عليه نظرا لكرم أرومته راتب يعرف بالمعاش الكهنوتي ، مما حبس من الأوقاف على كنائس « ريمز » و « كمبراي » و « لبيج » ، على أنه لم يلبث - بسبب لا نعرفه - أن انصرف عن تلك الوظيفة الكنسية وتعلق بالأمور الحربية ، وانخرط في سلك الجندية ، ثم تزوج بعد حين من سيدة فاضلة من انجلترا رفيعة القدر ، كريمة الأصل اسمها « جود هيلد » صاحبها معه حين صاحب أخويه جود فروى وأستاس الفاضلين ، صاحبي الذكر الذي لا يبلى في أول حملة خرجت للحج ، فصادفت النجاح والتوفيق من شتى الوجوه .

على أن « جود هيلد » ماتت كما قلنا في هدوء في مدينة مرعش ودفنت هناك بعد أن أنهكها المرض العضال ، وذلك قبل أن يبلغ جيش المؤمنين أنطاكية .

ثم أن دوق الرها بعث بعد حين في استدعاء بلدوين وتبناه ، فلما مات الدوق خلفه بلدوين على الدوقية بكل ملحقاتها كما فصلنا ذلك من قبل . ثم تزوج بلدوين بعد ذلك من ابنة أمير أرمنى شريف على المكانة رفيع القدر اسمه « توروس » ، كان يملك هو وأخوه قسطنطين القلاع المنيع في إقليم جبال طوروس ، ويأتمر بأمرهما كثير من الأبطال المغاوير ، وينزلهما الشعب الأرمنى منزلة الملوك بفضل ما في حوزتهما من الثروة الكبيرة ، وما تحت أيديهما من العسكر الكثيف ، ولسنا نرى هنا حاجة لاعادة القول عن أصل بلدوين ونسبه العظيم ، ولا أين ولد ، فقد ذكرنا من قبل ما فيه الكفاية في معرض كلامنا عن أعمال الكونت والدوق اللذين كانا شريكين في نبالة الأصل وكرم العرق .

كان بلديون - كما قالوا - رجلاً عملاقاً فارح الطول ، وأضخم جثة من أخيه بصورة ظاهرة حتى ليصح أن يقال فيه ما قيل في شاول<sup>(١)</sup> « كان أطول من كل الشعب من كتفيه فما فوق » ، وكان ذا بشرة ناصعة البياض ، أما شعر رأسه ولحيته فغسلى اللون ، وله أنف أقنى ، وشفته العليا بارزة بعض الشيء ، أما فكه الأسفل فمتراجع قليلاً بصورة لا يمكن أن تشبوه طلعته ، وكان وقور السميت ، متحفظاً في لباسه ، مقتصدًا في كلامه ، يلبس على الدوام عباء تتدلى على كتفيه ، ان تحدث فهو رزين في حديثه ، كما أنه محمود في عاداته ، وفيه من الوقار ما يحمل من لا يعرفونه تمام المعرفة على الظن بأنه من رجال الدين أكثر من أن يكون علمانياً ، ومع ذلك فلاشك أنه كان كغيره من ذرية آدم ، ووريثاً للخطيئة الأولى إذ يقال انه لم يكن يستطيع كبح شهوات البدن ، وانحدر فانغمس في الملذات الجسدية دون أن يعف عن شيء منها وإن لم ينكب أحداً أو يصبه بمضرة فادحة ، والحق أنه لم يكن ثم من يدرى بعباداته الفاجرة سوى نفر قليل من خاصته ، مما يعتبر شيئاً نادراً في مثل هذه الأمور ، وإذا كان أنصاره يحاولون - كما هو الحال ازاء جميع الخطاة - تبرير ما فعله إلا أنه يمكن اعتبار بعض ما فعله قضاء قضى به عليه الرب ، وهذا ما يراه عامة الناس كما سنذكر ذلك في

ولم يكن بلديون بالرجل البدين ولا بالفاحل المعروق بل كان وسطاً بين هذا وذلك ، الى جانب درايته باستعمال السلاح ، وبراعته في ركوب الخيل ، وما تميز به النشاط الجم ، كما أنه كان مستعداً على الدوام للقيام بما يطلب اليه القيام به من أعمال المملكة .

---

(١) صمويل الاول ١٠ : ٢٣

وربما لم يكن ثمت ضرورة لامتداح اقدمه وبسالته وخبرته  
 بفن الحرب وغير ذلك من شتى الخصائص الرائعة التى تفرد بها ،  
 فقد ورث هو واخوته هذه السجايا كلها ابا عن جد ، وزيادة على  
 ذلك فانه كان شديد المحاكاة للدوق حتى ليرى أن أى انحراف - عن  
 السمات الذى اختطه أخوه - خطيئة ، لكنه كان قد تضح وده الصادق  
 لشخص متوعر الخلق ، دنىء الطبع اسمه « أرنولف » الذى كان  
 رئيس شمامسة بيت المقدس ، وكان بلدوين يمثل لكل ما يشير به  
 عليه هذا الرجل امثالا عيب عليه ، فما أرنولف هذا الا الرجل  
 الذى قلت عنه من قبل انه اغتصب لنفسه كرسى البطركية فناله قسرا  
 رغم ما اشتهر عنه من ميله للشر : فكرا وعملا .

### - ٣ -

حين ودع الدوق « جودفروى » الحياة ، وأصبح رهين قبرد ،  
 قام - كما قلنا - الذين عهد اليهم بتنفيذ رغباته التى تضمنتها وصيته  
 الأخيرة ، فصرفوا النظر عن مشيئة الراحل ، وآثروا مصالحهم  
 الذاتية فقدموها على ما قضى به مولاهم ، اذ لم يسلموا برج داود  
 للبترك « دامبيرت » ولم يضعوا المدينة تحت سسلطانه حسب  
 بنود الاتفاق الذى أمضاه معهم الدوق الخالد الذكر يوم عيد الفصح  
 المبارك المنصرم فى كنيسة القيامة بحضرة رجال الدين والشعب .

ولقد تزعم هذه الطائفة المثيرة للفتن رجل اسمه كونت « جارييه  
 دى جراى » ، وهو محارب صنديد ، وعقائل كفى وتربطه صلة  
 القرابة بكل من الدوق ( جود فروى ) والكونت ( بلدوين ) ، لذلك

ما كاد الدوق يلفظ أنفاسه حتى استولى الكونت ( جارنييه ) على برج داود وحصنه أعظم تحصين ، ثم بعث فى السر رسلا من قبله - دون علم أحد - الى كونت بلدوين يأمره بالحضور اليه على جناح السرعة ومن غير ابطاء ، وكان البطرک ( دامبيرت ) قد ألح مرارا على ( جارنييه ) تنفيذ رغبات الدوق الأخيرة برد ما للكنيسة من الحقوق ، لكن جارنييه دأب على اختلاق الأعذار والتراخى فى الرد بكل وسيلة سعيا لكسب الوقت وانتظارا لمجىء الكونت ( بلدوين ) الذى بعث ( جارنييه ) فى استقدامه ، ليجد عنه حضوره جميع ما يخصه سليما غير منقوص ، وقد فعل ( كونت جرای ) ما فعله أملا منه فى استجلاب المزيد من عطف بلدوين عليه نظير ما أظهر من الاخلاص له ، لكنه وهم فيما أمل ان حدث ما خيب ظنه ، فلم تنقضى غير خمسة أيام فقط من ذلك حتى مات جارنييه ، فاعتبر الناس قاطبة موته آية ، ونسبوا الى فضائل البطرک ما لقيه خصم الكنيسة ومضطهدها من الموت الفجائى .

على ان هلاك جارنييه لم يؤد الى تحسين وضع الكنيسة ، ان لم يكثر الذين كانوا يسيطرون على القلعة بما جرى ، فظلوا مقيمين بها لا يبرحونها حتى يجىء ( بلدوين ) كونت الراها .

ولما كان البطرک يعلم تمام العلم بما جرى من استدعاء الكونت ، وكان يخشى مجيئه كل الخشية ، فانه لم يأل جهدا فى اصطناع شتى الوسائل للحيلولة دون حضوره ، فأرسل الى بوهيموند أمير أنطاكية رسالة فصل له فيها الأمر بأجمعه ، ولقد رأينا ان الحكمة تقتضينا ان ندرج صورة من هذه الوثيقة فى تاريخنا الحالى هذا لتكون بينة قاطعة بشأن هذه المسألة .

## - ٤ -

يقول البطريرك فى هذه الوثيقة « انك لتعلم يابنى العزيز انك اخترتنى مدبرا وبطركا رغم عزوفى عن ذلك وبغير معرفة منى بما جرى ، وان كانت نفسى تفيض بالخير والتطلعات الطاهرة تجاه هذه الكنيسة التى هى أم الكنائس قاطبة ومليكة الأمم ، وكان اختيارك اياى برضاء من رجال الدين والقادة والشعب اجمعين ، واعليت قدرى بتوجه من الرب - وان كنت لا أستحق ذلك - وبوأتنى أشرف مقام ، غير اننى كنت فى هذه الذروة العالية هدفا لآلف نكاية ونكاية ، ولايدرى أحدا ما سواى أنا وحدى وسوى المسيح الذى لا تخفى عنه خافية ما لاقيت من المشاكل الجمة والمظالم ، وما قاسيت من الأخطار الكبيرة .

« ولقد كان مستحيلا على « جود فروى » فى حياته أن يضل أو ينحرف من تلقاء نفسه ، وانما كان خاضعا فى ذلك لمطامع أوغاد حملوه على أن يأخذ من الكنيسة ما كان ينبغى أن يكون ملكا خالصا لها ، وأن يفتصب بعض الأملاك التى كان يديرها البطريرك بنفسه حتى فى ظل الحكم التركى .

« كذلك مرت الكنيسة المقدسة بمحنة يعجز اللسان عن شرحها ، ووصفت بعار يقصر الوصف عنه ، كل ذلك فى الوقت الذى كان الواجب فيه يقضى بأن تحظى بتمجيد أجل وتعظيم أكبر ، ثم قدرت رحمة الله أخيرا أن يعود الدوق الى رشده ، وأن ينبذ ظهريا ذلك القصد الدنس فقام فى يوم الاحتفال بذكرى تنزيه العذراء مريم المباركة ، فأقطع كنيسة القبر المبارك ربع مدينة يافا ، حتى اذا كان يوم الاحتفال بعيد الفصح أيقظت الرحمة الالهية ضميره فصحى من غفوته ، وكره أن يظل سادرا فى غلوائه ، ورفض أن يستسلم لأبهة الدنيا فأعاد من تلقاء ذاته الى الكنيسة كل حق شرعى لها ، فأصبح

بذلك رجل القبر المقدس ورجلنا ، ونذر نفسه لله ، وتعهد أن يخلص في المحاربة في سبيله وفي سبيلنا ، فأعاد الى سلطاننا من غير معارضة برج داود، وجميع مدينة القدس وملحقاتها ، وكذلك ممتلكاته هو ذاته الخاصة الموجودة في يافا .

« واذ كانت موارده المالية غير كافية فقد اثبت في الاتفاق - برضاء منا - شرطا يخوله الاحتفاظ بكل هذه الممتلكات ، حتى يأذن الله بزيادة دخله ، ويمن عليه بفتح بابيلون(٢) وغيرها من المدن ، واتفق على أنه ان مات بلا ولد من صلبه يرثه عادت كل هذه الاملاك الى الكنيسة دون أى معارضة .

« ومع أنه وعد بكل هذه الأشياء في يوم عيد الفصح الطاهر امام القبر المقدس وعلى رموس الأشهاد من رجال الدين والناس قاطبة ، الا أنه عاد - وهو مسجى على فراش مرضه الأخير - فأكدنا في حضور العديد من الشهود الثقات .

غير أنه بعد وفاة جود فروى ظهر كونت جارنييه فجعل من نفسه عدوا للكنيسة ، اذ حصن برج داود رغم معارضتنا ، ولم يعبأ بالقسم الذى اقسمه ، ولا بالاتفاق الصادق الذى أبرمه من قبل، وبعث رسله لاستدعاء الكونت بلدوين ، يخبره على لسانهم أنه منتزع من كنيسة الرب املاكها عنوة ، ومستيق اياها في يده قسرا حتى يحضر الكونت نفسه ، ولكن قضاء الله أبى الا ان يأخذ بناصية الكونت ( جارنييه ) فلفظ روحه بعد أربعة أيام من موت الدوق ( جود فروى ) ، فما ارتدع لهذا الحادث بعض رعاى الطبقة الدنيا ، اذ استولوا على البرج والمدينة بأكملها ، ومازالوا مستحوزين على

---

(٢) يقصد بذلك القاهرة .

ذلك كله حتى الآن فى انتظار قدوم الكونت بلدوين ليتم على يديه سقوط الكنيسة ودمار المسيحية ذاتها •

« ولكننى مسلم نفسى - أيها الابن العزيز - الى رحمة الرب والى حنانك ، واذ كانت شتى المصائب والافتراءات التى دبرتها مكائد الأوغاد ، ونماها افكهم الكبير قد أهدقت بى فقد فوضت أمري اليك أنت وحدك بعد الله ، ووضعت أملى فى عطفك الراسخ المتين ، وانى لأبث اليك بكلمات باكية وقلب جازع خبر البلىا التى أقاسيها أو على الأصح تقاسيه الكنيسة •

« ومن ثم فانه اذا كان عندك عطف صادق على ، واذ أردت ألا تكون دون سمعة أبيك البهية ، وهو الوالد الذى أنقذ البابا المقدس جريجورى من مدينة رومة حين قام أوغاد الناس - بما جيلوا عليه من قسوة جائرة سوف تظل مقرونة بهم الى الأبد - فزجوا به فى السجن ، أقول اذا كان عندك العطف ولم تكن دون أبيك همة فاطرح جانباً كل عذر ، وأقبل فى الحال الى عاهدا بمملكتك وأملكك الى رهط من المحاربين الموثوق بهم ، وبادر مشكورا بالحضور لمساعدة الكنيسة الطاهرة فى محنة صراعاتها المؤلة ، لأنك تعلم جيداً أنك قد عاهدتني أن تكون لى عوناً ومشيراً ، كما أنك بذلت نفسك عن طواعية وطيب خاطر لتخضع للكنيسة المقدسة ولى معا •

« وعليك أن تكتب كتاباً الى بلدوين تنهاه نهياً باتاً عن ارتكاب مالا نرضى عنه ، وتأمره ألا يأتى الى بيت المقدس لتخريب الكنيسة المقدسة أو لاغتصاب ممتلكاتها بأى شكل من الأشكال ، فقد شاركه هو الآخر أيضاً فى اختيارى بطركاً لكنيسة بيت المقدس وراعياً لها •

« وعليك أن تبين له انه لا يتفق والحجا أن يكون قد تحمل كثيراً من المشاق والأخطار من أجل تحرير الكنيسة ثم نصل هذه

الكنيسة ذاتها الى قدر كبير من التدنى والمهانة فتضطرب رغم انها لخدمة أولئك الذين كان ينبغي لها ان تكون صاحبة السيادة فيهم ، وأن يكون لها ما للام من حق الامر والنهي فيهم ، اما اذا اصبر ( بلدوين ) على مقاومة العدل ، ورفض الرضوخ للعقل ، وأبى الا أن يحضر قاننى أدعوك بحق يمين الطاعة الذى قطعتة على نفسك للقديس بطرس أن تمنح حضوره بكل وسيلة تستطيعها ، حتى ولو استلزم الامر العنف ان كان ثم ضرورة للعنف » .

، ودعنى اعرف يا ولدئ العزيز - عن طريق نفس الرسول الذى يحمل كتابى هذا اليك - ماذا انت عازم ان تعمله بالنسبة لهذه الأمور التى أوصيتك بها ، وأن تبعث لى المساعدة على جناح السرعة » .

## - ٥ -

ونحن (٣) واثقون أن هذا الكتاب لم يقدر له أبدا أن يصل الى يد الأمير بوهيموند ، إذ كان قد وقع فى أسر العدو قبل قليل من موت طيب الذكر الدوق جود فروى ، أو بعد قليل جدا من مغادرة روحه لجسده وصعودها الى يارثها .

لكن حدث فى هذا الوقت أن ورد على بلدوين كونت الرها من الخبر السار ما أثلج صدره وشرح خاطره ، إذ استسلمت له ملطية عاصمة الميديين الرائعة ، وتم له اخضاع من حوله من الخصوم ، وهكذا استطاع - برحمة من الله - أن ينجح فى توفير شئ من السلام لنفسه ولشعبه ، وبينما هو فى ذلك اذا بوافد يقد عليه فجأة من بيت المقدس وعلى جناح السرعة يحمل اليه خبر وفاة الدوق ( جود فروى ) ، ويفضى اليه أيضا بأن اصدقاءه واتباع الراحل

---

(٣) بعد ان انتهى وليم من ايراد نص الكتاب يعود فيعلق على ماجرى .

يلحون عليه أن يشد رحاله اليهم ما وسعته السرعة ليعتلى العرش مكانه ، فبادر في الحال الى جمع حرس مؤلف من مائتي فارس وثمانمائة جندي مشاة ، وبدأ رحلته الى القدس في اليوم الثاني من أكتوبر ، فآثار دهشة الجميع خروجه في مثل هذه القلة من الأتباع وقيامه برحلة طويلة كهذه الرحلة تفرض عليه المرور ببلاد العدو ، كما عهد برعاية امارته الى رجل عظيم القدر راجح العقل من ذوي قرياه هو بلدوين دى بورج الذي قدر له أن يخلفه فيما بعد ليس في الرها فحسب ، بل وفي المملكة أيضا .

ولما بلغ بلدوين ( أخو جود فروي ) أنطاكية بعث بزوجته والوصيفات من أهل بيته بكل ما عندهم من ثقل الأثاث وجزء كبير من متاعهم الى ناحية البحر، كما أمر بأعداد سفينة لتبحر الكونتيسة عليها في امان الى يافا التي كانت المدينة الساحلية الوحيدة التي آلت الينا حتى ذلك الوقت ، أما غيرها من المدن فكانت لاتزال في قبضة المارقين ، ويظهر أن دافعه الى ترتيب الأمر على هذه الصورة هو ما رآه - وهو موشك على اجتياز أرض العدو - من وجوب تحققه جهد ما أمكنه مما معه ليكون أحسن استعدادا لمواجهة أي صعاب أو هجمات قد تعترضه على غير توقع منه .

\* \* \*

ثم سار هو من أنطاكية الى لاذقية الشام ، فلما بلغها مضى مصاقبا الساحل مارا بجبله ويانياس ومرقليقو وطرطوس وعرقه ، حتى أفضى به السير الى طرابلس فضرب معسكره خارجها ، حيث وإفاه هنا واليها مرحبا به ، وبألف في الاحتفاء به ووصله بالهدايا الجمّة ، وعلم ( بولدوين ) من هذا الوالى ذاته أن « دقاكا » صاحب دمشق قد نصب له الكمانن على طول الطريق .

ثم تابع بلدوين زحفه من طرابلس ماراً بجبيل حتى بلغ نهر الكلب ، حيث يوجد هنا ممر شديد الخطر يقع بين بحر عاصف وجبل شناق الارتفاع مما يجعل المرور فى هذا الطريق يكاد أن يكون مستحيلاً . ويبلغ طول هذا الممر أربعة فراسخ ، أما عرضه فذراعان ، وكان السير فى هذا الشعب الضيق أمراً محفوفاً بالخطر ويكاد أن يكون مستحيلاً ، ناهيك بما كان من استعانة أهالى تلك الناحية ببعض الأتراك الذين استقدموهم من أقاليم نائية ، وتعاونوا على عرقلة سير كونت بلدوين .

حين بلغ الكونت هذا الموضع قدم أمامه نفرا من رجاله ليكونا ربيطة تستطلع له الطريق ، فتبين لهم أن بعض المدافعين كانوا قد اجتازوا النهر ونزلوا الى السهل ، فلما عرفوا ذلك خشوا أن يكون العدو قد ترك أعداداً كبيرة خلفهم ترصد خطاهم وتترصد لهم . ومن ثم بعثوا واحداً من بينهم يخبر الكونت بما آلت اليه الأمور ، فبادر بلدوين فى لحظته بتنظيم رجاله للحرب ، زاحفاً بهم على العدو ، فوجده متهيئاً للقتال ، فاغار عليهم غارة شعواء بددت شملهم من أول صدمة ، ولقى الكثيرون منهم فيها حتفهم وفر الباقون ، ثم أمر بعدئذ عسكره أن ينزلوا متاعهم ، وأن ينصبوا خيامهم فى هذا الموضع الذى قضوا فيه ليلة ليلاء لم يغمض لهم فيها جفن لما يحيق بهم من الخطر الجسيم من جراء وقوع معسكرهم فى شعب ضيق محصور بين الجبال والبحر مما أتاح لعدوهم أن يظل طول الليل يضايقهم برجاله الذين كانوا قد جاءوا بحراً من بيروت وجبيل ، ودأبوا على رميهم بوابل هتان من الذبال التى أنزلت الأضرار الفادحة بأولئك الصليبيين الذين كانت خيامهم فى الخلاء على أطراف المعسكر ، ومما زاد كربهم شدة أنهم - رغم قربهم من أحد الأنهار - كانوا عاجزين فى تلك الليلة عن سقى جيادهم ، مما جعل هذه الحيوانات العجماء

تكايد الأمرين من الظمأ الذى زادت الحرارة البالغة من وطأته ،  
لاسيما وقد أمضها طول السفر •

## - ٦ -

لم تكد طلأع الضياء تلوح بالأفق صباح اليوم التالى حتى أمر  
الكونت - بعد التشاور مع رجاله - بأعداد متاعهم للزحف ، وأرسل  
أمامه جميع الحجاج الضعاف ومن لا يرتجى منهم نفع فى القتال  
وسار هو خلفهم بمن معه من المحاربين الذين هم أقدر على  
تحمل وطأة أى هجوم قد يشنه العدو على المؤخرة أو على أحد  
الجناحين ، وقد هداه بعد نظره الى اتباع هذه الخطة حتى يضل  
العدو ، ولم يكن ذلك لعدم ثقته فى جماعته بل ليغرى الخصم على  
مطاردته فى ارتداده فيعيث ذلك على مواجهته فى السهل فتتيسر له  
حرية مقاتلته ، لانه كان يخاف كل الخوف أن يحصر فى الشعب  
الضيقة •

وبينما كان جيشه يجاهد فى الارتداد راح أعداؤه يضاعفون  
من مطاردتهم إياه ، اعتقادا منهم بأن بلدوين لم ينسحب برهطه الا  
خوفا منهم ، ومن ثم اندفعوا من الشعب الضيقة ، وأخذوا فى  
ملاحقة الصليبيين بشدة فى النواحي المكشوفة ، وأذ ذاك تشتم من  
كانوا على ظهر السفن رائحة الغنيمة ، فتواثبوا الى الشاطئ طمعا  
منهم فى كسب المعركة من غير جهد ولا مشقة ، واندفعوا كلانما قد  
دارت الدائرة على عدوهم •

فلما رآهم الكونت قد غادروا المرتفعات وصاروا فى السهل  
الفسيح مشمرين عن مساعد الجد فى مطاردته أمر رجاله بالارتداد  
لقتالهم فهبوا بأعلامهم وسار بهم مهاجما من لآزالوا ملحين فى

افتقاء أثره الحاحا شرسا ، ونسج عسكره على منواله ، فاندفعوا متحمسين فى القتال مشرعين سيوفهم البراقة ، يجرعون الخصم كأس الردى قبل أن ينجح فى الارتداد الى الجبال جريا على مألوف عادته ، فعجز رجال العدو عن الصمود لهذه الهجمة يصلون بنارها ، وتملكتهم الدهشة من بأس مطارديهم وجراتهم حتى انهم لم يحاولوا القيام بأى محاولة للدفاع عن انفسهم ، وأيقنوا أن الفرار هو أملهم الوحيد ، وأنه طريقهم الذى لا طريق سواء لسلامتهم •

أما الذين كانوا قد غادروا السفن فلم يجرعوا على العودة الى البحر ، وأما من فروا الى الجبال فقد هاموا على وجوههم حيارى لا يدرون أين يذهبون ، فاعترضتهم المنحدرات الخطرة وترصدتهم الموت بشتى ألوانه وهم عنه غافلون •

بعد أن استأصل الصليبيون المنتصرون شافة الخصم على هذه الصورة عادوا آمنين فى سربهم الى الموضع الذى خلفوا فيه متاعهم ومؤنتهم ، واستراحوا هناك تلك الليلة شاكرين لله الذى أذل القوى ونصر الضعيف ، فلما طلع الغد عاودوا زحفهم حتى اذا بلغوا مكانا اسمه « جونبة » وقفوا يوزعون الأسلاب والغنائم والأسرى حسب العادة الحربية ، وأعطوا انفسهم وجيادهم حقها من العناية الواجبة •

فلما كان صباح اليوم التالى خرج بلدوين فى نفر من خيالاته أصحاب السلاح الخفيف ، رغبة منه فى الحفاظ على بقية اتباعه ، وتقديم بهم فى جراءة الى البقعة التى جرت بها وقعة الأمس ، هادفا من وراء ذلك لأن يتأكد بنفسه تمام التأكد عما اذا كان أعداؤه مازالوا مسيطرين على الشعاب ، أم أن المرء أصبح ميسورا أمام من يريد اجتيازه ، فلما رآه خاليا عن الحراسة وليس من صعوبة تعترض

سالكه أمر باستدعاء جميع أتباعه الذين توافدوا اليه سراعا اثر سماعهم هذا الخبر البهيج وعبروا كلهم بقيادة مولاهم هذا المكان الذى سبب لهم فى الواقع كثيرا من الخوف والرعب ، ثم تابعوا بعد ذلك زحفهم الى مدينة بيروت وعسكروا امامها ، ثم ساروا على طول شاطئ البحر فمروا بصيدا وصور وعكا ، حتى بلغوا أخيرا مدينة حيفا .



على أن الكونت كان يتوجس خيفة من تانكريد لما كان قد ألحقه به ظلما من اهانة فى طرسوس من أعمال « قليقة » ، لذلك نهى رجاله عن دخول تلك المدينة ، مخافة أن يتذكر تانكريد الأريحى ما ناله من الأذى على يد بلدوين فيعمد الى رد الأذى بمثله .

غير أن تانكريد كان بعيدا عن المدينة فخف أهلها للترحيب بالكونت ، وبالغوا فى تحيته وإظهار ما تضمه جوانحهم من حب ومودة أخوية له ، كما أبدوا استعدادهم لعقد سوق لبيع البضائع لاسيما ما يلزم رجاله من الطعام بأثمان معقولة .

ثم تابع الجيش زحفه من حيفا الى قيسرية فأرسف مؤثرا الطريق الساحلى حتى بلغ يافا ، فاحتفى ببلاطين جميع من بها من أهلها ومن رجال الدين احتفاء كبيرا ، ثم سار بمن معه شطر مدينة بيت المقدس حيث خرج للقائه جميع رجال الدين والشعب من لاتين وغيرهم من الأمم الأخرى وسودوه عليهم عن رضى وطيب خاطر ، فلما تم له ذلك سار من يافا بمن معه وطافوا بالكونت شوارع المدينة فرحين به وهم ينشدون التراتيل والأغاني الدينية ، ثم نادوا به سيدا وملكا عليهم .

## ٧ -

حينذاك أدرك « أرنولف » المذكور آنفا ربيب الشيطان البكر وابن الهاوية أنه نال ما يستحقه لقاء أعماله الشريرة ، وهوى من كرسى يعقوب الذى اغتصبه بوقاحته الملعونة، وأخذ يثير القلائل ويعكر صفو سلام دامبيرت الذى كان قد تم اختياره برضى الجميع رئيسا للكنيسة يدير أمورها ، ذلك أنه ماكاد يموت الدوق حتى راح «أرنولف» يرمى البطرک العظيم عند بلدوين بشتى الاتهامات ، كما حرك بعض رجال الدين ضد دامبيرت ، وذلك كله بسبب امتلاء نفسه بالشر وميلها لبذر بنور الشقاق بين الناس ، ولما كان شديد الغنى واسع النفوذ ، الى جانب أنه كان كبير مطارنة بيت المقدس ، فقد أخذت الأموال الكثيرة تتدفق عليه من هيكل الرب ومن موضع الصلب ، ونجح بفضل ثرائه الفاحش ومكره البألغ فى أن يبث الشر الكثير بين رجال الدين ، وأكثر منه فى صفوف المدنيين .

ولما كان البطرک المعظم ( دامبيرت ) عارفا تمام المعرفة بسوء طوية هذا الرجل « أرنولف » الذى كان شوكة تقض جانبيه ، ويعرف أيضا سرعة تصديق الكونت له فقد توجس خيفة من حضور هذا الأخير فغادر المقر البطرکی ، وفزع الى كنيسة جبل صهيون ، فلما باعد كل البعد ما بينه وبين شتى المنازعات انصرف كمواطن عادى الى القراءة والصلاة يعضى فيهما وقته ، مما ترتب عليه تغييه عن مشاركة الأهل احتفالاتهم الترحيبية التى أقاموها لاستقبال بلدوين .

## - ٨ -

ظل الكونت مقيماً بضعة أيام فى القدس ليستجم وتستجم جياده ، لكنه لما كان رجلاً يحب العمل ويكره الخمول فإنه لم يكد يرى أمور المملكة تستقر على صورة مرضية وملائمة للوقت حتى أعد حملة مؤلفة ممن كانوا قد صحبوه ومن القوات التى وجدها بالمملكة ، وظهر بهؤلاء وهؤلاء فجأة أمام عسقلان على غير انتظار من أحد، فأحجم الأهالى عن الخروج اليه خوفاً منه ، فأدرك أنه لن يجنى الكثير من هذه الحملة ، ومن ثم سار عبر اقليم واسع يقع بين الجبال والبحر ، ومر بكثير من الأماكن التى وجد دورها يباباً قفراً لمغادرة أصحابها لها وفرارهم الى المخابىء التى تحت الأرض بنسائهم وأولادهم ومواشيهم وقطعانهم .

وكان قطاع الطرق واللصوص قد أزعجوا هذا القطر ، كما بات الطريق الواصل بين الرملة والقدس شديد الخطورة لكثرة ما أنزلوه بالدروب والمساكن من الأهوال بسبب هجماتهم المتكررة ، كما أنهم طالما أعملوا سيوفهم البتارة فى المسافرين يقاتلونهم فيأخذونهم غدراً ، فلما سمع الكونت بهذا القتال أمر بمطاردتهم فى عنف لا يعرف الهوادة ، وبتكديس مختلف أنواع المواد القابلة للاشتعال أمام مداخل الكهوف التى اختبأوا بها واضرام النار فيها ، مستهدفاً من وراء تلك العملية ارغام الفارين المختفين فى المخابىء على الإستسلام والا ماتوا اختناقاً من ذلك الدخان الكثيف ، وترتب على هذه الخطة ان لم يعد المختفون داخل المغارات قادرين على تحمل حرارة اللهب ولا الجمر المتقد ولا الدخان المنتشر فى كل ركن وناحية ، فاستسلموا بلا قيد ولا شرط للكونت الذى لم تأخذه شفقة ولا رحمة بهم ، فأمر بقطع رؤوس مائة منهم فى لحظته فقطعت ، وكان ذلك عقاباً عاجلاً يكافئ جرمهم ، وأخذ من مخازنهم من الطعام ما يحتاجه رجاله ،

ومن العلف مايلزم دوابه ، ثم تابع سيره بعدئذ فى أرض أبناء سمعان ، فانتهى به الزحف الى أرض جبلية ، فجاس خلال منطقة « الخليل » المعروفة أيضا باسم « كارياتاربي » والمشهورة أيضا بأنه قد دفن فيها ابراهيم واسحق ويعقوب ، ثم مشى عبر بساتين كروم « انجادى » الى الوادى الشهير الذى يوجد به البحر الملح •

ومر العسكر « بسيجور » التى وان كانت متناهية فى الصغر الا انها كانت قادرة على انقاذ « لوط » حين هرب من « سدوم » ، ودخلوا الى أرض « مؤاب » وعبروا كل سورية الوسطى ينتظرون الفرصة المواتية لانزال المضرة بجنس الترك الغادر ولتحسين أوضاعهم هم أنفسهم • ومع ذلك فانهم لم يستطيعوا طول هذه المدة أن ينجزوا شيئا سوى أنهم أعالوا أنفسهم وجيادهم ودوابهم التى تحمل أثقالهم مما خلفه أعداؤهم سكان الناحية الذين كانوا قد فروا على وجوههم كعادتهم حين علموا باقتراب الصليبيين قبل أن يدركوهم ، وانطلقوا مسرعين الى الغابات الموجودة بالجبال الموحشة ، لذلك فإنه لما أخذ الصليبيون فى اجتياز هذا الاقليم وجدوا دياره خالية تماما ، والحقول جرداء من كل زرع • واذ أدرك الكونت أخيرا أنه لن ينال شيئا لاسيما وقد دنى موعد الاحتفال بعيد الميلاد فقد كر راجعا من حيث جاء ، ودخل القدس ثانية فى الحادى والعشرين من شهر ديسمبر ، فوافق دخوله يوم عيد القديس توما الحوارى •

## - ٩ -

وفى سنة ١١٠١ من مولد المسيح.نجحت مساعى وسطاء الخير الحميدة فى اصلاح ذات البين بين البطرك المبجل وكونت بلدين •

وفى يوم عيد الميلاد المبارك توج بلدوين ملكا ودهن بالزيت فى كنيسة بيت لحم على يد البطرك « دامبيرت » المشار اليه ، ووضع

٢٠٩

( م ١٤ - الحروب الصليبية )

على رأسه التاج المرصع بالجواهر ، وذلك بحضور رجال الدين  
والشعب ورجال الكنيسة وأمراء المملكة .

## - ١٠ -

كان اعتلاء بلدوين العرش على هذه الصورة ، ولكن تانكريد  
- ذو الأثر المجيد والذاكر أبدا للمسيح - كان يطوى صدره  
على ماضيه عليه بلدوين من ظلم أيام وجوده في طرطوس بقلقية ،  
وإذ كان من خلق تانكريد التدين العميق والعمل على راحة ضميره  
فقد كره أن يربط نفسه بيمين الولاء لحاكم لا يحس نحوه بالحب  
الصادق ، فرد على الملك مدينة طبرية ، كما تنازل في الوقت ذاته  
عن مدينة حيفا التي كان جود فروى الخالد الذكر قد أقطعها إياها عن  
طبيب خاطر لقاء خدماته الجليلة ، فلما فرغ من ذلك استأنفه في  
الرحيل ، فرحل والجميع كارهون أشد الكره لرحيله عنهم ،  
وشخص إلى أرض أنطاكية استجابة لثكر استدعاء وجوها له ،  
ليحمل على عاتقه مسئولية الامارة ويشرف على أمورها حتى يعود  
الأمير بوهيموند أن أذن الله بخلاصه من أسره ، فإن لم يقدر له  
الرجوع آل حكمها بحق الوراثة إلى تانكريد الذي لم يكد يبلغ أنطاكية  
حتى بادر أهلها وكبار رجالاتها إلى تسليمه إدارة المدينة كاملة ،  
وأطلقوا يده يفعل فيها ما يشاء .

## \* \* \*

أما الملك ( بلدوين ) فقد أقطع طبرية - حين ردها إليه  
تانكريد - إلى رجل رفيع المكانة ، يأسل في الحرب هو « هيج دي  
سنت أومير » وجعلها وراثية في عقبه ، وظلت المملكة تنعم بالسلام  
مدة أربعة أشهر .

## - ١١ -

جمع الملك سرا فى خلال هذه الايام ذاتها طائفة كبيرة من الجند ، واجتاز بهم الأردن ودخل أرض العرب ، وكان جمعه اياهم نزولا على اشارة اشارة بها عليه رهط معين من الرجال كانت مهمتهم أن يتقصوا اخبار النواحي المجاورة ، وأن يتجسسوا على نقاط ضعف العدو ، وأوغل ( الكونت ) بمن جمعهم حتى أدى به التوغل أخيرا الى الصحراء التى اعتاد هؤلاء الناس العيش فيها ، وجاء الى موضع دلتة عليه عيونه ، ففاجأهم بالاغارة عليهم متسربلا بظلام الليل ، وكان عدم توقع المارقين للهجوم عليهم دافعا اياهم للتراخى فى الحراسة اذ كانوا قد انكفأوا الى خيامهم طلبا للنوم ، فأمسك ( بلدوين ) بعضا من رجالهم وسبى جميع نسائهم ، واسترق أطفالهم ، واستحوذ على كل ما ملكته أيديهم ، وحمل معه قدرا كبيرا من الغنائم ، من بينها عدد ضخم من الجمال والحميز ، غير أن الناس لما رأوا من مسافة بعيدة اقترابنا منهم ، اعتلى كثير من الرجال خيولهم الصافنات السريعة العدو ، وفروا الى أقصى بقاع الصحراء ايثارا للسلامة ، تاركين نساءهم وأولادهم وخيامهم وكل مايملكونه تحت رحمة عدوهم .

ثم تابع الصليبيون السير فى طريق العودة ، دافعين أمامهم ما غنموه من القطعان ، ساحبين وراءهم الأسرى ، وحدث أن كان بين السبى امرأة عظيمة القدر هى زوجة أحد كبار شيوخهم الأقوياء وقد أسرت فى الكارثة العامة ، ثم جاءها المخاض فى أثناء السير ووضعت مولودها بعد مقاساة آلام الولادة التى تصحب الوضع ، فلما أفضوا بخبرها الى الملك أمر فى الحال أن ينزلوها من فوق البعير الذى كانت تركبه ، وأن يعدوا لها فراشا مما غنموا ، وزودوها بالطعام وبرأويتين من الجلد مملوءتين بالماء ، ثم خصص لها وصيفة

– كما أرادت – تقوم بخسدمتها وتلبية حاجتها ، وناقشتين تعيش على لبنهما ، ثم دثرها ( الكونت ) فى عباة التي كانت عليه وخلفها حيث هى ، وتابع هو زحفه مع جيشه •

وفى هذا اليوم بالذات – أو لعله فى اليوم التالى – ظهر الشيخ العربى الكبير ، يتبعه رهط ضخمة من رجال عشيرته ، يقص عن قرب – كما ألوف عادة قومه – أثر الجيش الصليبي ، وكان الأسى قد بلغ منه غايته ، وغمه أشد الغم سبى زوجته الشريفة وأم أولاده وهى على وشك الوضع ، ولم يكن يعتبر كل ما خسره شيئا متذكورا اذا ما قيس بفقد اياها ، وظل يمشى ويمشى حتى وصل اليها فجأة فرآها مسجاة على الأرض ، فلما وقع بصره عليها أخذه العجب كل العجب من تلك الروح الانسانية العظيمة التى حاطها بها الملك ، وشرع يشيد بذكر اللاتين مثنيا على رحمة بلدوين العظيمة الثناء المستطاب • وأقسم ليكون منذ هذه اللحظة الى آخر عمره وفيها له ما وسعه الوفاء ، وكان هذا عهدا أوفى به فى لحظة حرجة أشد الحرج •

فى الوقت الذى كانت تجرى اياهه هذه الأحداث فى الشرق سمع أمراء الغرب بالأمور الجليلة الرائعة التى أجراها الله على أيدي عباة الذين ذهبوا للحج ، وكيف أنه قاد جيشه الى أرض الميعاد عبر بلاد مترامية الأطراف ، وكيف نصرهم على الأهوال الجمة البالغة ، وهيا لهؤلاء الحجاج أن يشاهدوا بأعينهم كيف أذل لهم الأمم وفتح عليهم البلاد ، فاعتبطت نفوس الذين ظلوا وراءهم فرحا بنصر اخوانهم ، وان تقطعت قلوبهم حسرة لأنهم لم يشاركوه فى حملاتهم التى تكللت بالنصر والغلبة ، ومن ثم اجتمع بعضهم الى بعض ، وانفقوا على أن يشرعوا فى الخروج بحملة جديدة •

\*\*\*

كان أعظم هؤلاء الحجاج مكانة ذلك الرجل المبجل « وليم كونت بواتو<sup>(٤)</sup> دوق أكويتية ، ومعاه الرجل الذائع الصيت « هيج » العظيم كونت فير ماندوا أخو فيليب ملك الفرنجة ، والذي كان قد صاحب الحملة الأولى ، ولكن اضطرته العسرة بعد الاستيلاء على أنطاكية للرجوع الى موطن آبائه . كما كان من بين هؤلاء أيضا « ستيفن » كونت « شارتريز وبلوا »<sup>(٥)</sup> وهو اللبيب القطن ، ولكنه كان قد جلب على نفسه العار المقيم وأزرى بشرفه حين كانت أنطاكية موشكة على السقوط ، فتخلى عن رفاقه وهجرهم خوفا من المعركة التي على الأبواب ، فطُخ هروبه المشين اسمه بعار أبدى ، ثم عن له أن يكفر عن زلته السالفة ، ويمحو ذكرى هذا الاثم الذي علق بالأذهان ، فجمع رهطا كريما من أتباعه واستعد للحج .

كذلك تأهب للقيام بنفس الرحلة « ستيفن اليرجندى » الشريف المحتد الكريم الأرومة ، كما تأججت نفس هذه الرغبة فى صدور كثيرين غير هؤلاء من النبلاء المعروفين بثرائهم وطهارة حياتهم وكرم أصولهم ، وبراعتهم فى حمل السلاح ، فاستعدوا للسفر ، فلما كان اليوم المضروب للرحلة وقد خرج من القادة العظماء من

---

(٤) المعروف عن كونت بواتو هذا انه كان الى جانب ذلك رجلا اديبا يقرض الشعر .

(٥) أشارت الترجمة الانجليزية ( ج ٢ ص ٤٣١ حاشية رقم ٢٧ ) الى أن ستيفن كونت شارتري كان يواجه عاصفة شديدة من الاستهجان مسلكته فى ترك الصليبيين ، بل ان زوجته طالما لامته لوما عنيفا على هذا المسلك وبينت له كم تكابد من الألم من كل النواحي ، وراحت تثير حميته حتى لان واستجاب وقاد هذه الحملة التى يشير اليها وليم الصورى فى المتن ، وقد أوردت الترجمة الانجليزية هذا التعليق بناء على ما ذكره المؤرخ النرمنى « أورديك فيتال » .

يجاوزون هؤلاء مكانة أزمع هؤلاء النبلاء مشاركتهم بالعسكر الذين معهم .

ومن ثم أعدوا كل ما يحتاجون اليه فى سفرهم ، واستدعوا اخوانهم وخرجوا للحج فى الساعة واليوم اللذين اتفقوا عليهما ، سالكين نفس طريق الحملة الأولى ، وان لم يماثلوهم فى حماستهم ، وتلقاهم فى القسطنطينية الامبراطور « الكسيوس كومنين » لقاء طيباً ، ورأوا فى بلاطه كونت تولوز الذى جاء فى الحملة الأولى بأعمال برهنت على كفاءته العظيمة كقائد ، وكان الكونت كما قلنا قد خلف زوجته ومعظم أهل بيته فى اللانقية ، أما هو فقد مضى الى الامبراطور ملتصقاً بمعونته ليتمكن من العودة الى الشام وليفتح مدينة أو أكثر من مدنها ، لأنه كان منذ خروجه للحج قد أجمع العزم على أن يقضى هنا ما تبقى من عمره ، والا تكون له رجعة قط الى وطنه .

وصفقت الفرحة فى صدور هؤلاء الرجال اذ قابلوا رجلاً حكيماً ونشيطاً كهذا الرجل ، ثم جاءوا الى الامبراطور يستأذنونه فى الرحيل ، فسخرى عليهم بالهدايا الغالية ، وخرجوا مجتازين البسفور ومستترشدين بالكونت ريموند سان جيل ، ووصلوا بمن معهم من العسكر الى نيقية فى اقليم « بيثينيا » سالكين نفس الطريق الذى سلكه من سبقوهم .

### - ١٣ -

لقد عامل الامبراطور الحجاج - كما قلنا - اطيب معاملة حينما كانوا عنده ، لكنه نهج نهج الاغريق المألوف ، فأكل الحسد قلبه من نجاح الصليبيين ، وعزم على انزال المضرة بهم ، ومن ثم والى

بعث الرسل الى الترك يحثهم للعمل على ما فيه القضاء على الحجاج ، ودأب على مكاتبتهم واخبارهم شفاها بواسطة رسله بقرب وصول الحجاج ، وينبههم مقدما الى أن سلامة أنفسهم تحتم عليهم الا يدعو هذا الحشد الكبير يمر بسلام ، وهكذا كان كالعقرب التى ان ووجهت لم تلدغ ، ولكن السم كل السم فى حمتها التى ينبغى استئصالها ، ولذلك فقد فشئى خبر وصول هذه الحملة بواسطة الكسيوس ومبعوثيه ، واستطاع الترك ان يجمعوا الجنود والمرتزة من كافة أنحاء المشرق متوسلين لتحقيق ذلك بالرجاء والمال .

ثم شاءت الظروف - ان عمدا أو صدفة - أن يتفرق الصليبيون بعضهم عن بعض ، وسارت كل طائفة منهم فى طريق غير الطريق الذى سلكته الأخرى ، ذلك لأنهم كانوا أشبه بذرات الرمل لا ترابط بينها ، هذا بالإضافة الى أنه كان ينقصهم التنظيم الحربى الذى التزمه الجيش الأول ، ومن ثم سرت روح قوية من الكراهية نحوهم ، فحق عليهم أن يقعوا فى يد العدو الذى أفنى منهم بالسيف أكثر من خمسين ألف نسمة ما بين ذكر وأنثى .

أما الذين قيضت لهم العناية الالهية النجاة من قبضة العدو فقد فقدوا كل متاعهم وجهازهم ، وهاموا على وجوههم يلتمسون النجاة عراة حفاة صفر الأيدي من كل شئ ، حتى انتهى بهم الفرار أخيرا الى قيايقية التى بلغوها بطريق الصدفة وليس عن خطة رسموها لأنفسهم ، فلما صاروا فى طرسوس عاصمة تلك الولاية فقدوا هيج العظيم فقد وافاه الموت الذى لامناص له منه ، فدفنوه فى احتفال كبير فى كنيسة معلم « الأمم » العظيم الذى مات فى مهبط رأسه .

وبعد أن استجم الحجاج بضعة أيام ناعمين بشهى المأكول تابعوا سيرهم حتى بلغوا امارة أنطاكية التى كان تصريف شئونها بيد تانكريد ، فاستقبلهم كمادته استقبالا حارا ، وخص كونت بواتو

بأعظم جانب من الرعاية ، لأنه كان أسمى الجميع مكانة ، كما أنه انفرد عن كل من معه بما ابتلى به فى تلك الحملة المنكوبة بفقد كل ما كان يملكه .

وإذ كان الشوق يلح على الحجاج لرؤية الأماكن الطاهرة - فقد أغدوا السير الى بيت المقدس - التى نازعتهم نفوسهم اليها لهفة وحنينا ، فركب البحر منهم من أعوزتهم الجياد ، وأما غيرهم ممن لم يزل عندهم ظهر يركبونه فقد شقوا طريقهم برا ، والتقى هؤلاء هؤلاء فى انطرسوس : تلك المدينة الساحلية التى تعرف عادة باسم « طرطوس » ، فأغاروا عليها استجابة لنصيحة ريموند كونت تيلوز لاسيما وقد بدا لهم أن ليس من اليسير استيلاؤهم عليها ، فأعانهم الله إذ مكثهم من امتلاكها عنوة فى أيام قلائل معدودات ، وراح أهلها ما بين هالك بحد السيف وأسير فرض عليه الرق الأبدى ، فلما فرغوا من ذلك كله أسلموا المدينة الى الكونت ، ثم تقاسموا الغنائم فيما بينهم وفق ما يقضى به قانون الحرب حتى إذا انتهوا من ذلك تابعوا السير نحو هدفهم ، على حين بقى الكونت فى المدينة لحمايتها ، فتخلف على غير رغبة من البقية الذين كانوا يلحون عليه أن يسير معهم .

- ١٤ -

بينما كان جيش الحجاج - وقد طالعه سوء الطالع - يجهد نفسه فى شق طريقه عبر بقاع آسيا الصغرى كما وصفنا من قبل كان ملك بيت المقدس - الذى يكره البقاء بلا عمل يشغله ويعد ذلك مضیعة للوقت - أقول كان منصرفا لبذل شتى الوسائل لمد حدود المملكة الضيقة . وحدث أن وصل الى ميناء يافا - مع مستهل

الربيع (٦) - أسطول الجنوية ، فتبارى الملك والأهالى فى الاحتفاء بهم ، ولما كان عيد الفصح على وشك الحلول فقد سحبوا سفنهم الى اليايسة ، ومضوا مصعدين الى بيت المقدس للاحتفال بالعيد الذى ما كاد الملك يفرغ من احيائه على مألوف السنة حتى بعث من لدنه رجالا عقلاء محملين بالهدايا المغرية الى قادة الأسطول وكبار وجوه العسكر ، وعهد اليهم بمفاوضتهم ليعلموا منهم علم اليقين عما اذا كان فى نيتهم الرجوع ، أم أنهم مستعدون - اذا عوضوا تعويضاً سخياً - على بذل انفسهم فترة من الوقت لخدمة الله بمد حدود المملكة » .

فلما تشاور الجنوية فيما بينهم أجابوا أنهم اذا تهيأت لهم الإقامة فى المملكة وفق شروط كريمة فسيكون هدفهم - وكان هذا فى الواقع منذ البداية - الانصراف ربحاً من الزمن لخدمة الرب بتوسيع رقعة المملكة .

ومن ثم عقدت اتفاقية قبلها الطرفان مقسمين على الوفاء بها ، مفادها أنهم طالما يريدون البقاء فى المملكة بأسطولهم فلهم الثلث من كل مدينة أو قلعة أو موضع من المواضع الحصينة مما فى يد العدو ، ومما يكونون هم قد ساعدوا فى الاستيلاء عليه ، لا يعارضهم فى ذلك معارض .

كذلك يحصلون على ثلث الأسرى الأعداء من غير مشاققة ، ويكون لهم ثلث أموال العدو يقسمونها بين رفاقهم . أما الثلثان الباقيان من كل شئ فيكونان من نصيب الملك . وزيادة على ذلك فقد نص الاتفاق على أن يخصص حسب المعاهدة للجنوية شارع معين فى كل مدينة تنتزع من يد الخصم .

---

(٦) وكان ذلك فى منتصف ابريل ١١٠١ .

حينذاك انتعشت الآمال فى صدر الملك ، فقام اعتمادا على المعونة الالهية وجمع كثيرا من الفرسان والمشاة من المدن الخاضعة له ، وقرض الحصار برا وبحرا على مدينة « أرسوف » الساحلية المعروفة أيضا باسم « انتيباتريس » نسبة الى « انتيباتر » والد « هيرود » .

وتقع أرسوف وسط مناطق شديدة الخصب ، الى جانب ماتجود به عليها الغابات والمراعى ، وكان الدوق « جود فروى » العاطر الذكر قد عاث فسادا فى أرجاء هذه المدينة فى السنة الغابرة ، لكنه عجز عن حصارها بحرا لقلّة ما لديه من السفن ، فلما أدرك استحالة النجاح عاد الى قواعده ، دون أن يحقق غرضه .



نشر بلدوين فى الحال قواته حول المكان على شكل دائرة أحاطت به من كل ناحية ، ثم أمر بتشديد برج متحرك من الكتل الخشبية الضخمة ، فلما فرغوا منه أسنده القلعة الى الأسوار بعناية فائقة ، لكن قوة السلم لم تكن كافية لاحتمال ثقل ذلك العدد الكبير من الناس الذين اعتلوه ، فهوى الى الأرض حطاما ، وأصيب فى هذا الحادث حوالى مائة من رجالنا كانت اصابتهم خطيرة .

كلذك وقعت طائفة من رجالنا فى يد العدو ، فصلبهم أمام أعين رفاقهم ورفعهم على المشانق ، فأسخط هذا المشهد قلوب الصليبيين وأترعها بالغيط الشديد واستورى غضبهم ، فكروا على الخصم كرة ضاربة ، وضيقوا عليه الخناق ، وحاصروه هو وأهل المدينة حصارا بليغا حتى بدا العدو وأهل البلد وكأنما قد فقدوا كل قدرة عندهم فى الدفاع حتى عن أنفسهم .

وأسند الصليبيون سلالهم الى الأسوار ، وكانوا على أهية الاستيلاء على الأبراج والحصون حين قام أهل البلد - وقد يئسوا

من كل شيء حتى من الحياة ذاتها - وبعثوا من جهتهم وسطاء الى الملك ، حصلوا منه على اذن يخلو لهم - ان هم اسلموه البلد - ان يخرجوا بنسائهم واولادهم ، على أن يخلقوا وراءهم كل أمتهم ، وان ذاك تكون لهم السلامة والعافية ، ويزودون بعهد أمان حتى يبلغوا عسقلان ، ولما تم الاستيلاء على القلعة أقام بها الجيش حامية لحراستها ولم يترث في الزحف على قيسارية لمحاصرتها .

## - ١٥ -

وتقع قيسارية على ساحل البحر ، وكانت تعرف في العصور السالفة ببرج « ستراتون » ، وتقول كتب التاريخ القديمة ان هيرود الكبير زاد في رقعتها ، وجعلها بالمباني الضخمة ، وسماها « بقيصرية » تشرفا بالامبراطور أوجستوس (قيصر) ، ثم جاء الامبراطور الروماني فأمر بأن تكون عاصمة فلسطين الثانية ، وتمتاز المدينة بخصائص عظيمة ، منها كثرة القنوات التي تشقها ، وبساتينها المروية احسن رى ، كما أن لها ميناء ، ونقرأ فيما نقرأ أن هيرود هذا لم يقصر في بذل المال الكثير والجهد الضخم ليبني ثغرا هناك يكون مرسى آمنا للسفن ، لكنه لم يفلح فيما حاوله .

## \* \* \*

ثم زحف الملك بجيشه من هناك وتبعه الأسطول ، مبقيا مسافة لا يتجاوزها من في البحر ومن على اليابسة ، فلما بلغوا غايقتهم حاصروا المدينة ونصبوا آلات الرمي في أماكن استراتيجية ، وحملوا على المكان حملة صدق ، فاستولى الذعر على قلوب الأهالي من جراء المناوشات الجمة التي جرت حول الأبواب ، كما أن الصخور التي راحت الآلات تقذفها بلا انقطاع أوهنت من مقاومة

الأسوار والأبراج ، وهدمت البيوت حتى لم يستطع المحصورون أن يصيبوا دقيقة واحدة من الراحة .

وقد فرغ الصليبيون فى هذه الأثناء من تجهيز آلة ذات ارتفاع عجيب يجعلها فوق جميع الأبراج ، وقد ساعدتهم هذه الآلة على مهاجمة المدينة من غير عناء يلقونه أو ضيق ينزل بهم ، واستمر هذا القتال موصولا مدة قاربت خمسة عشر يوما بين الأهالى وبين جيشنا الذى هاجمهم بكل ما فى طاقته من قوة ، ولكنهم قاوموه مقاومة لم تكن أقل من مقاومتهم اياه ، واستحر القتل فى الجانبين دون انقطاع ، فأدرك الصليبيون بعده أن أهل البلد ليسوا أهلا لهذه الجهود الشاقة لاعتيادهم الفراغ واستنابتهم الى الاسترخاء ازمة طويلة لان معها عودهم ، وتراخت عزائمهم ، كما أنه لم يكن لهم تمرس بفنون الحرب ، ولوحظ عليهم - يوما بعد يوم - ضعف بأسهم عن الصمود بسبب ضجرهم من وطأة القتال ، ومن ثم نبذ رجالنا كل تراخ ، وراحوا يشجعون بعضهم بعضا ، ورفضوا أن ينتظروا حتى يتم نصب الآلة التى يصنعونها ، وتكاتفوا فشنوا هجمة اودعوها غضبا لم يعهد من قبل ، فلما شاهد هذا المنظر المحصورون الموجودون داخل أسوارهم استبد بهم الجزع ويئسوا من كل شىء حتى من الحياة ذاتها ، فلم يعودوا يحاولون حماية أسوارهم ، أو يهتمون فتيلة بوسائل دفاعهم ، فلما لاحظ الصليبيون هذه الحالة أسندوا سلالهم الى الأسوار ، وبادروا الى اعتلاء الحصون ، وسرعان ما استولوا على الأبراج والقلاع ، وأدت جهود الآخرين الحماسية الى رفع المزاليج من الأبواب وفتحوها على مصاريعها ، فانهارت المدينة ودخلها الملك بجنوده عنوة .

حينذاك أخذ الجند المدجج بالسلاح يعيثون فى أرجاء المدينة لا يعرض لهم أحد بردع أو دفع ، واقتحموا الدور التى لم تجد

الأهالى نفعا فيما ظنوه من أنهم واجدون الحماية داخلها ، فتك  
العسكر بكبار رجال الأسر ، ونهبوا شتى الأدوات المنزلية ، وامتدت  
أيديهم فسلبت كل ما رغبوا فيه حتى المساكن ذاتها ، وحكموا السيف  
فى الأهل والحشم ، واستولوا على الحجرات الخاصة ، ولسنا فى  
حاجة للحديث عن مصير من قضى القدر بوضعهم فى طريق قواتنا  
فى الأماكن التى راحوا يختفون فيها فى الشوارع الجانبية ، فكان  
نصيبهم الموت الذى لم يستطيعوا دفعه •

أما الذين قدرت لهم النجاة فقد قتلوا أنفسهم بأيديهم ، إذ  
ابتلعوا القطع الذهبية والجواهر الغالية ، مما حرك جشع الصليبيين  
الى درجة أنهم راحوا ييقرون بطون هؤلاء بحثا عما يكونون قد  
خبأوه من المال فى أمعائهم •

## - ١٦ -

وكان يوجد فى موضع مرتفع بأحد أقسام المدينة بيعة كبيرة ،  
تقول الأخبار انها شيدت على أنقاض معبد كان بديع الصنع ، بناء  
هيرود تعظيما لأوجستوس قيصر ، ففر اليها السكان مؤملين أن  
يجدوا السلامة والأمان بين جدرانها ، اذ هى موضع عبادة ، لكن  
الصليبيين شقوا طريقهم قسرا الى هذه البيعة ، وفتكوا فتكا ذريعا  
باللائذين بها ، فسكوا دماءهم التى صارت بحرا أخذت تخوضه  
أقدام المخربين ، وكان منظر الجثث الجمة المبعثرة هنا وهناك منظرا  
يبعث الفزع فى النفوس •

وكان مما عثروا عليه فى هذه البيعة ذاتها وعاء ذو لون  
اخضر براق على شكل مزهرية ، عرفه الجنوية أنه مصنوع من  
الزمرد فاخذوه عوضا عن مال كثير كان لهم ، فحصلوا بذلك على

تحفة رائعة يحلون بها كنيسهم ، ولازالوا حتى اليوم يعرضون هذه الزهرية كاعجوبة على كل رفيع المقام ، سامى المكانة يعر بمدینتهم ، مؤکدین له أنها مصنوعة من الزمرد الخالص كما يدل على ذلك لونها •

والواقع أنهم قتلوا كل شباب المدينة أنى ثقفهم ، ولم يستثنوا من القتل سوى صغار الصبية والبنات ، وهنا تم ما جاء فى كلام الانبياء (٧) : وسلم للسبى عزه ، وجلاله ليد العدو •

ولما آن للسيف أن يستكن فى غمده ، وتم هلاك الأهالى ، جمع القوم شتى الغنائم فى صعيد واحد ، ونحوا الثلث جانبا جاعليه للجنوية حسبا تم الاتفاق عليه ، وأما الثلثان المتبقيان فكانا من نصيب الملك ورجاله •

ولما كان القليل مما بيد قومنا قد نفذ أثناء الطريق فقد املقوا غاية الاملاق ، وافتقروا أشد الفقر ، أما اليوم ، وقد أصابوا الكثير من الأسلاب والغنائم فقد أترفوا غاية الاتراف بسبب كثرة ما نهبوه •

ثم جلس الملك فى مجلس الحكم وجىء امامه بكل من والى المدينة الذى يلقبونه فى لغتهم بالأمير ، وبالقاضى الذى يناط اليه أمور العدالة ، فمن الملك عليهما بالحياة طمعا فيما يصيبه من قدية ضخمة يقتديان بها ، لكنه أمر بتكبيلهما بالسلاسل وفرض حراسة شديدة عليهما •

وبينما كان الملك مشغولا بما هو فيه جدت أمور استدعته للخروج ، فاضطروا لاختيار رجل اسمه بلدوين - ك ن ا قد جاء مع حملة

جودفروى - ليكون رئيسا لأساقفة المدينة ( قيسارية ) فبادر الملك ، ج  
رهب آخرين الى الرملة بعد أن ترك نفرا من الجند لحراسة البلاد •

## - ١٧ -

وتقع مدينة الرملة فى سهل قريب من البلد التى هى  
« ديوسبوليس » ، ولم أتمكن من معرفة ماذا كانت تسمى هذه المدينة  
قديمًا ، ولكن الرأى الشائع هو أن المكان حديث النشأة ولم يكن  
موجودا فى العصور الأولى ، وتقول الأخبار القديمة انها أسست  
على يد الأمراء العرب الذين جاءوا بعد ( النبى ) (٨) محمد (صلعم)  
وكانت عند أول قدوم الجيش الصليبي الى بلاد الشام مدينة أهلة  
بالمسكان ، يكتنفها سور وأبراج ، وقد توافد الناس اليها فى جموع  
زاحرة فاستقروا بها ، ولكن لم يكن لها وسائل دفاع خارجية أو  
خندق ، فلما انصب عساكر الصليبيين الى تلك الناحية غادرها  
سكانها وفروا عنها الى عسقلان التى كانت تفوقها تحصينا •

وهكذا وجد الصليبيون المدينة قد هجرها أهلها كما قلنا ،  
فكان من الصعب احتلالها كلها مادام سكانها بهذه القلة الشديدة ،  
ومن ثم اكتفوا باقامة حصن ذى أسوار ، وبحفر خندق فى جانب  
منها •

وراجت فى ذلك الوقت شائعة لم تكن بعيدة عن الواقع ، تلك  
هى أن خليفة مصر كان قد أرسل واحدا من كبار قواد جيشه على

---

(٨) استعمل ولیم كلمة أثرتنا احلال ما بين الاقواس مكانها •

رأس مجموعة من العسكر الى ناحية عسقلان ، آمرا إياه كعادته - أن يتقدم من غير إبطاء لقتال هذا الشعب<sup>(٩)</sup> الفقير المتسول الذى اجترأ فدخل أملاكه وعكر صفو هدوئها ، وكان على هذا القائد أحد أمرين : اما أن يستأصل هؤلاء القوم استئصالا تاماً ويقضى عليهم القضاء المبرم بحد السيف ، واما أن يعود بهم الى مصر مصفدين فى الاغلال ، ويقال انه كان فى جيشه أحد عشر ألفا من الفرسان ، وعشرون ألفا من العسكر المشاة •

كانت هذه الشائعة هى التى أجبرت الملك ( بلدوين ) على مغادرة قيسرية على جناح السرعة مخافة أن يعتمد هذا الجيش على كثرة عدده ، فيحاول غزو مملكة بيت المقدس ، مما لابد أن يؤول الى أسوأ الأخطار على صالحتها •

واقام بلدوين فى الرملة ردحا من الوقت قارب الشهر عاد بعده الى يافا ، ان لم يبد أثر للعدو ، فلما كان الشهر الثالث لم تستطع القوات المصرية أن تتراخى أكثر من هذا فى تنفيذ أمر مولاهما ، والواقع أنهم خافوا أن يكون ( الخليفة ) قد غضب لابطائهم هذا الابطاء الطويل فى تنفيذ الأمر الذى خرجوا لتنفيذه ، فتشجعوا واستعدوا بقواتهم ، وعبأوا صفوفهم للقتال ، وأغاروا غارة خاطفة على أرضنا مهاجمين لها •

قلما علم الملك بلدوين بما فعلوا أمر باستدعاء قواته ، وكانت باللغة القلة ، لأن صغر مساحة ما تحت يده من البلاد وقف عقبة فى طريق تكوين جيش كبير العدد ، لكن ذلك لم يمنعه من أن يحشد حول اللد والرملة أكبر جند أمكنه جمعهم ، فبلغوا مائتين وستين فارسا وتسعمائة من العسكر المشاة •

---

(٩) يعنى بذلك الشعب الصليبي الوافد من أوروبا •

ولما اتضح أن العدو أخذ قى الاقتراب أمر الملك بتقسيم قواته الى ست فرق خرج بها لمقابلة الأعداء، وجعل أمامهم راهبا تقيا حاملا فى يده يوقار صليب المسيح ، ولما أتم الصليبيون ترتيب صفوفهم على هذه الصورة نظروا الى صفوف المارقين ورفعوا وجوههم الى السماء يرجونها العون ليحزروا النصر ، ثم اندفعوا فى هجمة نكراء لم ترهيبهم كثرة خصومهم ، وراحوا يقاتلونهم بشدة معملين فيهم سيوفهم ، احساسا منهم بأنهم يقاتلون من أجل الحياة ذاتها .

وقاومهم المصريون بكل ما لديهم من طاقة باذلين الجهد كى ينتهى هجوم خصومهم بالفشل ، لأنهم كانوا على يقين تام من أنهم ان لم يعودوا منتصرين حاق الخطر بنسائهم وأولادهم وما ملكت أيديهم مما تركوه بمصر .

وحدث أن التحمت مقدمة جيش الأعداء بفريق من جنودنا ، واذ كانت هذه المقدمة أكثر عددا منا فانها سرعان ما بثت الفوضى فى صفوفنا فأجبرتنا على الفرار ، ثم راحت تتعقبنا تعقبا شديدا ، واوشكت على القضاء على رجالنا واستئصال شأفتنا .

أما بقية كتائبنا فقد قاومت أشد المقاومة كما استبد بها الغضب الجارف ، فضيقت الخناق على العدو وأعملت فيه مذبة فظيعة يعجز اللسان عن وصفها ، أما الملك العظيم الشأن فقد أخذ يشجع بالكلمة تارة وبالفعل تارة أخرى هذه الكتيبة مرة وتلك الكتيبة مرة أخرى ، فاذا رأى احداها قد ضاق عليها الخناق وأنها موشكة على الانسحاب أمدها بما تحتاجه ممن معه فتسترد بأسها .

وانقضى وقت طويل لم تتضح فيه نتيجة المعركة ، ثم وابت

السماء الصليبيين النصر التام فدارت الدائرة على العدو وهلك قائدهم إذ اختارطه السيف فمات وقد استبسل استبسالاً رائعاً .

وتمزقت صفوف العدو ، واندحرت كتائب من كتائبه حتى آخر رجل الا من فر منهم الى النواحي القاصية ، فلما رأى الملك ذلك نهى أن تمتد يد أحد من رجاله الى الغنائم والا كان الموت تصيبه ، ثم زاد فأمرهم باقتفاء العدو فى هروبه ، وألا يضعوا السيف ، وحذرهم أن تأخذهم رحمة أو شفقة بأحد منهم ، بل يقتلونهم أنى ثقفوهم ، وضرب لهم المثل بنفسه إذ راح يطارد بعض فلول فرسانهم ومشاتهم الخفاف حتى بلغ عسقلان على بعد ثمانية أميال ، ولم يوقفه عن الذبح المروع الا دخول الليل ، وإذ ذاك نفخ الملك فى البوق مستدعياً رجاله ، فعادوا الى ساحة المعركة حيث أخذ يوزع الغنائم عليهم تبعا لقانون الحرب ، وقضى ليلته هذه فى الساحة منصورا .

وتقول الرواية أن قرابة خمسة آلاف من رجال العدو ذبحوا ذبح الشياه فى ذلك الموضع ، ولما أحصى رجالنا كان المفقودون منهم سبعين فارسا ، وأكثر منهم من الجند المشاة ، على أن الخسارة الحقيقية لم تعرف .

## - ١٨ -

أما القوات المصرية التى كانت قد أبادت الصليبيين فى معركة الأمس فقد أوغلت فى مطاردة الهاربين حتى بلغت مدينة يافا ، ووقفت أمامها معلنة الى الأهالى فى صوت جهورى أن قد هلك الملك وكذلك الجيش الصليبي فى ساحة القتال ، وتأكيدا على صدق ما قالوا فقد أبرزوا لهم مايعرفونه من أسلحة اخوانهم وأتباعهم ، وكانت الملكة هى الأخرى فى المدينة فلما شاهدت مع الأهالى ذلك كله لم يخامرها شك فى صدق ماسمعته وسمعوه ، فانخرطوا جميعا فى البكاء .

وبعد أن تشاوروا مع كبارهم وأهل الخبرة وبعد النظر انتهوا الى أنه لا مناص لهم من سلوك طريق واحد : ألا وهو ارسال كتاب الى تانكريد أمير أنطاكية يستصرخونه أن يهب سريعا لنجدة المملكة فى محنتها بعد أن لم يعد لها كبير يدبر أمورها ، وأخبروه أنه أصبح الآن - بعد الله - أمل الشعب المؤمن .

فى هذه الأثناء كان الملك قد أمضى الليلة فى ساحة القتال ، لكن ما كاد النهار ينبلج حتى أيقظ قواته المنتصرة وهبوا قاصدين يافا ، وبينما هم فى طريقهم اذا بهم يقابلون المارقين الذين بثت قصتهم الكيدية الخوف والفزع فى قلوب أهل يافا ، فلما طالعت هذه القوات الصليبيين ظنتها فى بادئ الأمر اخوانهم اعتقادا منهم بهلاك جيشنا عن آخره فى يومه الغابر ، ومن ثم تقدموا وكلهم ثقة وقد أوشكوا على الانضمام الى قواتنا ، وحينذاك صاح الملك فى أتباعه مشجعا اياهم على مهاجمتهم ، جاعلا من نفسه القدوة لهم ، فتبعه نفر من فرسانه بأسرع ما يمكن ، واستبسلوا فى قتالهم حفاظا على حياتهم ، وهجموا على خصوم ملتهم ، وكان قتال اليأس فى الأحياء المجاورة استعملت فيه السيوف ، وأحيط بالعدو إحاطة سدت عليه مسالك النجاة ، فهلك الكثيرون من رجاله ، أما البقية الذين أفرعهم الخوف من الموت فقد ولوا الأدبار ، فشكر الصليبيون الرب ثم تابعوا زحفهم نحو يافا ونفوسهم تقيض بالفرحة ، وامتلات أيديهم بغنائم العدو وأسلابه .

فى هذه الأثناء كانت قلوب أهل يافا قد استبد بها الجزع الكبير من اخبار الكارثة ، فلما طالعوا الجيش العائد كانوا كمن استيقظ من سبات عميق ، قهوا الى الأبواب يفتحونها لهم ، وعيونهم مغرورقة بدموع الفرح ، واندفعوا نحوهم مرحبين بهم ، وأفضوا اليهم بالنبا الأليم الذى سمعوه ، ومدى الحزن العميق الذى استولى

عليهم ، ثم دخل الجميع المدينة ، وأمضوا يومهم فى احتفال ومسرة ،  
وراح كل منهم يقص على صاحبه خبر الرحمة العجيبة التى منحهم  
أيّاها السيد .

ولما علم الملك أن الملكة ومستشاريها قد دفعهم خوف اليأسين  
للكاتبة تانكريد بعث اليه فى لحظته رسولا على جناح السرعة محملا  
بالكتب التى تعلن اليه ما أحرزه من النجاح الباهر ، وكان الأمير  
الجليل ( تانكريد ) شديد الحزن لما سمعه من خبر النكبة التى ألمت  
بالمملكة وهو على وشك الخروج ، لكن نبأ انتصار الملك أثلج صدره  
فراح يشكر الخالق شكرا جزيلا .

## - ١٩ -

فى هذه الأثناء وصل الى أنطاكية النبلاء الذين كانوا قد فقدوا  
جزءا كبيرا من عسكرهم فى أراضى آسيا الصغرى من جراء النكبة  
التي ألمت بهم والتي أشرنا اليها من قبل ، ولما أخذوا فى السير  
سلبوا من العدو مدينة « طرطوس » وأسلموها الى كونت تولوز ، ثم  
أغذوا الزحف الى القدس ، واذ خاف الملك أن يعوقهم عائق عند نهر  
الكلب فقد نهض بقواته لمقابلتهم ، فاستولى بأدى ذى بدء على الممر ،  
ولم يكن العمل الذى قام به من أجلهم بسيطا لما ينطوى عليه الاستيلاء  
على أربع مدن عظيمة معادية مزبحة بالسكان من صعوبة بالغة ،  
وهذه المدن هى عكا وصور وصيدا وببيروت ، وكان لابد له من المرور  
بها قبل وصوله الى غايته .

فلما تغلب الملك وأصحابه على مصاعب الممر وجد هناك الرجال  
الفضلاء المذكورين من قبل ، وهم وليم كونت بواتو ، ودوق أكويتين ،  
وستيفن كونت بلوا ، وستيفن كونت برجندى ، وجود فروى كونت

فندوم ، وهيج اللوزينيائي أخو ريموند كونت تولوز ، وكثيرون  
غيرهم من عليّة القوم الذين كانوا جميعا فى غبطة لأمرين ، أما أولهما  
فلأنهم وجدوا البحر - الذى ظلوا يمشونه - غير ذى موضوع ، وأما  
ثانيهما فلوجود الملك هناك ، حيث هب للقائهم فتعانقوا وراحوا  
يتبادلون فيما بينهم التهاني الصادقة وقبيلات 'السلام' ، وأثلج  
صدورهم ماجرى بينهم من الأحاديث العذبة ، حتى كان يخيّل لرائيهم  
أن قد طمست من أذهانهم كل صور المشاق التى قاسوها والخسائر  
التي تكبدوها ، والحق أنهم ظهروا وكأنهم لم يصادفوا طوال طريقهم  
أى ضرر ، وحباهم الملك بكل ضروب الرحمة التى تمليها شرائع  
الانسانية والمحبة ، ثم قفل بهم الى بيت المقدس .

ولما كان يوم عيد الفصح قد حل فقد أمضوا هذا اليوم بالمدينة  
المقدسة واحتفوا فيها به ، ثم انطلقوا الى يافا قاصدين الرجوع  
الى ديارهم ، ولما كان كونت بواتو قد نصبت موارده تماما ونفذ كل  
ما معه فانه استقل احدى السفن وأبحر بها ، فكانت رحلة موفقة  
أبلغته وطنه ، أما ستيفن كونت بلوا وسميه كونت برجندي اللذان  
أبحرا أيضا من ذلك الميناء فقد صادقا مشقة بالغة فى البحر استمرت  
بضعة أيام ، وأرغمتها الرياح المعاكسة على العودة الى يافا .

— ٢٠ —

كان جميع أولئك الحجاج الذين تكلمنا عنهم لا يزالون مقيمين  
فى الشرق حين انضم أهل عسقلان بعساكرهم الى المصريين الذين  
نجوا من المعركة التى وصفناها من قبل ، وراحوا يهاجمون معا  
أملاكنا فى ناحية الد ، وسورونا ، والرملة ، ويقال ان مقاتليهم كانوا  
يناهزون العشرين ألفا ، فلما وصل هذا النذير الى الملك نسى حذره  
المعتاد ولم يتريث حتى تتجمع باقى القوات القادمة من المدن المجاورة ،

كما أنه لم يستدع النبلاء الذين كانوا معه في المدينة ، ولكنه اعتمد على قوته الذاتية وحدها ، وركب جواده ، واندفع متهورا عجلا غير مستصحب معه الا ما يقرب من مائتي فارس ، ولقد أحس وجوه المدينة أن العار لا يد لاحقهم ان ظلوا - في هذا الظرف الطارئ الذي هم فيه - مقيمين بلا حركة دون أن يشاطروا اخوانهم مايقومون به ، ومن ثم حصلوا على الجياد من أصدقائهم وأقاربهم ، وتبعوا مولاهم الملك .

على أن بلدوين ( الملك ) سبق الآخرين وخرج مسرعا دون أن يأخذ للأمر أهبطه ، لكنه حين أبصر كتائب العدو تعجب من كثرتها وبدأ يأسى ويندم على تعجله في الخروج ، وأدرك في لحظته صحة المثل القائل « في العجلة الندامة » ودقة انطباقه عليه ، وندم أشد الندم لاندفاعه الطائش ، ولكنه كان قد أصبح أدنى مايكون الى خصمه وبصورة لا تسمح له بالارتداد خوف العار أو خشية الموت .

غير أن الألباء من أهل الخبرة الطويلة في استعمال السلاح ممن كانوا في صفوف العدو لاحظوا أن القوات الصليبية كانت تتقدم على غير عاداتها وتسير بلا مراعاة للأصول الحربية ، فلم يكن فيها ماجرت العادة به من وجود المشاة والخيالة ، فبث هذا المنظر في قلوب الأعداء أملا كبيرا في النصر ، ومن ثم تجرؤوا فرتبوا كتائبهم للقتال ، وشنوا هجوما عاما على قوات الملك ، وكان الهجوم هذه المرة أشد عنفا مما كانت تجرى به عاداتهم ، لأنهم رأوا أن الصليبيين من ناحيتهم قد تراخوا في ترتيبهم الحربي المعتاد ، فاستولى الفزع الأكثر على عسكرينا من ضخامة أعداد العدو وهجمتهم العاتية ، فلم تطق قواتنا احتمال وطأة المعركة وتهافتت على الفرار بعد أن فقدت رجالا كثيرين .

لكن الذين سقطوا فى هذه المعركة سقطوا بعد ان احرزوا انتصارا مخضبا بالدم على عدوهم، لأنهم حاربوا بشجاعة حتى الرمق الأخير ، وبعد أن ذبحوا من ذبحوا فى معركة تشابكوا فيها بالأيدي ، والواقع أنهم اقتحموا صفوف العدو وفرقوا شمله ، وكانوا على وشك استئصال شأفته حين استعاد خصومهم شجاعتهم الضائعة ، وضموا شتات عسكرهم حين تدبروا قلة جمعنا وكثرة جندهم ، فراح بعضهم يهتف بالبعض مشجعا اياه ، وعاد القتال مرة ثانية بهجمة ضارية أشد الضراوة ألزمت الصليبيين الفرار فهربوا الى بلدة الرملة مؤملين أن يجدوا بها الأمن والسلامة .

أما ستيفن ( كونت شارترز ) وسميه ستيفن ( كونت برجندي ) فقد سقطا فى هذا الاشتباك مع غيرهم من النبلاء الذين لاتعى الذاكرة أسماءهم ، ولا ندرى عددهم ، ونحسب أن مما نهنا عليه أن تكون خاتمة ستيفن كونت شارترز على هذه الصورة التى لقيها ، وهو الشخصية البارزة بين قومه لنسبه الكريم ومآثره الباهرة الجليلة ، ومن الواضح أن الرب عامله برحمته الواسعة ، فمن عليه بهذه الخاتمة الكريمة وعاد الى سلوكه الذى شأنه ذات مرة ولطخ بالعار اسمه حين هرب من المعسكر أمام أنطاكية ، ومادام قد استعاد طيب الأحدوثة عنه بهذه الخاتمة الباهرة فلا مجال أبدا لأن تظل خطيئته السالفة عالقة به ، واننا لنؤمن ايماننا حقا أن أولئك الذين سقطوا من المؤمنين وهم يحاربون الى جانب حملة الصليب من أجل تمجيد اسم المسيح حريون بأن نمحو من سجلهم كل ما كانوا يعيرون به من نقيصة الاخلال بالواجب ، وأنهم لأهل أن تجب كل خطاياهم ، وتغفر كل ذنوبهم أيا كانت هذه الخطايا وتلك الذنوب .

## - ٢١ -

حينما رأى الملك أنه قد أحيط به من كل جانب من قبل عسكر العدو انسحب هو ونفر معه الى القلعة تجنباً لخطر الموت الماثل أمامهم ولم يكن لهم من مكان يلجأون اليه سوى تلك القلعة ، ومع ذلك فإنه لم يكن مطمئناً تمام الاطمئنان الى قوة دفاع المكان ، ولذلك ظل يقظان طول ليلته يرمضه الجزع على حياته والخوف على سلامته ، لكن حدث أن ذلك الشيخ العربى النبيل - الذى أحسن الملك قبل قليل الى زوجته كما أشرنا (١٠) - غادر معسكر العدو تحت جنح الليل البهيم دون أن يصحبه أحد ووقف أمام القلعة ، وقد امتلأت نفسه بذكرى الرعاية الكريمة التى كان الملك قد أحاط بها زوجته ، وكره الشيخ أن يجحد الجميل فدنا من الحراس الواقفين على الأسوار وقال لهم بصوت أشبه بالهمس : « ان عندى رسالة يجب أن أبلغها للملك فى سرية تامة ، فامضوا بى الى حضرته فى الحال ، لأن الموضوع على جانب كبير من الأهمية » \*

وحمل الحراس ما سمعوه الى الملك الذى أصغى لما يقولون ، ثم أمر باحضار الأمير أمامه ، فلما دخل كشف عن ذاته ، وأنه ذاكر للملك الفضل العظيم الذى أسبغه على امرأته من قبل ، وبين له أن للملك جميلاً فى عنقه لا ينقضى الا بخدمة تشابهه ، ثم كشف له عن خطط العدو ، وألح عليه بوجوب مغادرة القلعة فى الحال ، لأن المارقين قد استعدوا لمحاصرة المكان عند اطلالة الفجر الأولى ، ورتبوا قتل جميع الأسرى الذين يأخذونهم ، ثم راح يغرى الملك بمصاحبتة فى التو واللحظة ، وقطع على نفسه العهد أن يصحبه بنفسه بعون الله من غير عائق يعوقه الى موضع آمن لأنه يعرف هذا

---

(١٠) راجع ما سبق ص ٢١١ - ٢١٢ من هذا الجزء من الترجمة العربية \*

الاقليم خير معرفة ، فرضـخ بلدوين بعد لأى وقبل أن يفر مع هذا الشيخ ، مستصحباً معه عددا قليلا جدا من أتباعه ، مخافة أن تثير كثرتهم شكوك العدو ، وتسلبوا فى صحبة هذا الشيخ الذى مضى بهم الى ناحية جبلية ، فتأكد عند الملك أن ذلك طاعته الصادقة واخلاصه العظيم ، وراح يتحدث بها كلما سئحت له الفرصة ، ثم تركه الشيخ وعاد الى جيش العدو .



أما المارقون فقد شجعهم النصر القريب الذى أحرزوه ، ومن ثم أحاطوا بالقلعة من كل جانب وكروا كرة ضارية على من اعتصم بها من الآبقين ، واستولوا على الموضع قسرا ، وفعلوا بالأسرى ما أرادوا ففتكوا ببعضهم ، وكبلوا البعض الآخر بالقيود ، فارضين عليهم رقاً لا فكاك لهم منه أبدا .

ولم يكن فى تاريخ دوليات المملكة حتى هذه اللحظة مجزرة كهذه المجزرة المروعة ، هلك فيها رجال نبلاء شجعان كهؤلاء الرجال ، فتضعضعت روح المملكة المعنوية ، وفارقت الجميع شجاعتهم ، وتفتطرت قلوب العقلاء منهم ، وسقطوا فى هوة عميقة من اليأس حتى كادوا أن يغادروا المملكة لولا أن تداركتهم رحمة انصبت عليهم من فوقهم .

لايستطيع أحد فى الواقع أن ينكر قلة عدد أناسنا ، كما لم يقدر أن جاءوا من الأقطار الواقعة فيما وراء البحر أن يصلوا كلهم سالمين الى الشرق خوفا من مدن العدو الساحلية الكثيرة المتناثرة على يمينهم ويسارهم ، فلقد ذكرنا أنه لم يكن فى أيدي الصليبيين من جميع المدن الساحلية — بدءا من لاذقية الشام وانتهاء بالمدن الواقعة على حدود مصر — سوى مدينتين فقط هما يافا وقيصرية وقد تملكوهما منذ أمد قريب ، مما ترتب عليه أنه ما كاد الحجاج

يفرغون من أداء حجبهم حتى كروا على أعقابهم الى بلادهم ، بعد أن شاهدوا ما عليه أحوال المملكة من ضعف ويأس ، وكان رجوعهم دفعا لما قد يحق بهم من نكبات كالتى حاقت بغيرهم .

## - ٢٢ -

لقد رويانا حالا كيف فر الملك ( بلدوين الأول ) الى التلال وقد فقد أصحابه ، ويرجع الفضل فى خلاصه مما هو فيه الى جواده السريع واسترشاده بالشريف العربى ، بعد أن ظل طول ليلته مستخفيا فى الأماكن الموحشة ، وكان ذهنه فى أثناء ذلك نهبا للفرع الطاغى ، فلما تبلج الصباح انطلق برققة اثنين لقيهما بمحض الصدفة ، وسلك دروبا متعرجة وسط اقليم يغشاه العدو من كل ناحية ، فأوصله المسير سالما فى النهاية الى مدينة « أرسوف » ، ففرح ساكنوها المؤمنون ببقائه ، وبعد أن أكل حتى شبع ، وشرب حتى ارتوى ، عاد جم النشاط ، لأنه كاد أن يغمى عليه من شدة الجوع والظما المهلك قبل وصوله الى هذا المكان ، والحق أنه كان يخيل للمرء أن العناية الالهية هى التى هيأت له الظروف الخاصة التى أحاطت بقدومه ، لأن الجانب الأكبر من عسكر العدو كان قد رحل قبل مجيئه بساعة واحدة ، بعد أن ظل العدو يوما بأكمله يغير على البوابة ، ولو قدر لهم أن يصادقوا الملك وهو قريب من المدينة لكان من العسير عليه أن يقلت من أيديهم .

وحدث فى الوقت ذاته أن ترامت الى الخارج أخبار شتى حول مصير الملك ، ذلك أن النفر القليل الذين فروا من المعركة وهربوا الى بيت المقدس أعلنوا أن الملك كان من بين القتلى .

ولم يكد أسقف اللد يسمع بما جرى على الصليبيين – الذين أسروا فى قلعة الرملة – من قتل وأسر حتى غادر كنيسته هربا الى يافا ، ولما سئل عما وراءه من خبر الملك صرح أنه لا يعلم عنه شيئا

وأن أكد سوء مصير كل من لجأوا الى القلعة ، وأن الأمر الذى لا مشاحة فيه هو أنه شاهدتهم يعينى رأسه وهم يذبحون ، ولم يتردد فى الاعتراف بأنه هرب سرا طلبا لسلامة روحه .

كان الحزن عاما ، فما كنت ترى ناحية من البلد جاءها الخبر الا وقد عمها الأسى ، وتعالى البكاء فيها ، وران الياس على النفوس ، فما من أحد الا وقد فقد الأمل فى الحياة ، وتمنى لو أسرع الموت اليه حتى لا يرى نكبة قومه ، ويشهد خراب المملكة ، لكن فى هذه الأزمة الطاحنة وقد استسلمت المملكة للحزن والنحيب ، اذا بالملك ( بلدوين ) يخرج من أرسوف كأنه نجمة الفجر تتلألأ بين دياجير الظلام ، ويستقل احدى السفن السريعة التى تمضى به الى يافا فيدخلها ، فقابلت يافا حضوره بالغبطة ، ومحا ظهوره الذى جاء على غير انتظار كل الظلال القاتمة ، وأطلع نهارا مشرقا ، وبدأت جميع الشرور التى اكتنفت طريق الصليبيين قد تلاشت ، وسرعان ما طبق الخبر السعيد الثانى كافة أرجاء المملكة فازدهر الأمل فى نفوس كانت قد طارت شعاعا حين سماعها الخبر الكاذب الأول .

وفى هذه الأثناء كان « هيج دى » بنت أومير « صاحب طبرية الذى أسرع لانقاذ الملك استجابة لدعاء الناس قد وصل الى أرسوف ومعه ثمانون فارسا ، فما كاد بلدوين يعلم بذلك حتى هب لساعته الى لقائه ، مستصحباً معه كل العسكر الذين أمكنه العثور عليهم فى يافا ، واذا كان العدو يعربد فى كل ناحية لا يخشى أحدا ، فقد خاف الملك منه أن ينصب الكمائن « لهيج » وصحبه ، أو يعيقهم جهرا .

ولما التقى القائدان ( الصليبيان ) عانق كل منهما الآخر وقلبه يزغرد بالسعادة ، وضم كلاهما عسكره الى عسكر رفيقه وعادوا الى يافا حيث استقبلهم أهلها بمظاهر الفرح ، وسرعان ما أنفذ

الملك الرسل يلتمسون النجدة من سكان المناطق الجبلية الذين بأدروا فجمعوا من وصل الى أرسوف من العسكر فى مدى أيام قلائل ، ولكنهم اضطروا لسلوك طريق ملتو ، لأن العدو كان مسيطرا تمام السيطرة على المناطق الداخلية ، غير أنهم صادفوا فى خروجهم من أرسوف « أشد الصعاب بل وأفدح الأخطار التى تهدد حياتهم ، اذ قابلهم العدو فى الطريق ، ولكنهم استطاعوا بعون الله أن يصلوا فى النهاية الى يافا ، وكان عدد الذين بلغوها زهاء تسعين ، وفيهم فرسان من رتب مختلفة •

ترتب على وصول هذه الامدادات أن انبعث الأمل من جديد فى قواد الملك ، لأنه كان يتلطف على الانتقام من العدو والثار منه جزاء لما أنزله به من المصائب ، لذلك رتب فصائل خيالاته ورفاقه من المشاة للقتال ، وخرج يريد محاربة الخصم غير عابىء بما تحت يد هذا الخصم من جند كثير ، ذلك لأن اعتماده كان على معونة الرب •

كان عسكر العدو قريبا منه كل القرب ، لا يفصلهم عنه سوى ثلاثة أميال فقط ، وكانوا قد انهمكوا بنسج أكسية من الحبال وصنع السلالم وشتى أنواع الآلات الحربية من المواد التى انتقوها لهذا العمل ، ودبروا - وكان ذلك يبدو يسيرا - أن يدمروا المدينة المعادية لهم ويلقوا القبض على الملك وجميع من بها ويأخذوهم كأخط العبيد ، لكن بينما كانوا منصرفين الى ما هم فيه من العمل اذا بالملك يطلع عليهم بجيشه ، فأدركوا خطأ ظنهم فى هزيمة خصمهم اذ رأوه يأخذ المبادرة بيده ويتحداهم للقتال ، فهبوا سراعا الى سلاحهم يحملونه ، وتأهبوا لمنازلتهم بعد أن كانوا يظنون أن قد تلاشى أمرهم ، ولكن الصليبيين كانوا قد أجمعوا العزم على رد الصاع صاعين ، وأن يضاعفوا لهم العذاب الذى أنزلوه بهم • فكروا عليهم كرة مسعورة كأنهم اللبوة الغاضبة قد انتزع منها اشبالها ، وملاهم هذا الهجوم

حماسة اسبغتها عليهم العناية الالهية فحاربوا بكل طاقاتهم من أجل نسلاتهم وأولادهم وأرض أسلافهم وذودا عن حريتهم ، فشستتوا بسيوفهم شمل العدو ، وقتلوا طائفة كبيرة من رجاله وحملوا بقيتهم على التماس الحياة فى الفرار بصورة مزرية ، غير أن الصليبيين رأوا أن ليس من العقل - لقلّة عددهم - أن يستمروا فى مظاربتهم الى مسافات طويلة فانصرفوا عن ذلك ومالوا على معسكر خصومهم فجمعوا أعدادا كبيرة من الحمير والجمال والخيم فكان ذلك كله غنيمة باردة لهم ، هذا الى جانب ما حملوه من شتى صنوف الطعام ومواد المعيشة ، وهكذا عاد الملك منصورا الى يافا ، فتعالى هتاف الناس فرحا به ، وأقامت الملكة ما يقرب من سبعة أشهر فى هدوء لا يعكر صفاءه معكر .

## - ٢٣ -

بينما كانت هذه الأحداث المختلفة تجرى فى الملكة قام تانكريد العظيم بجمع فرسانه ومشاته وأحدقوا بمدينة افامية الرائعة عاصمة إقليم سورية الوسطى، واستمروا يحاصرونها فترة من الوقت حصارا بذلوا فيه كل ما أمكنهم من جهد شأن السادة العظام ، فلم وتوسل تانكريد بكل وسيلة جرت بها العادة فى تدمير القلاع ، فلم يترك مكيدة تؤدى الى الاضرار بالمحاصرين ضررا بليغا الا وعمد اليها ، حتى كتب له النصر أخيرا فاستولى على المدينة برحمة من الله ، وبفضل حماسته التى لا يتطرق اليها الكلال ، وبمجهوداته العظيمة ، وقد أدى هذا الاستيلاء الى اتساع حدود امارته اتساعا كبيرا .

ويقول الخبر، انه تابع زحفه فى نفس اليوم الى اللاذقية التى كانت فى يد الاغريق فاستولى عليها هى الأخرى أيضا وضمها الى

سلطانه ، وقد تم له ذلك وفق الشروط الأولى التى أبرمها مع أهل  
اللاذقية ، وهى شروط نصت على أن يسلموه بلدهم من غير معارضة  
فى نفس اليوم الذى يتمكن فيه من فتح أفامية .

ويقال ان مؤسس هاتين المدينتين الشهيرتين هو « أنتيوكس بن  
سلوقس » الذى سماهما باسمى ابنتيه « أفاما » « ولازكيا » . وإذا  
كانت هناك لاذقية أخرى معدودة بين مدن آسيا الصغرى السبعة فإننا  
نتكلم الآن عن مدينة لاذقية الشام التى يشير اليها القديس يوحنا فى  
سفر الرؤيا (١١) اذ يتول : « والذى تراه كتب فى كتاب وأرسل الى  
السبع الكنائس ( التى فى آسيا ) الى افسس والى سميرنا ، والى  
برخامس . والى ثياتيرا ، والى ساردس ، والى فيلادلفيا والى  
لاذقية » .

أما اللاذقية الأخرى فقد جعلها الامبراطور « سافيروس »  
مستعمرة حسبما جاء فى تاريخ « أولبيان » الذى يتكلم عنها فى  
موجزه فى فصل جعل عنوانه « احصائيات » فيقول « توجد أيضا  
مستعمرة اللاذقية فى سورية وهى التى منحها الامبراطور  
« سافيروس » الحقوق الايطالية مكافأة لها على ما أدته من الخدمات  
اثناء الحرب الأهلية » .

وهكذا استطاع تانكريد – بمعونة الرب – أن ينجز فى حملة  
واحدة عملا كان انجازه يتطلب أياما طويلة ، وكسب فى مرة واحدة  
مدينتين تتبع كلا منهما مناطق شاسعة ، ذات قرى حصينة ، وحقول  
واسعة ، والحق أن تانكريد كان رجلا يحب الله ، وكان مشهورا

---

(١١) رؤيا يوحنا ١ : ١١ .

بايمانه ، مذكورا بأعماله البطولية ومحبوبيا من الناس بسبب خدماته  
الجلى ، ولا جدال فى أن التوفيق كان حليفه فى كل أمر نهض به .

- ٢٤ -

فى هذه الآونة كان بلدوين كونت الرها - صاحب الخصال  
الكريمة والذى خلف الملك فى كونتية الرها - أقول كان بلدوين هذا  
يدير دفة الأمور - فى الناحية التى كانت من نصيبه - إدارة بذل فيها  
بالغ النشاط ولازمه التوفيق العظيم ، مما حمل من حوله من الأعداء  
على خشية جانبه والخوف من سطوته ، ولما كان أعزب لا ولد له ، فقد  
تزوج « مورفيا » ابنة جبريل دوق ملطية الذى أشرنا إليه من قبل ،  
فكان مهرها قدرا كبيرا من المال كان بلدوين فى مسيس الحاجة إليه .

وكان جبريل أرمنى المولى واللغة والعادات ، ولكنه يونانى  
المذهب ، وكان الهدوء مستتباً فى أملاك بلدوين ، والسلام يرفرف  
عليها بجناحيه حين قدم لزيارته قريب له من نبلاء قومنا من إقليم  
« جانتيني » واسمه « جوسلين دى كورتناى » ، وأذ كان فقيرا لا يملك  
أرضا ولا مالا فقد أقطعه بلدوين اقطاعا شاسعا حتى لا تدفعه الحاجة  
لأن يحس بالغربة فيستجدى الناس ما يمسك عليه حياته .

كان الاقطاع الذى منحه ( كونت الرها ) له يتضمن كل ذلك  
القسم من أملاك بلدوين الخاصة المجاورة لنهر الفرات العظيم ،  
ويضم مدينتى « كوريتيام » « وتولوبا » ، كما يشمل قلاع تل باشر  
وعينتاب وراوندال وغير ذلك من القلاع المنيعات التحصين .  
أما الكونت فقد احتفظ لنفسه بالإقليم الواقع فيما وراء الفرات لأنه  
أقرب ما يكون الى أرض العدو ، كذلك استبقى مدينة واحدة فقط من  
المدن الداخلية اسمها « سميساط » .

\*\*\*

كان جوسلين رجلا أوتي القدر الكبير من المعرفة والحكمة ، شديد التبصر والتدقيق فى كل ما يقدم عليه ، فأظهر الحزم البالغ فى تصريف شئونه الخاصة وتدبير أموره ، وكان معيلا لأسرته ، محسنا تجاه أهل بيته ، يسخو فى غير اسراف اذا دعت الظروف الى السخاء ، فان لم يكن الأمر كذلك أمسك بيده فى اقتصاد ، كما كان شديد الحرص على مايملك ، وسطا فى مأكله ، لا يحفل كثيرا بملبسه ولا بزينة نفسه . ولقد بذل ( جوسلين دى كورتناى ) هذا جهدا صادقا فى الحفاظ على ذلك القسم من المقاطعة التى تفضل الكونت الكبير فاقطعه اياها ، حتى صارت تحت يده أشياء كثيرة بوفرة زائدة .

## - ٢٥ -

عاد فى هذه الأثناء الى أنطاكية بوهيموند أميرها العظيم ، الحميد الصفات ، وكانت عودته اليها بعد أربع سنوات قضاهما أسيرا فى يد العدو ، ثم لاحظته العناية الالهية فأطلق سراحه بعد أن اقتدى نفسه (١٢) .

ولقى بوهيموند لقاء كله غبطة وفرح من جانب البطريرك ورجال الدين ومن الناس قاطبة ، ذلك لأن اماره ( أنطاكية ) والمملكة كانتا تتطلعان فى شوق منذ أمد طويل لعودته هذه ، وكان شكره عظيما لقريبه تانكريد حين علم بمدى اخلاصه وبعد نظره فى ادارة شئون الامارة التى عهد القوم اليه برعايتها اثناء غياب صاحبها ، وكذلك

---

(١٢) لقد دفع الفدية عنه كل من كوخ فاسيل الارمنى ، وبلدوين دى بورج ، وبرنارد أسقف أنطاكية ، ولم يشارك فيها ابن اخته تانكريد ،  
 انظر R.B. Jewdale, حسبما أشارت الترجمة الانجليزية ،

٢٤١/٢ .

لما عرفه ( بوهيموند ) عن الصورة التى أدار بها ( تانكريد ) أملاكه فى أنطاكية اذ مد حدودها باستيلائه على مدينتين من أعظم المدن (١٣) .

وأراد بوهيموند اظهار تقديره لما أداه تانكريد من الخدمات ومجازاته عليها أحسن الجزاء ، فأقطعه - وورثته - الجزء الأكبر من ذلك الاقليم يتوارثونه خلفا عن سلف الى الأبد ، ثم لم يلبث الأمير بوهيموند أن عهد اليه بالامارة ، كما سنرى ذلك فى الصفحات التالية (١٤) .

\* \* \*

فى خلال هذا الوقت دأب « أرنولف » شماس بيت المقدس الأكبر الذى تعددت الاشارة اليه - كالعهد به - على بذر الشقاق والبغضاء بين الملك وبين البطررك « دامبيرت » سعيًا منه فى إثارة النزاع بينهما ، وترتب على ذلك أن أطلت من جديد العدواة القديمة التى كانت بينهما (\*) وكانت الظواهر توحى بأنها قد ولت وخمدت .

ونجحت محاولات هذا الفاجر ( أرنولف ) فى إثارة غضب رجال الدين ضد رجل الرب البطررك الداعى للسلام ، فتزايد عداؤهم نحوه الى حد لم يعد « دامبيرت » قادرا على تحمل ما يتعرض له من المضايقة المستمرة ، فغادر كنيسته كما غادر معها فى الوقت ذاته مدينة القدس ، وخرج فقيرا معدما ، ليس معه من مشير أو مساعد . وفر الى الأمير بوهيموند الذى رحب به ترحيبا كريما ، كما تحركت

---

(١٣) أما هاتان المدينتان فهما أفامية والملائقية .

(١٤) انظر فيما بعد صفحة ٢٥٤ .

(★) أى بين الملك بلدوين والبطررك دامبر .

نفسه عطقا عليه وشفقة به وتذكر أنه كان المسئول الأول عن اعتلاء  
« دامبرت » كرسى البطركية فى بيت المقدس •

تم أجرى عليه بوهيموند مرتبا دينيا ضخما حتى لا تضطر  
الظروف رجل الرب هذا الى العيش عنده تحت ظروف تسمى له  
كرجل له مكانته الجلييلة ، فعهد اليه - بعد موافقة « برنارد » بطرك  
انطاكية - بكنيسة القديس جورج الموجودة أدنى المدينة بكل أراضيها  
ودخلها الكبير ، وهكذا ظل « دامبرت » مقبلا هناك عند بوهيموند  
حتى مضى الأخير الى « أبوليا » كما سنقص خبر ذلك حالا •

## - ٢٦ -

أما الملك ( بلدوين ) فقد انتقاد الى ارنولف الخبيث انقيادا  
ضالا انحرف به عن الخوف من الرب ، فارتكب آثاما جمة فى أعقاب  
نفى « دامبرت » أن نصب فى الكرسى البطركى قسيسا قدما ، سقيم  
الفهم وإن كان شديد التدين اسمه « ابريمار » كان قد جاء مع  
الحملة الأولى ، وعاش حياة مستقيمة لا عوج فيها ولا التواء ، حبيته  
الى قلوب الجميع •

لكنه كان بالنسبة الى ما صار اليه رجلا زمن الفطنة شديد  
الغباء ، وقد بلغ من بلادة الفهم حدا اعتقد معه أنه قادر على وقوف  
الجميع الى جانبه أن اغتصب العرش البطركى فى الوقت الذى لازال  
فيه صاحبه الشرعى على قيد الحياة •



كذلك حدث فى نفس السنة - وهى سنة ١١٠٣ - من مولد  
المسيح ، وعند اقتراب الربيع - أن استدعى الملك جميع قوات المملكة

وخرج بهم محاصرا لعكا ، بعد أن شارك فى الاحتفال المقام بالقدس  
بذكرى قيامة السيد •

وتقع مدينة عكا على الساحل فى ولاية فينيقية ، وهى احدى  
المراكز الدينية التابعة لأسقفية « صور » العظيمة ، وقد ساعدها  
وجود مينائها داخل الأسوار وخارجها على أن تكون مرفأ أميناً  
ومرسى هادئاً للسفن ، كما أن وجودها بين الجبال والبحر جعلها  
ذات موقع فريد ، هذا الى جانب الثروة الكبيرة التى وفرتها لها  
أراضيها الشاسعة وحقولها الخصبة •

ويجرى بالمدينة نهر عين البقر أو نهر بيلوس •

وتقول الأخبار التى وصلت إلينا أن تأسيسها كان على يد  
الشقيقتين بطليموس و « عكو » وأنهما حصناها بأسوار من الحجر  
الصلد ، وقسماهما قسمين يسمى كل واحد منهما باسم واحد من  
الأخوين ، وهى لاتزال حتى اليوم معروفة باسمى « بطلمية »  
و « عكا » شأنها فى ذلك شأن معظم مدن الشام اذ جرت القاعدة على  
أن يكون لكل منها اسمان ، وقد يزيدان فيكونان ثلاثة أسماء •

ولقد جاء الملك ( بلدوين ) الى هنا مع عسكره ، وأراد  
تطويقها وسد مسالكها لتدفع له وتستسلم فعجز عما أراد بسبب  
عدم وجود أسطول عنده ، واذ ذلك اجتث ما حولها من بساتين  
الفاكهة ، وفتك بطائفة من أهلها ، وساق أمامه ما سلبه من قطعان  
الماشية والأغنام التى كانت ترعى خارجها ، فلما فرغ من ذلك كله  
رفع الحصار عنها وانقلب راجعا الى بلده •

ولقد عزم أن يكون رجوعه من طريق قيصرية ، غير أنه لما وصل  
الى مكان اسمه « بترانكيسا » قرب صور القديمة بين « كفر ناعوم »  
و « دورا » المعروفة اليوم باسم المجاز ، أقول لما وصل الى هنا

شاعت الصدفة أن تطلع عليه طائفة من قطاع الطرق والشرطة كانوا  
مختفين في إحدى الغابات ، فهاجمهم الملك هجوما عنيفا حتى أهلك  
منهم نفرا غير قليل وقر منه بقيتهم ، غير أن أحدهم قذف - وهو  
يجرى - خنجرا شاء سوء الطالع أن يصيب الملك في ظهره ، وينفذ  
من ضلوعه قرب قلبه ، وكادت الرمية أن تصيبه في مقتل لولا عناية  
المطبيين واستعمالهم المشارط والكي بالنار مما رد عليه أخيرا بعض  
صحته ، ولكنه ظل على الدوام يشكو الألم يعاوده من هذا الجرح  
في أوقات معينة •

## - ٢٧ -

في هذه الأثناء قام ريموند كونت تولوز الطيب الذكر والرجل  
العظيم المجل والصادق في تقواه بغزو المدينة المعروفة باسم  
طرطوس ، كما أظهر بالغ الجد وجم النشاط في مد رقعة أملاكه فيما  
حولها •

ولما كان حريصا كل الحرص على اتخاذ كل السبل المؤدية الى  
استئصال شائفة خصوم المسيحيين من تلك البلاد فقد شيد حصنا على  
تل مواجه لمدينة طرابلس ، وإن بعد عنها قرابة ميلين •

ولما كان الحجاج هم الذين شيدوا هذه البناية فقد سماها  
الكونت اسما يعيد الى الأذهان ذلك الحدث ، ليعرف دائما باسم  
تل الحجاج ، ولا يزال هذا الاسم باقيا حتى اليوم •

وقد أسفر موقع قلعة تل الحجاج الطبيعي ومهارة بنائها  
الى جعلها مكانا حصينا ، فكان ريموند يشن في كل يوم تقريبا  
هجمات يقض بها مضاجع سكان طرابلس ، وترتب على هذه  
المضايقات المستمرة أن اضطر أهالي الناحية - بل وسكان المدينة  
ذاتها - الى دفع جزية سنوية له مع اظهارهم الطاعة له والامتثال

لأمره فى كل الأحوال كما لو كان هو وحده مالك المدينة لا ينازعه  
فى حكومتها منازع •

وفى هذا الموضع أنجبت له زوجته - وكانت امرأة تقيّة ورعة -  
ولدا أطلق عليه الاسم العائلى القديم « الفونس » ، وهو الذى خلف  
أباه فيما بعد وعرف بكونت تولوز •

## - ٢٨ -

ولما كان شهر مايو من عام ١١٠٤ من مولد المسيح حشد بلدوين  
كل قوى شعبه من أديانهم قدرا الى أرفعهم مكانة ، وأسرع لحصار  
مدينة عكا للمرة الثانية ، واغتتم فرصة ميمونة الطالع اذ كان قد  
وصل الى بلاد الشام - فى هذه اللحظة بالذات - أسطول جنوى  
مؤلف من سبعين مركبا مدببة (١٥) يسمونها بالشوانى ، فما كاد الملك  
يعلم بوصولها حتى بعث رسالة الى قادة الأسطول يدعوهم فيها  
بلهجة ودية للمحاربة من أجل المسيح قبل أوبتهم الى ديارهم ، ولفت  
نظرهم الى المثل الطيب الذى ضربه من قبل سابقوهم من بنى جلدتهم  
الذين كانت حماستهم للعمل خير مساعد للمملكة فى الاستيلاء على  
مدينة قيسرية ، وبذلك جنى مواطنو جنوة بهذا العمل المجد الخالد  
بجانب مكسبهم الدنيوى •

وتم الوصول الى اتفاق مع هؤلاء الناس بفضل الجهد الكبير  
الذى بذله الوسطاء الأذكىاء الدبلوماسيون الذين آلوا على أنفسهم  
الا أن تنجح هذه المفاوضات التى نصت على أن يكون للجنوية على  
الدوام ثلث العائد وثلث الضرائب والمكوس التى تجبى فى ميناء

---

(١٥) راجع السفن الاسلامية على حروف المعجم للدكتور درويش  
النخيلي ، ص ٨٤ •

عكا مما يفرض على الواردات التي يحملها القادمون اليها بحراً .  
هذا بالإضافة الى منحهم كنيسة لهم بالمدينة ، وتكون لهم السيطرة  
الشرعية التامة على شارع واحد من شوارعها ، ويقوم الجنوبية ازاء  
ذلك بالمساعدة الجدية فى الاستيلاء على المدينة المذكورة .

وبدت هذه الشروط مقبولة لدى الملك وكبار رجاله ، فاقسم  
الطرفان الأيمان تأكيداً لهذا الاتفاق ، وصدر الأمر بكتابتها لتبقى  
على الدوام وثيقة محفوظة .



ولما جاء اليوم المحدد حاصر الجنوبية عكا من ناحية البحر ،  
كما ضرب الملك عليها الحصار بعسكره الذى أحاط بها حتى استحال  
الخروج منها أو الدخول اليها ، وابتلى أهلها بما لا يحصى من  
الأمراض التى تصاحب الحصار .

ولما كانت رغبة الملك هى تحطيم العدو فانه وضع حول المدينة  
آلات تفننت عبقرية الخبراء الخصبية فى استنباطها ، كما أقاموا  
أبراجاً راحت ترمى المدينة بالأحجار الثقيلة التى أدى استمرار  
تساقطها الى زلزلة الحصون ، بل والى هدم بعض المباني الموجودة  
داخل المدينة ذاتها .

وأصاب الأهالى أرهاق شديد من جراء القتال المستمر يراوهم  
به الأسطول القائم بحراسة الشواطئ ، ويغاديهم به جيش الملك  
الرابض على اليابسة ، كما تضاعف عدد الأهالى بسبب الأهوال التى  
أهلكت الكثير من المدافعين ، حتى وجد العدو نفسه فى موقف يجعل  
استمراره فى الصمود فى وجه محاصريه أمراً شاقاً ، ومن ثم لم  
يعد ثم مناص أماتهم من الاستسلام ، فاستسلمت المدينة للملك بعد

عشرين يوماً سوياً بذل فيها المحاربون الصليبيون كل جهدهم في مهاجمة المارقين الذين أظهروا نفس الجهد في المقاومة •

وكانت شروط التسليم التي فرضت على الأهالي هي السماح لمن يريدون ترك المدينة بالخروج والذهاب حيثما شاءوا ، مع ضمان سلامة أرواحهم ومن معهم من حريمهم وصغارهم وما ملكت أيديهم من المتاع ، أما غيرهم الذين يؤثرون البقاء في دورهم ولا يحبون ترك أرضهم التي درجوا عليها فقد حق لهم العيش بظروف ملائمة ، لقاء دفعهم مبلغاً معيناً الى الملك كل سنة •

لم تكن المدينة تصبح في حوزة الملك حتى خصص أملاكاً ومساكن للجنوية لقاء الخدمات التي أداها كل واحد منهم ، وهكذا توفر - ولأول مرة - وجود مدخل آمن للذين يصلون عن طريق البحر ، كما توفر لهم مرسى أمين ، وتحرر الساحل - الى حد ما - من هجمات العدو •

## - ٢٩ -

في هذه السنة ذاتها قام بوهيموند واستصحب معه جميع من لهم الصدارة في إمارته ، كما استصحب تانكريد وبلدوين كونت الرها وقرييه جوسلين ، وانضم بعضهم الى بعض ، وانعقد اجتماعهم على عبور الفرات ومحاصرة مدينة « حران » القريبة من الرها التي كان المارقون قد احتلوها ، ونشط كل أمير حسب هذا الاتفاق المبرم بينهم وراح يجمع عسكر بلاده ، وفعل مثله من جاوره من حلفائه ، حتى اذا كان اليوم المحدد للزحف عبروا نهر الفرات وبلغوا الرها •

وساهم في هذه الحملة المشؤمة ثلاثة من رجال الكنيسة الموقرين ممن يهتدى الناس بهديهم ، هم « برنارد » بطرك أنطاكية

« ودامبيرت » بطرك القدس اللاجئ الشريد الذى كان يعيش اذ ذاك  
فى انطاكية ، وأخيرا « بندقك » رئيس اساقفة الرها •

ولما كان هؤلاء القادة كلهم قد اجمعوا العزم على تنفيذ  
مشروعهم فقد اجتمعوا فى المدينة المشار اليها ، وتقدموا على راس  
فيالقم نحو مكانهم المقصود •

\*\*\*

ونعرف من التواريخ القديمة أن « حران » هى الناحية التى  
قاد « تارح » اليها « ابراهام ابنه ، ولوط بن هارات حفيده » حينما  
تركوا « أور » مدينة الكلدانيين ومضوا ليعيشوا فى أرض كنعان  
كما هو وارد فى سفر التكوين (١٦) ، وهناك مات « تارح » ، كما تلقى  
ابراهام أمر ربه ليرك أرضه وعشيرته ويتبع ما وعد به الرب -

وهذا هو نفس المكان الذى أرغم فيه البارثيون الطساغية  
الرومانى « كراسوس » ، على أن « يشرب » الذهب الذى كان شرها  
فى جمعه كل الشراهة •

وحالما بلغ القادة مدينة حران حاصروها من قرب كبير حسبما  
اتفقوا عليه منذ البداية ، غير أنهم كانوا فى ميسس الحاجة للاغارة  
على الناحية المجاورة لقلعة ما فى المدينة من المئونة بل لانعدامها ،  
وكان من الضرورى اتخاذ بعض الوسائل لمنع المحصورين من مغادرة  
المدينة أو الدخول اليها •

---

(١٦) التكوين ، ١١ : ٣١ ، ١٢ : ٣ •

وتتلخص حاجتهم الى الطعام فيما يلى : ذلك ان بلدوين كان قد اخذ نفسه اخذا شديدا قبل ذلك بزمن طويل بالتفتيش عن طريقة ماتؤدى بمواطنى البلد الى هذه المثربة ، حتى اذا اشتدت عليهم وطاة الجوع لم يجدوا مناصا من تسليم المدينة ، ورأى الطريقة المثلى لانجاز الخطة فيما يلى : أنه نظر فرأى ان كلا من الرها وحران تبعد عن الأخرى مايقرب من أربعة عشر ميلا ، وبينهما نهر تستخدم مياهه التى تجرى فى القنوات فى رى السهل المجاور وتجعله شديد الخصوبة يغل غلة وفيرة ، ورأى ان العرف جرى منذ زمن بعيد على ان يكون كل ما تنتجه الأراضى الواقعة على هذا الجانب من النهر وقفا على أهالى الرها لا ينازعهم فيه منازع ، أما ما يزرع فى الحقول الواقعة وراء النهر فكان لسكان حران .

وعرف بلدوين انعدام ورود أية مواد غذائية الى الأعداء من الخارج ، مما يفرض عليهم الاعتماد فى كل طعامهم على ما تخرجه هذه الأرض المشتركة بين البلدين ، لذلك آثر أن يتحمل هو نفسه الضيق ولا يسمح للأعداء بالعيش على هذه الحقول المشتركة ، وهم الذين لا يستطيعون الحصول على احتياجاتهم الغذائية من أى مكان آخر ، لذلك ظل امدا طويلا يراوهم ويغادهم بالغارات المتكررة حتى تمكن من منعهم من زراعة أرضهم ، وكان يأمل بل ويعتقد انه سيكون قادرا على الحصول على المؤونة الوفيرة لشعبه من الاقليم الواقع وراء الفرات ، وكذلك من الناحية القائمة بين الرها وبين ذلك النهر ، كما كان يعتقد انه اذا حرم الأهالى من المؤونة التى ألفوا الحصول عليها من المزارع المشتركة أهلكتهم الحاجة والمثربة ، وظل بلدوين - طوال بضع سنوات - يحرمهم من زراعة هذه الحقول مما قرتب عليه أن وجد المحصورون أنفسهم كما قلنا فى أشد حالات السوء بسبب حاجتهم للطعام ، ولما كان الأهالى يتوقعون منذ زمن

بعيد قدوم الصليبيين عليهم فأنهم بعثوا بالكتب وأنفذوا الرسل الى  
أمراء المشرق يسألونهم المبادرة الى إسعافهم على جناح السرعة ،  
والا فلا مناص لهم من الاستسلام ، غير أن وطأة المجاعة راحت  
تشدد عليهم يوما بعد يوم ، كما خبا رجائهم فى نجدة تأتيهم من  
ناحية الأمراء الذين استنجدوا بهم ، ولذلك راحوا يتشاورون فيما  
بينهم عما يفعلون ، فقر رأيهم على أن يسلموا المدينة ( للصليبيين )  
فذلك أجدى عليهم من أن يموتوا جوعا وراء أسوارها •

### - ٣٠ -

حينما اتفق الأهالى على اتخاذ هذا القرار خرجوا وسلموا  
المدينة لحاصريهم دون قيد أو شرط • غير أنه شب فى هذه اللحظة  
الحرجة شقاق منكود بين القادة ( الصليبيين ) بسبب غيرة بعضهم  
من بعض ، ذلك أن الأمير بوهيموند وكونت بولديون نازع كل منهما  
الآخر : أيهما يتسلم المدينة ، وإيهما تتقدم رأيته الناس عند دخولهم  
إياها ، وترتب على هذا الشقاق أن تأخر دخولهم ، وتأجل تسلمهم  
إياها الى الغد ليتاح لهم الوقت الكافى للتفكير العميق فى هذه  
المسألة المتأفة • وهكذا أثبتت لهم التجربة صحة المثل القائل « ان  
التوانى يجر فى أذياله الخطر » وكذلك المثل الآخر « اذا هبت رياحك  
فاغتنمها فان الهلاك فى التأخير » ، ذلك أنه حدث قبل انبثاق فجر  
اليوم التالى أن وصل حشد ضخم من الأعداء الأتراك ، وكان حشدا  
كثيفا وقويا ، فما كاد الصليبيون يرونه حتى ساورهم الشك فى  
قدرتهم بل يئسوا من انقاذ أنفسهم •

وجاءت النجدة حاملة معها كميات وفيرة من المؤنة ، كما دل  
( أهل البلد ) حسن تبصرهم على خطة حكيمة هى تقسيم كتائبهم  
الى فريقين ، يشتبك واحد منهما مع الصليبيين دون اعتبار لما ينجم

عن هذا الاشتباك من نصر أو هلاك • أما الفريق الآخر فيقوم بتزويد المدينة بالمؤونة •

وتم تنفيذ هذه الخطة على الوجه الأكمل ، إذ ما كادت تلوح في الأفق طلائع النهار حتى رتب العدو عسكره للقتال ، وأعد صفوفه كما لو كانت المعركة ستنتشب في لحظتهم هذه ، وأوقفوا الذين عهد اليهم بحفظ المتاع بعيدين عن غيرهم بعض الشيء •

ورغم ما كان يبدو من تأهب الكفار للقتال إلا أن أملهم في النصر أو حتى الصمود طويلا كان أملا واهيا ، ومن ثم كان هدفهم الوحيد هو شغل الصليبيين بالقتال حتى يتم نقل المؤونة الى المدينة المحاصرة ، فلما شاهد قوادنا العدو يستعد هذا الاستعداد قاموا هم بدورهم فصفوا صفوفهم تأهبا للحرب ، وانطلق البطركان بين الجند يشدان من عزائمهم ، فلم يؤت مجهودهما ثمرته لأن رحمة الرب باينتهم ، إذ ما كاد الجانبان يصطدم الواحد منهما بالآخر حتى صارت اليد العليا للعدو فقد ولاه الصليبيون اكتافهم وفروا على أشنع صورة من القرار ، وتركوا وراءهم معسكرهم بكل ما اشتمل عليه ، ولم يعد يشغل بالهم سوى النجاة بأنفسهم ، لكن لم تقدر لهم النجاة ، فقد نحى الكفار عنهم أقواسهم التي اعتادوا الحرب بها وقاتلوا بسيوفهم ، واشتبكوا بالأيدى فدارت الدائرة على المسيحيين حتى فنوا عن بكرة أبيهم ، ووقع في الأسر كونت الرها وقرية جوسلين فحملهم العدو الى ناحية قاصية جدا من بلاده •

أما بوهيموند وتانكريد والبطركان فقد فروا من المعركة ، وإن كانت رحاها لاتزال دائرة ، وسلخوا دروبا ملتوية أوصلتهم الى الرها سالمين •

أما رئيس أساقفة الرها - ولم تكن له خبرة بالقتال - فقد  
أسر مع من أسر من الجند فزاد عدد الأسرى ، لكن شاءت المصادفة  
له أن يقع فى يد مسيحي ما كاد يعرف شخصيته حتى تعطف عليه  
وساعده على الهروب سالما ، رغم أنه كان بذلك العمل يعرض نفسه  
للهلاك ، وقد تمكن هذا الأسقف - بعد بضعة أيام وبرعاية الله -  
أن يصل الى الرها فكانت الفرحه به عظيمة .

\*\*\*

كان أمير أنطساكية لايزال فى الرها عندما بلغه خبر وقوع  
الكونت فى الأسر جزاء خطاياها ، فرأى الأمير - ووافق الرهاويون -  
على ما رأى - أن يعهد بالرها والمنطقة كلها الى رعاية تانكريد مع  
الاشتراط عليه برد حكومتها - من غير معارضة - الى الكونت حال  
اطلاق سراحه ، وأن يقوم بوهيموند بالحفاظ على أرض جوسلين .

ولم يحدث أبدا أن قرأنا قبل هذا الحادث أو بعده عن معركة  
بلغت من الشؤم مابلغته هذه المعركة التى أسفرت عن مصرع رجال  
أبطال كهؤلاء الرجال ، ولا سمعنا عن مثل هذا الفرار المشين الذى  
لحق بجيشنا .

\*\*\*

هنا ينتهى الكتاب العاشر

## الكتاب الحادى عشر

---

### خاتمة عهد بلدوين الأول وفتوحات أخرى بالقدس وأنطاكية

#### فصول الكتاب الحادى عشر :

- ١ - بوهيموند - أمير أنطاكية - يعهد ببعض شئون إمارته إلى تانكريد ويسرع إلى فرنسا ويتزوج من ابنة ملك الفرنجة أما دالمبيرت - بطرك بيت المقدس - فيذهب إلى رومة • بلدوين الملك يهجر زوجته الشرعية دون مبرر شرعى •
- ٢ - وفاة ريموند كونت تولوز وتولى وليم جوردان ابن أخيه مكانه ، رضوان أحد الولاة الأتراك الأقوياء يغزو أقاليمنا فيهاجمه تانكريد ويرغمه على الفرار فى غير انتظام •
- ٣ - إغارة المصريين على المملكة بجيش ضخم واشتباك الملك معهم فى القتال وقتله الكثيرون منهم وأسره غيرهم وأرغامه الباقين على الفرار •

- ٤ - وفاة البطريرك دامبيرت في مسينا بصقلية وهو في رحلة العودة ومعه كتاب بابوي ، واذ ذاك يسرع ابريمار - مغتصب مقعده - الى رومة ويوفد البابا رئيس اساقفة آرليس المدعو جبيلين الى القدس كنائب له ثم يتم بعدئذ تنصيبه بطريرا .
- ٥ - النبيل هيج دى سنت أومير - صاحب طبرية - يشيد قلعة في الجبل المطل على المدينة ويسميتها بقلعة تورون ، على أنه لا يلبث أن يصاب بجروح مميتة وهو يحارب الدماشقة ثم يختفى وان كان منتصرا . أما العسقلانيون فيحاولون عمل كمائن لرجالنا ولكنهم يقعون فيها .
- ٦ - بوهيموند يعود من فرنسا الى أبوليا على رأس قوة كبيرة ويدخل بلاد اليونان للنهب ، ولكن يوافيه أجله وهو يتأهب للعودة الى سورية ويخلف وراءه ولدا له اسمه بوهيموند ( الذى يعرف بالثانى ) .
- ٧ - مجيء جيوش تركية قوية من الشرق في محاولة منها للاستيلاء على كونتية الرها ، لكن تانكريد يستبسل في دفعهم ويمده الملك بالنجدة .
- ٨ - بلدوين كونت الرها وجوسلين يعودان من أسر العدو لهما ويشنان الحرب ضد تانكريد .
- ٩ - برترام - بن كونت تولوز - يصل الى الشام مع أسطول الجنوية راجيا أن يخلف أباه ، ولكن وليم جوردان يابى عليه ذلك ثم يصل الخبر بسقوط جبيل .
- ١٠ - الملك بلدوين يسرع الى مدينة طرابلس ويستمر فرض الحصار العنيف عليها حتى تستسلم .

- ١١ - ذهب بلدوين كونت الرها الى ملطية لزيارة جبريل حميه ونجاحه في مشروعه الكبير .
- ١٢ - رفع مكانة كنيسة بيت لحم الى مرتبة الكاتدرائية بفضل جهود الملك الكبيرة .
- ١٣ - فرض الحصار على بيروت برا وبحرا والاستيلاء عليها في الشهر الثاني من الحصار .
- ١٤ - وصول أسطول من الدانيماركيين والنرويجيين الى بلاد الشام فيستطيع الملك بمساعدتهم اياه محاصرة صيدا والاستيلاء عليها . ذكر خبر نجات الملك من القتل بأعجوبة .
- ١٥ - وفاة جيلين بطرك بيت المقدس وتولى الخسيس الكافر أرنولف مكانه .
- ١٦ - أحد الجيوش التركية القادمة من الشرق يهاجم مدينة أنطاكية بقوات ضخمة لكن تانكريد يتصدى لهم بشدة ويساعده في ذلك برترام كونت طرابلس .
- ١٧ - فرص الحصار على صور لكن الأهالي يبالغون في تحصينها مما يؤدي الى فشل محاصريها .
- ١٨ - موت تانكريد وتركه الامارة لروجر بن ريتشارد .
- ١٩ - مودود - أحد الأمراء الأتراك الأقوياء - يهاجم المملكة فينهض اليه الملك بلدوين بقوة ضخمة وتنشب معركة تدور فيها الدائرة على الملك ، وإن ذلك يجتاح مودود الناحية كلها اجتياحا لا قبل لأحد باحتماله .

- ٢٠ - العسقلانيون يغيرون على بيت المقدس لكن تنتهى غاراتهم بتحطيم قواتهم فيعودون الى بلدهم .
- ٢١ - ( أدلید ) كونتيسة صقلية ترسو فى ميناء عكا وتصبح زوجة الملك .
- ٢٢ - المجاعة الفظيعة تجتاح أرض الرها ، وكونت بلدوين يلقى القبض على قريبه جوسلين ويرغمه قسرا على مغادرة البلاد بأجمعها .
- ٢٣ - حدوث زلزال كبير يهز أركان أنطاكية ويقوم برسق - الوالى التركى الشديد البأس - بالبعث فسادا فيها .
- ٢٤ - العسقلانيون يحاصرون يافا ولكن اقتراب الملك ييث الفرع فى قلوبهم فيعودون من حيث جاءوا دون أن يحققوا هدفهم .
- ٢٥ - برسق بعث فسادا مرة ثانية فى أرض أنطاكية فيقوم لصدده الأمير روجر بحلفائه ويشنت شمل عسكره ويرغمه على الفرار .
- ٢٦ - اتهام أرنولف البطرك بكثير من الأعمال المستنكرة وذهابه الى رومة . قيام الملك ( بلدوين الأول ) ببناء قلعة فى سوريا الجنوبية وراء نهر الأردن ويسمىها بحصن مونريال .
- ٢٧ - نظرا لقلّة السكان فى المدينة المقدسة فان الملك ( بلدوين ) يجلب المسيحيين السوريين من الأراضى العربية ( الى القدس ) ويمنحهم دورا يقيمون فيها ويعتبرهم سكان المدينة .
- ٢٨ - الملك يطلب من البابا - نزولا على اقتراح رجال الدين - أن يجعل جميع المدن التى فتحها خاضعة لكنيسة بيت المقدس وارسال صور من هذا الكتاب حول هذا الموضوع .

\*\*\*

هنا يبدأ

## الكتاب العاشر عشر

---

### خاتمة عهد بلدوين الأول وضم فتوحات جديدة للقدس وأنطاكية

- ١ -

حينما انصرم الصيف أبحر بوهيموند الى أبوليا مستصحبا معه « دامبيرت » بطرك بيت المقدس ، ولما كان الدوق عثقلا بالديون الباهظة فقد طمع أن يحصل أثناء وجوده في البلاد الواقعة وراء البحر على قدر من المال يكفى لسداد ديونه ثم يكر راجعا بامدادات من الفرسان ، وعهد بادارة دقة شستون امارته في أثناء غيابه وتصريف أمورها العامة الى قريبه الحبيب تانكريد ، واضعا في يده كل ماله من السلطان .

ولما وصل الى وطنه « أبوليا » لم يطل مكثه به سوى فترة وجيزة عبر بعدها جبال الألب في صحبة نفر كرام من أتباعه الأوفياء

٢٥٧

( ١٧٢ - الحروب الصليبية )

حتى جاء الى بلاط فيليب ملك الفرنجة العظيم ، الذى كان من بين انعاماته الجمة عليه اثنتان من بناته ، احدهما ابنته الشرعية « كونسـتانس » التى تزوجها الأمير بوهيموند ، وأما الثانية « فـسيسـيليا » التى بعث بها بوهيموند من أبوليا الى تانكريد ابن أخته لتكون زوجة له ، وكانت هذه هى ابنة كونتيسة « أنجو » التى هجرت زوجها من أجل فيليب ، فأنجبت له هذه الابنة ، بينما كانت زوجته ( الشرعية ) لاتزال على قيد الحياة •

وبعد أن أنجز بوهيموند شؤونه مع الملك فيليب ورتب أموره فى الأراضي الأخرى فيما وراء الجبل عاد الى « أبوليا » ومعه رهط كبير من الفرسان والمشاة الذين أرادوا الحج بحرا •



أما « دامبيرت » فقد مضى الى كنيسة رومة حيث كشف عن كل ما كادبه من الأهوال ، وما صادفه من المتاعب ، كما فصل فى الوقت ذاته نجاح المكيدة التى دبرها « أرنولف » وأسقط القناع عن هدف الملك الكريه فى محاولته الحط من قدر كنيسة الرب ، واستطاعت قصة البطرك أن تستقطب شفقة الجميع عليه ، واكسبته عطف الكل ، كذلك بين أن الملك لم يكتف بما أشـرت اليه من ارتكابه الجريمة البشعة فى حق « دامبيرت » ، وهى جريمة تشجبها تعاليم الكنيسة بل انه زاد الطين بلة حين أبعد زوجته الشرعية التى اقترن بها فى الرها وقت أن كان كونتها ، فكان بهذا العمل مسـتـهـينا بحقوق الزوجية ، متجاهلا مراسيم الشرع حين أرغمها – وهى لم تقترب جرما ولم تقارف اثما – بأن تترهب فى دير القديسة « حنة » جدة المسيح لأمه مريم البتول ، المبرأة من كل نقيصة ، وكان هذا الدير واقعا فى الناحية الشرقية من بيت المقدس قرب باب « يهوشافاط » وتناخمه البحيرة التى كانت تعرف فى الأزمنة القديمة ببركة الضان،

ولا يزال هناك حتى اليوم كهف ظاهر للعيان تقول الأخبار القديمة أن  
يواقيم وحنة عاشا به ، كما ولدت به العذراء المبرأة من كل دنس ،  
وتقيم فى هذا الدير ثلاث أو أربع نسوة فقيرات ، يمارسن الحياة  
الدينية ، فزاد الملك من أملاكهن ووسع من أوقافهن حتى يضم زوجته  
اليهن .

وتتعدد الروايات وتتفرع حول سبب انفصال بلدوين عن امراته ،  
فيقول بعضها أن الملك أبعداها ليتزوج من أخرى أكثر منها مالا وأرفع  
مكانة ، فاستطاع بذلك إصلاح حاله وإنقاذ نفسه من الفقر الذى  
أناخ عليه ، والذى كان يرزح هو تحته لأنه كان يسعى للحصول على  
المال من غيرها تحت اسم « المهر » .

ويقول آخرون أن الملكة لم تكن متصاونة ، بل كانت متهاونة  
فى مراعاة روابط الزوجية فأثارت بذلك غضب رجلها عليها ، ويبدو  
أنها رحبت بادئ ذي بدء بردها الى رحاب الدين ، وعاشت فى  
عهد الأول من ممارستها الرهبنة فى ذلك الدير حياة شريفة فى  
كل مظاهرها ، ولكنها تلمست أخيرا الفرصة المواتية للتقرب من  
الملك ، وأنها حصلت - بتعلات زائفة - على الاذن لها بزيارة بعض  
ذوى قرباها ممن يعيشون فى القسطنطينية بحجة رغبتها فى الحصول  
على مال تبذله لتتقن مجتمعها الذى تعيش فيه من فقره ، فغادرت  
المملكة بهذه الحجة ، غير أنها لم تلبث أن تخلت عن حياتها الدينية ،  
وأسلمت نفسها لحياة قذرة داعرة ، ولم تلق بالا الى سمعتها ولا الى  
مكانتها كملكة سابقة ، فمارست الزنى مع كل من صادفته .

- ٢ -

ولما كان اليوم الأخير من شهر فبراير من السنة التالية عام  
١١٠٥ من مولد سيدنا ، مات ريموند كونت تولوز الخالد الذكر ،

وقد وافاه أجله أثناء وجوده بالقلعة التي شيدها أمام طرابلس ،  
وسماها بقلعة جبل الحجاج ، وكان الكونت رجلا متدينا يخشى  
الرب ، صادق الايمان بالمسيح ، أهلا للثناء من كل ناحية ، كما أن  
بطولاته وحياته تستحق كتابا خاصا .

وقد خلفه ابن أخيه ولیم جوردان الذي تابع حصار طرابلس  
بنفس حماسة عمه ، وكرس نفسه للعمل بعزيمة جبارة حتى جاء  
كونت « برترام » ، لكن مالبث الاثنان أن تنازعا الأمر بينهما فتراخى  
« ولیم جوردان » عن جهوده بعض الشيء كما سنذكر حالا .

إننا نعتقد أنه ينبغي أن تكون مثابة الموقر ريموند (كونت تولون)  
على العمل وشجاعته موضع إعجاب وثناء ، ليس من الجيل الحاضر  
فحسب ، بل ومن الأجيال القادمة أيضا ، ذلك أنه منذ أن نهض بالحج  
من أجل المسيح ظل في طريقه هذا حتى آخر يوم من أيام حياته ،  
متمسكا بالصبر والعزم ، ولقد كان في وطنه رجلا بارزا شديدا  
السطوة ، يملك مقاطعات شاسعة المساحة ورثها عن أسلافه ، ولم  
يكن ثم شيء يرغب فيه الا ووجد الكثير منه متوفرا بين يديه ، لكنه  
آثر - رغم ذلك كله - أن يهجر بلاده ويخلف أهله طاعة للرب ،  
مفضلا ذلك على أن يعيش منعما بين قومه تحت مظلة الخطاة ، ولما  
تم استرداد بيت المقدس شعر القادة الآخرون الذين ساهموا في حملة  
الحج هذه أنهم انجزوا ما كانوا يرغبون فيه ، ومن ثم عادوا الى  
بلادهم ، لم يشذ عنهم سواء فانه منذ أن حمل الصليب كان يخشى  
أن يخليه جانبا ، حتى حين ألح عليه خاصة أصحابه ورجال من أهل  
بيته - أن يرجع الى الديار التي طال شوقها اليه وتطلعت الى  
عودته ، لاسيما وقد أوفى بيمينه التي أقسمها ، وبعده الذي قضاها  
على نفسه الا أنه آثر أن يقدم روحه قربانا للمسيح بدلا من أن يعود  
ليعب من ملذات الدنيا ، وكان في ذلك العمل مقتنيا خطى مولاه

الذى قالوا له « انزل من على الصليب ، ففضل - حتى بعد انتهاء  
آلامه - أن ينزل على أيدي الأغراب من أن يفشل فى العمل الذى قام  
به لافتدائنا .



وفى نفس هذه السنة أيضا قام صاحب حلب القوى الأمير  
رضوان بجمع الامدادات من البلاد المجاورة له ، اما بالاتفاق معهم أو  
ببذل المال لهم ، ودخل أرض أنطاكية بجيش كالدبا كثرة ، فبث  
الذعر فى الاقليم كله بغاراته المتعددة ، وكثرة ما أضرم من الحرائق  
التي كانت تأتي على كل شيء ، فلما علم تانكريد بذلك استدعى  
اليه فرسانه ومشاته وزحف بهم على الناحية التي اتفقت الأخبار  
كلها على وجود جيش رضوان بها ، وخرج تانكريد من أنطاكية وسار  
بجيشه الى « ارتاح » وتأكد له صدق ما وافته به الأخبار ، اذ وجد  
جموعا كثيرة قد تجمعت هناك ، فتوجه أول ما توجه الى السماء  
يرجوها العون الذى جاءه جزاء حسناته ، ثم كركرة صدق على العدو  
الذى قاوم بعض الوقت فى بداية الأمر ، لكن مالبثت صفوفه أن  
تصدعت ، وانفرط عقد عسكره ، فلانوا بانذال الفرار ، ووقع  
الكثيرون منهم فى الأسر ، وقتل منهم ما لا يكاد يحصىه العد ، هذا  
الى جانب رايات رضوان التي أخذها تانكريد واحتفظ بها ، وكان  
أول الفارين الأمير رضوان نفسه ، وقد فعل ذلك حرصا منه على  
حياته .

ولقد اثلج هذا النصر قلوب رجالنا كثيرا ، وانشجرت له  
صدورهم ، فقد اعتبروه تعويضا لهم عن خسائهم المتكررة فى  
معارك مشابهة لهذه المعركة ، كما أنهم غنموا كثيرا من أحسن جياذ  
العدو بعد سقوط أصحابها عنها .

## - ٣ -

وحدث فى السنة ذاتها ان جاء الى خليفة مصر نفر من كبار رجال دولته وقالوا له : « ان هذا الرهط من الحجاج الذين هاجموا اخيرا مملكتك بالقوة وكانوا غير عابئين بالحياة ، قد نجحوا فى الثبات فى وجه قوادك الذين ارسلتهم ضدهم ، وكان انتصارهم قى هذا الهجوم بسبب اعتمادهم على الأعداد الكثيرة من جيوشهم الأولى التى جاءت الى المشرق ، اما الآن فقد عاد معظم هؤلاء الى اوطانهم مما تضاعل معه عدد البقية الباقية منهم تضاعولا كبيرا ، كما انقطع عن هؤلاء ترادف الامدادات عليهم من الحجاج ، وأدت الهجمات المتعددة عليهم الى انهاكهم غاية الانهاك ، ومن ثم فالرأى عندنا ان الفرصة مواتية لنا - ان اذنتم يامولانا ، باختيار قائد من كبار رجالكم تبعثونه لتخليص البلاد التى هى الآن فى قبضة ذلك الشعب المنكود ، »

وافقت هذه الكلمات هوى فى نفس الخليفة واستصوبها ، فأمر بجمع عسكر كثير ، وتهيئة أسطول ضخمة وجعل على كل جيش من الجيوش قوادا مختارين ، وأرسلهم الى بلاد الشام ، فبث وصولهم الى عسقلان الفزع فى كل الاقليم .

ما كادت اخبار هذه الحملة تصل الى سماع الملك بلديون حتى بادر بالزحف الى يافا على رأس جيش المملكة بأجمعه ، وزاد على ذلك بأن أصدر مرسوما واجب النفاذ يأمر فيه قوات كل مدينة بالتجمع فى يافا دون تلكؤ ، فاستجابوا له سراعا ، كما جاء من غيرهم « ابريمار » بطرك بيت المقدس ، حاملا معه خشبة الصليب الشافى الواهب الحياة .

زاد عدد قواتنا بوصول هذه الامدادات حتى صار عندنا  
خمسمائة فارس و ألفا جندي من المشاة ، كما قيل ان العدو كان فى  
قوة قاربت خمسة عشر ألف مقاتل الى جانب المحاربين الذين  
بالسفن .

ما كاد جيش العدو البرى يخرج من عسقلان حتى صدرت  
الأوامر الى الأسطول بالابحار الى يافا ، فزحف العسكر البرى الى  
« أسدود » حيث انقسموا هناك الى قسمين ، تقدم أحدهما نحو الرملة  
يتحدى الملك أن يخرج للقتال ، على حين مضى القسم الثانى الى  
يافا ، وبينما كان الملك مشغولا بالقسم الأول كان القسم الثانى يتقدم  
لمهاجمة يافا بعد أن استدعى لمساعدته القوات التى كانت قد جاءت  
بحرا ، ومن ثم فقد دخل القسم الأول منطقة الرملة يتقدمه النفخ  
فى الأبواق وقرع الطبول ، وقد عمدوا الى هذا الأمر لغرض معين  
هو أن يتقدم الجيش الآخر الذى يسير على الساحل فيصل سلما  
الى يافا فى الوقت الذى يكون فيه الأول يغرى الملك وقواته على  
مهاجمته ، ولكن فشلت هذه الخطة لأنه حين اقترب الملك على رأس  
عسكره طارت قلوب المارقين شعاعا وانحل عزمهم ، واستسلموا  
للخوف ، مما حملهم على استدعاء الفريق الآخر لمساعدتهم ، لكن  
لم تقدم هذه الامدادات ، فقد أحسوا أنهم ليسوا على قدر من البأس  
يكفى لنجاتهم من الوقوع فى قبضة الملك الذى هاجم بمن معه من  
الرجال الكتائب المتجمعة ضدهم ، وضغطوا عليهم ضغطا شديدا  
بروح عالية ، ومضى بلدوين فى الوقت ذاته يشجع رجاله بالقول  
والعمل فتزايد بأسهم ، وأخذ البطرك يسير بين صفوف الجند  
حاملا فى يده الصليب الواهب الحياة ، ومقويا عزيمة المحاربين  
الذين كانوا على وشك النزول الى المعركة ، وداعيا إياهم لأن يتذكروا  
على الدوام من ارتضى أن يموت على الصليب لخلاص الخطاة ،

كما راح يحرضهم على الاستبسال فى قتال أعداء المسيح وخصوم دينه ، ليحقق لهم ان يطمعوا فى غفران خطاياهم وجبها ، ويمنحهم السيد مائة ضعف ما يجازى به خدمه ، فامتلات نفوس الصليبيين حيوية وشجاعة بهذه الكلمات ، وتوجهوا الى السماء يسألونها العون ، وانصبوا فى غضب على الأعداء ، ونجحوا فى قتل عدد كبير منهم ، وأرغموا الباقين على الفرار .

وقتل فى هذا الاشتباك حاكم عسقلان ، أما القائد العام للجيش فقد هرب فنجاً ، ويقال ان قتل الخضم بلغوا فى هذا اليوم حوالى أربعة آلاف شخص ، أما رجالنا فلم يهلك منهم سوى ستين .

وتمكنت قواتنا - برحمة الرب - من الاستحواذ على معسكر العدو فعثروا فيه على قوافل من الجمال والحميز والخيل ، فانشرحت صدورهم بما غنموا ، ثم عادوا ادراجهم الى يافا حاملين معهم اثمن الأسلاب وأعلى الغنائم ، ومستصحبين معهم كثيراً من الأسرى ، وكان من بين من أسروه فى هذا اليوم رجل جليل القدر فى قومه ، كان قد ولى أمر عكا ذات مرة فافتداه قومه فيما بعد من الملك بقدية قدرها عشرون ألف قطعة من الذهب .

وكان أسطول العدو فى هذا الوقت لايزال راسياً فى ميناء يافا ، فما كادت تبلغه أخبار النكبة التى حلت بقواته البرية حتى اغتتم فرصة هبوب ريح جنوبية مواتية وانسحب الى ميناء صور ، غير أن ريحا صرصرا عاتية هبت على هذا الأسطول وهو على وشك الرحيل الى مصر فمزقته فتبدد ، ودفعت خمسا وعشرين من سفنه الى شاطئنا لعجزها عن مقاومة الأمواج العاتية ، فأمسك عسكرينا أكثر من ألفى رجل من بحارته ونوقيقه ، كما هلك الكثيرون من رجال العدو غرقا .

- ٤ -

كان « دامبيرت » بطرك بيت المقدس فى هذه الأثناء موجودا  
برومة ، وطالت اقامته بها اذ استبقاه البابا « بسكال » والكنيسة  
الرومانية حتى يتقرر ما اذا كان ملك بيت المقدس ومن أخرجه  
يتقدمون بأية تهمة ضده يرمونه بها لتبرير شرعية مسلكهم معه ، لكن  
لم يتقدم أحد منهم باتهامه بما يدينه أو بما يستوجب اللوم عليه من  
أجله فى هذه القضية ، فعرف وظهر للعيان أن شلح البطرك لم يكن  
الا نتيجة غضب ملكى ، ومن ثم زوده « بسكال » برسالة بابوية ورده  
الى مكانه ، حاظيا بكل العطف لمتابع أمر بطركيته التى أخرج منها  
ظلاما بغير حق ، فذهب الى صقلية وظل مقيما بها فى انتظار وسيلة  
لنقله ، غير أنه أصيب أثناء وجوده هناك بمرض خطير مات منه  
يوم ٢٦ يونيو ، وكان قد تولى البطركية مدة أربع سنوات قضاها فى  
هدوء ، ثم اتبعها بثلاث أخريات قضاها فى المنفى .

على أنه قبل وصول الخبر بموت « دامبيرت » كان « ابريمار »  
مغتصب هذه الوظيفة (١) - قد عزم على الإبحار قاصدا زيارة رومة  
بعد أن علم أن المعظم « دامبيرت » عائد مرضيا عليه ليُتَبَوَّأ مكانه  
الشرعى ، فرغب ( ابريمار ) أن يؤكد تبرئة ساحة نفسه ، ويثبت أن  
كل شيء قد تم على غير ارادته ، وأن وضعه فى مكانه هذا كان على  
غير سعى منه ، فلما وصل الى رومة لم يلق مايرضيه ، ولكنهم  
أنبأوه أنهم معينون نائبا رسوليا بالقدس ومرسلوه معه الى هناك  
ليتقصى حقيقة الموضوع على أكمل وجه ، وعين لهذه المهمة « جبيلين »  
رئيس أساقفة « آرليس » وكان قد بلغ من السن أزدله ، فصدرت

---

(١) أى بطركية بيت المقدس .

اليه أوامر البابا بالمرضى الى بيت المقدس ، فمضى حتى اذا بلغها  
عقد مجمعا من أساقفة المملكة ، واستقصى الحقائق المتعلقة بقضية  
« ابريمار » كل الاستقصاء (٢) .

وأدلى الشهود الصادقون الموثوق بكلامهم الذى لا يرقى اليه  
الشك بشهاداتهم التى اقتنع بها النائب البابوى « جبلين » ، فأدرك  
أن خلع « دامبيرت » لم يكن له سند شرعى يبرره ، بل كان نهجة  
مكائد « أرنولف » وبطش الملك ، وأن « ابريمار » اعتلى كرسى كاهن  
لا يزال حيا ، ولا يزال ينعم بعطف الكنيسة الرومانية ، ومن ثم فان  
« جبلين » - بناء على السلطة المخولة له - قام بخلع « ابريمار »  
من البطريركية ، ولكن نظرا لتقواه العميقة وبساطة خلقه غير المألوفة  
فقد كلف « ابريمار » بإدارة كنيسة قيسرية التى كانت خالية آنذاك .

\*\*\*

ثم حدث قيما بعد أن اتبعوا ما كان مألوما ليكون تناول  
الموضوع قد تم بالاعتبار الواجب له ، فحددوا يوما معيننا يناقش  
فيه رجال الدين والشعب معا أمر اختيار بطرك لكنيسة القدس ،  
وبعد استعراض ما أسفر عنه الحوار بين الجانبين من شتى الوجوه

---

(٢) أشارت الترجمة الانجليزية ( ج ١ ص ٤٦٧ ، حاشية رقم ١٧ )  
الى أن البابا باسكال الثانى كان قد أرسل خطابا الى الملك بلدوين  
يستفاد منه غير الذى جاء بالمتن وأن « ابريمار » غادر القدس بعد وفاة  
« دامبيرت » ليتسلم الصلاحية من يد البابا ، ثم مضى « ارنولف » فى أثر  
« ابريمار » مزودا برسائل تتهم ابريمار ، وقد بنت الترجمة الانجليزية  
هذا القول على ما ورد فى

R. Rohricht, Regesta regni Hierosolymitani, No. 19.

وقع الاختيار بالاجماع على مندوب الكنيسة الرسولية « جبلين » ليجلس فى كرسى البطركية ، ويقال ان هذا الاختيار كان بتدبير مكر من ارنولف الذى ذهب الظن به - وقد رأى تقدم سن جبلين وهرمه - الى ان جبلين لن يظل طويلا فى المنصب البطركى .



وحدث فى نفس سنة ١١٠٧ من مولد سيدنا ان قام العسقلانيون بما طبعوا عليه من مكر فنصبوا كمائن فى مواضع معينة على طول الطريق الكبير الواصل بين بيت المقدس والبحر ، ووضعوا فى هذه الكمائن خمسمائة فارس و ألف جندي ، وكان ذلك بسبب ما ترمى الى سمعهم من أن طائفة من شعبنا قد غادرت مدينة يافا ، ميممة وجهها شطر بيت المقدس ، فأرادوا أن ينالوا بالدهاء والخديعة ما عجزوا عن نيله بالقوة ، فوضعوا كمائن تتريص بالعسكر الحجاج الذين كانوا لا يعلمون شيئا عن كل هذه الكمائن ، فما كاد هؤلاء الحجاج يسيرون فى طريقهم حتى وقعوا فى الشرك الذى نصبه العدو لهم ، فاستولى عليهم القلق الشديد ، وترددوا فيما اذا كانوا يقاتلون أم يعودون من حيث جاءوا ، وبينما هم فى هذا التردد اذا بالعدو يغير عليهم ، فقضى على كل جدل يمكن أن يثيروه ، ولما أدرك رجالنا أنهم بين خيارين لا مفر لهم من أحدهما ، وهما اما أن يحاربوا بكل ما فى وسعهم ، واما ان يقعوا مجالين بالعار ، فقد رضخوا للضرورة وعادتهم جراتهم واستردوا شجاعتهم واندفعوا بجاش قوى على من كانوا يحسبونهم رجالا لا تنالهم الأيدي ، فكان للمفاجأة وقعها على الكفار الذين لم يستطيعوا الصمود لهذا الهجوم فلانوا بأذيال الفرار ، فمضت قواتنا فى أثرهم بعضا من الوقت وقتلت نفرا ممن وقعوا فى يدها من اسراهم ، وهكذا كتب الله النصر للصليبيين الذين

لم يفقدوا سوى ثلاثة رجال فقط ، واستمروا فى طريقهم الى بيت المقدس .

- ٥ -

كانت مدينة صور لاتزال حتى ذلك الوقت فى قبضة الجاحدين الذين كانوا يحاولون اعاقا تقدم الصليبيين بشتى الطرق ، وكان « هيج دى سنت أومير » - ذلك الرجل الشريف القوى البازل نفسه فى خدمة المسيح قد خلف تانكريد فى حكومة مدينة طبرية ، وكان دائم القيام بهجمات خاطفة على صور ، ومراوحتها بالغارات المستمرة بقدر ما تسمح به المسافة بين البلدين ، وهى ثلاثون ميلا ، وكان العسكر فى غدهم الى صور ورواحهم عنها يتعرضون للخطر لعدم وجود أى فلاح أو أماكن حصينة بين المدينتين يلجأون اليها لو تعقبهم العدو ، لذلك حاول هذا الرجل العظيم تذليل تلك الصعوبة فعزم على بناء حصن على قمة أحد الجبال المطلة على مدينة صور ، وان كان يبعد عنها حوالى عشرة أميال ، وكان الاسم الأصلى لهذا الموضع هو « تبنين » ، ولما كان الحصن واقعا على جبل شاهق الارتفاع ، شديد الانحدار ، فقد أطلق عليه اسم « تورون » واشتهر بطيب هوائه وبديع مناخه وهو يوجد فى قبيلة « عشير » فيما بين البحر وجبل لبنان ، وعلى مسافة متساوية من كلتا المدينتين : صور وبيانياس ، وأرضه شديدة الخصب ، وصالحة تماما لزراعة الكروم والأشجار ، كما أن محاصيلها وفيرة بفضل عناية فلاحيه بها ، ومن ثم فان هذا المكان لم يقتصر على أنه أمد بانيه بالفوائد الملائمة كل الملاءمة لاحتياجاته فى وقته حينذاك ، بل انه كان ذا جدوى قصوى لمدينة صور أيضا وبقيّة الناحية ، وذلك بفضل خصوبة أرضه وتحسيناته الرائعة الشهيرة .

\*\*\*

وبعد قليل من تشييد هيج النبيل لهذا الحصن اقتحم أرض العدو على رأس سبعين فارساً قاتل بهم أربعة آلاف دمشقى ، وصددهم مرتين فى يومه هذا صدا عنيقا ، كما حاول ذلك مرة أخرى ولكن فى ظروف أحسن من سابقتها ، إذ ترادفت الامدادات الاضافية عليه هذه المرة ، كما أن العناية الالهية لاحظته بعينها ، فشدت من عزيمة ، حتى استطاع بعون الله أن يرغم العدو على الفرار ، ولكنه رمى عن قوس بسهم جرحه جرحا قاتلا أرداه ، وكان هيج رجلا عاقلا وبطلا جديرا بكل ثناء على خدماته ، مقبولا كل القبول عند الملك ورجال مملكته .

وقد فقد العدو فى هذا الاشتباك مائتى رجل ، كما استولى رجالنا على مثل هذا العدد ، لكن من الخيل .

وتلى هذه الأحداث ظهور علامات ونذر كثيرة فى الأفق الشرقى من السماء ، حيث ظل يظهر على مدى أربعين يوما أو أكثر كوكب مذنب يتبعه خط طويل من اللهب ، ويكون ظهوره بعد دخول الظلام ، أما فى الصباح فتبدو الشمس منذ ظهورها حتى الساعة الثالثة من النهار وكان شمسعين تتبعانها وقد تكافأتا فى الحجم ، وإن كانتا أقل منها اشعاعا ، كما كان يرى حول الشمس قوس قزح بكل ألوانه الوهاجة ، فكانت كل هذه العلامات تؤذن فى الواقع بتغير فى أحوال الناس .

— ٦ —

فى هذا الوقت كان الخائن الوغد «الكسيوس كومنين» امبراطور القسطنطينية يكثر من وضع العراقيل فى طريق الحجاج الراغبين فى عبور بلاده وهم فى طريقهم الى بيت المقدس ، وإذا كان قد عمل على مضايقة الحملة الأولى التى لم يكن منها فائدة كبيرة كما قلنا

وذلك بتلمسه مساعدة أحد الولاة الترك الأقوياء وهو قلعج أرسلان وينشد مساعدة هذه الأمم والشعوب الكافرة ضد هذه الحملة فانه فى المرة الثانية أخذ يبعث رسله الكثيرين لاثارة نفس هذه الأمم والشعوب الكافرة ضد الحملة الثانية التى كانت بقيادة كونت بواتو، فأُسفرت خيانتة هذه عن اندحار الحملة (٣) الثانية اندحارا يكاد يكون تاماً ، ولم يكتف باللاجوء مرة أو مرتين للغدر بالمصليبيين ، بل انه ما من مرة أتاحت له فرصة انزال الخسائر والحاق الدمار بهم الا عدها كسبا لنفسه ، ومع ذلك فانه لم يكد ريموند ( دى بواتيه ) يمثل بمن معه امام الامبراطور ويصبح فى حضرته حتى اعطاهم الامبراطور من طرف اللسان حلاوة وامطرهم بهداياه وتحفه ليكون اكثر قدرة على خداعهم ، وبذلك حافظ على ما اشتهر به شعبه من انطباق المثل التالى عليه القائل : « لشد ما اخاف الاغريق حتى ولو قدموا الهدايا » ، لأنه كان على وجه العموم ينظر بريية الى تقدم اللاتين ، ولا ياذن بزيادة سطوتهم أو انتشار نفوذهم اذا كان فى مقدوره منع ذلك .

كانت هذه المثالب لاتزال حية فى ذهن بوهيموند حين عاد من البلاد الواقعة وراء الجبال على رأس خمسة آلاف فارس وأربعين ألفا من الجند المشاة ، عاقدا النية على العمل لما فيه صالح جميع اللاتين . وكانت عودته بحرا ، ووصوله الى بلاد الامبراطور فى اليوم التاسع من أكتوبر ، فلما فرغ من اجتياحه جميع المدن الساحلية وخرب منها ما خرب مضى فدمر أبروس الأولى والثانية على السواء ثم حاصر « دورازو » قصبة أبيروس الأولى ، وأشعل النار فى كل النواحي المجاورة ، وانطلق يصليها خراباً ويعاملها وفق هواه ، وكان

---

(٣) المقصود بذلك الطائفة الثانية من الصليبيين الذين كانوا بقيادة ريموند الصنجلى كونت تولوز ، وليس يقصد بها « الحملة الثانية » التى كانت بقيادة كونراد امبراطور المانيا وملك فرنسا .

يتأهب لشق طريقه الى أقصى بقاع الامبراطورية وقد آلى على نفسه - بعون الرب - الا أن يقضى على كل ما يضر اللاتين .

ولما سمع الامبراطور بدخول بوهيموند بلاده على رأس جيش كبير من اللاتين جمع عسكره وتقدم للملاقاته ، وأقام قواته قرب قوات بوهيموند ، غير أن تدخل بعض أصدقاء الطرفين فى هذه الأزمة أدى الى عقد معاهدة بينهما ، اكداها باليمين الصادقة ، وتعهد الامبراطور أن يقوم منذ هذه اللحظة بنية حسنة ومن غير أن يبيت شرا - ببذل النصيح والعون لأتباع المسيح الراغبين فى المضى الى الشرق ، وأن يمنع رعاياه من وضع العراقيل فى طريقهم .

ولما اتفقوا على هذه الشروط واكدها باليمين ، قام بوهيموند فأقسم من جانبه قسما آلى فيه على نفسه ألا يحنث فيه - بالمحافظة على صداقته للامبراطور وأن يكون تابعا مخلصا له الى الأبد ) .

حينذاك قدم بوهيموند أمامه طائفة الحجاج الذين كانوا قد التزموا باكمال الرحلة الى بيت المقدس ، أما هو فقد عاد أدراجه الى « أبوليا » حيث تطلبت بعض الشؤون الخاصة أن يزيد فى أمد بقائه هناك ، فلما كان الصيف التالى بدأ يعد الترتيبات اللازمة ويجمع السفن ، غير أنه فى أثناء تأهبه للرحيل - وقد جمع العسكر من كل ناحية - داهمه مرض خطير أدى الى وفاته ، فمات تاركا وريثا ورت اسمه وامارته ، وكان الوريث ذكرا أنجبته (هـ) له ليدى كونستانس ابنة فيليب العظيم ملك الفرنجة .

كذلك مات خلال هذه السنة (٦) حموه فيليب ملك الفرنجة الجليل .

(٤) وكان ذلك فى مارس سنة ١١١١ م .

(٥) كان مولده سنة ١١٠٩ أى قبل وفاة ابيه بعامين .

(٦) خطأ ولیم الصورى إذ يقول « فى هذه السنة » ، فينصرف الذهن

الى عام ١١١١ م ، كما هو وارد فى الحاشية رقم ٤ ، لكن موت فيليب كان فى سنة ١١٠٨ .

فى إبان ذلك الحين بينما كان العظيمان اللذان أشرنا اليهما من قبل وهما كونت بلدوين وقريبه جوسلين لايزالان فى أسر العدو تجمع عسكر من الترك فى أعداد تفوق الحصر جىء بهم من بلاد المشرق فاغتنموا فرصة غياب هذين الأميرين وأغاروا على أرض الجزيرة غارة شعواء، وعاثوا فسادا وتدميرا ونهباً فيما حول الرها، واستولوا عسفا على بعض الحصون ، وأضرهمو النار فى القرى ، وامسكوا بالفلاحين وغيرهم ممن يعملون فى الحقول ، ولم ينبج من ذلك الدمار أى مكان خارج المنطقة الموجود بها المدن المسورة ، مما أسفر عن توقف فلاحة الأرض وندرة الطعام حتى كاد أن ينعدم .



كان الحفاظ على المنطقة موكولا الى تانكريد الا انه جد من الأمور أمور عاقته واضطرته للبقاء فى أنطاكية التى أصبح مسئولا عنها هى الأخرى أيضا كما قلنا منذ رحيل بوهموند ، فلما علم بما أحدثه العدو من نهب وسلب فيما حول الرها أرسل الى ملك بيت المقدس ليشسرح له ماحدث من أمور اقتضت منه أن يبعث فى استدعائه ، كما قام هو ذاته بحشد قوات كثيفة من كل البلدان والحصون ، فما غبرت أيام قلائل حتى كان الملك فى طريقه للانضمام اليه ، لحظة أن كان تانكريد مسرعا الخطى الى هناك وقد استبد به الخوف على امارته ، وانضم الجيشان بعضهما الى بعض فى الحال، وعبرا الفرات معا ، فلما بلغوا الرها وجدوا المارقين - كما قيل - يعربدون هنا وهناك لم يتركوا ناحية من النواحي الا جاسوا خلالها، دون أن يعترضهم معترض ، لكنهم لما علموا بقدوم قواتنا بعثوا فى

استدعاء عساكرهم ، وقلت عربدتهم عن ذئ قبل لطول معرفتهم ببأس جنودنا ، فتملكهم الخوف من قتالهم ، وان كانوا رغم ذلك لم يرحبوا بعودتهم الى بلادهم ، لادراكهم ضيق وقت كل من الملك وتانكريد ضيقا يمنع هذا وذلك من طول اقامته ، ومن ثم فقد حاولوا تعويقهما أملا منهم فى أن يؤدى طول هذا التأخير الى ارغام القادة على الرحيل ، واذ ذاك يتمكنون هم من معاودة مأجرت به عادتهم من السلب والنهب ، لكن لم تخف حقيقة مقصدهم على زعمائنا فنهجوا نهجاً شديداً للملاءمة لهذه الظروف الصعبة ، ذلك انه لما كان الاقليم الواقع فى منطقة نهر الفرات ينتج معظم المحاصيل فقد عمد الزعماء للاستفادة من هذا الوضع ، فأمرُوا أن تجمع شتى أنواع المؤونة ثم تنقل على ظهور الجياد والابل والحمير والبغال وذلك عبر النهر ، وبهذا تسنى حصول البلدان والقلاع على كميات وفيرة من مواد المعيشة تكفى امداً طويلاً ، كما انصب اهتمامهم على وجه الخصوص على امداد مدينة الرها فأمدوها بامدادات وفيرة زادت عن حاجتها ، حتى اذا اطمأن بال هؤلاء القادة على المدن والحصون ، وزالت دواعى الخوف عليها بعد تزويدها بالعتاد والرجال والطعام عادوا الى نهر الفرات لأمر أكثر خطورة ، تستدعى التفاتهم اليها . وبينما كان الصليبيون يعبرون النهر فى قوارب صغيرة خفيفة قليلة العدد ، شرع العدو الذى كان يتعقبهم فى مهاجمة من دونهم ممن لازالوا على الشاطئ الآخر من النهر ، ينتظرون دورهم للعبور ، وفتك ببعضهم وأسر البعض الآخر أمام أعين تانكريد والملك اللذين وقفا عاجزين عن مد يد المعونة اليهم ، فقد حال بينهما وبينهم وجود النهر الذى لم يكن بمقدورهما اجتيازه ، كذلك كان من الصعب عليهما وعلى من معهما أن ينجحوا فى مساعدة قوات ضخمة العدد كهذه القوات على العبور مرة أخرى إذ ليس لديهم سوى القليل من القوارب ، ومن ثم كانت قواتنا مضطرة للعودة الى بلدها ، وقد

هصر الحزن قلوبهم حزنا على مصير أولئك التعساء الذين رأوهم  
رأى العين يروجون ما بين قتيل وأسير •

أما الرجال البارزون الذين وكل اليهم حراسة الاقليم فى هذه  
الناحية من الفرات فقد بذلوا أقصى جهدهم فى تحصينها •

أما الذين قتلوا أو أسروا على شواطئ الفرات فكانوا من  
فقراء الأرمن الذين فروا أمام الدمار الساحق الذى أنزله الترك  
بالناحية ، فراحوا يلتصقون مكانا آمنا يلجأون اليه •

## - ٨ -

فلما كانت السنة التالية أعنى سنة ١١٠٩ من مولد المسيح  
عاد بلدوين كونت الرها وقريبه جوسلين الى أملاكهما بعد خمس  
سنوات موصولة قضياها أسيرين لدى العدو ، ثم آن لهما أن  
يستردا حريتهما منه بعد أن قدما اليه الرهائن ، ورضيا أن يدفعا  
له المال الذى طلبه فداء لأنفسيهما ، ثم شاء الرب أن تمسهما رحمته  
حين قام الرهائن بقتل حراسهم الموكلين بهم فى إحدى القلاع اذ  
وثبوا عليهم وهم يغطون فى سباتهم وقد أثقلهم كثرة ما شربوا من  
الخمر ، فلما تم لهم ذلك تسللوا خلسة تحت جناح الظلام وسلكوا  
دروبا ملتوية واتخذوا طريقهم الى بلدهم •

ويقال انه لما وصل الكونت الى الرها رفض تانكريد فى بادئ  
الأمر أن يأذن له بدخولها ، لكنه مالبث أن تزحزح عن رأيه حين  
ذكروه باليمين التى قطعها على نفسه لحظة أن عهد اليه القيام بإدارة  
دفة امورها وقت وقوع الكونت فى الأسر ، وحينذاك أمر أن تسلم  
المدينة بكل ما حولها الى بلدوين •

وأخيرا قام القائدان ( يولدوين وجوسلين دي كورتناي ) واستنكرا هذه المعاملة التي يعاملها بها تانكريد وأعلنها حربا عليه، وإن كان جوسلين أكثر الاثنين تشددا ، ذلك لأن وجود قلاعه وحصونه على ذلك الجانب من النهر كان يجعله أدنى ما يكون لأرض انطاكية ، وحدث في أحد الأيام أن خرج ( جوسلين ) ومعه رهط كبير من الأتراك الذين استنجد بهم فأنجدوه ، فشنواياهم غارة شعواء على تانكريد الذي علم بنواياه فهب لقتاله ، وشبت الحرب بينهما فمات في ساحتها من طليعة رجال تانكريد ما يقرب من خمسمائة رجل ، لكن مالبث جنوده أن عاودتهم شجاعته فتجمعوا من جديد وفككوا بكثير من الترك ، ونجحوا في هزيمة قوات جوسلين .

حين وصلت الأمور الى هذا الدرك تدخل كبار رجال الاقليم ورهط من اهل الادراك المقدرين للأمور وعرفوا مدى الخطر الداهم الذى ينذر بما يكون بين رجلين كبيرين كهذين الرجلين من العداء ، والذى لا يستبعد أن يؤدى الى ضرر بليغ بالشعب الصليبي ، ومن ثم أخذوا على عاتقهم القيام بدور صناع السلام ، ونجحوا فى التوصل الى تهدئة الأمور بين الطرفين .

## - ٩ -

وقد حدث فى هذه الأثناء أن جاء « برترام بن ريموند » كونت تولوز الطيب الذكر بأسطول من الجنويين ، وأرسى قرب طرابلس التى كان قريبه « وليم جوردان » لايزال محاصرا لها حصارا دام بلا انقطاع منذ موت ريموند الموقر ، وسرعان ما شب الصراع بين الاثنين ( برترام وليم جوردان ) ، لأن أولهما تمسك بحقه فى أن يخلف أباه ، على حين أن ثانيهما وليم طالب بمكافاته على جهوده ،

وما تكبده من المصروفات طوال السنوات الأربع المتوالية التي قضاها متحملاً مسئولية إدارة أمورها .

وأراد الأول أن يخلف أباه ( ريموند كونت تولوز الصنجيلي ) باعتباره الوريث الشرعي له في ممتلكاته على حين كان وليم يجاهد للاستحواذ على المدينة التي لم يكف عن الحرب فيها من غير كلل ، واستمر النزاع بين الاثنين طويلاً ، حتى تدخل أصدقاء الطرفين بينهما لاقرار السلام فتم ، وتوصلوا الى حل وسطي ارتضاه الجانبان يقضى بأن يتسلم وليم جوردان عرقة وطرسوس وملحقاتهما ، وأن يكون لبرترام طرابلس وجبيل وتل الحجاج بكل ملحقاتها هي الأخرى ، وتم الأمر على هذا الوضع الذي ارتضاه الجانبان .

ولقد أصبح وليم - بسبب ما آل اليه من نصيبه في الامارة - نائباً لأمير انطاكية ، وقطع له يمين التبعية ، أما برترام فقد تسلم براءة تقلده الأراضي التي اقطعها له ملك بيت المقدس ، ملتزماً له بالتبعية الاقطاعية المعتادة ، على أنه في أثناء تدوين الاتفاق اشترطوا انه اذا مات أحد الطرفين من غير وريث يرثه خلفه الآخر في كل ما بيده مما يملك .

غير أنه بعد اقرار الأمر على هذه الصورة جد سبب تافه أدى الى شبوب النزاع بين كبار أتباع الأسرتين ، وسرعان ما امتطى الكونت وليم جوردان في لحظته جواده وخب به سريعاً الى هناك رجاء إعادة الأمور الى مجاريها ، لكن اصابه بالصدفة سهم غرب افضى الى موته ، فزعم البعض أن هلاكه إنما تم بمكيدة من مكائد برترام الدنيئة ، لكن لم يعرف حتى اليوم على وجه التحقيق الفاعل الحقيقي لهذا الجرح المميت ، وبذلك أصبح برترام المالك الوحيد للأقليم كله بعد زوال خصمه ومنافسه في امتلاك طرابلس على هذه الصورة

وكان الأسطول الجنوى الذى جاء معه يتألف من سبعين قرقرورة بقيادة اثنين من أشرف الجنوية هما أنسالدوس ، و « هيج امبرياكوس » اللذان اتضح لهما أن الوقت الذى يصرفانه فى حصار طرابلس وقت ضائع من غير سدى ، وأنه من الأجدى محاولة عمل شىء يستحق الذكر ، ومن ثم فقد التمسا من برترام - بأسلوب ودى - أن يصحبهما برا الى جبيل « ثم وجها الأسطول بنفسهما » .

وتقع مدينة جبيل على ساحل فينيقية ، وهى احدى المدن التى اشتهرت بتبعيتها لأسقفية صور التى كان لها عليها كل حقوق السيادة الدينية كما أشار حزقيال (٧) اذ يقول : « شيوخ جبيل وحكامؤها كانوا فيك فلاقوك ، جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك » .

ونطالع مرة ثانية فى الكتاب الأول من سفر الملوك فى شأن هذه المدينة ذاتها (٨) قوله : « نحت الجبيليون الحجارة المربعة ، وهياوا الإخشاب والحجارة لبناء البيت » .

وكان الاسم القديم لهذا المكان هو « ايف » اذ يعتقد الناس أن « ايفيوس » سادس أبناء كنعان هو مؤسسها .



أحدثت الجيوش بمدينة « جبيل » برا وبحرا حين أصبحت أمامها ، فاستولى على الأهالى حالة من الفزع الشديد لعدم ثقتهم

---

(٧) حزقيال ٢٧ : ٩ .

(٨) ملوك أول ٥ : ١٨ .

فى قدرة وسائل الدفاع المتوفرة لديهم ، لذلك أرسلوا سفارة الى قائدى الأسطول « انسالدوس » « وهيچ امبرياكوس » تعلن اليهما استعدادهم لفتح أبواب المدينة لهما والاعتراف بسلطانهما عليها ، على أن يؤذن بمغادرتها لمن أرادوا المغادرة من تلقاء أنفسهم ، ومعهم نساؤهم وبنائهم ، لا يلقون فى الخروج عنقا ولا ارهاقا ، وأما الذين لا يحبون ترك دورهم بالمدينة فيسمح لهم بالبقاء فيها تحت شروط مقبولة ، فأجيبوا الى طلبهم ، وتم استسلام المدينة للقائدين ( الجنوبيين ) ، وقام أحدهما وهو هيچ امبرياكوس بتسليمها لأمد محدد بعد الاتفاق على قدر معين من المال يدفع سنويا لخزينة الجنوبية ، وهذا الرجل هو نفسه جد هيچ الذى يحكم المدينة لليوم ويحمل نفس الاسم واللقب ، ولما تم أخذ المدينة على هذه الصورة رجع الأسطول مرة ثانية الى طرابلس .

## - ١٠ -

بادر الملك بالذهاب الى طرابلس حين علم أن أسطول الجنوبية لايزال يتجول فى نواحيها بعد انتهائه من الاستيلاء على جنبل ، وسعى الى ضم الجنوبية الى خدمته الخاصة وفق شروط معينة ليتمكن بمساعدتهم من أخذ مدينة أخرى من المدن الساحلية ، إذ كانت لاتزال على شاطئنا أربع مدن ناشئة هى بيروت وصيدا وصور وعسقلان التى تكون فى مجموعها عائقا كبيرا أمام خططنا لتوسيع رقعة مملكتنا الشابة ، لذلك أحدث حضور الملك فرحة كبرى فى نفوس الجميع ممن كانوا قائمين بالحصار برا وبحرا ، وزادتهم حماسة فى الاقبال على ما بيدهم من العمل . كما كان حضوره مصدرا طمأنينة كبيرة للقائمين بالحصار أمام المدينة ، وتضاعف بأسهم ، وزادت ثقتهم بقدرتهم ، وكان وصوله هذا داعيا - من ناحية أخرى - لتزايد يأس المحصورين والقضاء التام على أملهم فى المقاومة .

على أن عدد الصليبيين أخذ في التناقص بقدر ما تضاعفت قوتهم التي كانت كلما زادت زاد ظهور ما عليه أعداؤهم من ضعف ، لذلك عمد عسكرينا إزاء هذا الموقف لتجديد هجومهم اعتمادا على الامدادات الجديدة التي جاءتهم ، فكانوا لا يدعون فرصة تلوح لهم الا اغتتموها لتشديد ضغطهم على العدو بروح عالية حتى ليخيل لرأيهم أنهم في مستهل الحصار رغم أنه كان قد مضى عليهم مايقرب من سبع سنوات متتالية وهم يمارسونه ببأس كبير .

ورأى الأهالى أن قوة الصليبيين تتزايد يوما بعد يوم عكس التناقص المستمر في قوتهم هم أنفسهم ، وادركوا أن قد انهكهم الجهد المتواصل الذى يبذلونه ، كما فقدوا كل أمل فى وصول أى نجدة اليهم ، فقلبوا الأمر على شتى وجوهه فيما بينهم ، جاعلين نصب أعينهم وضع حد لهذه الأهوال الكبيرة ، فبعثوا بالرسل الى الملك والى الكونت يقترحون الاستسلام لهما بالشروط التالية :

أن يسمح بحرية الخروج بلا عائق لمن أراد مغادرة المدينة ، مع الاذن له باستصحاب أهل بيته وحمل حاجاتهم الى أى جهة شاءوها ، اما الذين لا يحبون الرحيل عنها فيسمح لهم بالبقاء فى دورهم سالمين آمنين ، مع احتفاظهم بها تملكه أيديهم لقاء دفعهم للكونت سنويا قدرا معينا من المال .

استمع الملك الى مطالب الأهالى هذه وراح يتشاور بشأنها مع الكونت وأهل الرأى ثم أعلن قبوله لهذه الشروط على أن تسلم له المدينة فى الحال ، ووقع هذا القرار موقع الرضا من الجميع ، فبعثوا فى احضار الأهالى وأجابوهم الى ما التمسوه ، واقسموا اليمين على الوفاء لهم بهذه الشروط دون شجب أو غدر ، واذ ذاك استسلمت المدينة وفتحت أبوابها لجميع من أراد دخولها .

وتم الاستيلاء على طرابلس عاشر يوم من يونيو سنة ١١٠٩ من عيلاد المسيح كما قام « برترام » فى الوقت ذاته وأعلن ان طاعته للملك حق فى عنقه ، وأصبح تابعا اقطاعيا ، وصار خلفاؤه منذ هذا الحين حتى اليوم ملتزمين بنفس هذه التبعية للملك بيت المقدس .

بعد أن استرد بلدوين كونت الرها حريته عزم على الذهاب الى ملطية فى صحبة رفاقه فى السلاح لزيارة جبريل والد زوجته الذى كان رجلا فاحش الثراء ، ونظرا لكثرة الرجال الذين كان الكونت يستخدمهم فقد كانت حاجته ماسة للعمال يسدد به جامعاتهم لقاء خدماتهم الحربية والتزاماتهم التى يؤدونها له على أحسن وجه ، ولذلك فقد عمد الى خطة ذكية كل الذكاء ، مأكرة كل المكر . درس فيها - فى مهارة محسوبة - كل تفاصيلها لتطابق الوقت الذى يمكنه فيه مقابلة حميه .

وبعد أن أعد الكونت كل الترتيبات اللازمة للرحلة مضى الى حميه جبريل الذى رحب به ترحيبا حارا فاق كل واجبات الضيافة ، فقد تبناه جبريل واعتبره واحدا من أهل بيته وتبذلت التهانى - كما هى العادة - بين الجانبين ، وأظهروا علامة السلام بالأحضان الكثيرة .

وظل الكونت مقيما عنده بعضا من الوقت حتى جاء يوم وقد استغرق فيه الاثنان فى حديث طويل فى بعض الشؤون الهامة حين ظهرت جماعة من فرسان الكونت - بناء على تدبير سابق بينه وبينهم - وقطعت على الاثنين حبل حديثهما ، ثم تقدم أحد هؤلاء الفرسان الى الكونت وقال له نيابة عن رفاقه : « ليس من أحد يعلم أكثر منك أيها الكونت كيف اخلص هذا النفر من الفرسان فى الحرب من أجلك زمنا طويلا وصدق اخلاصهم ، وكيف أدوا ذلك بشجاعة فائقة اعتمادا منهم على وعدك الصادق لهم .

« وإنك لتعلم أيضا مدى الأموال الكثيرة والبلايا الجمة التي تحملوها زمنا طويلا في سسبيك ، وما كابدوه من السهر الدائم والجوع الشد والظما الممض والبرد القاسى والقيظ اللافح ، اعتمادا منهم على وعدك الصادق لهم ، وحفاظا منهم على سلامة روحك وسلامة امارتك التى وضعتها العناية الالهية وديعة فى يدك لقرعهاا ولتدفع عنها ضرر العدو .

« وإنك لتعلم كيف تعرضوا لهجمات الأهالى ومن لازال مقيما هناك من الكفار ، وكيف قضوا على محاولات اعداء الصليب .

« والآن فان هذا الرهط من الفرسان يدعوك لأن تشهد بالخدمات التى أدوها لك ، وأنت تعرف اننا ظللنا نخدمك وقتا طويلا دون أن نقسلم فيه منك أجرا حتى اضطررنا - تحت الحاجة الملحة - لأن نطلب منك مرارا اعفاءنا من الخدمة عندك ، وكثيرا ما أدى تعاطفنا معك الى استجابتنا لتوسلاتك فى أن نتريث بعض الوقت ، وكنا نستمع اليك مستمسكين بالصبر يوما بعد يوم ، أما الآن فقد بلغت الروح الحلقوم ، وصرنا فى حال لانستطيع معها الانتظار أكثر مما انتظرنا ، فقد كثر الفقر العاتى عن أنيابه لنا ، وهذا ما يحملنا على أن نرفض أن نستجيب لك فى التأخير أو التأجيل أكثر مما احتملنا ، فاختر لنفسك أحد اثنين ، اما أن تنقذنا ما نستحقه عندك من أجر يسد حاجتنا ، واما أن نصبح فى حل من الاتفاق الذى ربطت به نفسك معنا ، .

وتعجب جبريل من مغزى هذا الكلام ومن خشونة هذه اللجة التى تنذر بشر مستطير ، وتمكن أخيرا من أن يحاط علما بالموقف عن طريق المترجمين ، ثم استفسر عن طبيعة هذا الالتزام الذى ربط به الكونت نفسه ليدفع أجورهم ، فاعتصم الكونت بلدوين بالصمت كما لو كان الخجل قد عقد لسانه حتى الجمه فلم يجد ينطق ، ولكن

المتحدث باسم الفرسان اجاب بأن هذا الالتزام يقضى بأنه اذا جاء اليوم المحدد لدفع أجورهم ولم يدفعها لهم حلقوا لحيته دون معارضة منه . فذهل جبريل من هذا الاتفاق الذى لم يسمع بمثله من قبل ، وجاوز دهموله كل حد حتى انه ضرب كفا بكف وهو يزقر ويغلى غضبا .

ذلك أن الشرقيين - من اغريق وغيرهم من الشعوب - يحترمون اللحية احتراماً بالغا ، وإذا حدث أن انتزعت - ولو صدفة - شعرة واحدة من لحية أحدهم كان ذلك اهانة عظمى وعارا لا يمضى .

واستفسر جبريل من الكونت عما اذا كان واقع أمره يتفق والصورة التى قررها الفرسان ، فجاءه الرد بالاجاب ، فسأله ثانية وهو لايزال مندهشا عما حملة لأن يقسم لهم بشيء له من التقدير العظيم ما يرقى الى أن يكون ظاهرة فردية خاصة ويعتبر شرفا للإنسان يعلى مكانته ، فان ضاع ضاع شرفه ، فأجابه الكونت قائلا :

« لقد اقسمت بلحيتى لأنى لا أملك شيئا أغلى قدرا منها يتكافأ ومطالب جندى القوية ، ولكن لا يشغلن مولاي ووالدى باله بهذا الأمر ، لأننى أطمع أن تسعفنى رحمة الرب فيمنحنى هؤلاء الفرسان مهلة أعود خلالها الى الرها فألبى مطالبهم ، وحينذاك أكون قد وفيت لهم العهد الذى أكدته بشرفى » .

غير أن الفرسان - بناء على ما لقنوه - أعلنوا على لسان واحد منهم أنهم منقذون تهديداتهم للدوق ، ومنفضون عنه فى الحال الى غير رجعة . وحينذاك ظهر التردد قليلا على جبريل الساذج الطبع ، والذى كان يجهل ما دبروه سرا فيما بينهم ، ثم أعلن قراره بأنه سوف يدفع للجند ما فى ذمة ختنه من مال ، ولن يترك رجلا

مثل هذا الكونت الذى ينزله منزلة الابن ليعانى هذا العار ، ثم سألهم ما قدر هذا الدين ؟ ، فقالوا له « ثلاثون ألف قطعة ذهبية ميخائيلية » وهى نوع من السكة الذهبية كان يجرى التعامل بها فى المعاملات التجارية العامة فى ذلك الوقت ، وقد سُميت باسم ميخائيل أحد أباطرة القسطنطينية الذى أمر بسك عملة عليها صورته •

وإذ ذلك وعد جبريل أن يدفع لزوج ابنته الكونت المبلغ الواجب عليه ، شريطة أن يعده وعدا قاطعا مؤكدا بأيمانه أنه لن يعود فيقيد نفسه لأى فرد مرة أخرى — مهما كانت الظروف الملحة — بمثل هذا القيد ، فلما تم دفع المال استأذن الكونت حماه فى السفر والعودة برجاله ، فاذن لهم وقد امتلأت جيوبهم عن آخرها بالنقود ، وزال عنهم فقرهم • وهكذا عاد الكونت الى امارته وهو أثرى مايكون •

## — ١٢ —

كان الملك بلدوين شديد التطلع دائما لفرصة تواتيه لرفع ذكر المملكة التى وهبها الله له ، وللقيام بعمل جدير بالقبول عند مولاه وحاميه ، لذلك فكر — وهو فى غمرة حماسه الدينية — فى السنة التالية اعنى سنة ١١١٠ من مولد سيدنا ( أن يرفع الكنيسة الموجودة فى بيت لحم الى مرتبة الكاتدرائية ، وكانت حتى ذلك الوقت لا تعدو أن تكون كنيسة عادية •

وسوف تتضح طبيعة هذا القرار وتصبح أكثر جلاء حين نطالع المرسوم الذى أصدره هذا الملك الشديد التقوى ، فهو كما يلى :

« لقد استطاع شعب الفرنجة بإيحاء وتوجيه علويين أن يحرر مدينة القدس الطاهرة من انتهاكات الكفار بعد أن طالت مضايقة الوثنيين لها ، وهى المدينة التى مات بها مخلصنا ميتة قضت على

الموت الذى جرى أول ما جرى على الجنس البشرى من جراء خطيئة  
أول أبوين لنا ، •

« وقد دخل ذلك الجيش ( اللاتينى ) هذه المدينة العابدة الرب  
يوم السابع من يونيو ، فلما كان الخامس عشر من يوليو سقطت  
فى يده لأن الرب حارب من أجلها •

« وفى سنة ١١٠٠ من مولد سيدنا ألهمت الارادة الالهية  
رجال الدين وريموند دى سنت جيل ، وكونت روبرت دى نرمندى ،  
وكونت روبرت دى فلاندرز ، وتانكريد ، وسواهم من كبار الرجال  
المصاحبين لجيش الفرنجة أن يقرروا وضع أمر المدينة المفتوحة فى  
يد أخى المحبوب الغالى ، والتقى الرحيم ذوق جود فروى ، غير أن  
ارادة الرب قضت أن يرحل عن الدنيا فى هدوء هذا الرجل الجدير  
بحب الله وحآكم هذه المدينة ، وكان رحيله (٩) فى اليوم الثالث بعد  
مرور العام الأول من حكمه •

« وأعلن - أنا بلدوين الذى اختارته العناية الالهية ليخلفه كأول  
ملك لللاتين ارتبضاه رجال الدين والأمراء والشعب - اننى قد نظرت  
بعين الاجلال الى عظمة كنيسة بيت لحم التى هى موضع ميلاد  
سيدنا يسوع المسيح ، والمكان الذى توجت فيه رأسى بالتاج المتلألئ  
وعزمت على أن أعزها بالمكانة الأسقفية الكاملة » (١٠) •

« ولقد ظل هذا الخاطر يراودنى زمنا طويلا بنية خالصة حتى  
انتهى بى الأمر أخيرا الى مفاتحة الأسقف المعظم « ارنولف » ورجال

---

(٩) كان موت جوفروى يوم ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ •  
(١٠) ذلك ان كنيسة بيت لحم كانت لاتعبر حتى ذلك الوقت أن تكون  
مجرد كنيسة عادية •

اللاكليروس فى القدس ، والاحت علىهم فى الرجاء أن يناقشوا معى ذلك الموضوع ، فوافقونى على التماسى العادل ، وقرروا الذهاب الى رومة لبحثه مع موضوع كنيسة القدس التى كانت رياستها فى ذلك الوقت شاغرة من غير رأس يدبر أمورها ، وكانت هذه السفارة مؤلفة من رئيس الشماسة « أرنولف » ومن « ارشارد » الذى كان فى ذلك الوقت كاهنا ، فمضيا الى رومة مؤيدين بالروح القدس ، ولقيا مساعدة كريمة فى كلا الموضوعين من جانب بسكال بابا الكنيسة الجامعة ، ثم عادا بعدئذ الى بيت المقدس ، وقام البابا بسكال بعد رحليهما فارسل الى بيت المقدس رئيس أساقفة « آريس » المدعو « جبيلين » وكان رجلا المعيا يحيا حياة شديدة الطهارة ، وعهد اليه فى حضرة كل من « أرنولف وارشارد » بالقيام بهذه المهمة .

وقد قوبل « جبيلين » بأعظم فرحة من قبلى وقبل رجال الدين والشعب قاطبة ، وراح يتصرف وفق مايرى ، بناء على الأوامر التى تلقاها من البابا بسكال ويفضل حسن نيتى ، ورضاء جميع رجال الدين ببيت المقدس وتأييد المجتمع ، فقرر أن يصبح « اشتينوس » المبجل أول أسقف لبيت لحم ، وكانت له من قبل الرئاسة على هذه الكنيسة ذاتها ، كما كان كبير مرتليها ، وهو الذى اختاره رجال الاكليروس بالقدس بناء على رغبتى ورغبة كبار رجالاى والشعب ليكون أسقف عسقلان ، فجعل كنيسة عسقلان - تنفيذا لارادتى وامرى - تابعة لأبرشية بيت لحم الى حد ما .

« وأخيرا فاننى - أنا بلدوين الذى هو برحمة الرب أول ملك لا تبنى لبيت المقدس - قد رحبت مسرورا لقراراته هذه وأكدها بكل قواى .

« كذلك منحت بمحض ارادتى الأسقف وحلفاءه ملكية مدينة بيت لحم ويكون لهم التصرف فيها ، وهى التى كنت قد أقطعتها

للكنييسة لخلاص روحى وأخى الدوق الرحيم جود فروى وجميع  
أرواح أقاربى •

« كذلك أقطعتُه ومنحته قرية فى إقليم عكا تدعى « البيدر »  
وأخرى فى إقليم نابلس اسمها « سيلون » وثالثة قرب بيت لحم  
اسمها بيت بيزان ، وكذلك قريتين فى أرض عسقلان هما «زوفير »  
وكيكفا بكل محلقاتهما •

« كذلك خلصت الكنييسة المشار إليها مما كانت تثن منه ومما  
كانت ترميها به كنييسة بيت المقدس فيمّا يتعلق بالأرض والبساتين  
الموجودة فى ضواحي بيت المقدس التى هى جزء من أملاكى  
الخاصة •

« وزيادة على ذلك فأننى قررت أنه إذا استسلم أحد رجال  
الدين أو العلمانيين للمطعم الدنىء ، فتجاسر بعد موتى على شجب  
ما تم برضائى وتأييد الروح القدس ( فيما يتعلق بكنيسة بيت لحم  
المعظمة باعتبارها موضع ولادة سيدنا ومخلصنا ) ، وبمعونة  
بسكال العظيم بابا الكنييسة الرومانية الموقر وبواسطة وكالة نائبه  
« جبلين » رئيس أساقفة « آرليس » فان هذا الشخص سيعتبر متهما  
بالتعدى ، فان لم ينفع معه التحذير الكافى بالتراجع عما أقدم عليه  
فسيعاقب عقابا صارما وينفى نهائيا من مملكتنا •

« وزيادة على ذلك فانه اذا رغب أحد من نبلائى أو فرسانى أو  
مواطنى اللهمين بروح الرب فى أن يتنازل عن بعض ما يملك لهذه  
الكنيسة ذاتها من أجل خلاص روحه وأرواح أقاربه فأننى امنحه  
الحرية فى تنفيذ وصيته الطاهرة ، وتعتبر هبته هذه نافذة شرعا ،  
وتؤخذ من أملاكه •

« ان قرار هذا التنازل وتقرير الأشياء التي تمت قد وضعت وتأكدت بامضائنا فى سنة ١١١٠ من مولد سيدنا ، وفى الدورة الثالثة ، وفى زمن بابوية بسكال الثانى بابا الكنيسة الرومانية ، ووقت أن صار رئيس أساقفة « آريس » « جبلين » نائب الكنيسة الرسولية هو البطريرك المنتخب لبيت المقدس » شهد على ذلك :

- أرنولف الملران : رئيس الشمامسة
- ارشارد الكاهن
- استاس جرنبيه
- انسلم قيم برج داود
- رالف دى فور تيانيتو ، فيكونت بيسلوس
- سيمون بن الدوق
- انفريد رجل الدين
- جيرار الحاجب
- وكثيرون غيرهم

- ١٢ -

كان جلالة الملك الفاتح العظيم والعابد لله بالحق يسعى دائما وأبدا من غير ملل لزيادة رقعة المملكة التي عهد الرب بها اليه ، وحدث فى فبراير من تلك السنة ذاتها ان اغتتم فرصة مجيء بعض الشوانى لتعضية الشتاء فى المملكة فجمع من كل رحاب مملكته عسكرا بقدر ما استطاع الصليبيون تقديمه وحاصر بهم بيروت •

وتقع هذه المدينة على ساحل البحر فى فينيقية بين جبيل وصيدا ، وهى احدى المدن الكبرى التابعة لأسقفية صور ، وكانت فى القديم موضع رعاية الرومان الذين اعتبروها احدى مستعمراتهم ومنحوها حقوق المواطنة ، وحين كتب « أولبيان » عن ولاية فينيقية فى « مختصره » تحت عنوان « الاحصاء » قال : « تمتاز مستعمرة بيروت - الواقعة أيضا فى نفس الولاية - عن غيرها بالعطف السامى يحبوها به الامبراطور » ، ويتكلم هارديان المبجل عنها فى خطبة من خطبه باعتبارها مستعمرة « أوغستوس التى تتمتع بالحقوق الايطالية » ، ولم يقتصر هذا الامبراطور على منح بيروت الحقوق الايطالية فحسب ، بل زاد فخصها بميزة أخرى هى حقها فى تأسيس المدارس الرومانية بها وهى ميزة لم تمنح الا لقلّة من المدن .

ويطالع المرء فى الكتاب الأول من القانون الدستورى الذى يبدأ بقوله : « وفى بيروت يوجد أيضا مدرس القانون دوروثيوس » ، والمعتقد ان اسم هذه المدينة كان فى زمن سابق جدا هو « جيرسى » نسبة الى مؤسسها « جيرسيوس » خامس أبناء كنعان .



ولما وصل الملك بلديون امام بيروت استدعى اليه « برترام » كونت طرابلس ، طالبا منه الانضمام اليه ، وشرعا فى الحال فى الاطباق عليها أطباقا عنيفا ، ولكن أقبلت السفن من صور وصيدا وعليها المحاربون الشجعان استعدادا لمساعدة المدينة ، ولو اتبعت لهؤلاء الناس حرية الذهاب والمجئ لتبددت هباء جميع محاولات الذين حاصروها ، لكن حين وصل الأسطول المسيحى الذى كان الملك يعتمد على معاونته فى الحصار خافت تلك السفن المعادية أن تخرج الى عرض البحر ، وسرعان ما ارتدت الى الميناء ، ومن ثم لم يعد الاهالى قادرين على القدوم من البحر أو الخروج اليه .

وكان على مقربة من المدينة غابة من الصنوبر استطاع الجيش المحاصر أن يحصل منها على كميات ضخمة من الخشب تصلح لصناعة سلال القسلق وكل أنواع الآلات ، فصنعوا منها الأبراج الخشبية وآلات الرمي وشتى صنوف العدد النافعة فى الحصار ، وواصلوا هجومهم على المدينة بصورة لم تدع للمدافعين عنها ولو ساعة واحدة من الراحة بالليل أو النهار ، وأخذ الصليبيون يتناوبون العمل فى دوريات الواحدة منها بعد الأخرى ، فانهكوا قوى خصوصهم إذ حملوهم من الجهد مالا يطيّقون ، واستمر الصليبيون مدة شهرين فى هذه المهمة بهمة صارمة ، وبينما كانوا فى أحد الأيام يشنون غاراتهم على أماكن متفرقة من المدينة فى وقت واحد وبعنف أكبر مما يتطلبه العمل إذا برهط من العسكر قد نفذ صبرهم فقفزوا على السور من الأبراج الخشبية التى كانت مسندة الى الجدران ، واقتدى بهم غيرهم ، وانطلق غير هؤلاء يتسلقون سلال الصعود ثم هبطوا جميعا وراء السور ، وشقوا طريقهم الى داخل المدينة •

لم يجد الأهالى حينذاك بدا من الفرار الى الساحل مما مكن جيشنا من دخول المدينة من غير أن يلقى كيدا واستحوذ عليها كلها ، ولما جاء الخبر بأن الملك وعسكره اقتحموا البلد وثب الصليبيون الموجودون على ظهور السفن الى اليابسة واحتلوا الميناء ، وردوا الى وراء بسيوفهم جموع الأهالى الذين قروا على وجوههم عسى أن يجدوا مكانا آمنا ، وأرغموهم على الرجوع حتى صاروا وسسط أعدائهم ، ولما شاء سوء طالع أهل البلد أن يحصروا بين فريقين معادين لهم فقد ضاقت بهم السبل وضلوا الخطى ، فكانوا يمضون تارة نحو هذا الفريق وتارة نحو الفريق الآخر ، فتناوشتهم سيوف الجانبين فأهلكتهم •

وأخيرا استنقذ الملك هذه المذبحة التى لاتعرف الرحمة ، فأمر  
أن ينادى بوقفها ، ومن بالحياة على من بقى على قيد الحياة من  
المغلوبين الذين راحوا يلتمسون رحمته .

وكان الاستيلاء على هذه المدينة يوم ٢٧ إبريل سنة ١١١٠ من  
ميلاد سيدنا .

## - ١٤ -

وأبحر فى هذه السنة ذاتها طائفة من الحجاج من الجزر  
الموجودة فى الغرب ، لاسيما من البلاد المسماة بالنرويج بعد أن  
سمعوا بخبر استيلاء أتباع المسيح الصادقين على مدينة بيت المقدس  
الطاهرة ، ومن ثم رغبوا فى الذهاب إليها طمعا منهم فى تأدية  
الواجب الدينى ، لذلك أعدوا أسطولا لآباس به وأقلعوا ، فهب عليهم  
ريخ رخاء ظلوا معها مبحرين فى القنال الانجليزى حتى اجتازوا  
المضيق الموجود بين كالب وجبل أطلس ودخلوا بحرنا وساروا  
مصاقيبين لساحله حتى بلغوا يافا ، وكان قائد أسطولهم شابا فارح  
القامة ، أبلج الطلعة هو أخو ملك النرويج ، فلما القوا مراسيهم  
بالميناء ونزلوا الى البر يعموا وجوههم مباشرة شطر القدس وهى  
الغاية المنشودة من حجهم هذا .

ولما ترامى نبأ وصولهم الى سمع الملك أسرع الى مقابلتهم  
ورحب ترحيبا كريما بالأمير محييا آياه ، وحاول فى اثناء حديثه  
الودى ان يتأكد عما اذا كانت هذه الحملة البحرية تعتزم البقاء فى  
المملكة بعضا من الوقت ، فان كان الأمر كذلك فهل يقبلون ان يبذلوا  
عن طيب خاطر بعضا من وقتهم لخدمة المسيح حتى يستطيع  
الصليبيون بفضل جهودهم الحماسية أن يزيّدوا رقعة ما يملكون  
باستيلائهم على واحدة من مدن الكفار ؟ .

ويعد أن تشاور الاسكندناويون فيما بينهم أجابوه بأنهم ما جاءوا  
الا بهدف تكريس أنفسهم لخدمة المسيح ، وزادوا على ذلك بأنهم  
على أتم أهبة للابحار على وجه السرعة الى أى مدينة ساحلية  
يريد الملك وجيشه محاصرتها ، ولم يطلبوا ثمنًا لقاء خدماتهم هذه  
سوى امدادهم فقط بما يلزمهم من الطعام .

أصاخ الملك الى ماقالوه والفرحة تغمره ، وسرعان ما تجمع  
لديه حشد كثيف من جند المملكة صار جيشا ضخما زحف به لحظة  
ابحار الأسطول من ميناء عكا وأسرع ما وسعه الاسراع حتى وصل  
الجيشان أمام المدينة فى وقت واحد تقريبا .



وصيدا ، مدينة بحرية بالغة الأهمية ، وتقع بين بيروت وبين  
صور العظيمة التى تعتبر جزءا هاما من فينيقية ، وكثيرا ما ترد  
الاشارة اليها فى كتابات المؤلفين القدامى والمحدثين على السواء ،  
فمن ذلك ان سليمان فى كتاب الملوك يكتب الى حيرام ملك صور  
فيقول :

« والآن فأمر أن يقطعوا لى أرزا من لبنان ، ويكون عبيدى  
مع عبيدك ، وأجرة عبيدك أعطيك اياها حسب كل ما تقول ، لأنك تعلم  
انه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين » (١١) .

ويشير سيدنا أيضا فى الانجيل الى هذه المدينة فيقول : « لو  
صنعت فى صور وصيدا القوات المصنوعة فيكما لتأيتا قديما فى  
المسوح والرماد » (١٢) .

---

(١١) ملوك اول ٥ : ٦ .

(١٢) متى ١١ : ٢١ .

ونقرأ فيما نقرأ أن المدينة تأسست على يد كنعان حيث لانزال الى اليوم نحفظ باسم منشئها ، كما انها تعد واحدة من المدن العظمى التابعة لمطانية صور .

وهكذا أهدقت قواتنا بصيدا بحرا وبراً حتى تملك الأهالى الخوف بصورة أدركوا معها ألا جدوى من وراء مقاومتهم هذه القوات وأيقنوا أنهم عاجزون عن الصمود فى وجهها ، ودفعتهم الرغبة فى تجنب الخطر المهدق بهم الى محاولة الحصول بالحيلة على ما يعجزون عن نيله بالقوة .



وكان فى حاشية الملك رجل يدعى بلدوين وكان من أخلص الناس له ، ويعتبر حاجبه الخاص ، وكان فى بادىء أمره وثنيا ، ثم طلب أن يعمدوه ، فلم يكتف الملك بدافع من حماسه الدينية أن يرحب به فى جرن المعمودية المقدس ، بل سماه باسمه ، وجعله واحداً من خاصكته .

وان كان كبار رجال صيدا قد أجمعوا عزمهم على التماس أى وسيلة لتحرير أنفسهم ، فقد أرسلوا فى السر وسطاء لمفاوضة هذا الرجل ، ووعدوه بقدر كبير من المال وبأمالك شاسعة فى المدينة ان هو تمكن من اغتيال الملك فيخلصهم بذلك من خطر كبير ، وكان هذا الرجل بلدوين ( المنتصر ) مقرباً من الملك كل القرب أثيراً عنده ، وكثيراً ما كان يصاحب مولاة ولاأحد معهما ، بل انه كان يرافقه حتى حين يمضى لقضاء حاجته الطبيعية ، ومع ذلك فقد رحب بالاقتراح الذى عرضوه عليه ووعدهم بتنفيذه ، والواقع أنه كان ضالعا تماماً فى الجريمة ، ولم يكن ينتظر الا اللحظة المناسبة لانجاز فعلته .

غير أن طرفا مما دبروا ترامى الى علم بعض مسيحيى المدينة الذين خافوا أن يتم هذا العمل البغيض بسبب غفلة الملك ، فبعثوا إليه خطايا مجهولا يفصلون فيه المؤامرة ، وربطوه بسهم رموه فوق فى وسط جيشنا ، وشاعت الصدفة أن يقع الكتاب فى يد الملك فيتبلبل خاطره أشد بليلة ، وحق له أن ينزعج ، فاستدعى اليه فى الحال جميع كبار نبلائه وسألهم ماذا يشيرون عليه فيتبعه ، ثم جاءوا بالمذنب أمامهم فاعترف بجرمه ، وقضى القضاء بموته شنقا .

حين ذاع فشل هذه الخطة حاول الأهلئ بلوغ غايتهم بطريقة أخرى ، اذ بعثوا رسلا يلتمسون الاذن لكبار رجالهم بمغادرة صيدا ، على أن يبقى الأهلئ على ما كانوا عليه من قبل وفق شروط مقبونة حتى يتابعوا زراعة الحقول ، فأجيبوا الى ما التمسوه ، واستسلمت المدينة ، وأذن لوجوه القوم بالرحيل من غير مضايقة والذهاب حيثما شاءوا ، مستصحبين معهم حريمهم وأولادهم .

وبادر الملك فى لحظته هذه فتفضل على أحد نبلائه وهو « أستاس جرنبيه » فأقطع المدينة ( أى صيدا ) وجعلها وراثية فى عقبه ، فلما تم ذلك استأذن رجال الأسطول ( النرويجى ) فى العودة من حيث جاءوا فأذن لهم فرحلوا محملين بالهدايا الثمينة ، وعادوا الى بلادهم ، تشجيعهم دعوات الجميع .

وكان الاستيلاء على المدينة يوم ١٩ ديسمبر سنة ١١١١ من مولد سيدنا .

- ١٥ -

مات فى غضون هذا الوقت « جبلين » بطرك بيت المقدس الطيب الذكر ، فاختر مكانه ( من غير تأييد الالهى فى رأينا ) أرنولف كبير رجال الدين الذى عرف على السنة العامة بذى التاج المشين ، وهو

الرجل الذى اشررت اليه كثيرا فى الصفحات السابقة ولكن « حتى لا يملك الفاجر ولا يكون شركا للشعب » (١٣) ، ظل « أرنولف » يتابع نهجه الذى اخذ نفسه به سابقا ، ثم زاد فارتكب كثيرا من المعاصى تفوق ما ارتكبه من قبل ، منها أنه زوج بنت أخته (١٤) للورد « أستاس » جرنبيه « أحد عظماء المملكة وحاكم المدينتين الرائعتين : صيدا وقيصرية . وحين زفها اليه أقطعه معها أحسن أرض من أوقاف الكنيسة وهى « أريحا » بكل ملحقاتها مع دخلها السنوى الذى يقال انه يبلغ اليوم خمسة آلاف قطعة من الذهب ، كما أن أرنولف هذا لم يتورع - حتى وهو فى كرسى البطركية - عن ممارسة حياة الدنس حتى صار عاره أمرا معروفا للجميع غير خاف على أحد ، ولم يحاول هو كتمان هذه الحقيقة فبدل النظام الذى كان القادة الأوائل قد أرسوا قواعد بعد تدبر دقيق فى كنيسة بيت المقدس ، فسن هو شرائع جديدة ، كما أغرى الملك بالزواج من امرأة أخرى فى الوقت الذى كانت زوجته لاتزال حية ، كما سنسوق ذلك فى موضع آخر .

## - ١٦ -

لم تكد تنقضى فترة قصيرة على سقوط صيدا حتى حشد القوم بفارس جيشا ضخما أرادوا من ورائه التظاهر بماهم عليه من قوة ، حتى يتسنى لهم التفأخر فى أيامهم القادمة ، وانطلقوا بهذا الجيش الى بلاد الشام فكانوا وباء استشرى خطره فى المسيحيين ولم يسلموا منه منذ أول قدوم اللاتين حتى السنة الأربعين من تأسيس المملكة ، وكان هذا الطاعون أشد فتكا فيهم من الحية « هيدرا » ذات الرؤوس

---

(١٣) أيوب ، ٣٤ : ٣٠ .

(١٤) هى الكونتيسة أوليدا الصقلية الثرية ، ثم بدا له وقد دنا أجله أن يتوب عن اتمه ، وان يرد اليه زوجته السابقة .

التسعة التي ما ان تقطع لها رأس حتى تظهر أخرى مكانها تزيد من شهرها ، فقد كان يحدث كل عام تقريبا أن تخرج من قلب فارس جموع كثيفة من ذلك الشعب البغيض ، وينساب في أرتال ضخمة تكاد تغطي وجه البسيطة ، ولكن الرحمة الالهية عطفت على آلامنا فأقامت مملكة استطاعت أن تقف في وجه سفاهة الفرس المستبدين ، وتمثلت هذه المملكة في شعب الايبيريين (١٥) الذي شاعت رحمة الرب ان يتزايد في العدد والبأس بفضل نجاحه المتواصل ، حتى تمكن من القضاء على جبروت الفرس الذين كان الايبيريون من قبل يتوجسون منهم خيفة ، ويفزعون منهم فزعا شديدا ، أما الآن فقد جاء دور هؤلاء وأصبحوا أكثر من الفرس جندا ويفوقونهم في استعمال السلاح ، وهكذا فان السلاجقة الذين ظلوا مدى طويلا ييثون الفرع - حتى في أقصى الممالك عنهم - أصبحوا الآن يحسون بالرضا ان هم وجدوا شيئا من السلام ولو مؤقتا داخل حدود بلادهم .



ونرى أن ايبيريا المعروفة أيضا باسم « افسجويا » تتصل بفارس من الشمال ، وأهلها قوم طوال القائمة عرفوا بقوتهم الجثمانية ويطشهم وبحبهم للقتال ، وقد مكنتهم ممارستهم الحروب وهجماتهم المستمرة من أن يمرغوا في التراب أنف القوات الفارسية التي أصبحت تشعر بأنها غير مكافئة لهم ، ومن ثم أصبح الفرس جزعين على حالهم وكفوا عن اجتياح أراضي الغير .

---

(١٥) أشارت المترجمة الانجليزية ( ج ١ ص ٤٩٠ حاشية رقم ٦٧ ) الى أن ايبيريا <sup>IBERIA</sup> التي نسب اليها هذا الشعب كانت إحدى ولايات الامبراطورية البيزنطية الادارية قبل مقدم السلاجقة ، وتقع جنوب القوقاز .

اقد خرج ذلك الجيش الضخم ( اعنى سلاجقة فارس ) كما قلت من بلاده مارا ببلاد العراق فعبّر نهر الفرات العظيم مخربا النواحي التي يمر بها هناك ، وحاصر تل باشر حيث أمضى شهرا بأكمله يبذل الجهود المضنية أمام هذا المكان ، لكنها ضاعت هباء ، حتى اذا بئس في النهاية من النجاح رأى التخلي عن هذه المحاولة فمضى الى حلب ، واذا كان يعتمد على كثرة عدده فقد كان يطمع أن يرغم تانكريد على الخروج والاندفاع في مهاجمته دون أن يأخذ حذره • غير أن تانكريد كان رجلا كيسا لا يصدر عنه عمل الا عن روية وتفكير ، فبعث بالكتب على أيدي رسل من قبله الى بلدوين يلتمس منه في ضراعة أن يسرع ما وسعته السرعة للحضور لنجدة والوقوف الى جانبه ، فجمع بلدوين في الحال عسكره ، واستصحب معه « برترام » كونت طرابلس ، وزحفا الى تلك الناحية بجيوشهما ، فلما وصلا الى مدينة « الروج » وجدا تانكريد قد سبقهما اليها ، فساروا جميعا جنبا الى جنب ، وتقدموا ضد الخصم الذي وجدوه معسكرا عند شيزر حين بلغوها •

واخذ كل من الجيشين يطالع الآخر ويتأمله ، وانتهى الأمر أخيرا بانصراف الترك عن القتال ومغادرة تلك الناحية ، واذا ذلك استأنذ الصليبيون بعضهم بعضا في الرجوع فعاد كل الى بلده •

## - ١٧ -

في هذا الوقت كانت جميع المدن الساحلية الممتدة من اللانقية بالشام حتى عسقلان - التي هي آخر مدن المملكة - قد صارت في يد الصليبيين ، باستثناء صور التي كانت لاتزال وحدها في أسر الجاحدين ، ولما شاءت ارادة الرب أن يتمكن الملك من تحرير كل ماسواها فقد أزمع بلدوين الأول على أن يكرس نفسه لتخليص صور أيضا ، فجمع كل السفن التي أمكنه العثور عليها على امتداد

الساحل كله ، وجعلها أسطولا وجهه للسير الى تلك المدينة بأقصى سرعة ، وكذلك حشد كل القوات البرية ، وجمع الناس من شتى رحاب المملكة ومشى بهم الى هناك ، وجعل من عسكره دائرة أحاطت بالمدينة من كل جهاتها وحاصرتها •



وتقع صور في قلب البحر اشبه بجزيرة تحيط بها المياه من كل جانب ، وهى عاصمة فينيقية وقصبتها الدينية التى تمتد من نهر « بانياس » الى « بترا انكسيا » على حدود « دورا » وتضم فى نطاقها أربع عشرة مدينة كبرى •

وسنقفل فيما بعد جميع المزايا التى يتمتع بها موقع هذه المدينة حينما نأتى الى رواية خبر حصارها النهائى والاستيلاء عليها بمشيئة الرب •



وهكذا فرض الحصار على صور •

ولما كان بلدوين شديد التطلع لنجاح مشروعه فإنه صرف نفسه قلبا وروحا الى مراوحة المكان ومغاداته بشتى أساليب المضايقة حتى يحمله على الاستسلام ، ولم يترك وسيلة من وسائل الحصار الا وطبقها ، بإذلا غاية جهده لادخال مدينة صور تحت سيطرته ، وراح يواصلها بسلسلة من الغارات قد أخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، فأنهكت قوى الأهلالي ، وزلزلت أسوار المدينة وأبراجها من كثرة ما كانت ترميها به الآلات ، كما سقط على البلد وابل غير منقطع من السهام والرماح ، وعمد بلدوين - رغبة منه فى صب الأهوال على

المدينة -- الى اصدار امره ببناء برجين خشبيين أعلى من جميع الأبراج الحجرية ، حتى أصبح من اليسير على المرء -- وهو واقف فوقهما -- أن يشاهد المدينة كلها تحته • وقد استفاد بلديون من هذين البرجين أجل فائدة لما كانا ينزلانه بالبلد من الخراب والدمار اللذين لم يكن هناك سبيل للنجاة منهما •

غير أن أهل البلد أثبتوا أنهم رجال انذكاء وابطال مغاوير ، بارعون فى تدبير كل انواع المكائد ، فكانوا يقابلون كل خطة بخطة مثلها ، ويجدون فى دفع كل ضر ينزل بهم بضر مثله يلحقونه بالصليبيين ، من ذلك أنهم جلبوا كميات كبيرة من الأحجار والاسمنت ، واعتلوا برجين يواجهان آلاتنا الحربية تمام المواجهة ، ثم راحوا يزدبون فى ارتفاعهما زيادة تشاؤ ارتفاع أبراجنا ، وسرعان ما صار برجاهما فى وقت قصير جدا أعلى من الآلات الخشبية التى أمامهما ، والموجودة خارج الأسوار ، وشرع من بهما من مدافعهم يصبون النيران على الآلات الحربية التى تحتهم ، وتأهبوا لحرق كل شيء دون أن يجدوا معارضا لهم •

حينذاك رأى الملك أن كل خطة يدبرها تقابل فى الحال بخطة مثلها تفسدها ، هذا بالإضافة الى ما أصابه من انهك بسبب مواصلة العمل الطويل الذى استمر أربعة شهور أو أكثر دون أن يجنى منه أى فائدة ، وإذ ذاك أدرك أنه مضيع وقته أمام أسوار صور ، فتخلى عن محاولته هذه ، مغلوبا على أمره فى مشروعه ، ورفع الحصار عن المدينة وانكفأ عائدا الى عكا ، وفرح الباقون بالرجوع الى ديارهم •

- ١٨ -

مات في هذه الاثناء تانكريد ذو الذكر الطيب والمخلص للسيد ،  
وستظل كنيسة القديسين الجامعة تبكيه وتذكر ايامه عليها وتشيد  
بفقواه ، وحدث وهو مسجى على فراش موته ان كان ممن يقومون  
على خدمته شاب اسمه « بونس » هو ابن برترام كونت طرابلس ،  
ويقال انه لما عرف تانكريد ان قد دنى يوم رحيله عن هذه الدنيا امر  
بان يحضروا اليه كلا من زوجته سيسيليا ابنة فيليب ملك الفرنجة  
وبونس ، ونصحهما ان يتزوج كل منهما الآخر بعد موته ، وتم تنفيذ  
الوصية بحذاقيرها ان لم يكد تانكريد يسلم انفسه ، ويتبعه برترام  
كونت طرابلس والد الشاب بونس حتى تزوج بونس هذا من ارملة  
تانكريد .

كما ان احد (١٦) اقارب تانكريد واسمه « روجر بن ريتشارد »  
خلفه حسب وصيته الأخيرة في اماره أنطاكية على شرط أن يردها  
الى بوهيموند الصغير بن بوهيموند الكبير حين يبلغ السن القانونية  
ويطالب بأنطاكية ، ويكون رده لها بلا منازعة أو جدال .

وقد تم دفن تانكريد العظيم في ظلة كنيسة الرسل في سنة  
١١١٢ من مولد سيدنا .

- ١٩ -

ولما جاء الصيف التالي ، أعنى صيف سنة ١١١٣ من مولد  
سيدنا ، بعثت فارس للمرة الثانية بعسكر من عسكرها لا يحصيهم  
العد ، فكانوا اشبه ببركة أقذار يتفجر منها على الدوام الماء الأسن  
المؤدى الى نشر الوباء ، وكان هذا العسكر بقيادة أمير قوى شريف

---

(١٦) قيل انه كان ابن أخت تانكريد .

المنبت اسمه « مودود » الذى سارت فى ركابه قوات كثيرة يعجز العد عن احصائها فاجتاز بهم المناطق الوسطى حتى بلغ الفرات حيث سار على خطة خالف بها خطة الجيوش التى سبقت جيشه والتى جرت عادتها على تجربة قوتها ، لكن خاتمة خطة مودود هذه المرة دلت على انها كانت تباين كل ما سبقها من حيث التدبير والقصد ، اذ عبر كل بلاد أعالي الشام جاعلا دمشق على يساره ، وتمر بطبرية الواقعة بين جبل لبنان والساحل ونصب معسكره عند الجسر الموجود على نهر الأردن .

فلما وصل هذا الخبر الى الملك - وكان يعرف اعتماد خصومه على كثرة عددهم - دعى لمساعدته كلا من روجر بن ريتشارد أمير أنطاكية وكونت طرابلس ، ولكنه تعجل الرحيل مع عسكره قبل وصول هذين الأميرين ، ونصب خيامه فى الناحية الموجود بها عدوه ، فما كاد الفرس يكتشفون ذلك حتى أدركوا أنهم فى حاجة الى التدبير الحربى أكثر من حاجتهم الى الوفرة العددية .

ومن ثم أرسلوا ألفى فارس ، وأمروا ألفا وخمسمائة منهم أن يكمنوا لعسكر الملك فى بعض الطريق ، أما الخمسمائة الباقون فقد كلفوهم بالتقدم فى غير نظام حتى تجوز المكيدة على الملك فيمضى فى مطاردتهم . وتم تنفيذ كل شئ وفق ما رقبوا ، اذ ما كاد الملك يبصر هؤلاء الخمسمائة فارس يسيرون بجيادهم غير مبالين بشئ ولا آخذين حذرهم كأنهم يقرون حتى استدعى اليه رجاله واندفع بهم اندفاعا أهوج ضد هؤلاء الفرسان وانطلق يطاردتهم فى طيش ، فاذا به يسقط فى الكمين الذى نصبوه له ، ومالبت ان طلع عليه الأعداء من مخابئهم ، فاذا هم قوة كبيرة ، كما عاد الخمسمائة فارس وانضموا اليهم ، وتجمعت هذه القوات فشنّت هجوما شرسا على رجالنا الصليبيين الذين عمدوا فى أول الأمر الى مقاومتهم بالسيف

وقاتلوهم قتالا عنيفا لعلهم يردونهم على أعقابهم ، ولكن كانت الغلبة للعدو بسبب كثرتة التي اجتاحت رجالنا وأرغمتهم على الفرار ، ولم يسعفهم هذا القرار بالسلامة بل جرت مذبحة مروعة في صفوف الهاريين ، حتى ان الملك ذاته ألقى بعلمه الذي كان في يده الى الأرض ، وكانت نجاته هو إحدى المعجزات ، وجرى مثل هذا على ارنولف البطرك الذي كان معه ، وعلى غيرهما من سادات المملكة ، ان فروا مخلفين وراءهم المعسكر بكل متاعهم .

وهكذا استولى العدو على مخيمنا ، وعوقبنا على خطايانا ، فدب الاضطراب في صفوف شعب الرب على أقبح ما يكون الاضطراب ، ويرجع السبب في هذه النكبة الى الملك الذي لم يطق صبرا حتى تصل اليه النجدة اطمئنانا منه الى شجاعته الذاتية . مع أن روجر أمير أنطاكية وكونت طرابلس كانا قرييين منه كل القرب ، وليس من شك في أنهما كانا سوف يصلان اليه في مدى يوم أو يومين .

وهلك في ذلك اليوم ثلاثون فارسا صليبيا وألف ومائتا جندي من المشاة ، ثم وصل القائدان الكبيران القويان اللذان أشرنا اليهما حالا ، ( وهما أمير أنطاكية وكونت طرابلس ) في أعقاب هذه الملمة ، فلما أحيطا خبرا بالنكبة التي ألمت بالملك لأماء على تهوره ، ثم انضمت القوات كلها بعضها الى بعض حتى صارت جيشا واحدا عسكر في الجبال المجاورة حيث كانوا يستطيعون أن يطلوا على جيوش العدو وهي تحتهم في الوادي .

ولما أدرك خصومنا أن المملكة خلت من المدافعين عنها بعثوا زمرا من عسكرهم الى كل ناحية فاجتاحت الاقليم بأجمعه وجاست

خلال الديار سافكة الدماء فى كل جهة مرت بها ومضرمة النيران .  
ناهية القرى كما أمسكت بالفلاحين وسارت فى الاقليم كله كما لو  
كانت تحتله .

ولقد هجرنا فى تلك الايام خدمنا وكذلك الشرقيون الساكنون  
فى قرانا المسماة بالمستعمرات ، وانضموا الى كتائب العدو  
وأرشدوهم الى كيفية القضاء علينا ، وكان ذلك أمرا ميسورا عليهم  
لمعرفتهم التامة بكل تفاصيل وضعنا ، ان ليس هناك وباء أشد فتكا  
بالمرء وأشنع فعالية من عدو داخل بيته .

واذ استرشد العدو بهؤلاء الرجال فقد أصبح أقدر عن ذى قبل  
بسبب مساعدتهم اياه فاستمر فى عيشه بالمدن والقلاع ينهب الغنائم،  
ويأسر الناس ، ومجمل القول ان المملكة بأجمعها قد آلت الى حال  
من الفزع الشديد أدى الى عدم تجرؤ أحد ما على الخروج من  
التحصينات .

## - ٢٠ -

ولقد حدث حادث أكمل فزع قومنا اكمالا تاما ،  
ذلك أن العسقلانيين كانوا يعرفون أن الملك قد اضطرت الظروف  
للبقاء فى طبرية مع جميع قوات المملكة ، وأن العدو يسيطر فى  
الواقع على كافة أرجاء الناحية ، ومن ثم تسللوا كالدود القارض فى  
عسكر ضخم الى الاقليم الجبلى ومضوا يحاصرون بيت المقدس التى  
كانت مجردة ان ذلك تماما من كل قوة تدافع عنها ، فلم يكن أحد  
يقابلونه خارج المدينة بمنجاة من وقوعه فى أيديهم قتيلا أو أسيرا ،  
كما أشعلوا النار فى تلال الغلال التى جمعها الفلاحون فى الأجران

بعد أن استوت على سوقها ، وظل الجاحدون مقيمين بضعة أيام أمام بيت المقدس ، وإن كان كافة أهلها قد أخذوا حذرهم منهم فظلوا مقيمين وراء أسوارها ، ثم تملك الخوف المهاجمين من عودة الملك فارتدوا أخيرا الى بلادهم .

وكان الصيف وقتذاك يخلى مكانه سريعا لفصل الخريف الذى جرت عادة السفن فيه أن تبدأ بجلب الحجاج الذين ما أن علم من جاء منهم بالأهوال الجسام التى يصطليها الملك وشعبه ، حتى أسرع مشاتهم وقرسانهم بالانضمام عن طيب خاطر الى جيشه ، مما نجم عنه تزايد أعداد عسكرينا يوما بعد يوم زيادة ملحوظة ، وهو أمر لم يخف على قواد عسكر الجاحدين الذين استبد بهم الرعب من أن يستعد الصليبيون بهذه الامدادات الضخمة للانتقام مما نزل بهم من النكبات ، ومن ثم شدوا رحالهم الى دمشق ، وفعل الصليبيون فعلهم فكروا راجعين الى ديارهم .

وحين وصل الى دمشق مودود قائد الجيوش المعادية الذى كان قد أنزل كثيرا من البلوى بالملكة اغتاله الحشاشون ، ويقال ان ذلك الاغتيال تم بعلم الملك طغتكين وموافقته اذ كالت الشائعة انه لم يكن يأمن بأس هذا القائد ، ويخشى أن يحرمه من المملكة .

## - ٢١ -

بعد رجوع الجيش الصليبي والجميع الى ديارهم قدم على الملك رسول يعلن اليه وصول ( أدليد Adelaide ) كونتيسة صقلية الى ميناء عكا ، وكانت هذه السيدة النبيلة هى أرملة روجر الملقب ببورصة أخى روبرت جيسكارد ، وكانت فاحشة الثراء ، واسعة النفوذ ، وكان الملك قد بعث فى السنة المنصرمة اليها بعض اشرافه يلحون عليها أن تقبل الاقتران به ، فانتهت رسالته هذه الى ابنها

روجر الذى صار فيما بعد (١٧) ملكا على صقلية وشاورته فى الأمر ويبدو انهما ادركا ما وراء هذا الرجاء من خير للجانبين ، قوافقا عليه وان أوقفا قبولهما على أن يستجيب الملك لشروط اشتراطها ، ننص على انه اذا مات الملك ( بلدوين ) وقد أنجب طفلا من الكونتيسة آلت المملكة الى هذا الوليد دون أية معارضة أو منازعة فى الأمر ، اما ان واقاه أجله دون أن يتسل ورثه ابنها الكونت روجر وخلفه ملكا على المملكة لا يشساققه فى ذلك أحد ، ولا يذكره عليه جاحدا ، وكان الملك قد أوصى رسله - حين رحيلهم عنه - أن يستجيبوا لكل ما تشترطه الكونتيسة ، والا يدعوا وسيلة من الوسائل الممكنة الا عمدوا اليها ليعودوا وفى صحبتهم الملكة ، لأنه كان قد سمع بثرائها واتها تملك من كل شيء قدرا عظيما بفضل ما بينها وبين ولدها من حسن الرابطة ، على حين انه هو ( أعنى الملك ) كان على العكس منها مملقا ذا متربة ، لاتكاد موارده المالية تكفى متطلباته اليومية وسداد رواتب فرسانه ، ومن ثم فانه تطلع أن يزيد هذا الزواج من دخله الضئيل بفائض مما تملكه ( أدليدا ) وهو فائض ضخم \*

ووافق الرسل عن طيب خاطر بالشروط التى قدمت اليهم ، واستجابوا لماطلب منهم ، واقسموا اليمين على ذلك، مؤكدين ان الملك وكبار نبلائه سوف يوافقون على الشروط من غير غش ولا نقض .

حينذاك استعدت الكونتيسة للسفر ، وجهازها ابنها بكل مايلزمها، فاوسقت السفن بالحنطة والنبيد والزيت واللحم القديد ، ورتب عليها الرجال وهم فى كامل أسلحتهم ، والفرسان بخيولهم المطهمة، وحملت الكونتيسة معها قدرا كبيرا من المال ، وأخذت معها كل متعلقاتها دون أن تترك وراءها شيئا ، ووصلت الى بلادنا كما ذكرنا .

---

(١٧) أى فى سنة ١١٣٠ .

كان قد أحكم تدبير هذا المشروع البطرك « أرناؤف كما شرحنا من قبل خديعة منه لهذه السيدة الشريفة ، ان لا يستطيع أحد أن ينكر أنه قد غرر بها ، لأنها ظنت لطيفة قلبها وصفاء نيتها ان الملك فى وضع يجيز له شرعية الزواج منها ، وهو أمر كان يبعد كل البعد عن الحقيقة ، لأن زوجته التى كان قد عقد قرانه عليها عقدا شرعيا فى الرها كانت لاتزال حية ترزق • وبعد أن أرسى الكونتيسة تجددت كل الوعود والأيمان على نفس الصورة التى تمت من قبل فى صقلية ، وكان هذا التجديد فى حضرة الملك والبطرك وكبار رجال المملكة ، ولكن لما كان هذا الحلف قد تم بليل وبقصد شرير ، ولم يكن صادرا من قلب صاف فكان أمره الى الله الذى لم ينعم على هذه المرأة - رغم طيبتها - ببركة الانجاب المعتاد طول اقامتها بالمملكة ، وانتهى الأمر أخيرا بأن حل الشجى محل الغبطة ، والحزن محل الفرح ، كما سنذكر ذلك فى الصفحات التالية ، ذلك لأن الأشياء التى تبدأ بداية سيئة قل ان تنتهى بالفلاح ، ومع ذلك فان وصولها أجدى - بعض الوقت - على المملكة كثيرا من النعم ، حتى ان أقل ما يقال هو ما قيل (١٨) : « من ملئه نحن جميعا أخذنا ، ونعمة فوق نعمة » •

## - ٢٢ -

حدث فى تلك الأيام ان اجتاحت المجاعة بلدة الرها ، ويرجع بعض السبب فى ذلك الى قسوة الجو التى أفسدت الزرع وأضررت به ، كما يرجع بعضه الآخر الى وقوع الناحية بين المتربصين لها بالسوء ، واحدى العدو بها من كل حذب وصوب احداقا بث الخوف منهم فى نفوس المقيمين بها ، حتى حال بينهم وبين العناية بزراعتها ، مما ترتب عليه اضطراب النازلين بها وبالأقاليم المجاورة

---

(١٨) يوحنا ١ : ١٦ •

لها تحت شدة الحاجة الى أن يأكلوا خبز الشعير بل والمخلوط أحيانا  
 • بحب الصنوبر •



اما أرض لورد جوسلين فقد نعمت بالسلام لوقوعها على ذلك  
 الجانب من الفرات الذى وفر لها الغلة وأسعفها بكثير من مواد  
 المعيشة ، غير ان جوسلين - رغم امتلاء بلاده بكل ما هو طيب -  
 سلك مسلكا غبيا فيه جحود للنعمة التى هو فيها ، فلم يقدم أى شئ  
 من فائض ما عنده لسيده الذى تربطه به أيضا وشيجة القربى ،  
 والذى يدين له بكل ما تملكه يداه رغم معرفته التامة ان الكونت  
 وشعبه كانوا فى أشد الحاجة •

ثم حدث ان تهيأت الفرصة لكونت بلدوين لأن يبعث بالرسل  
 فى أمر شخصى بحت الى روجر ابن ريتشارد أمير انطاكية الذى كان  
 قد تزوج واحدة من أخوات الكونت ، وممر هؤلاء الرسل بالفرات فى  
 ذهابهم وإيابهم واجتازوا أرض جوسلين الذى أكرم وفادتهم وتلقاهم  
 لقاء كريما ، غير ان رهطا من أتباعه فعلوا فعل السفهاء ، فأخذوا  
 يتتدرون على الرسل ويسخرون من فقر بلدوين ، ويتباهون فى الوقت  
 ذاته بما يملكه مولاهم من مال كثير ، وبما عنده من فائض غزير من  
 القمح والنبيد والزيت ومواد الأكل والأحمال الثقيلة من الذهب  
 والفضة ، وما تحت يمينه من الفرسان والجند والمشاة ، وزادوا  
 على ذلك بأن قالوا قول ذى اللسان البذئ الذى لا يأبه بشئ مطلقا  
 ان الكونت ليس بأهل لحكم البلاد ، وان الأجدى عليه ان يبيع كونتيته  
 الى مولاهم لورد جوسلين فينقده عليها مبلغا كبيرا من المال ، ثم  
 يعود الى فرنسا •

ولقد مزقت هذه الملاحظات نياط قلوب الرسل رغم ما بذلوه من جهد لكتم مشاعرهم ، وعلى الرغم من أن هذه الأقوال قد صدرت من أشخاص ليسوا في العير ولا النفير إلا أنها بدت وكأنها انعكاس لأحاسيس سيدهم ( جوسلين ) الذي استأذنه الرسل حينذاك في الانصراف وعادوا الى الكونت ( بلدوين ) ، فلما صاروا عنده افضوا اليه بالخبر كاملا غير منقوص ، وحدثوه بكل ما جرى في رحلتهم ، بما في ذلك الملاحظات التي قيلت في بيت لورد جوسلين ، فاستشاط الكونت غضبا مما حدثوه به ، وراح يفكر تفكيراً عميقاً فيما سمع ، فهداه يقينه الى أن جوسلين هو مصدر كل هذه الأحاسيس ، وإنها لم تتولد الا في خاطره ، وغضب من أن رجلاً كان هو سبب ثرائه الفاحش ، وكان المنتظر منه أن يقوم بأداء كل ما يفرضه ما أحسن به عليه من ماله الخاص فيفعل نقى ما يقضى به الذوق إذ راح ينتقصه ويزرى بفقره ، كان الفقر رذيلة ونقيصة ، وبين أن الضيق الذي ألم به لم يكن راجعاً الى غفلة منه ، لكنه قضاء شاءه قدره ، وأن ليس له من قوة على دفعه ، وزيادة على ذلك فإن الثروة الضخمة التي ينعم بها الآن جوسلين ويتباهى بها إنما هي بعض مما كان يملكه الكونت ، ولذلك جاش مرجل الغضب في صدره عليه ، فظواهر بالمرض ، ولأزم فراشه وأشار على من حوله أن يستدعوا اليه على جناح السرعة قريبه جوسلين الذي يادر اليه غير متوجس خيفة ولا مستريب منه ولا مقدر أن قد يلحقه أذى من هذه الرحلة ، فلما بلغ مدينة الرها وجد الكونت في قلعتها في القسم المعروف باسم رانحولات « وأبصره راقداً في حجرة داخلية ، فادخلوه عليه ، فلما فرغ من أداء التحية الواجبة في مثل هذا المقام سأل الكونت عن صحته فأجابه بلدوين « لقد تحسنت كثيراً بفضل الله تحسناً أكبر مما تود أنت ، ، ثم تابع كلامه قائلاً له :

« ألا خبرني يا جوسلين : هل تملك شيئاً إلا ما منحك إياه ؟ » ،  
 فاجابه جوسلين « كلا يامولاي فقال له الكونت « لماذا وأنت في  
 بحبوحة النعيم والثروة اللتين تدين بهما الى تكفر بالنعمة التي  
 أغدقها عليك ولا تشكرها شكر المقر بحقها ؟ ، ولماذا لا تتعاطف معي  
 - وأنا المحسن اليك - في حاجتي التي لم تصبني بسبب رعونة من  
 جانبي ، ولكنها من جراء أمور لا يستطيع أحد أن يتجنبها مهما بلغ  
 من الحكمة والمهارة لأن ذلك لم يحصل من غير قضاء الله ؟ ، ولماذا  
 لا تعيد الى بعض الذي أقطعك إياه ، لكنك بدلا من ذلك رحت تتهمك  
 على فتعيرني بالفقر الذي ابتلاني به الرب ، كما لو كان هذا الفقر  
 خطيئة أو اثما ؟ فهل تراني بلغت من العوز الحد الذي يجب على  
 أن أبيع لك فيه كل ما أنعم به الرب على ثم أرحل هاربا كما تريد أنت؟  
 والآن يا جوسلين عليك أن تعيد الى كل الأملاك التي منحتها لك ،  
 وكل شيء أقطعك إياه ، لأنك سلكت سلوك جاحد نعمة لا يستحقها  
 وليس بأهل لها ، »

فلما قرغ الكونت من كلامه هذا أمر برعي جوسلين في  
 الحبس ، وهناك تعرض بصورة عجيبة محزنة لكل أنواع المساواة  
 والتعذيب حتى يسلم الأرض كلها ويرد كل شيء كان الكونت أنعم  
 به عليه ، حتى اذا جرد من كل ما تملك يداه غادر الرها وتوجه أول  
 ما توجه الى بلدوين ملك بيت المقدس ، وفصل له كل ما جرى ،  
 وصارحه بعزمه على الرجوع الى بلده الذي جاء منه . فلما سمع  
 ( الملك ) ما كان من خبره أقطع مدينة طبرية وما حولها أقطاعا  
 لا يسترد منه أيذا ، وذلك ادراكا منه بأن جوسلين سوف يؤدي  
 للمملكة خدمات رائعة ، ولأنه كان يريد أن يشد أزر نفسه بمثل هذا  
 الرجل الخطير .

ويقال ان جوسلين ساس هذه المدينة وملحقاتها بشجاعة  
 وحكمة طوال فترة ولايته بها ، كما زاد في رقعة ممتلكاتها

زيادة ملحوظة ، ويقال انه اشتد في مضايقة سكان مدينة صور  
كذاب أسلافه حيالها ، ان كانت لاتزال في أيدي المارقين ، وعلى  
الرغم من انه كان بعيدا عن أهل صور لوقوع الجبال فاصلا بينه  
وبينهم ، الا أنه كان كثير الاغارة على أراضيهم مكبدا ايهم افدح  
الخصائر .

- ٢٣ -

ولما كانت سنة ١١١٤ من مولد سيدنا ضرب زلزال عنيف كل  
بلاد الشام مدمرا كثيرا من مدنها وقلاعها تدميرا تاما ، وكان  
تخريبه أظهر ما يكون في قيليقية وايسوريا وسورية الوسطى  
فاما في قيليقية فقد اجتاح الزلزال « المصيصة » وكثيرا من الأماكن  
الحصينة ، كما دمر مدينة مرعش وامتد فبلغ نواحيها القاصية حتى  
لم يبق من بعضها الا اطلال تدل عليها ، وارتجت كذلك الأبراج  
والتحصينات ، وأدى انهيار المباني الضخمة الى هلاك العدد الغفير  
من الناس ، واستحالت أكثر المدن الى أكوام من الأنقاض ، وصارت  
كيمانا وقبورا وأجداثا ضسعت من طواه الردم ، وفر الأهالي  
من مساكنهم في المدن فزعا من تهدم الدور وطمعوا أن يجدوا  
السلامة في الحراء ، ولكن الخوف اطار النوم عن جفونهم جزعا من  
أن تتراءى لهم في أحلامهم صورة المصير الذي يفرون منه في  
يقظتهم .

لم تقتصر هذه النكبة المدمرة على منطقة بذاتها بل امتدت الى  
جميع النواحي حتى بلغت أقصى أعماق مناطق المشرق .

\*\*\*

فلما كان العام التالى حشد الوالى التركى القوى برسق - على  
مألوف عادته - حشدا كثيفا من قومه ، واقتحم امارة انطاكية مضمرا  
لها السوء ، وبعد ان جاس خلال ديار الناحية كلها ضرب معسكره  
بين حلب ودمشق فى انتظار الفرصة المواتية لشن غاراته هنا وهناك  
من أرضنا ، فاضطرب طغتكين ملك دمشق كل الاضطراب من هذه  
الحملة التى هلع لها أشد الهلع ، مخافة أن تكون مستهدفة الاضرار به  
هو ذاته أكثر من استهدافها الصليبيين الذين طالما اختبر الترك  
بأسهم ، فقد لقى مودود العظيم موته على باب بيته غيلة ، واعتقد  
الناس ان طغتكين كان على علم بما تم تدبيره ، وان اغتياله كان  
برضى وتدبير منه .

لذلك فانه ما كاد طغتكين يعلم بوصول الترك ويدرك تمام الادراك  
مقصدهم حتى أرسل رسلا من لدنه الى الملك ( بلدوين ) والى أمير  
انطاكية ومعهم غالى التحف وثمانين الهدايا ، وأكد لهما بالايمان أن  
يظل طول مدة سريان الهدنة مخلصا فى مراعاة تحالفه مع صليبيى  
المملكة والامارة ، وفى الوقت ذاته قام أمير انطاكية فناشد الملك أن  
يمد اليه يد العون لأنه عرف أن الترك أقرب ما يكونون الى بلاده ،  
وان الأخبار الكثيرة التى وصلت تدل على أنهم يتأهبون للاغارة على  
أراضيه ، كما دعى من جانبه طغتكين - حسب العهد المبرم بينهما -  
ان يأتيه على رأس عسكره .

وكان الملك خائفا أشد الخوف على سلامة الامارة ، فلم يضع  
لحظة واحدة من الوقت بل عجل فجمع قواته ، وصحبه بونس كونت  
طرابلس ، وتبعهما رهط كبير من الفرسان ، وزحفت جموعهم الى  
هناك فوصلوا بعد ايام قلائل الى حيث حشد الأمير كتائبه ، كما ان  
طغتكين الذى كان أقرب اليه من سواه وافاه بجند قبل مجيء الملك  
وانضم الى معسكر الصليبيين حليفا لهم .

حينذاك انضم العسكر بعضهم الى بعض حتى صاروا جيشا واحدا وأجمعوا الرأى على الزحف شطر مدينة « شيزره » التى قيل ان الجيش المعادى كان موجودا فيها ، لكن ما كاد الترك يعلمون بهذه الحركة حتى أدركوا أنهم لن يقدرُوا على الصمود فى وجه قواتنا لأنهم ان فعلوا ذلك أصابهم ضرر فادح ، فتظاهروا بالارتداد ارتدادا كان يخيل معه أنهم لا ينوون العودة ، واذاً ذلك سـرح الصليبيون عسكرهم ورجعوا الى أرضهم (١٩) .

- ٢٤ -

اغتنم العسقلانيون فرصة انشغال الملك على هذه الصورة فى ارض انطاكية وتغيبه مع معظم قواته وقاموا بمحاصرة يافا ، وكان قد حدث قبل ذلك بقليل أن نهض لمعاونتهم من مصر أسطول مؤلف من سبعين سفينة بقصد احتلال الساحل القريب من يافا ، اما الجيش البرى المكون من آلاف كثيرة من الجند فقد تبعهم ناشرا راياته حيث ظهر فجأة أمام المدينة .

ماكاد من فى الأسطول يعلمون بوصول القوات البرية حتى استخفهم السرور فوثبوا من السفن وتأهبوا للاغارة على النواحي المجاورة ، وأحاطوا بالمدينة من كل جانب ، فلما أعطيت الإشارة لهم أغاروا عليها من شتى الجهات غارة شعواء ولكن أهالى يافا دافعوهم دفعا مجيدا على الرغم من قلة عددهم ، وأنهم كانوا دون خصومهم بأسا لكنهم كانوا يذبون عن نساءهم وأولادهم وحريتهم وعن بلدهم ، بل عن كل شىء يجدر أن يموت المرء من أجله ، وراحوا يحصنون الأبراج والأسوار تحصينا متينا بقدر استطاعتهم ، وتمكنوا من رد العدو الى الوراء مسافة بعيدة حتى لم يستطع العدو من أسوارهم

---

(١٩) كان رجوعهم هذا فى منتصف سنة ١١١٥ .

بفضل ما قذفوه به من النبال ، ورموه به من المنجنيق ، وصبوه عليه من السهام من آلاتهم، فخاب مسعى العسقلانيين بعد أن كانوا يعتقدون الآمال على أن يجدوا المدينة خالية من كل من يدافع عنها ، وكان هؤلاء العسقلانيون قد أقاموا من سلالم التسلق مجموعة كافية من نأحية الطول أو العدد مؤملين من وراء ذلك الا يلاقوا مشقة فى هدم الحصون ، ولكنهم صادفوا من المقاومة الشديدة ما لم يتح لهم الفرصة لنصب سلالهم على الأسوار ، أو رمى المدافعين الموجودين بالأبراج بأى نوع من القذائف ، ذلك لأن العناية الالهية بسطت رعايتها على المواطنين الذين لم يشعروا بخوف ما من العدو الذى كان يكتنفهم من كل جانب .

وكانت أبواب المدينة مصنوعة من الخشب الخالص بدون أى غطاء من النحاس أو الحديد ، ففذفها المهاجمون بالنيران قذفا محكما احترقت معه بعض أجزائها ، كما استطاعوا الحاق الضرر التام بالأهالى ، ووضعهم فى موضع لا يستطيعون الدفاع عنه .

وأخيرا وبعد انقضاء بضعة أيام على ذلك الوضع أدرك العسقلانيون أن محاولاتهم لم تكلل بالنجاح ، وخافوا أن يحضر أهالى الناحية التى حولهم لنجدة المدينة المحاصرة ، فرفعوا الحصار عنها وانفلتوا الى ديارهم ، كما اغتتم الأسطول فرصة هبوب الرياح المواتية وعاد أدراجه الى ميناء صور .

ومع ذلك فقد طمعوا بعد عشرة أيام ان يعرفوا عما اذا كان فى مقدورهم مباغته أهل يافا الذين لم يكن هناك من يحمى ظهورهم ، لذلك جمعوا الكثيرين من قومهم وغادروا عسقلان سرا ثم ظهروا فجأة - وفى سكون للمرة الثانية - أمام يافا وباغتوها ، ولكن أهلها كانوا مستعدين لمقاومتهم فقد ألفوا مثل هذه الحيل . لذلك كانوا يتناوبون حراستها ليلا حتى لا يؤخذوا على غرة ، وترتب على هذا انهم ماكدوا يطالعون عسكر العدو وقد عاد متأهبا لمعاودة القتال حتى

تجلت بطولتهم فى اعتلائهم الأبراج والشرفات ، وزاد فى شجاعتهم ملاحظته من ضعف قوة أعدائهم وضآلة عددهم عما كانت عليه من قبل ، ذلك لأن الأسطول الذى كان فى السابق مصدر خطر عليهم كان قد أبحر وبعدت الشقة بينه وبينهم ، ولم يعد من اليسير عليه أن يرجع اليهم ، وزاد من طمأنينة الأهالى نبأ طرق سمعهم يشير الى قرب وصول الملك ، فزادهم هذا النبأ بأسا على بأس ، وحالفهم الحظ مرارا فواظبوا على قتال الأعداء ، وفتكروا بالكثيرين منهم واستمرت المعركة قرابة سبع ساعات من غير انقطاع ، حتى اذا أدرك الجاحدون فشل جهودهم أمروا رجالهم بالعودة فانطلقوا الى عسقلان .

## - ٢٥ -

أما الموقف فى المملكة ابان ذلك الحين فكان على الصورة التالية :

تظاهر « برسق » بالفرار من أرض أنطاكية عند اقتراب الملك ورفاقه النبلاء ، فلما فارق كل من الملك وأمير أنطاكية وطفكتين بعضهم بعضا وعاد كل منهم الى بلده لتدبير شئونه الخاصة تبين « لبرسق » انه لن يكون من اليسير عليهم حشد قواتهم ضده مرة أخرى ، فكر راجعا الى أنطاكية ، وأخذ يعيث فى أرجائها فسادا ويضرم النار فى حقولها وفى أطرافها ، وأباح لجنوده كل مايجدونه خارج الأماكن الحصينة يأخذونه نهبا وسلبا ، ثم قسمهم الى مجموعات أرسلها الى جهات مختلفة ، وأمرهم أن يفتكروا بكل من يلاقونه ، فان صادفوا فى الحقول أو فى الطرقات العامة من تخلف عن متابعة رفاقه ولم يأخذ حذره أخذوه أسيرا أو عرضوه على السيف ، ولم يقف أمر هذه المعاناة على الأماكن التى انعدمت فيها

الحراسة بل أخذوا بالعنف أيضا المدن الحصينة فأحالوا المعرة وكفر طاب اتفاقا حتى راح أهلها ما بين أسير وقتيل • ومجمل القول ان اليد العليا فى الاقليم بأجمعه صارت للأعداء الذين كانوا يحملون كل يوم ما تصل اليه أيديهم من الخنائم • وفرضوا الرق على الصليبيين •

فلما علم أمير أنطاكية بهذه الأمور استدعى الى جانبه كونت الرها ، ثم خرج هو بنفسه يوم ١٢ سبتمبر من أنطاكية دون أن يضيع أى وقت حتى وصل الى « الروج » بقواته ، وتقدمت الكشافة فى الحال لاستجلاء خطط العدو وأحواله ، واستعد الأمير فى الوقت ذاته للمعركة فرتب جنده وتأهب بشجاعة لصد المغير ، وبينما هو مشغول بهذه الترتيبات وفق ما تقتضيه أصول الحرب – وقد أخلص الكونت فى مساعدته – اذا برسول يأتية على جناح السرعة منبئا اياه بان العدو ضرب معسكرا له فى وادى سرمد ، فعمت الفرحة الجيش بأجمعه بهذا النبأ كما لو كان النصر قد واتاه •

ولما علم برسق بخبر اقترابنا أمر جنده بالتسلح واعداد صفوفهم للقتال • وراح يحضهم على الاستبسال ، وكان قد عمل على تأمين سلامة نفسه قبل وصول الصليبيين، اذ اتخذ له مكانا مع أخيه وبعض أصدقائه على تل مجاور لتل « دانيث » يستطيع من أعلاه مشاهدة رجاله وهم يحاربون ، واصدار التعليمات اللازمة لضمان استمرار القتال ، وبينما كان هو مشغولا على هذه الصورة اذ بالكتائب الصليبية تأخذ فى التقدم رافعة أعلامها •

كان بلدون كونت الرها فى الطليعة مع جنده فلم تفرغه كثرة عدوه حين رآه ، بل اندفع مهاجما اياهم اندفاعا ضاريا زلزل



فلما تم كل شيء على هذه الصورة قدم الأمير ( روجر بن  
يتشارد ) أمامه عددا كبيرا من الخيول واليغال والأسرى ، ومقادير  
غسمة من مختلف المتاع ، ودخل هو فى أثرها انطاكية دخول الظافر  
المنتصر وسط هتافات الناس وغبطتهم .

- ٢٦ -

وفى حوالى هذا الوقت وفد السرى الأماجد الطاهر الذيل أسقف  
'ورنج المبجل ، نائبا عن البابا لتقصى الحقائق فيما بلغه من مسلك  
البطرك أرنولف الرذيل ، وما تلوكه الألسن عن حياته الخليفة التى  
بحياها ، فلما صار الرسول البابوى بيننا يادر فى لحظته الى عقد  
مجلس حضره كل اساقفة المنطقة ، أمرا « أرنولف » بالمثل أمامهم ،  
وانتهى الأمر أخيرا بأسقف أورانج - بحق ما للكنيسة الرسولية من  
السلطة - بأن خلع « أرنولف » من وظيفته الكهنوتية جزاء وفاء على  
نعاله ، مما حمل أرنولف - اعتمادا منه على دهائه الخبيث الذى  
افسد به عقول الجميع - ان يمضى الى كنيسة رومة ، واستطاع  
- بكلماته الناعمة واسرافه فى تقديم الهدايا - ان يتغلب على شكوك  
لبابا ورجال الكنيسة فيعود الى مستقره ناعما بعطف الكنيسة  
لرسولية ، ورد الى كرسى البطركية فى بيت المقدس ، فرجع اليه فى  
حظته معاودا حياة التبذل التى كانت سببا فى خله .

\*\*\*

لم يكن بيد الصليبيين ان ذاك اى قلعة فيما وراء نهر الأردن ،  
لما تطلع الملك لتوسيع حدود مملكته فى هذه الناحية استعان بالله  
فكر فى بناء قلعة فى اقليم الأراضى العربية الدانية المسمى ايضا  
اسم سورية الداخلية حتى تصبح الحامية التى توضع فى هذا

المكان قادرة على رد عادية المغير على الحقول الواقعة وراءه والتي كانت تابعة للمملكة وتعتبر أرضاً خراجية ، فقام الملك من أجل تنفيذ مشروعه هذا بجمع قوات مملكته وسار بهم عبر البحر الميت مجتازاً بهم الأرض العربية الثانية التي عاصمتها البقراء ، حيث تخير موضعاً مرتفعاً ملائماً لمشروعه شيد فيه قلعة شديدة المناعة بفضل موقعها الطبيعي وما امتازت به من وسائل دفاعية زودتها بها الطبيعة ، وأخرى صناعية ، فلما كمل البناء وضع به حامية من الفرسان والمشاة وأقطعهم الأراضي الشاسعة ، وكان المكان محصناً بالأسوار والأبراج ويخندق ، وجهاز الموضع بالأسلحة والطعام والآلات ، وإذا كان بانيه ملكاً فقد سماه اسماً مشتقاً من الهيبة الملوكية هو « مونتريال » وكانت أرض الناحية أرضاً خصبة تنتج كميات وفيرة من الحنطة والنبذ والزيت ، وزيادة على ذلك فقد كانت مشهورة بموقعها الصحي الممتع للعين ، كما أن هذه القلعة كانت تطل على كل المنطقة المجاورة لها .

## - ٢٧ -

كان بال الملك في هذه الأثناء مشغولاً كل الانشغال بمشكلة قلعة سكان المدينة المقدسة - حبيبة الله - قلعة تجعلها شبه خالية منهم . إذ لم يكن بها العدد الملائم للقيام بما تحتاجه المملكة ، ولم يكن هناك عدد كاف منهم لحراسة مداخل المدينة والدفاع عن أسوارها وأبراجها ضد أية غارة عدوانية تباغتتها على غير توقع منها ، ومن ثم فقد أولى الملك هذه المشكلة غاية اهتمامه ، وراح يدير الأمر في ذهنه ، ويتحدث مع غيره عن الخطط التي تؤدي إلى تعميرها بقوم مؤمنين بالرب الحق ، مخلصين في عبادتهم له ، ذلك أن « الأمم » التي كانت تعيش بالمدينة قد بادرت - إلا قلّة ضئيلة فإنّ لها بالعيش هناك ،

لكن هذه القلة التي نجت لم يسمح لها بالبقاء في المدينة ، كما أنه لم يسمح لأحد من أتباع الملة المسيحية بالعيش في بلد له هذه القداسة والا كان وجوده طعنا في تقوى الزعماء ، وكان سكان قطرنا قليلي العدد قلة ملحوظة ويعيشون في فقر مدقع حتى أنهم كانوا أقل من أن يشغلوا شارعا واحدا من شوارعها ، ناهيك بتضاعل عدد «السوريين» الذين كانوا أصلا من مواطني المدينة تضاملا بالغا من جراء ماتحملوه من المصائب أيام الممارك التي قلصت عددهم حتى كادوا الا يكونوا شيئا مذكورا ، فلما جاء اللاتين الى سورية - لاسيما وقد شرع الجيش في السير الى القدس بعد الاستيلاء على انطاكية - راح رفاقهم ومواطنوهم الكفار يسيئون الى خدام الرب هؤلاء اساءة افنت الكثيرين قتلا لاتفه الأمور ولم يرعوا فيهم الا ولا نمة ، ولم يقيموا وزنا للسن أو الظروف ، واساء المسلمون السيرة فيهم اعتقادا منهم بأن هؤلاء السوريين هم الذين بعثوا برسلمهم وكتبهم يستدعون امراء الغرب الذين قيل انهم جاءوا للقضاء على الكفار .

ولقد شعر الملك أنه يحمل على كاهله مسئولية خلاص المدينة من هذا الحزن المخيم عليها ، ومن ثم راح يستقصى أدق الاستقصاء من بعض المصادر كيف يمكنه جلب السكان اليها ، فعلم أخيرا ان هناك كثيرا من المسيحيين يعيشون في القرى الواقعة فيما وراء نهر الأردن في بلاد العرب ، قد ضرب عليهم الزق وفرضت عليهم الجزية، فأرسل اليهم يدهم بحياة أحسن من حياتهم التي يعيشونها الآن ، ثم عالبت نفسه ان طابت بمن توافد عليه منهم وقد جاءوه بحريرهم وأولادهم ومواشيهم وقطعانهم وكل ماملكته أيديهم، ولم يكن انجذابهم للسكن في المدينة ناجما فحسب بسبب احترامهم لها بل وايضا لما يكونه لقومنا من المودة ولما تخفق به ضلوعهم من حب الحرية . حتى ان الكثيرين ممن لم يستدعهم الملك نفضوا عن كاهلهم نير

العبودية الثقيل الذى يريزحون تحته ، وقدموا للإقامة فى المدينة المبعجلة عند الرب ، فمنحهم الملك نواحي المدينة التى كانت أكثر من غيرها فى مسيس الحاجة لمساعدتهم فعمرت الدور بهم •

— ٢٨ —

وقد عزم الملك فى هذه الأثناء — وربما كان مدفوعا فى ذلك العزم بالمحاح رجال الدين — على أن يبعث طائفة من الرسل الى رومة يرفعون بعض التماسات معينة للبابا ، تتضمن أن يصدر إعلانا يضم بمقتضاه الى سلطان كنيسة بيت المقدس والى سيطرتها جميع المدن والنواحي التى يتمكن الملك بعون الله من الاستيلاء عليها بفضل يأسه كمحارب ، وكذلك مايسطيع أن يستخلصه من يد العدو، ونجح الملك فى الحصول بالنسبة لهذا الموضوع على مرسوم من الكنيسة البابوية ترى ان محتوياته جديرة بأن تدرج فى كتابنا هذا حيث جاء فيه :

« من بسكال خادم الرب الى الملك المبعجل بلديون ملك بيت المقدس ، له التحيات والبركات الرسولية • ان طول فترة امتلاك الكفار وحكمهم الطاغى قد اديا الى حدوث بليلة بشأن حدود ممتلكات الكنائس التى كانت والتى لاتزال فى نطاق أراضيكم •

« ولما وجدنا — بعد امعان الفكر — اننا غير قادرين على رسم حدود ثابتة لهذه الممتلكات فقد رأينا من الظلم ان لا نستجيب لالتماسك •

« ولكن لما كنت قد اخلصت الاخلاص الصادق فى تعريض حياتك لأشد الأخطار هولا من أجل اعلاء قدر كنيسة بيت المقدس فاننى أعلن أن تصبح أى مدينة من مدن الكفار أخذتها أو تأخذها فى المستقبل قسرا خاضعة لسلطان تلك الكنيسة وتحت ادارتها •

« وزيادة على ذلك فانى أمر أن يحرص أساقفة تلك الكنائس كل الحرص على أن يظهروا للبطررك من الطاعة مثل الطاعة التي يظهرونها لمطارنتهم حتى يشهد ساعده بموازرتهم له وحتى يجنوا باتحادهم ثمار الأعمال العظيمة من أجل مجد كنيسة بيت المقدس فيتمجد اسم الرب بحملات الصليبيين » .

صدر هذا فى اللاتيران فى اليوم الثامن من شهر يونيو ١١١١ .

\*\*\*

ولما كان بلدوين قد ضمن كتابه التماسا آخر فى نفس الموضوع فقد استجاب له البابا فميز ( قداسته ) البطررك جبيلين بميزة يتمتع بها هو وخلفاؤه من بعده الى ابد الآبدين ، ندرج نصها فى هذا الكتاب وهو :

« من بسكال الأسقف خادم خدم الرب الى اخيه الجليل الشأن جبيلين بطرك القدس ، والى خلفائه الذين يجيئون من بعده وفق القانون الكنسى :

« ان الممالك الدنيوية تتغير بتغير العصور والأحوال ، الأمر الذى يتطلب أن تتغير معه حدود الأبرشيات الكنسية فى كثير من الأقاليم وان تنتقل من مكان لآخر ، وإذا كانت حدود كنائس آسيا قد رسمت فى الأزمنة الأولى الا انه اعتور هذه الحدود كثير من الاضطرابات لتوالى تدفق اجناس مختلفة ذات عقائد متباينة »

أما فى وقتنا الحاضر ، فقد عادت بفضل الله - مدينتا بيت المقدس وأنطاكية وما جاورهما من النواحي - الى حكم الأمراء المسيحيين ، لذلك فالواجب يفرض علينا ان نتدخل فنغير ونبدل باذن من الله ما يقتضيه سير الزمن ، كما ينبغى علينا أن نعيد تنظيم ما يحتاج الى اعادة تنظيم ، ومن ثم فاننا نمح الكنيسة بالقدس هذه

المدن والولايات التى تم فتحها بمشيئة الرب بفضل الدماء التى بذلها كل من الملك بلدوين الرفيع الشأن والجيش التابعة له .

« وكذلك فاننا نعهد اليك أيها الأخ الحبيب والأسقف الشريك جبيلين والى خلفائك من بعدك ، والى كنيسة بيت المقدس بالحق الذى يخوله المقام البطرى أو المقام المطرانى ، ومنحك بمقتضى ملفوظ هذا المرسوم الحالى - حق التحكم والتصرف فى جميع الولايات والمدن التى ردتها العناية الالهية الى سيطرة الملك المشار اليه ، أو التى تقضى مشيئة الرب أن تسترد فى المستقبل ، لأنه من الملائم لكنيسة القيامة أن تحظى بالمجد الذى هى أهل له بناء على رغبات جنودها المخلصين - وحق لها - وقد تحررت من نير الترك المسلمين - أن تلقى التعظيم الفياض وهى فى أيدي المسيحيين » .



على أن طاهر الذيل برنارد بطرك أنطاكية غضب أشد الغضب من هذا المرسوم لما رأى فيه من زيادة فى اهانة كنيسته فأرسل فى الحال رسلا الى الكنيسة بروما يشكو من الشكوى من هذا القرار ومن الظلم الفادح الذى نزل به وبكنيسته ، كما بعث بالكتب التى ضمنها عتابه على البابا والكنيسة بأجمعها على الأخطاء التى تضمنها هذا الأمر ، ولما كان البابا راغبا فى أن يذهب غضبه فقد رد عليه بالكاتب التالى :

« من يسكال الأسقف خادم الرب الى أخيه الموقر برنارد بطرك أنطاكية : لك التحية والنعم الرسولية ، انه على الرغم من أن كنيسة رومة الاولوية بين الكنائس الأخرى العظام ، وعلى الرغم من أن العناية الالهية شرفتها بأن يموت القديس بطرس ،

فيها بالجسد ، الا انه قام حب متين العرى بين اسقفى روما و أنطاكية ، وهو حب لا يسمح بقيام أى خلاف بينهما لأن بطرس هذا نفسه زاد الكنيسيتين رفعة •

« لقد طرأ تغيير كثير خلال الفترة التى تدخل فيها الاحتلال الكافر فى هذه الوحدة التى تربط عظيمى هاتين الكنيسيتين ، وانا لنحمد الرب على انه رد حكم المسيحيين الى مدينة أنطاكية فى عهدنا •

« ومن ثم فانه ينبغى أيها الأخ الغالى أن تبقى بيننا نفس هذه الرابطة الوثيقة متينة وقوية ، كما ينبغى عليك الا تسمح أن يساورك أى ظن بأننا نرغب فى أن نحط من قدر كنيسة أنطاكية أو نقلل من شأنها ، واذا كنا قد كتبنا عن غير قصد الى الكنيسة فى أنطاكية أو الى الكنيسة فى بيت المقدس عن أى شىء آخر يتعلق بحدود بعض أبرشيات معينة ، فلا ينبغى أن ينسب ذلك الى نازع شر أو رعونة ، ولا يجوز أن يشب بيننا نزاع حول هذا الموضوع ، ذلك أن موضع الأماكن البعيدة والتغيرات التى طرأت على الأسماء القديمة للمدن وللولايات قد سببت عندنا اضطرابا وقلقا كبيرين ، وزيادة على ذلك فقد كان من أغلى أمانينا على الدوام ومن أقربها الى قلبنا أن نعمل على تشجيع قيام ظروف سلام لا ظروف شقاق بين الاخوان ، وأن نحفظ لكل كنيسة حقها ومكانتها •

صدر فى لاتيران فى اليوم الثامن من أغسطس (سنة ١١١٢) •

ولكى تكون مشاعر البابا ازاء هذا الموضوع مفهومة ، وكذلك غرضه من وراء منحه الملك وكنيسة القدس الامتياز الذى تضمنته مراسيمه فانه كتب ايضا ما يأتى الى البطريرك برنارد :

« من بسكال الأسقف خادم عبيد الرب الى غبطة رفيقه الأسقف بطرك أنطاكية : لك التحية والبركات الرسولية (٢٠) »

« اننا كما كتبنا الى اخوتكم فى رسالة سابقة نخبرك بحبنا الصادق لك وللكنييسة التى عهد اليك برعايتها ولا نرغب بأى حال من الأحوال أن نقلل من شرف قدركم السامى ، بل تجدون على العكس من ذلك اننا راغبون فى أن يظل على الدوام ( بمشيئة الرب ) تفوق بطركية أنطاكية الذى حازته فى الأزمنة السالفة تفوقا كاملا غير منقوص ، ولو أمعنت النظر فى المضمون الذى انطوت عليه رسالتى هذه لتبينت أن المنحة التى منحناها لأبننا بلدوين ملك القدس بناء على التماس مبعوثيه لا يمكن أن تقلل أبدا - ولو قيد أنملة - من حبنا لك ، فقد جاء فيها : أن امتلاك الكفار الطويل للبلاد وحكمهم الظالم قد أديا الى اضطراب بالنسبة لحدود ممتلكات الكنائس التى كانت ولا تزال فى أرضك ، ومن ثم فأننا نرى أنفسنا - بعد طول التروى والأناة - غير قادرين على أن نقرر حدودا معينة لها ، لذلك رأينا أن العدل يقتضي أن نوافق على ملتصك ، ونظرا لأنك قد عرضت حياتك عن اخلاص للخطر الجسيم سعيا وراء اعلاء شأن كنيسة بيت المقدس فأننى أقرر أن جميع مدن الكفار التى استوليت عليها حتى الآن ، وماسوف تستولى عليه : تكون تحت حكم تلك الكنيسة وسلطانها »

« كما يجب أن تفسر بنفس روح التفاهم ما كتبناه الى جيلين بطرك بيت المقدس ذى الذكر الطيب حول المدن والولايات التى شاءت رحمة الرب أن تؤول الى يد الملك بلدوين بفضل بعد نظره

---

(٢٠) كلام البابا هنا موجه الى بطرك أنطاكية .

وبفضل دماء العساكر التي سارت وراءه ، أما الكنائس التي مازالت حدودها الموجودة موضع نظر ، وكذلك الكنائس التي لم يعثر حدودها وممتلكاتها أى اضطراب رغم طول الاحتلال الكافر وطغيانه ، كذلك المدن التابعة لنفس الكنائس فاننا نرغب أن تكون خاضعة لتلك الكنيسة التي تنتمي إليها عن حق منذ آمام بعيدة ، لأننا لا نريد أن نقلل من مكانة الكنائس سعياً لزيادة قوة الأمراء ولا نقصد أن نحرج قوة الأمراء من أجل تعظيم المكانة اللاهوتية •

صدر فى بنفنتوم فى الثانى عشر من شهر مارس ( سنة ١١١٣ ) •

كذلك كتب الى الملك بلدوين بنفس المعنى ، شارحا له ماذا كان غرضه حين وافق على نفس الالتماسات ، ومبيناً له انه لا ينبغي بحال من الأحوال أن تحمل كنيسة أنطاكية فوق طاقتها ، فقال :

« من بسكال الأسقف خادم خدم الرب الى ولده وحبيبه بلدوين ، ملك بيت المقدس : لك التحية والبركات الرسولية •

لقد انزعج اخونا البطريرك برنارد وجميع رجال كنيسة أنطاكية لشد الانزعاج من قرار الموافقة الذى منحناه لكم استجابة لالتماسك بأن يكون كل ما استوليتم عليه من مدن الكفار وما قد تستولون عليه منهم خاضعا لسلطان كنيسة بيت المقدس ومقامها ، ولما كان هذا التنازل المنسوح لتلك الكنائس التي اضطربت حدودها وممتلكاتها من جراء احتلال الكفار الطويل لها فقد تعالت الشكاية من أن بطريرك القدس قد جار - برضا منك - على حقوق تلك الكنائس المشار إليها والتي لا يشك أحد فى انها كانت تابعة لمطرانية أنطاكية حتى زمن الترك والشرقيين ، ذلك لأن أساقفة تلك الكنائس - كانوا يظهرون تبعيتهم وطاعتهم لبطريرك أنطاكية ، ومن ثم فقد بعثنا الى

البطرك المشار اليه بالكتب التى قررنا فيها استمرار الحفاظ على سلامة الوضع السامى الذى تتمتع به بطركية انطاكية ، كما قررنا صليانته من أن يجور عليه أحد ما ، حسبما هو مقرر منذ الأزمنة البعيدة حتى الآن ، لذلك فاننا نذكرك جادين - بل ونأمرك - الا يصدر من جانبك أى تعد من هذا القبيل ، لأن الصدق فيه واضح والحق فيه حلى ، بل ينبغى أن تتمتع كل كنيسة بحقها الكامل فى الهيمنة على الأقاليم التى تتبعها تبعية شرعية ، لأننا لا نستطيع أن نقضى بما يخالف نظم آبائنا المقدسة المعروفة بالبداية ، كما اننا لا نحب أبدا التقليل من مكانة الكنائس لنزيد من قوة الأمراء ، ولا أن نفتات على سلطان الأمراء من أجل تعظيم مكانة الكنيسة ، حتى لا يتعكر فى الحالين صفو سلام الكنيسة بينكم • وقاكم الرب اياه •

« أما رجال الدين فى بيت المقدس - وهم الذين خلقوا وراءهم أملاك أسلافهم وغادروا مهد نشأتهم من أجل تعظيم شأن الكنيسة والاهتمام بالملة ، فاننا نأمرهم عن طريق هذه الوثيقة الحالية أن يكونوا قانعين بحقوق كنيسة بيت المقدس ، والا يحاولوا ظلما وعدوانا اغتصاب هذه الأملاك التى يعرف الجميع معرفة تامة أنها حق خالص للكنيسة فى أنطاكية ، وادعوا الله القادر على كل شئ ان يكلا كل خطواتكم برعايته فى جميع ما تقدمون به ، وأن يهنكم النصر على اعداء الكنيسة •

صدر فى لاتيران فى الثامن عشر من شهر مارس (سنة ١١١٣)

أراد الملك بلديون أن يحصل على معلومات دقيقة تتعلق بالنواحي المجاورة ، وتقصى أحوال الولايات ، ولذلك فإنه قام في السنة التالية مستصحبا معه الأدلاء من أهل الخبرة بالمنطقة وجماعة من الحاشية رآهم أهلا لتحقيق غرضه المنشود فعبر بهم نهر الأردن وجاس في انحاء سورية الوسطى ثم اجتاز الصحراء الفسيحة الى البحر الأحمر حتى أفضى به الزحف الى مدينة « هليم » وهى مكان كان معروفا تمام المعرفة لشعب اسرائيل حيث كان به - كما نقرأ فى الأخبار - اثنا عشر نبعا وسبعون شجرة نخيل ، فلما بلغ الملك هذا الموضع وجد أن خير مجيئه قد تسامع به سكانه فتوجسوا خيفة منه وهربوا ناحية البحر المجاور لهم ، وركبوا قوارب صغيرة نجاة بانفسهم من الموت ، وبعد أن تفحص الملك هذه النواحي تفحصا دقيقا ورأها بعينى رأسه : عاد ادراجه عبر الطريق المؤدى الى قلعة مونتريال التى شيدها منذ أمد قريب ، ثم غادرها عيمما وجهه شطر بيت المقدس ، فلما كان فى بعض الطريق الم به على غير توقع - مرض خطير أضواه حتى لم تعد له طاقة على احتمالها ، فلما خشى دنومنيته وخزه ضميره وأنبه أشد التائب ، لأنه ارتكب الخطيئة حين سرح زوجته الشرعية (٢١) ، وندم على ما كان منه ندما أورثه حسرة فأفضى بآثامه الى نفر اتقياء يخافون الله واعترف لهم بجرمه ، ووعدهم أن يكفر عما ارتكب ، فنصحوه أن يصرف المرأة

---

(٢١) أما هذه الزوجة الاولى فهى « اردا » بنت طوروس التى أشار وليم هذا الجزء من الترجمة العربية الى أن الملك بلديون فرض عليها حياة الرهبنة ، فدخلت فى دير القديسة حنة ،

التي تزوجها منذ قليل وأن يرد زوجته الأولى الى المرتبة التي حرّمها منها ، فوافقهم على هذا الرأي لو مدت له الحياة وأكد الوفاء بذلك بيمين أقسمها •

ثم استدعى الملكة الى حضرة وفصل لها الأمر تفصيلا ، دقيقا وكان قد بلغها من قبل بعض الشيء عن عزمه هذا فقد حدثها به نفر غير قليل من الناس ، فتسمرت غيظا أن تكون قد استدعيت من وطنها من غير هدف بعد أن مكر بها كبار رجال الملكة الذين ذهبوا اليها لاحضارها ، واذ أحزنها ما جرى ، وأمضتها الاهانة التي لحقتها ، وشجأها ضياع ثروتها من غير جدوى فقد تاهبت للعودة الى بلادها ، وذلك في السنة الثالثة من وصولها الى سورية •

اما ابنتها فقد قار مرّج غضبه فورة جاوزت الحد لرد أمه على هذه الصورة ، وغلى جوفه بالكراهية المميتة ضد الملكة وشعبها •

وقام أمراء مسيحيون آخرون من أجزاء شتى من العالم فجاءوا بأنفسهم أو قدموا الهدايا بسخاء ، فزادوا في رقعة مملكتنا الناشئة وشدوا من ساعدها ، اما ابنتها ومن خلفه من بعده فلم تستل الضغينة من قلوبهم حتى يومنا هذا ، ولم يحدث أن تعطفوا علينا ولو بكلمة ود واحدة ، هذا على الرغم من أنه كان في استطاعتهم أن ينفذونا في اوقات شدتنا بالمشورة والمعونة أكثر مما يستطيعه سواهم من الأمراء ، الا أنهم لم ينسوا قط هذه الأخطاء بل راحوا يصبون من غير حق حنقهم وانتقامهم على الشعب كله بسبب جرم فرد واحد منه •

- ٣٠ -

كانت صور هي المدينة الوحيدة الواقعة على الشاطئ التي لا تزال حتى ذلك الحين في حوزة العدو وكان الملك ( بلدوين الأول ) حريصا أشد الحرص على الاستيلاء عليها ، ومن ثم فإنه قام في نفس السنة - بعد أن زالت علقته - فشييد ( في سنة ١١١٧ ) قلعة بين صور وعكا في نفس الموضع الذي يقال ان الاسكندر المقدوني شييد فيه - حين أراد الاستيلاء على صصور - قلعة سماها « الكسنداريوم » ، نسبة اليه .

وتقع الكسنداريوم هذه على شاطئ البحر ، وتبعد عن صور بما يقرب من خمسة أميال ، وتكثر بها الينابيع المائية التي منها ربيها ، وقد جدد الملك بلدوين بناءها لتكون شوكة في جنب اهل صور تقض مضجهم وتصلح أن تشن الغارات منها عليهم ، ويصحف الناس اليوم اسم هذا المكان فيقولون « سكنداليوم » ويرجع ذلك الى أن الامكندر يسمى في العربية « بسكندر » « والكسنداريوم » بسكنداريوم ، وإن كان حرف الراء يتحول في العادة الى حرف « لام » فإن الموضع يعرف عادة باسم سكنداليوم .

- ٣١ -

ولما كانت السنة التالية مضى الملك ( بلدوين الأول ) الى مصر على رأس جيش كبير انتقاما من المصريين لكثرة ما انزلوه به من المصائب ، وشن غارة عنيفة استولى فيها على مدينة الفرما ذات

التاريخ الموهل فى القدم ، ونزل عن كل ما وجده فيها من الميرة الى رفاقه الحربيين ، واذن لهم باستباحتها •

والفرما — كما قلنا — مدينة قديمة على ساحل البحر ، ولا تبعد كثيرا عن أحد قرى النيل المسمى بفرع « دمياط » الذى تقع على مصبه مدينة أخرى أقدم منها تسمى « تنيس » التى شهدت المعجزات التى أظهرها الرب لفرعون على يد نبيه موسى ، فلما تم للملك الاستيلاء عليها مضى فزار مصب النيل ليمتلى بصره اعجابا ببياهه التى لم يكن قد رآها قط من قبل ، وكان لهذا الأمر اهميته الكبرى عنده لأنه لم يكن قد رأى النيل وهو يصب بعض مائه فى البحر عبر هذا الفرع ، والقول السائد الذى ينزل منزلة العقيدة عند الناس هو أن هذا النيل أحد أربعة أنهار تتبع من الجنة ، فاصطاد الملك ومن معه من هذا الخليج بعض السمك الذى يكثر به كثرة هائلة •

وبعد أن تم له ولهم ما أرادوه عادوا أدرأجهم الى المدينة التى استولوا عليها وجهزوا نه إقطاره من السمك الذى اصطادوه له ، لكنه ما كاد ينهض من مائدة إقطاره حتى أحس بأضطراب داخلى شديد ، وبمغص ممض فى بطنه ، كما عادوه الألم من جرح قديم كان به فأنهك قواه انهاكا خطيرا أياسه ومن معه من البقاء حيا ، فاذن المؤذن فى القوم بالرحيل فى لحظتهم هذه ، بيد أن العلة أخذت تتفاقم بالملك ، وبلغ من الضعف حدا عجز معه عن الركوب ، فجاءوه إذ ذاك بمحفة حملوه عليها وهو فى أشد حالات الكرب ، وساروا به وهو على هذا الوضع وعبروا تلك الناحية من البادية الممتدة ما بين مصر والشام حتى وصلوا الى العريش إحدى المدن الساحلية القديمة فى تلك الصحراء ، واذعن الملك لمرضه ، وجاءه أجله فحمل عسكره المفجوع فيه جثمانه ودخلوا به القدس يوم الأحد المعسوف بحد

الشعانيين عبر وادى يهوشافاط ، حيث كان الناس مجتمعين كعادتهم  
للاحتفال بهذا العيد .

\* \* \*

وكان موت بلديون الأول فى سنة ١١١٨ من مولد سيدنا ، وذلك  
فى العام الثامن عشر من حكمه ، ودفن فى ابهة علوكية مجاورا  
لأخيه ( جودفروى ) فى الموضعسمى بالجلجلة أسفل موضع  
الصلب المعروف باسم كالفارى .

\* \* \*

هنا ينتهى الكتاب الحادى عشر

## الكتاب الثاني عشر

---

### بلدوين الثاني : الاضطرابات في شمال سورية

#### فصول الكتاب الثاني عشر :

- ١ - ارتقاء بلدوين كونت الرها العرش ، وذكر شيء عنه وعن  
نسبه وأصله .
- ٢ - سبب سفر بلدوين الى بيت المقدس حيث اختير ملكا لها .
- ٣ - وصف طريقة اختياره ، وذكر خبر العمل الخالد لكونت  
استاس دى بويون .
- ٤ - ذكر صفة الملك بلدوين الثاني وعاداته وأحاديثه .

- ٥ - وفاة الكسيوس كومنين امبراطور القسطنطينية وموت كل من البابا بسكال ، وكونتسة صقلية التى كانت ذات مرة ملكة لبيت المقدس .
- ٦ - الجيش المصرى يقتحم المملكة بقواته البرية والبحرية فيخرج الملك بعسكره لصدده ولكن لا يحدث اشتباك بين الطرفين . الموت يوافى « أرنولف » بطرك القدس فيتم اختيار جيرموند مكانه .
- ٧ - تأسيس هيئة فرسان المعبد الحربية فى بيت المقدس .
- ٨ - موت الملك « جلاسيوس » وتولى « كالييتوس » مكانه .
- ٩ - ايلغازى الوالى التركى القوي يهاجم اماره انطاكية بحشد كثيف ويعيث فسادا فى البلد شرقا وغربا .
- ١٠ - مصرع الأمير روجر فى المعركة وهزيمة جيشنا .
- ١١ - زحف الملك بلدوين الثانى وكونت طرابلس الى انطاكية لمقاومة ايلغازى .
- ١٢ - الملك والكونت يساهمان فى محاربة ايلغازى فتدور الدائرة على جيش الجاحد ، وتحدث مجزرة فظيعة يهلك فيها هذا الجيش ، واذ ذاك توضع الامارة تحت رعاية الملك .
- ١٣ - عقد مجلس بنابلس فى السامرة .
- ١٤ - ايلغازى يشن حملة ثانية ، ويعاود الهجوم على انطاكية فيخرج الملك لصدده ، اصابة ايلغازى بالسكتة فتتميته .

- ١٥ - الملك يمنح الحرية التامة لمواطني القدس ، ويؤكد ذلك  
بمرسومه \*
- ١٦ - طغتكين ملك دمشق يخرب منطقة طبرية فيخرج الملك لصدده ،  
ويدمر مدينة جرش \*
- ١٧ - بلك ( أحد امراء الترك الأقوياء ) يهاجم ارض انطاكية  
ويأسر جوسلين ، كما يقع الملك ( بلدوين الثاني ) هو الآخر  
في أسر بلك \*
- ١٨ - جماعة معينة من الأرمن يعرضون انفسهم للخطر الشديد في  
محاولة منهم لانقاذ الملك ويستولون على القلعة حيث يوجد  
السجناء ، ويطلقون سراح جوسلين \*
- ١٩ - بلك يسترد القلعة عنوة ، ويفتك بالأرمن معسلا فيهم  
السيف \*
- ٢٠ - الكونت جوسلين يجمع قوة كبيرة لانقاذ الملك ولكن الفزع  
الشديد يستبد به من جراء النكبة المنحوسة التي المت ببلدوين  
فيسرح عساكره ويردهم الى اراضيهم \*
- ٢١ - المصريون يعاودون دخول المملكة بقوات ضخمة فيقابلهم  
الصليبيون بجيش قوى ويهزمونهم هزيمة نكراء \*
- ٢٢ - دوج البندقية يبحر الى سورية باسطول كبير \*
- ٢٣ - الدوج يصادف اسطول العدو قرب يافا فيهاجمه بضراوة ،

فيضطر العدو الى الارتداد وتقع كثير من الشوائب في أيدي  
المسيحيين •

٢٤ - الاتفاق المبرم بين دوج البندقية وبارونات المملكة بشأن  
موضوع حصار صور •

٢٥ - نسخة من العهد الذي تضمن الاتفاق المبرم بين البنادقة  
وأمرأة مملكة بيت المقدس بشأن حصار صور •

\* \* \*

## هنا يبدأ الكتاب الثانى عشر

---

### بلدوين الثانى : الاضطرابات فى شمال الشام

- ١ -

كان بلدوين دى بورج ثانى ملوك القدس اللاتين يلقب باكيوليوس، وكان رجلاً ورعاً يخشى الله، مشهوراً بوفائه وخبرته الكبيرة بأمر الحرب، وهو من أمة الفرنجة من أسقفية ريمز، وأبوه هيج كونت «ريثيل»، وأما أمه فكانتسة مليزاند الفاضلة، التى يقال أنها إحدى اخوات كثيرات أنجبهن العبد من البنين والبنات، ولا يعرف حقيقة عدد من أنجبوا سوى الدارسين دراسة دقيقة لأنساب الأمراء.

ولقد خرج بلدوين الثانى فى حياة أبيه فى صحبة رهط من الأشراف الذين تفيض قلوبهم بنفس ما يفيض به قلبه من التقوى، وخرج فى حياة أبيه الشيخ المسن الذى تقدم به العمر حاجاً إلى

القدس كواحد من حاشية قريبه الدوق جودفروى ، وكان بلدوين ان ذاك أسن أفراد عائلته ، وترك بلدوين فى وطنه أخوين وأختين ، فلما أحد هذين الأخوين - واسمه جرفيز - فقد اختيار فيما بعد أسقفا لكنيسة « ريمز » ، واما الآخر فاسمه « مناسيس » ، وقد تزوجت إحدى أختيه واسمها ماتيلدا من حاكم قلعة « فيترى » ، كما اقترنت الثانية ، وتدعى « هيدرا » من أحد الأشراف ذوى النفوذ واسمه « هيربراند دى هيرجز » وقد أنجبت له « مناسيس دى هيرجز » الذى صار فيما بعد الكونستابل الملكى زمن الملكة مليزاند .

ولما مات والد هذا الملك بلدوين خلفه ابنه مناسيس ، وذلك لأن بلدوين - وهو أكبر منه - كان مشغولا بأمور المملكة فيما وراء البحر ، ثم مات مناسيس دون ان ينجب ، فتخلى أخوه « جرفيز » عن وظيفته كأسقف ريمز وتزوج ، مما كان خروجاً على قوانين الكنيسة ، فألت اليه شرعا كونتية ريثيل ، وقد أثمر هذا الزواج ابنة واحدة زوجها أبوها لأحد أشراف نورماندى ، فلما مات « جرفيز » انتقلت الكونتية الى هوتيه ابن أخته « ماتيلدا » التى كانت قد تزوجت من حاكم قلعة فيترى ، ويكفى هنا ما ذكرناه .

## - ٢ -

لما مات طيب الذكر جودفروى بعث القوم فى استدعاء أخيه بلدوين الأول ليتبوا عرش بيت المقدس مكانه ، وألقوا اليه بمقالات أمور المملكة فى حقل يليق بجلال ولاية المملكة وان ذاك قام باختيار خليفة له على كونتية الرها قريبه بلدوين الذى نتكلم عنه الآن والذى امتدت ولايته على الكونتية أكثر من ثمانية عشر عاما ، تميز خلالها حكمه بالقوة والنجاح ، فلما رأى فى السنة الثامنة عشر من حكمه استقرار أمور أمارته وهدوءها عزم على زيارة ملك بيت المقدس الذى

هو مولاه وقريبه والمتفضل عليه بما فى يده من الاقطاع ، كما أراد فى الوقت ذاته زيارة الأماكن المقدسة من أجل الصلاة بها فلما تم اتخاذ كافة الترتيبات اللازمة للرحلة عهد برعاية الاقليم الى جماعة معينة من أتباعه الأوفياء الذين يثق فى اخلاصهم وكفاءتهم ثقة تامة ، ولما كان رجلا يقظ الفؤاد لبيباً يأخذ لكل أمر أهيته فقد رتب جميع ما من شأنه حفظ سلامة المدن ، حتى اذا أنجز ذلك الأمر مضى لطيطه وفى معيته معشر من الاشراف .

وبينما هو فى الطريق اذا برسول يعترضه حاملا اليه نبأ تؤكد له صدقه يعنى اليه الملك بلديون الأول فى مصر ، فانشغل بال كونت الرها بخبر موت مولاه وسيده انشغالا ليس بالمستغرب منه ، لكنه لم يتنل عن الرحلة التى خرج من أجلها ، بل تابع الذهاب الى القدس فوصلها فى اليوم المعروف بأحد الشعانين ، وكان الناس قاطبة قد اجتمعوا على جارى عادتهم فى وادى يهوشافاط احتفاء بمراسيم ذلك اليوم العظيم الدينية ، وشاءت الصدفة العجيبة أنه فى اللحظة التى كان الكونت وحاشيته يدخلون المدينة من ناحية كان موكب نعش الملك يدخلها من ناحية أخرى وقد سار من ورائه - جريا على العرف - جميع عسكره الذى كانوا يرافقونه فى ذهابه الى مصر (١) .

### - ٣ -

وجيء الى المدينة الطاهرة بجثمان الملك ودفن فى وقار الى جوار جثمان أخيه فى كنيسة القبر المقدسة أمام المكان المسمى بالجلجثة عند سفح جبل كلفارى ، فلما فرغ القوم من مواراته

---

(١) راجع ص ٢٢٩ - ٢٣٠ من هذا الجزء .

٣٣٧

( م ٢٢ - الحروب الصليبية )

التراب اجتمع كبار رجال المملكة من رؤساء الأساقفة وغيرهم من رجال الكنيسة ، كما حضر هذا الاجتماع البطريرك ارنولف وبعض الأمراء العلمانيين ، منهم جوسلين صاحب طبرية الذى ألمنا بشيء من خبره آنفا ، وكان رجلا على جانب كبير من الشجاعة ، قويا فى كلامه وقطعه ، وراحوا يتشاورون ماذا هم فاعلون ، وطرح فى هذا الاجتماع الذى عقد من أجل هذا الموضع ذاته آراء شتى متباينة ، فكان من رأى البعض وجوب الانتظار حتى يصل كونت « استاس » كما أوصوا الا يحدث أى تدخل فى القانون القديم الخاص بوراثة الولاية ، ذلك لأن أخويه صاحبى الذكر الطيب قد أدارا دفة أمور للمملكة على خير وجه ، ووقع حكمهما موقع الرضا والقبول عند الجميع .

وقال آخرون ان أمور المملكة وما ينجم على الدوام من حاجات ملحة لا تسمح بمثل هذا التأجيل ، كما أن المتاعب المستمرة لا تاذن بهذا الإبطاء ولا تجيز لنا أن نمر بفترة يخلو فيها العرش من حاكم ، بل ان السرعة واجبة ، وان الواجب يتطلب أن نبادر فنتخذ القرارات التى يتطلبها صالح البلاد ، مخافة أن يجد طارئ من الطوارئ فلا يكون هناك أحد يقود العسكر أو يباشر شئون المملكة ، لأن صالح البلد سوف يكون عرضة للخطر ان خلت من رأس يدبر أمورها .

ولقد أشرت آنفا الى أن جوسلين كان رجلا واسع النفوذ فى المملكة فاتفق مع البطريرك فى رأيه الذى وجدته مطابقا لما فى نفسه ، ومن ثم فانه وضع حدا لتردد الأحزاب وتوقفها عن التصويت اذ ايد المطالبين بتعيين ملك فى الحال وقال :

« ان كونت الرها حاضر معنا وهو رجل جليل القدر تربطه بالملك وشيجة القرابة ، ثم انه الى جانب ذلك مقدم جسر فى

الحرب ، عظيم القدر من كل جانب عند الجميع ، عقلت كل أرض  
ورلاية عن أن تنجب مثيلا له فهو نسيج وحده وقرع دهره ، ولذلك  
فنتويجه ملكا علينا خير لذا وأجدي من انتظار أمور خطيرة •

كان هناك الكثيرون ممن يعتقدون ان كلمات السيد جوسلين  
صادرة عن نية صادقة لأنهم كانوا عالمين تمام العلم بالمعاملة التي  
لقيها منذ قريب على يد الكونت والتي أشرنا اليها من قبل ، وورد  
على أذهانهم المثل القائل « ان الحق ما شهدت به الاعداء » فوثق  
هذا الفريق كل الثقة بما قاله جوسلين واستجابوا له طائعين فيما  
نطق به غير عالمين أن هدفه الحقيقي كان مخالفا لما قال ، ولم  
يدركوا ما يرمى اليه فالواقع أنه كان يطمع أن يخلف بلدوين في  
العد في امارة الرها وقد حمله هذا الطمع على محاولة وضع  
الكونت على العرش •

ولما كان البطرک أرنولف ولورد جوسلين قد تبنيا هذه الفكرة  
ورتابها فيما بينهما فقد كان من اليسير ان يعتنقها بقية القوم ، ومن  
ثم تم انتخاب بلدوين برغبة الجميع واجماعهم فنصبوه ملكا عليهم ،  
حتى اذا وافى يوم الاحتفال بعيد القيامة المجيدة الذي كان بعد قليل  
أقيم احتفال عظيم مسحوه فيه بالزيت ، وباركوه جريا على العادة  
المألوفة ووضعوا على رأسه العصا الملكية •

وأيا كان غرض البطرک ولورد جوسلين من وراء هذا الاختيار  
فان الله برحمته منه جعل الخاتمة خيرا فقد أثبت عدل ( بلدوين )  
وتقواه انه الرجل الكفء ، وحالفه النجاح في كل أمر أقدم عليه •

ومع ذلك فانه يبدو ان سوق العرش اليه كان على غير القاعدة  
المرعية ، ذلك انه كان من الحقائق الثابتة ان الذين دلسوا قرفعه

الى كرسى الملك قد حرموا وريث المملكة الشرعى من حقه فى العرش،  
اذ انه لما مات الملك (بلدوين الأول) أرسل القوم رهظا من كبار النبلاء  
يقدمون العرش بأجماع عام الى « أوستاس » كونت بولونيا شقيق  
كل من الدوق جود فروى العظيم والملك بلدوين الأول ، ولست بقادر  
على الحزم البات عما اذا كان هذا الأمر قد تم حسب رغبة الملك  
الأخيرة ، أم انه تم نزولا على اجماع تام من أمراء المملكة .  
وعلى أية حال فقد زار المبعوثون « استاس » وراحوا يغرونه بالمضى  
معهم حتى أبوليا ليذكروا له المبررات الشرعية لاختياره ، فأطاعهم  
على كره منه لورعه وتقواه وخشيته الرب ، فقد كان الأخ الحق  
لهذين الرجلين الجليلين ، والخليفة الصادق لهما .

فلما بلغوا أبوليا علم هذا الرجل الموقر بتنصيب قريبه بلدوين  
كونت الرها اذ ذاك ملكا على بيت المقدس ، فلم يمنع ذلك الخبر  
الرسل الذين وقدوا لمصاحبته الى المملكة من الاصرار على مواصلة  
الرحلة وصرحوا بأن الاجراء الذى تم ان هو الا اجراء مناقض  
للقانون الوضعى ومخالف للشريع الالهى ، وانه على غير اقدم  
قاعدة للاستخلاف الوراثى ، ولا يمكن ان تقوم له قائمة .

ولكن قيل ان الرجل الفاضل الذى تفيض نفسه بروح الله  
اجابهم بقوله : « باعدوا بينى وبين كل عمل يؤدي الى النزاع  
فى مملكة الرب التى كان دم المسيح سببا فى أن يعمها السلام ،  
وهى نفس المملكة التى ضحى من أجل هدوتها اخوانى الرجال النبلاء  
اصحاب الذكر ، وجادوا للعلى بأرواحهم الطاهرة » .

واذ ذاك أعيد حزم أمتعته وتجمع مرافقوه وكر على أعقابهم  
راجعا الى وطنه رغم جميع المحاولات التى بذلها الرسل لحمله على  
المذهاب الى المملكة .

- ٤ -

كان ( الملك الجديد بلدوين الثانى ) كما يقولون رجلا فارح الطول ، تستلفت هيئته العيون وكان وسيم الخالقة جميلها ، يتخلل البياض شعره الأشقر ، أما لحيته فطويلة تصل الى صدره وان كانت مدببة ، واما وجنتاه فمشوبتان بالحمرة مع حيوية لا تتفق وتقدم سنه •

وكان خبيراً باستعمال السلاح ، بارعاً كل البراعة فى القتال على ظهر الخيل ، متمرساً بفنون الحرب ، قويا فى السيطرة على رجاله ، ناجحاً فى حملاته ، مطبوعاً على الرحمة والشفقة ، ميالاً لفعل الخير ، ورعاً يخاف الله ، دؤوباً على الصلاة والركوع حتى نمت على يديه وركبته نتوءات جافة بسبب كثرة سجوده ، وعلى الرغم من أنه كان طاعناً فى السن الا أنه كان لا يكمل أبداً عن تلبية أمور المملكة اذا دعاه الداعى •

ولما تبوأ العرش صادفته بعض المشاكل بشأن كونتيته الرها التى أصبحت بلا مدبر يرعى شئونها ، ومن ثم استدعى اليه - ومن تلقاء ذاته - قريبه جوسلين ، رغبة منه فى التكفير عن خطأ ارتكبه فى حقّه ذات مرة ، فلما صار بين يديه عهد اليه بإدارة أمور الرها باعتباراه أدرى الناس بالاقليم ، وما كاد جوسلين يقطع له يمين التبعية حتى أسلمه العلم وملكه الرها •

ثم بعث بلدوين بعدئذ فى طلب زوجته وبناته وجميع أهل بيته من الرها فوصلوا اليه على جناح السرعة سالمين آمنين بفضل ما أحاطهم به جوسلين من الرعاية ، وكانت زوجته مورفيا « ابنة شريف اغريقى اسمه جبريل تكلمنا عنه من قبل(٢) » ، وكان قد عقدوا له

---

(٢) سبق لوليم أن نسب جبريل هذا الى أصل أرمنى ولم يشير الى اغريقيته ،

عليها وقت ان كان كونتا وتسلم - اذ تزوجها - مهرا كان قدرا كبيرا من المال وانجبت له ثلاث بنات هن «مليزند» و « أليس » و«هودبيرنا» أما الرابعة واسمها « ايفيتا » فقد ولدت بعد ان صار ملكا .

وقد نصب بلدوين وتوج ملكا فى سنة ١١١٨ من مواد السيد ، ثانى شهر ابريل ، وكان بابا الكنيسة الرومانية يومذاك هو البابا « جلاسيوس » الثانى ، كما كان برنارد أول بطرك للاتين حينئذ فى أنطاكية ، وأرنولف بطرك كنيسة القدس ، وهو رابع البطاركة اللاتين بهذه المدينة .

- ٥ -

فى هذا الوقت بالذات رحل عن هذه الدنيا « الكسيوس » امبراطور القسطنطينية ، وهو اقبح رجل اشتط فى اضطهاد اللاتين ، وخلفه ابنه يوحنا ( الثانى ) الذى كان أكثر أنسانية منه فاستحق ان ينزل من نفس شعبنا منزلة سامية من المحبة ، هذا على الرغم من انه لم يكن صادق الاخلاص فى نيته تجاه اللاتين ، كما سنفصل ذلك فى الصفحات التالية .

\*\*\*

ومشى البابا الرومانى بسكال فى الطريق الذى يمشى فيه كل الخلائق قاطبة ، وذلك فى السنة السادسة عشرة من بابويته وخلفه « جلاسيوس » الذى يسمى أيضا « بيوحنا خايتانوس » مدبر شئون الكنيسة الرومانية الطاهرة .

كما ماتت السيدة « ادليدا » كونتيسة صقلية التى عرفت ذات مرة عند الناس بإنها زوجة الملك بلدوين الثانى المذكور آنفا ، وان لم تكن شرعا كذلك .

## - ٦ -

وفى صيف تلك السنة جمع الأفضل أمير مصر وصاحب الأمر فيها أعدادا كبيرة من الفرسان والمشاة من شتى أقاليم مصر ، ورتب أموره على أن يقتحم مملكتنا قسرا بقواته البرية والبحرية معا ، لأنه كان يحسب أنه من السهل عليه أن يقضى بالسيف على شعب صغير جدا كهذا الشعب ( الصليبي ) ويلحق به الهزيمة ، ويشرد أفراداه على وجوههم فى كل بلاد الشام ، لذلك قام بحشد طائفة كبيرة من الفرسان وأعداد لا يحصىها العد من المشاة البارعين فى الرمى بالحرب واجتاز الصحراء الفسيحة الواقعة بيننا وبين مصر وعسكر بهم أمام عسقلان .

وكان ملك دمشق طفتكين « قد علم بأن المصريين قادمون ، فقام بجمع جيش كبير ، وربما كان جمعه ذلك الجيش من تلقاء ذاته أو بايعاز من ( المصريين ) ، وسلك بهم دروبا لم تجر العادة على سلوكها حتى يتحاشى مواجهة عسكرنا ، وعبر الأردن بمن معه وانضم بهم الى معسكر المصريين لعله يزيدهم قوة فيتمكن من الحاق الأذى بالصليبيين ، وأرست بعض السفن عند عسقلان ، ومضى غيرها شطر مدينة صور الشديدة الحصانة ، ذات الميناء الفسيح ، وتلبثوا هناك فى انتظار ما تقضى به أوامر مولاهم ومشية قائد الأسطول ، ولكن لما كان ملك بيت المقدس يتوقع منذ زمن بعيد مجيئهم فقد استدعى اليه قوات اضافية من أنطاكية وطرابلس ، اما قواته هو فقد ركزها فى بقعة من بقاع سهل الفلسطينيين ، ثم مضى بعدئذ لمواجهة العدو ، واجتاز الموضع الذى كان يسمى من قبل باسم « أسدود » والذى يعرف بأنه كانت به احدى مدن الفلسطينيين الخمس حيث ضرب معسكره ، فصار على مقربة من المصريين ،

وأصبح الجيشان - وقد دنى أحدهما من الآخر دنوا يستطيع معه كل منهما أن يرى معسكر خصمه يوما بيوم .

وأعقب ذلك فترة توقف امتدت حتى قاربت ثلاثة أشهر لم يتحرك فيها أحد المصافين للهجوم على الآخر إذ كان الصليبيون يخشون أن يحملوا هذا الجيش الكثيف على الاندفاع لقتالهم ان هم بدءوا بالهجوم عليه .

كما كان العدو هو الآخر متخوفا مما يشاع عن جرأة جنودنا وقوتهم وبراعتهم فى القتال .

وأخيرا رأى القائد المصرى ان الحكمة تقتضيه الرجوع الى بلده سالما فذاك اجدى عليه وأسلم من أن يعرض نفسه ورجاله لمعركة لا يدرى بوائقها ، فعاتت الحملة أدراجها الى مصر ، فلما اطمأن رجالنا الى عدم عودة المصريين فجأة استأنفوا الملك فى الرجوع هم أيضا فعادوا فرحين الى ديارهم .



ومات فى هذه الأثناء (٣) أرنولف بطرك بيت المقدس ، وكان رجلا يكثر من اختلاق المتاعب ، ولا يكثر بمراعاة مهام وظيفته المقدسة ، فتولى مكانه « جورموند » وكان رجلا مستقيما يخشى الله ، وهو من شعب الفرنجة من بلدة « بكوينى » ومن أسقفية « أميين » ، والحق انه تمت فى أيام هذا الرجل - وبسبب فضائله كما يعتقد الكثيرون - أمور جليلة أدت الى رفعة مجد المملكة واتساعها ، وسنقص خبرها فى الفصول التالية من هذا الكتاب .

---

(٣) كانت وفاته يوم ١٨ أبريل سنة ١١١٨ م .

## - ٧ -

وقام فى هذه السنة ذاتها طائفة من النبلاء المؤمنين من طبقة  
الفرسان الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وأعلنوا عن رغبتهم فى  
أخذ أنفسهم على الدوام بحياة الفقر والطهارة والطاعة ، وأقسموا  
بين يدى البطرك ، وأخذوا العهد على أنفسهم أن يكرسوا أنفسهم  
لخدمة الله حسب القوانين الشرعية ، وكان من أبرز هؤلاء الرجال  
وأسبقهم لذلك الأمر « هيج دى باين » الموقر ، و « جود فروى دى  
سمنت أومير » ، ولما لم يكونوا ينتمون الى كنيسة معينة ،  
وليس لهم مكان معين يقيمون فيه فان الملك منحهم سكنا مؤقتا فى  
قصره الخاص يقع على الجانب الشمالى من هيكل السيد ، كما  
منحهم ساحة كانت تابعة للهيكل وقريبة من نفس المكان يستطيع  
فيها هذا النظام الجديد أن يمارس واجباته الدينية .

كما وفر لهم الملك ونبلاؤه والبطرك ورجال الكنيسة أوقافا  
خاصة مما تملكه أيديهم ، فأصبحت دخولها تدر على هؤلاء الفرسان  
ما يقوم بسداد جميع مطالبهم وما يحتاجونه من مأكلا وملبس ،  
وكانت بعض هذه الهبات مقيدة بفترة زمنية محددة ، وبعضها كانت  
ملكا لهم للأبد ، وكانت مهمة هذا التنظيم الرئيسية التى أوصاهم  
بها البطرك والأساقفة الآخرون لجب خطاياهم هى أنه يجب عليهم أن  
يبدلوا ماتسعفهم به طاعاتهم لحفظ المسالك والدروب العامة ، وجعلها  
آمنة من تهديد اللصوص وقطاع الطرق ، مع بذل العناية الخاصة  
لحماية الحجاج .

وظل الفرسان الداوية هؤلاء لمدة تسع سنوات من تأسيس نظامهم  
هذا وهم يلبسون الملابس المدنية كبقية الناس ، ويرتدون ثيابا مما

يخلعها الناس عليهم وذلك لخلاص أرواحهم ، حتى اذا كان العام التاسع لقيام نظام الفرسان هذا عقد فى مدينة « تروى » بفرنسا مجمع حضره رئيسا أساقفة « ريمز » و « سنس » ومساعدوهم • كما حضره أسقف « البانو » مندوبا عن البابا ورؤوساء أديرة « سيتو » و « كليوفو » و « بوتيلى » وكثيرون غيرهم ، وتقرر فى هذا المجمع بأمر من البابا « هونوريوس » و « سستيفان » بطرك القدس وضع قاعدة عامة لهذه المنظمة ، كما اتفقوا على أن يكون البياض لباسهم •

وعلى الرغم من أنه كان قد انقضت تسع سنوات على قيام فرسان المعبد هؤلاء الا أن عددهم لم يتجاوز التسعة فقط ، ثم أخذوا فى الزيادة بعد هذه الفترة ، وتضاعفت أملاكهم ، كما يقال انهم شرعوا منذ عهد البابا يوجين – فى خياطة صلبان من القماش الأحمر على عباةاتهم حتى يمكن التفريق بينهم وبين سواهم ، ولم يقتصر وضع شارة الصليب على الفرسان وحدهم بل لبسها أيضا الاخوان الذين هم دونهم مكانة والمسمون بالسرجندية ، وقد تزايد فرسان المعبد تزايدا كبيرا حتى أنه لىوجد اليوم منهم مايقرب من ثلاثمائة فارس يلبسون العباة البيضاء البياضاء ، هذا بالإضافة الى عدد لايكاد يحصى من الاخوان الذين هم دونهم مرتبة •

ويقال انه كانت لهم أملاك شاسعة ، سواء على هذا الجانب من البحر أو فيما وراءه ، ولا توجد ولاية فى العالم المسيحى اليوم الا وتمنح جزءا من ممتلكاتها لهؤلاء الاخوان ، حتى ليقال ان ما أصبحوا يملكونه يعادل ما عند الملوك من الثروات والأموال ، وهم يسمون باخوان فرسان المعبد ، ذلك لأنهم أقاموا – كما قلنا – فى القصر الملكى على مقربة من هيكل السيد •

ولقد ظل فرسان الهيكل زمنا طويلا وهم أوفياء لهدفهم النبيل ، مؤدين واجبههم على أكمل وجه ، ثم بدا لهم أخير أن يهملوا «التواضع الذى هو حارس جميع الفضائل ، فنزلوا به الى الدرك الأسفل ، اذ خرجوا على بطرك بيت المقدس الذى تسلموا منه امتيازاتهم الأولى ورفضوا أن يطيعوه الطاعة التى كان يبديها أسلافهم له ، كما أصبحوا مصدر متاعب شديدة لكنائس الرب لأنهم رفضوا أن يسلموها الأعشار التى هى أولى ثمرات فاكهتهم ، وعاثوا فسادا فى أملاكهم •

## - ٨ -

ولما كانت السنة التالية مات كذلك البابا « جالسيوس » المسمى أيضا بيوحنا جابيتانوس ، وكان رجلا اشتهر بالعلم ، وهو خليفة البابا بسكال ، ولما كان يتجنب العنف فقد هرب من اصطهاد الامبراطور هنرى وخصمه البابا الزائف « بوردينوس » ولجأ الى مملكة الفرنجة حيث ظل بها بقية أيامه حتى وافاه أجله ودفن فى « كلونى » فخلفه الرجل النبيل الأصل رئيس أساقفة فينا ، المدعو « جيدو » الذى صارت اليه البابوية فسمى « كاليكستوس » وكانت تربطه صلة القرابة بالامبراطور هنرى ويحظى بعطفه الكبير ، ثم أنتهى به الأمر أخيرا اعتمادا منه على عطف الامبراطور وتشجيعه - الى الضى الى ايطاليا مستصحباً معه الكرادلة وكل حاشيته ، حتى اذا بلغ « سوتريوم » القريبة من مدينة روما ، أمسك بخصمه « بوردينوس » رأس الهراطقة مسكا عنيفا وأمر أن يلبسوه جلد دب . وان يحمل على جمل ويسيروا به فى صورة كريهة شتء الى أحد الأديرة فى كانى قرب « سالرنو » حيث فرضوا عليه أن يعيش حتى آخر أيامه عيشة الرهبان حسبما تقضى بذلك نظم هذا المكان •

وهكذا انتهى الشقاق الذى ظل ثلاثين عاماً يقلق بال الكنيسة ، وهو شقاق ظل مستمرا منذ عهد جريجورى السابع وطوال بابوية ايربان ( الثانى ) وبسكال وجلاسيوس « أسلاف كاليكستوس ، وبقي الامبراطور فى خلال هذا الشقاق سنوات طويلة محروماً من صحبة المؤمنين بسبب قرار الحرمان ضده ، اما الآن فقد عاد الى حضن الكنيسة .

## - ٩ -

وفى نفس هذه السنة<sup>(٤)</sup> هاجم ايلغازى امارة انطاكية ، وهو أحد الأمراء الجاحدين الأقوياء وصاحب الأمر والنهى على هذا الجنس التمس الغادر : جنس التركمان ، وكان شعبه يرهبه كل الرهبة ، وقد عسكر بجموع كثيرة من رعاياه قرب حلب ، كما كان معه طغتكين ملك دمشق وديس ( بن صدقة ) أحد الولاة العرب الأقوياء ، وقد ضم هذان الأخيران قواتهما الضخمة الى جيش ايلغازى .

وكان بعض الناس قد أفضوا الى روجر أمير انطاكية الذى تزوج أخت الملك بخبر قدوم هذه الجيوش محذرين اياه منهم . فأرسل الى السادة المجاورين له والى لورد جوسلين كونت الرها ، وبونس بل والى الملك ذاته يصور لهم الخطر الذى يهدده ، ويلح عليهم الحاحا شديدا الا يتوانوا فى المجيء اليه لمساعدته فى هذه الأزمة الطارئة التى اشتدت عليه وطأتها .

سرعان ما بادر الملك الى جمع كل من أمكن جمعه من مملكته من العسكر استجابة لهذه الدعوة التى جاءت على غير توقع منه ، وتقدم يحث الخطا الى طرابلس حيث وجد الكونت يتأهب هو الآخر

---

(٤) يعنى سنة ١١١٩ .

للخروج ، فانضمت قواتهما بعضهما الى بعض وتابعوا الزحف معا  
بقية الطريق •

فى هذه الأثناء تباطأ الأمير عن عمد ، شأنه فى ذلك شأن كثير  
من البشر، وكان قد غادر أنطاكية وعسكر أمام ارتاح «الحصينة» غير  
عالم بما ادخره له الغد ، وكان هذا الموضع قد اختير اختيارا صالحا  
للجيش ، لأن بلوغه أرضنا كان ميسورا وقد توافر فيه جميع  
ماتحتاجه هذه الحملة ، كما زخر بشتى وسائل الراحة التى لا توجد  
عادة الا فى المدن ، فظل الأمير مقيما هنا لبضعة أيام يتربص وصول  
الملك والكونت ، لكنه مالم يأت أمر الجيش بالتقدم على الرغم من نهى  
البطرك الذى تبعه الى هناك واحجام الزعماء ، فلم يكن منه الا أن  
أعلن الى أمرائه أنه لن يترث أكثر من هذا ، وقد شجعه على ذلك  
بعض نبلاء هذه الناحية الذين لم يكن يدفعهم الى ذلك رغبتهم فى  
أداء خدمة للجيش بل كانوا يطمعون أن يكون فى مجيئه حماسة  
لأراضيهم الواقعة قرب معسكر العدو •

فاستجاب الأمير لما أشار به عليه هؤلاء الأمراء ، وترك المكان  
الذى كان قد عسكر فيه أولا ، واندفع فى طيش فاقحم نفسه وجيشه  
فيما يجر عليه البوار ، اذ نزل بموضع يقال له حقل الدم « وأحصى  
هنا جيشه فوجده سبعمائة فارس وثلاثة آلاف من المشاة المدربين ،  
هذا بالإضافة الى جماعة من التجار كانوا يتبعون الجيش للمناجزة  
وبيع مامعهم من السلع •

ولما رأى الأعداء أن الأمير عسكر على مقربة منهم نقضوا  
خيامهم ونظاهروا بسحب قواتهم كأنهم يريدون مهاجمة حصن  
الأتارب ، أملا منهم فى أن تؤتى هذه المناورة ثمار خطتهم الحقيقية  
فى سهولة ويسر ، فبلغوا حصن الأتارب وعسكروا قربه هذه الليلة ،  
ولكنهم لم يقوموا بأى عمل لأن الوقت كان متأخرا ، فلما طلع الصباح  
بعث الأمير « روجر » كشافته للتجسس وليعرف عما اذا كان الخصم

عازما على مهاجمة المكان فى الحال ، أم أنه مسرع الى المعسكر لقتال قواتنا ، ورتب الأمير جنده للقتال توقعا لهجوم قد يباغتونه به فى لحظتهم هذه ، وبذلك كان مشغولا حين عاد اليه جواسيسه سراعا يخبرونه ان العدو فى ثلاث كتائب ، قوام كل كتيبة منها عشرون ألفا من العسكر ، وأنهم مسرعون فى الاقتراب من جيشنا ، فاستعد الأمير ( روجر صاحب أنطاكية ) فى الحال للقتال جاعلا جيشه أربعة أقسام ، ثم راح يدور بين صفوفه مخيا بجواده ومشجعا رجاله بكلمات تشد من عزائمهم ، وبينما هو فى غمرة هذه الأمور اذا برأيات العدو تخفق معلنة اقترابه الشديد من قواتنا ، وبدأ القتال فى الحال ، واستبسل كل من الجانبين استبسال عظيم فى حربه ، وان انتهى القتال بانتصار أعدائنا بسبب أخطائنا .

وصدرت الأوامر الى القوات التى كانت بقيادة القائدين النبيلين البطالين « جودفروى الرأهب » و « جى دى فريميل » بأن تتقدم هى أولا ضد العدو ، فسارت قدما على اتم نظام يقتضيه العمل الحربى وشتتوا الجانب الأكبر من قوات الخصم وعسكره الكثيف ، وأرغموهم على الفرار .

اما الفريق الثانى الذى يقوده « روبرت دى سنت لو » فكان عليه أن يفعل ما فعله الأول ، فواصل الهجوم ، وان يكون هجومه أعنف من سابقه ، ولكنه جلب ما يستوجب المعرفة ، إذ توقف بعضا من الوقت أتاح فيه للعدو فرصة يسترد فيها أنفاسه ويكر كرة ضارية على قلب كتيبة الأمير وهى تتأهب لمساعدة الفرق الأخرى ، واكتسح معه بعضا من هذه القوة فأصبح الرجوع معها ضربا من المحال . على أنه حرت أثناء هذه المعركة حادثة تجدر الإشارة إليها ، ذلك انه بينما كان القتال على أشده بين الطرفين ، اذا بعاصفة هوجاء تهب

من ناحية الشمال ثم تهبط فتلتصق بالأرض وسط ساحة المعركة ، ثم تسقى تراباً كثيفاً أعمى رجال الجيش فلم يستطع أحد قتال الآخر ، ثم ارتفع هذا العثير على شكل دوائر تشبه تمام الشبه جرة ضخمة ملتفة تتصاعد منها شعل كبريتية ، وأدى هذا الحادث العارض المنذر بالسوء الى أن يكون الظفر للعدو فى هذه المرحلة وأن تدور الدائرة على الصليبيين ويهلك معظم عسكرنا بحد السيف .

## - ١٠ -

كان الأمير ( روجر ) فى هذه الأثناء يبذل جهده بلا طائل فى دعوة قواته للعودة ، وكان هو ذاته يحارب حرب الأبطال فى شرنمة ضئيلين من خاصته ، ويخاطر بنفسه وسط صفوف العدو غير هياب ولا وجل ، على انه بينما كان فى معمعان القتال اذا بضربة سيف تصيبه فترديه ففر على أثرها بقية رجالنا الذين كان قد تركهم لحفظ الأمتعة والذخيرة ، وآووا الى جبل قريب ، ولما شاهد الهاربون ما كان من أمر الذين نجوا من سلاح العدو وفروا من المعركة ، تجمعوا على قمة هذا التل وراحوا يبذلون محاولات محمومة ليصلوا اليهم ، وكانوا يؤملون أن تكون هذه العصبة من القوة بالدرجة التى تمكنهم من المقاومة والنجاة معها ، لكنهم لم يكادوا يصلون الى هذا الموضع حتى كان خصوم ملتهم قد أجهزوا تماماً على من كان فى المعسكر ، ثم التفتوا الى هذه الجماعة فتبددت أيدي سبا ، وما انقضت ساعة من نهار حتى كان رجالها قد قتلوا على بكرة أبيهم .

كان رينالد ماسوييه ( المعروف برينيه منصور ) من أحسن رجال تلك الناحية العظام ، وكان قد التجأ هو وجماعة من الأشراف الى أحد أبراج مدينة «المورة» طلباً للسلامة، فما كاد ايلغازى يعلم بذلك حتى حث خطاه الى هناك على رأس طائفة مسلحة ، وارغم النبلاء

الموجودين بالبرج على الاستسلام ، وهكذا ترتب على ما ارتكبه من الخطأ ان لم تقدر النجاة لأحد من الألوف الذين تبعوا مولاها في ذلك اليوم ، ولم يبق منهم أحد في الحياة ليروى خير ماجرى ، هذا في الوقت الذي كان فيه قتلى العدو شرذمة قليلين أو لاشيء مطلقا .

كان هذا الأمير روجر مذموم السيرة غاية المذمة ، فهو رجل كما تقول الشائعة داعر لا خلاق له ، لا يحترم الروابط الزوجية ، كما انه كان شديد البخل ، قد اغتصب - طول حكمه لانطاكية - ارث سيده بوهيموند الصغير بن بوهيموند الكبير الذي كان يعيش ان ذاك مع أمه في أبوليا ، اذ كان تانكريد الطيب الذكر قد عهد - وهو على فراش الموت - بالحكم الى روجر ، مقدرا انه لن يرفض تسليم الحكومة الى بوهيموند الصغير أو ورثته ان طلب أحدهم استرجاعها . على انه يقال انه قبل الواقعة التي مات فيها بحد السيف اعترف باخطائه أمام الرب بقلب كله ذل وندم ، وكان اعترافه على يد بطرس الموقر رئيس أساقفة « أفامية » الذي كان حاضرا في هذه اللحظة الحرجة ، وزاد على ذلك بأن وعد - بمعونة الرب - ان يعطى عطاء يعادل رجوعه عن اثمه ، ثم خاض المعركة صادق التوبة .

- ١١ -

في هذه الأثناء كان الملك وكونت طرابلس قد وصلا الى المكان المسمى بجبل « نجرة » ، فما كاد ايلغازي يعلم بخبر وصولهما حتى بعث بكتيبة قوامها عشرة آلاف فارس من خيرة فرسانه لصددهما ، وكانت هذه الكتيبة مقسمة الى ثلاث فرق ، تقدمت أولاها تجاه الشاطئ الى ميناء القديس سمعان ، اما الفرقتان الأخريان فقد زحفتا ضد الملك وان اتخذت كل منهما طريقا يخالف طريق الأخرى ، لكن شاءت

الصدفة البحتة أن يلتقى بلدوين ( الثانى ) بأحدى هاتين المجموعتين الآخرين فهاجمها برحمة من الله ، وأفنى الكثيرين من رجالها الذين أسر بعضهم ، وارغم البقية على الفرار ، ثم تابع بعدئذ زحفه مع كل من قبضت لهم الحياة من أتباعه بعد المعركة مستعرضا معهم عبر « لاتورس » و « كازابلا » حتى وصل الى أنطاكية ففرح بمقدمه البطرك ورجال الدين والناس قاطبة فرحا عظيما ، ثم راح يتشاور مع كل من قبضت لهم الحياة من أتباعه بعد المعركة مستعرضا معهم أحسن السبل التى ينبغى عليه اتباعها فى مثل هذا الموقف الشديد القازم .

كان إيلغازى فى هذه الأثناء قد مر ببلدتى « عم » و « ارتاح » وضرب الحصار على الأتارب وكان شديد الاطمئنان لقيامه بهذه الخطة لأنه كان قد أذبح ان الملك دعى اليه الوالى وأتباعه الفرسان الى أنطاكية ، وقد برهنت الأحداث على صدق هذا الخبر ، فقد تقدم إيلغازى من المكان ووجده غير مجهز بما هو لازم للقتال ، فبعث فى لحظته الى شتى النواحي يستقدم الجند الذين يعملون فى بناء التحصينات فحفروا السرايب وكلفهم بنسف الأكمة التى يقوم عليها الحصن فنسفوها وأضرموا النيران فى الأعمدة الخشبية التى يستند اليها البناء ، فلما انهارت الراية التى ترتكز عليها الأسوار والأبراج خاف رجال الحامية أن تهوى القلعة بأكملها حين يتم نسف التل فاستسلموا ، على أن تؤمن لهم حياتهم وأن يسمح لهم بالرجوع الى أهلهم من غير أى عائق ، ثم قاد إيلغازى جيشه الى قلعة « زردنا » وبدأ عمليات الحصار بها فلم تنقضى أيام قلائل الا وقد استسلم من بها على نفس الشروط ، فأيقن الأمير أن لن يقاومه أحد ، ومن ثم أضجره التريث فسار فى الاقليم كله وفق هواه الشخصى ، وهكذا فقد أهالى الأماكن المجاورة كل أمل لهم فى النجاة من بطش رجل قوى كهذا الرجل .

## - ١٢ -

خرج الملك وكونت طرابلس من أنطاكية بكل القوات التي أمكنهما جمعها ، واتجها في زحفهما شـسـطر « الروح » ظنا منهما أنهما واجدان العدو قرب « الأثارب » ومرا عبر « دانيث » وعسكرا على هضبة يقال لها تل دانيث ، وما كاد خبرهما يصل الى سمع ايلغازي حتى استدعى اليه قواده وهددهم بالموت ان لم يهجروا النوم ويصرفوا كل ليلهم في الحصول على السلاح والخيول ، وأمرهم أن يبدلوا أقصى الجهد في الاستعداد لمهاجمة معسكر الملك مع اطلالة الفجر قبل أن يطلع النور ، وبذلك يفاجئون رجال الملك وهم لا يزالون يغطون في نومهم فيحكمون السيف فيهم جميعا ولا يمكنون أحدا منهم من الفرار .

ولكن الرحمة الالهية قدرت غير ما رسموا ، ذلك ان الملك ورجاله لم يتوانوا في تيقظهم ولم تغمض لهم عين طول الليل ، وظلوا منهمكين في ترتيب التفاصيل الضرورية للمعركة القادمة ، ومضى « ابرمار » رئيس اساقفة قيصرية الموقر الذي صاحب الملك الى هذه النواحي حاملا صليب المسيح في يده وراح يعظ الناس ويشجعهم ، فانتضوا أسلحتهم وتأهبوا للاستبسال في القتال في شجاعة كبيرة ، وليثوا ينتظرون هجوم العدو عند طلوع النهار .

ويقال انه كان مع الملك في هذه المعركة سبعمائة فارس أمرهم أن يقسموا أنفسهم الى سبع كتائب حسب النظام الحربى ، واصطفت صفوفهم في انتظار رحمة الرب، فجعلوا في طليعة الجيش ثلاث كتائب قدموها أمامهم ، اما المشاة فجعلوهم في الوسط ، واما كونت طرابلس وقواته فكانوا يؤلفون اليمينه ، على حين وقف بارونات انطاكية في الميسرة . وكان في المؤخرة الملك نفسه على رأس أربع كتائب اتفقوا على أن تكون مهمتها مساعدة الآخرين .

وبينما هم مصطفون على هذا النحو من التنظيم الحربى فى انتظار مجيء العدو اذا به يكر عليهم فى صرخات مدوية ، ويتقدمه نفخ الأبواق ودق الطبول ، وكاذرا فى هجومهم معتمدين كل الاعتماد على أعدادهم التى لا يحصيها العد ، ولكن قواتنا كانت تعتمد على الصليب المنتصر وعلى صدق ايماننا ، وهو أمل لا يخون صاحبه ولا يخزيه •

ثم التحمت الصفوف المتراسة القريب بعضها من بعض وتقاتلت وجها لوجه بالسيف ، ولم يحفل الجانبان أبدا بالشرائع الانسانية ، بل كانا يتقدان عنفا ويتفجران كراهية لا ينضب معينها ، ويتقاتلان كما لو كان كل منهم يقاتل وحوشا ضارية •

ورأى المارقون ان جراءة مشاتنا تنذر بشر مستطير ، فبدلوا محاولات بطولية للقضاء علينا ، فهلك فى ذلك اليوم طائفة كبيرة من جنودنا المشاة بسيف العدو ، وان كان ذلك باذن من الرب •

\*\*\*

سرعان ما تبين الملك ان مشاتنا قد اجهدوا أنفسهم فوق طاقتهم ، وان المقدمة فى حاجة الى الأخرى للمساعدة ، ومن ثم وثب بحرسه وهم ركوب وشقوا طريقهم قدما الى قلب العدو ، وراح بلدوين يضرب بسيفه ضربا عنيفا ذات اليمين وذات الشمال حتى تخلخلت صفوف الخصوم التى كانت أكثر الصفوف حشدا ، وحذا رفاقه حذره ، ونجح تشجيعه اياهم فى شد عزائمهم فانتالوا على العدو لامتلكهم غير فكرة واحدة ، واستنجدوا بالسماء عساها تعينهم ، فاستجابت لهم الرحمة الالهية ، فافحشوا القتل فى العدو الذى لم يعد احياء قادرين على المقاومة بل فروا على وجوههم •

ويقال انه سقط من رجالنا فى هذه المعركة ما يقرب من سبعمائة من المشاة ومائة من الفرسان ، اما خسائر العدو فبلغت أربعة آلاف

قتيل سوى من جرحوا جروحاً مميتة ، أو وقعوا فى الأسر ، فلما شاهد ايفازى هذا الأمر خلى جنوده وحدهم يواجهون الموت وهرب هو مع كل من طغتكين ملك دمشق ودييس أمير العرب ، أما الصليبيون فقد راحوا يطاردون القوم فى شتى الجهات ، على حين بقى الملك بلدوين ( الثانى ) هو ورهط قليل من فرسانه فى ساحة القتال خلال الهزيع الأول من الليل ، لكنه اضطر تحت حاجته الى الطعام للعودة الى قلعة « هاب » المجاورة لتناول بعض ما يقيم أودهم .

ولما رجع فى الصباح الى ساحة المعركة أرسل نفرا من الرسل الى أخته والى البطرك يحملون اليهما خاتم الملك كرمز الكيد للنصر الذى أحرزه ، وأمرهما أن يعلن أن السماء قد أسعفته بنعمة الغلبة . وظل بلدوين فى الساحة يومه هذا بأكمله لم يبرحها حتى انتصف الليل حين جاءه الخبر اليقين أن الأعداء فقدوا عسكرهم ولا عودة لهم ، وحينذاك جمع هو كل الجند الذين أمكنه جمعهم فى ساعته هذه وسار بهم الى أنطاكية يحملون السعف منصورين ، فرحب به بطركها وجميع رجال الدين وأهل المدينة .

وقد جادت العناية الالهية بهذا النصر على الصليبيين(٥) فى سنة ١١٢٠ من مولد المسيح وهى السنة الثانية من حكم الملك بلدوين الثانى وذلك فى شهر أغسطس ليلة عيد رفع مريم العذراء الطاهرة أم المسيح .

وأرسل الملك الى القدس الصليب الواهب الحياة فى رعاية رئيس أساقفة قيسرية ، وصحبهم حرس من النبلاء ، فقبول فى يوم تمجيده بترحاب من قبل رجال الدين ومن الناس الذين ساروا كلهم

---

(٥) لم يكن ذلك النصر فى سنة ١١٢٠ كما يذكر وليم بل كان فى السنة التى قبلها ، سنة ١١١٩ .

حوله ينشدون التراتيل والالغاني الدينية ، أما بلدوين فقد اضطرته ظروف الامارة الملحة الى البقاء فى انطاكية ، ثم انعقد رجاؤهم الحار باتفاق من البطررك وكل وجوه القادة ورجال الدين على أن يعهدوا الى الملك برعاية شئون امارة انطاكية وخولوه السلطة ، واذنوا له باطلاق يده كما لو كان فى مملكته ينظم امورها كيفما شاء فيعزل من يرى عزله ويسير كل شىء وفق مشيئته ، وحينذاك قام فأعطى انصبه من سقطوا فى المعركة لابنائهم ولن يمت اليهم بوشيجة قريى ولو بعدت ، حسبما تقضى به الاعراف التى جرى عليها البلد ، كما زوج الارامل برجال كرام مساوين لهن فى المكانة .

ثم جهز الحصون بالرجال وزودها بالذخيرة والمثونة كلما رأى الحاجة ماسة لذلك ، فلما فرغ من هذا كله غادر انطاكية فترة من الوقت رجع فيها الى المملكة حيث تم تتويجه هو وزوجته معا يوم عيد ميلاد السيد فى كنيسة بيت لحم .

## - ١٣ -

وفى نفس سنة ١١٢٠ من مولد المسيح حل بمملكة بيت المقدس كثير من النكبات بسبب خطايانا ، فاذا خلينا جانبا ما ابتلينا به من الضرر على يد العدو ، فقد اجتاحت البلاد أسراب الجراد ، ونزلت بنا نازلة الفئران المتوحشة فالتهمت الزروع وآتت عليها على مدى سنوات أربع متتالية ، حتى لقد عز الخبز من كل البلاد ، لذلك قام بطرك القدس « جورموند » التقى الورع وذهب الى نابلس وهى إحدى مدن « السامرة » حيث التقى بالملك بلدوين وبكبار رجال الكنيسة وأشراف المملكة ، وعقد اجتماع شعبى ومجمع عام دعى اليه « جورموند » فألقى عظة وعظ فيها الناس ، ولما كان من البين الواضح للجميع أن خطاياهم قد أثارت غضب الرب عليهم فقد اتفقوا

بالاجماع على ان يصلحوا ما قد فسد من أمورهم ، ويقوموا ما اعوج  
من سلوكهم ، ويكبحوا جماح شهواتهم ، وقال انهم ان فعلوا ذلك  
حسنت عقباهم فى الحياة الدنيا ، وان هم نبذوا أعمالهم الشريرة  
انفتح باب الأمل أمامهم ان لا بد أن يرق لهم الخالق ويبسط عليهم  
ظل رحمته ، لأنه لا يريد الموت للمخطيء بل يؤثر رده ولا يريد له  
الموت ليتهدى<sup>(٦)</sup> ، ثم جاءتهم نذر من السماء تهددهم فضربتهم  
بالزلازل والموت بهم النكبات الجسام الفادحة ، وعضتهم المجاعة بنابها ،  
وأرهقتهم غارات العدو التى كادت ان تكون يومية ، ورأوا ان دفع  
ذلك يقتضيهم استرضاء الرب بأعمال الخير ، فاتفق اجماعهم الذى  
لم يشذ عنه أحد على وضع اتفاق عام من خمس وعشرين مادة لها  
قوة القانون ، وذلك لرغبتهم فى اعلاء القيم الأخلاقية واطرار النظام ،  
ومن يشأ أن يقرأ هذه المواد فالأمر يسير لأنها محفوظة فى سجلات  
معظم الكنائس •

كان من شهود هذا المجمع « جور موند » بطرك بيت المقدس  
وبلدوين ثانى ملوكها اللاتين ، و « ابريمار » رئيس أساقفة قيصرية ،  
« وبرنارد » أسقف الناصرية ، و « اشيتينوس » أسقف بيت لحم ،  
وروجر أسقف اللد ، و « جلدوين » الراهب المنتخب لدير القديسة مريم  
فى وادى يهوشافا ، وبطرس رئيس أساقفة « مونت تابور » ،  
و « اشارد » رئيس فرسان المعبد ، وأرنولد مقدم جبل صهيون ،  
و « جيرارد » حارس القبر المقدس ، وبأين مستشار الملك ، واستاس  
جرتيه ، ووليم دى بيورى « وباريسون » كونستابل يافا ، وبلدوين  
صاحب الرملة وكثيرون غيرهم من جميع المنظمات ممن لا تتوافر  
لدينا أعدادهم ولا اسمائهم •

---

(٦) هذه اشارة الى ما جاء فى حزقيال ( ٣٣ : ١١ ) : « يقول السيد  
انى لا أسر بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا » •

## - ١٤ -

كان ايلغازى رجلا لا يلم به الكل فى اضطهاد المسيحية : رسما واسما ، وكان أشبه فى ذلك بالزواحف القارضة تسعى للأذى ، من ذلك انه جمع عسكره فى السنة التالية وانتهن فرصة غياب الملك وحاصر بعض قلاعنا ، فلما علم الناس بهذا الخبر بعثوا الى الملك يستدعونه على عجل ، ولما كان الملك مستعدا على الدوام للاستجابة فقد نهض فى كوكبة من فرسان حاشيته وأسرع الى هناك ، حاملا معه صليب المسيح ، واستدعى اليه جوسلين كونت الرها واثنين من كبار السادة اللذين كانا قد انضموا الى كبار زعماء أنطاكية وزحفوا على القلعة الحصينة التى أشرنا اليها حالا ( وهى قلعة زردنا ) وكان ظنهم أنهم سوف يشتبكوا فى القتال حال وصولهم الى غايتهم لكن حدث أن ضرب الله ايلغازى بالسكتة القلبية فحرم قادة جيشه من مساعدة زعيمهم لهم ، وكان ما نزل به قضاء عادلا حال دون اشتباكهم فى معركة بينهم ، فحملوا مولاهم وهو فى النزاع الأخير فى محفة وأسرعوا به الى حلب ، غير أنه يقال انه وهو المخلد فى النار الأبدية - قد لفظ أنفاسه قبل أن يصلوا به الى هذا المكان .



ولقد ظل الملك مقيما فى أنطاكية فترة من الوقت لمعالجة الأمور الهامة ، ثم رجع بمشيئة الله سالما الى المملكة ، وكان محبوبا من الجميع ، قريبا الى نفوس الناس فى المملكة وفى الامارة اللتين كان اليه تصريف شئونهما ، فصرف أمورهما على أحسن وجه : امانة واخلاصا رغم بعد كل منهما عن الأخرى بعدا كبيرا ، وليس من اليسير أن نقول لايهما كان اهتمامه الأكبر ، هذا على الرغم من أن المملكة كانت ملكه الخاص التى يورثها شرعا لخلفائه ، اما الامارة فلم تزد عن ان تكون أرضا عهد اليه برعايتها ولكن الحق انه كان يبذل اهتماما أكثر بشئون أنطاكية التى ظل صادقا فى تدبير أمورهما

حتى جاءها بوهيموند ( الثانى ) الصغير ، كما سنقص خبر ذلك  
فى الصفحات التالية •

— ١٥ —

حين كان الملك ( بلدين ) بالقدس فى ذلك الوقت ، منح سكانها  
منحة جليلة القدر بدافع من أريحيته الدينية وسخائه الملوكى ، فرفع  
عن كاهل الأهالى الضرائب التى كانوا مطالبين بدفعها من قبل ،  
سواء فى استيرادهم البضائع أو تصديرها ، وزاد فأكب هذا القرار  
بوثيقة ممهورة بالخاتم الملكى حتى تكون سارية النفاذ الى الأبد ، ولم  
يعد أى لاتينى يدخل المدينة أو يخرج منها ومعه سلعة ما ملزما بدفع  
أى شئ تحت أية حجة ، بل أصبح هذا اللاتينى حرا يشتري ويبيع  
ما يريد لا يكلف من أجل ذلك شيئا • وزاد الملك فمنح السريان  
والاغريق والأرمن وجميع الناس على اختلاف أممهم ، وشمل ذلك  
المسلمين أيضا ، فصار لهم الحق فى أن يحملوا الى المدينة المقدسة  
القمح والشعير وكل ذى روح لا يسألون شيئا يدفعونه على  
ما يحملون ، وزاد على ذلك فجب الضريبة المعتادة المفروضة على  
المكايل والمقاييس ، فاستألف بهذا الصنع قلوب الناس واكتسب  
رضاء الأهالى ، لأنه بهذا الأسلوب الملوكى وبالحب الذى يستحق  
التقدير عمل على خير المواطنين وسعادتهم بطريقتين :

اولاهما : انه جعل المدينة تفيض أكثر من ذى قبل بمواد الاعاشة  
لأنها أصبحت تستورد البضائع من الخارج معفاة من الضرائب ،  
وثانيهما أنه سار على نهج سلفه فى بذل كل محاولة لزيادة عدد  
سكان المدينة ، حبيبة الرب (٧) •

---

(٧) انظر ما سبق من هذه الترجمة ، ج ٢ ، ص ٢١٧ - ٢١٩ •

## - ١٦ -

وإنا كانت السنة الثالثة قام طغتكين ملك الدماشقة الغادر الماكر  
 بتحالف مع أحد شيوخ العرب ، وانضمت قوات الواحد منها إلى  
 قوات الآخر ، ولما رأى أن الملك ينهض وحده بتحمل مسئولية ينوء  
 بها كاهله ، إلا وهى رعاية شئون البلدين ( بيت المقدس وأنطاكية )  
 فقد اغتتم فرصة انشغاله وأنفذ عسكريا اقتحموا أراضينا الواقعة  
 فى منطقة طبرية وعاثوا فيها فسادا وعدوانا .

فلما علم الملك بلدوين بهذه الوقاحة حشد الجند من شتى  
 أرجاء مملكته وأسرع إلى هناك بما طبع عليه من سرعة المبادرة ،  
 فترامى خبر اقترابه إلى سمع طغتكين فأخذ حذره وانسحب إلى  
 ناحية قاصية من بلاده ، ذلك لأنه أدرك عجزه عن تحقيق أى شىء  
 لو أنه واجه الملك ، ورأى الخير فى أن يتحاشى ما ينجم عن هذا  
 الاشتباك من المخاطرة .

كان الملك فى هذه الأثناء قد زحف بقواته شطر الجنوب وبلغ  
 « جرش » إحدى المدائن الكبرى فى ولاية «ديكابوليس» والتي تقع فى  
 يد قبيلة مناساس قرب جبل جلعاد ، ولا تبعد سوى أميال قليلة من  
 نهر الأردن ، وكانت هذه المدينة قد ظلت مهجورة خوف الحرب ، حتى  
 إذا كانت السنة المنصرمة بذل طغتكين المال الكثير وأمر أن يقام بها  
 قلعة من الحجر الأصم الضخم فأقيمت فى أحسن بقعة منها ، وزودها  
 بالذخيرة ، وجعلها بالسلاح ، وأقام بها بعضا من خاصة رجاله ممن  
 يثق بهم كل الثقة .

سرعان ما هاجم الملك ذلك المكان حال وصوله إليه وهو فى  
 سورة غضبه ، فاستسلمت القلعة بمن فيها من الجند وكانوا أربعين

أقيموا لحراستها ، فاشتروا أن يسمح لهم بمغادرة المكان الى ذويهم  
سالمين فى أنفسهم ، فأجيبوا الى ما طلبوه ، واذ ذاك أخذ بلدوين  
فى التشاور مع مستشاريه عما اذا كان يهدم هذه القلعة ويترك  
أسوارها ويسويها بالأرض أم يستبقها ليستخدمها الصليبيون ،  
فاجتمع الرأى على وجوب هدمها وجعلها أنقاضا ، اذ لا جدوى تعود  
عليهم ان هم استبقوها فى أيديهم ، لما يكلفهم ذلك من النفقات.  
الباهظة ، والمتاعب المستمرة ، يضاف الى ذلك ان لا أحد يستطيع  
الوصول الى هذه القلعة دون ان يتعرض للخطر البالغ .

## - ١٧ -

على هذه الصورة أخذت أمور المملكة فى التحسن والازدهار  
بشكل مرض بنعمة من الله ، غير أن اعداء السلام ومحبى الفوضى  
كانوا يحاولون فى هذه الأثناء إثارة المتاعب ، فراح بعضهم يوغر  
صدر « بونس » ثانى كونتات طرابلس ضد ملك بيت المقدس ، حتى  
دفعه لنبد طاعته ، وتصرف تصرفا ملؤه الاستخفاف ، اذ رفض أن  
يؤدى التزامه بخدمة الملك حسب يمين الولاء الذى فى عنقه له .

ووجد الملك أنه يستحيل عليه الاغضاء عن هذه الالهانة ، ومن  
ثم جمع الفرسان والمشاة من شتى أرجاء المملكة وتقدم بهم الى  
هناك لمحو العار الذى ألحقه به بونس ، غير أن رجالا أشسرافا  
تداركوا الأمر وتدخلوا بين الطرفين قبل أن تحقيق بهما الخسارة  
ويلحق بهما النكال ، فعاد السلام يرفرف من جديد ، ثم يم الملك  
وجهه بعدئذ شطر أنطاكية استجابة لنداء أهلها الذين جابهتهم  
المشاكل حتى طلبوا منه المعونة ، لأن أميرا تركيا كبيرا قويا اسمه  
« بلك » أخذ فى مكيدة الاقليم بأجمعه بكثرة ما شنّه عليه من الغارات  
التي يقوم بها وهو واثق من نفسه كل الثقة ، لأنه كان قد قام قبل.

ذلك بفترة وجيزة بحملة فجائية أسفرت عن وقوع كل من جوسلين كونت الرها وقرييه « جاليران » في أسره فزج بهما في السجن ، غير ان بلك أخذ يقلل من هجماته التي كانت ، كثيفة ، وذلك حين سمع ان الملك قدم بنفسه فتجنب حدوث صدام بينه وبين بلدوين الذي طبق الآفاق صيت انتصاراته الحربية ، كما أدرك بلك أنه من الأسير على أى واحد أن يهزم الملك ، لكنه مع ذلك دنى بعض الشيء منه على رأس فرسانه المسلحين بالأسلحة الخفيفة لعل الفرصة تسعفه فينجز رغبته في انزال المضرة بقواتنا •

أما الملك فقد تابع السير بمن جاء بهم من القوات متجها الى أرض كونت الرها ، راجيا أن يكون ذا جدوى لأهلها الذين لم يعد لهم قائد يصرف أمورهم ، فكان يذرع أرجاء الناحية دون أن تغفل له عين عن تقصى أحوال الاقليم تقصيا دقيقا ، ملاحظا ما اذا كانت القلاع محصنة تمام التحصين • وعما اذا كانت بها القوة الكافية من الفرسان والمشاة ، والوفرة من السلاح والذخيرة ، ورتب أن يسد كل نقص يراه بما يفرضه عليه الواجب الملتزم به •

وبعد أن خلف قلعة تل بآشر وراءه أسرع الى الرها وهو يفكر مليا في هذه الأمور لأنه كان يرغب في التأكد من العناية بحال الاقليم الواقع فيما وراء الفرات وضبط أموره من كل الوجوه ، وحدث في ذات ليلة من ليالى زحفه أن خرج مع نفر من خاصة أتباعه ، وكان الكرى قد ران على عيون معظمهم فتراخوا في حذرهم ولم يتوقعوا أى خطر يفاجئهم ، فساروا متفرقين ، واذا ببلك يطلع عليهم بغتة ويهاجمهم ، إذ كانت الأخبار قد جاءت عن سير الملك فنصب له ولن معه كمينا ، وكان حرس الملك غير مستعدين للقتال فقد أثقلهم النعاس وخالطهم الرسن وشاء الحظ العاثر أن يقع بلدوين ذاته في يد بلك أسيرا ، وكان الحرس الذين في الطليعة والمؤخرة قد فروا في هذه

الأثناء على وجوههم وتفرقوا فى شتى الجهات غير عالمين بالنكبة التى حاقت بمولاهم ، وأمر بك بالملك أن يقيد ورماء فى قلعة خربت الواقعة وراء نهر الفرات حيث كان كونت جوسـلين ، «وجاليران» فى الحبس كما ذكرنا .

فلما تسامع زعمائنا فى المملكة بخبر النكبة الفادحة التى حاقت بالملك انشغل بالهم أشد الانشغال حول مصير الملكة ، فاجتمعوا فى مؤتمر مع البطرك وكبار رجال كنيسة مدينة عكا ، وكلهم شعور واحد ، واجمعوا - دون أن يشذ واحد منهم - على اختيار «استاس جرنبيه» - وكان رجلا عاقلا مدبرا ذا خبرة كبيرة فى الأمور الحربية لتصرف أمور الملكة وولوه عليهم ، وترجع ثروة استاس الضخمة الى أنه كان قد ورث شرعا مدينتين كبيرتين فى المملكة هما صيدا وقيسرية بكل ملحقاتهما ، ومن ثم فقد عهد اليه زعمائنا بحكم الملكة وإدارة دفعة شئونها العامة حتى يأذن الله بالفرج فيطلق سراح الملك ويعود الى حريته ، ويومذاك يكون قادرا مرة أخرى للهيمنة على شئون المملكة .

ولنعد الآن لمتابعة خبر نكبة الملك .

- ١٨ -

بعد أن قيد الملك والكونت وأصبحا رهينى محبسهما فى تلك القلعة المشار اليها سمع رهط معين من الأرمن ( يبلغون الخمسين رجلا ) ان عاملى المسيحية العظميين فى الأسر بقلعة خربت ، فصمموا على القيام بمحاولة انقاذهما دون اكتراث بما يحيق بهم من الخطر ان هم فشلوا فى مسعاهم .

واختاروا خطة جديدة كل الجدة .

وهناك رواية أخرى تقول انهم قاموا بمحاولتهم هذه استجابة لاستصراخ كونت جوسلين بهم ، ومن ثم طمعوا فى الحصول على مكافأة سخية لقاء تعريضهم انفسهم لهذا المخطر . وعقد هؤلاء الأرمن الخمسون اتفاقا لا نقض فيه ، وأكدوا اتفاقهم بأغلظ الايمان ، وكانت خطتهم أن يذهبوا الى الحصن لتحرير هذين الرجلين العظيمين دون اعتبار للأخطار التى تكتنف هذا العمل . فتنكروا فى مسرح الرهبان ولكنهم حملوا الخناجر تحت أثوابهم الفضفاضة ، وانطلقوا الى تلك القلعة حتى ليحسبهم الرأى أنهم فى بعض أعمال ديرية ، ثم راحوا يصطنعون الكلمات والآهات ، والنظرات الحزينة مما يظهرهم وكأنهم قد أودوا أذية بالغة ، وأن بعض الناس أصابوهم بضرر كبير ، وأعلنوا - والدموع تنسكب من عيونهم - أنهم يريدون أن يحتجوا عند حاكم الناحية على المعاملة التى صادفوها لأنه هو المسئول عن حفظ النظام حتى لا يقع أى سوء فى المنطقة .

\*\*\*

وهناك رواية أخرى تقول انهم نجحوا فى دخول القلعة متخفين فى زى تجار جاءوا لبيع سلع رخيصة ، فلما اذن لهم أخيرا بدخول المكان استلوا سيوفهم من أغمادها وفتكوا بجميع من اعترضهم .

فهل ثم مزيد نقوله ؟

لقد سيطروا على القلعة ، وخلصوا الملك والكونت وحصنوا المكان على أحسن قدر استطاعوه ، وأذ ذاك رأى الملك أن يبحث الكونت جوسلين فى جلب العون على جناح السرعة لانقاذه وانقاذ تلك الجماعة التى كان لجهودها الفضل فى تحريرهما .

ولما اكتشف الترك الذين يعيشون فى تلك النواحي كيف احتال الملك ورفاقه للسيطرة على القلعة حملوا هم أيضا سلاحهم وأغذوا السير إليها وصمموا الا يدخلها أو يخرج منها أحد حتى يصل مرلاهم بك ، لكن على الرغم من ذلك فان كونت جوسلين خرج فى لحظته غير عابىء بالخطر الذى يعرض نفسه له من الكمائن التى ينصبها له الخصم ، وانطلق ، وانطلق معه ثلاثة رفاق له ، يلزمه اثنان منهم طول الطريق ، فان كللت محاولته بالنجاح بعث بالثالث الى الملك رأسا يبشره بما تم ، وهكذا خرج الكونت ورفيقاه حسب الاتفاق ترعاهم عناية الله دون أن يعلم بهم أحد من أولئك الذين كانوا قائمين بحراسة القلعة ، واذ ذاك ردوا زميلهم الثالث الى القلعة ومعه خاتم جوسلين ، دليلا على نجاحهم فى اختراق صفوف العدو .

وفى أثناء غيبة جوسلين قام الملك والنفر الذين كان لمساعدتهم الفضل فى انقاذه بتحسين القلعة بكل وسيلة ممكنة ، لأنهم كانوا يطمعون أن يظلوا قادرين على السيطرة عليها حتى تجيء النجدة التى كانوا يدركون أنها لن تغيب عنهم طويلا .

## -- ١٩ --

وحدث فى هذه الليلة بالذات أن رأى بك فى نومه رؤيا مزعجة أزعته وبلبلت خاطره ، مفادها أن جوسلين سمل عينيه بيديه ، فانخلع قلبه رعبا ، وبات نجى الوسوس ، حتى اذا طلع النهار بعث الى القلعة رجالا من لدنه كلفهم بقطع رأس جوسلين دون تمهل أو إبطاء ، فلما اقترب هؤلاء الرجال من القلعة جاءهم الخبر بأنها قد سقطت فى يد العدو ، فارتدوا الى مولاهم على أديبارهم بأسرع ما يمكنهم الارتداد ، وفصلوا له تفصيلا كل ماجرى ، لم يتركوا شاردة ولا واردة الا قصوها عليه ، فلم يتوان الأمير فى استدعاء العسكر من شتى

النواحي في لحظته هذه وأسرع بهم دون ترتيب الى ذلك المكان وحاصره ، وسد المسالك في وجه اللاجئين الى الحصن ، ثم عمد بعد ذلك الى الاتصال بالملك بلدوين عن طريق الوسطاء ، يعده وعدا لانكث فيه أنه سوف يأذن له ولجميع من معه بالخروج دون مضايقة ، وأنه سوف يعطيهم كتاب أمان حتى يصلوا الى الرها اذا رد بلدوين اليه القلعة من غير كيد .

الا ان الملك كان شديد الثقة بمناعة القلعة ، كما أنه كان يعتمد على معونة هؤلاء الأرمن الذين انضموا اليه ، مما حمله على أن يعتقد أنه قادر على المحافظة على القلعة في يده حتى تصله النجدة ، ومن ثم رفض العروض التي تقدم بها بلك ، واستمر في الدفاع عن الحصن دفاعا مجيدا ، فاسخط هذا الرفض بلك سخطا بالغا ، واستدعى اليه في الحال القلعة ، وأمرهم باعداد شتى أنواع الآلات التي يكون في حاجة اليها في مهاجمة القلعة وفيها العدر ، وراح يضاعف مضايقتها ، وأصر على أنجاز العمل مستغلا استغلالا مفيدا كل الخطط البارة التي تمكنه من انزال الأذى بالمحصورين .

وكانت القلعة مشيدة على تل ذي طبيعة جيوية قديمة ، جعلت الدخول اليها يسيرا ، ولذلك رأى « بلك » أنه من السهل عليه تدمير الموضع بمخيمته وتقويضه من أساسه ، فجند لذلك الجند المهرة في حفر الخنادق وأمرهم بحفر أنفاق كبيرة داخل التل، ودعمها بالكتل الخشبية وما شابه ذلك من المواد الأخرى ، وما كاد العمال يفرغون مما كلفوا به حتى اضرموا النار في المواد القابلة للاشتعال التي وضعت داخل الانفاق ، فلما أتى الحريق على الأعمدة انخسف التل وسقط أحد الأبراج التي عليه سقطا صحبته رجة هائلة حملت الملك على الاستسلام في الحال لبلك من غير قيد ولا شرط ، لأنه خاف أن تنهار القلعة بأكملها بنفس الصورة ، فأكتفى بلك بامتلاك الحصن

ومن على بلدوين وابن أخته وجاليران بالحياة ، وأمر بتقييدهم وحملهم الى مدينة حران القريبة من الرها ليبقوا تحت المراقبة الدقيقة ، اما الأرمن المؤمنون الذين عرضوا أنفسهم للأخطار ابتغاء اطلاق سراح مولاهم الملك من الأسر ، فقد لاقوا أنكر صنوف العذاب ، اذ سلخت جلود بعضهم وهم أحياء ، ونشرت أعضاء آخرين ، ودفن سواهم أحياء ، ثم سلم بك غير هؤلاء الى رجاله يجعلونهم هدفا يفوقون اليه سهامهم .

وهم وان لاقوا العذاب فى هذه الدنيا الا أن طمعهم فى حياة خالدة أبدية كان أملا لا يخبو فى نفوسهم ، وعلى الرغم من أنهم امتحنوا فى بضعة أمور الا أن مثويتهم - من ناحية أخرى - كانت أعظم .

\*\*\*

- ٢٠ -

سيطر الفزع المقيم على جوسلين وزملائه الرجال وهم يتابعون طريقهم فى حذر شديد ، ولم يكن عندهم غير قدر ضئيل من الطعام ، وسوى راويتين من النبيذ أحضروهما معهم عن غير قصد ، وظلوا ماضين فى زحفهم هذا حتى أبلغهم الزحف أخيرا شاطئ نهر الفرات ، فتشاور جوسلين مع رفاقه الذين يواجهون معه الخطر عن أيسر الدروب ليعبروه ، فقر رأيهم أخيرا على نفخ الراويتين وربطهما الى جوسلين بالحبال ، فاستطاع بهذه الوسيلة وبعون الرب وإرشاد اثنين من السباحين المهرة - كان كل واحد الى أحد الجانبين - أن يصل الى الشاطئ الآخر من النهر سالما آمنا ، ثم تابع سيره - وان لم يخف الخطر - حافى القدمين فعانى مشقة بالغة لما بذل من جهد لم يالف بذله ، واضناه السغب وأمضه الظما وأرهقه اللغب حتى

بلغ فى النهاية برحمة الله حصن تل ياشر الشهير ، لكن لم تسكه  
شدة جزعه عن المهمة التى وكلت اليه من متابعة السير الى أنطاكية ،  
مصحوبا بحرس مؤقت كان لابد له منه ، نظرا لما هو فيه من وضع  
خطير ، ثم نزل على نصيحة البطريرك برنارد فتابع سيره الى القدس  
حيث شرح لبطركها ولأمراء المملكة أحداث النكبة التى ألمت بالملك ،  
وقص عليهم بالتفصيل كل ما يتعلق بهذا الأمر ، سائلا اياهم أن  
يبادروا فى لحظتهم هذه الى ارسال نجدة للملك لأن موقفه المتزعزع  
لا يتحمل أى تأخير ، بل يتطلب المشاورة السريعة والمعونة العاجلة  
وان يتم ذلك دون تريث ولا ابطاء .

ولقد ترتب على التماساته هذه ان اجتمع اهل المملكة جميعا  
وقاموا قومة رجل واحد رافعين صليب الصليوت، وخرجوا من ساعتهم  
هذه ، وكانوا كلما مروا بمدينة فى طريقهم توالى عليهم الامدادات  
لتزيد عددهم ، حتى بلغوا أنطاكية حيث انضم اليهم كبار اهلها  
وعامتهم ، وساروا تحت قيادة الكونت كتلة واحدة الى تل ياشر ،  
وهنا جاءهم الخبر اليقين بكل ما جرى للملك فى خلال هذه الفترة ،  
وان رأوا عدم جدوى التقدم أكثر من هذا فقد تقرر باجماع الآراء  
أن يعودوا كلهم الى أوطانهم ، فيرجع كل واحد من حيث أتى ، غير  
انهم لم يشاءوا أن تنفض الحملة دون أن تجنى ثمرة لخروجها ،  
لذلك اتفقوا على أن تنزل هذه الكتائب اقصى مايمكنها من المضرة  
بالخصم أثناء مرورها قرب حلب ، وتم كل شئ حسب مرسوموا ،  
اذ بينما كانوا سائرين على مقربة من هذه المدينة برز اهلها لهم  
قاصدين قتالهم ، فما كان من المسيحيين الا أن أرغموهم بقوة السلاح  
على الارتداد الى المدينة التى ظل عسكرنا أمامها أربعة أيام على  
السواء رغم محاولات اهلها دفعهم .

فلما كان المسيحيون فى طريق العودة انفصل من كانوا من  
اهل المملكة عن سواهم وتابعوا زحفهم على انفراد ، حتى اذا

غبروا الأردن أغاروا فجأة على بلد للمعدو قرب بيسان ، وباغتوا سكانها الذين لم يكونوا مستعدين أبدا لمثل هذه الغارة . فالقى الكثيرون منهم حتفهم بحد السيف ، ووقع فى الأسر عدد كبير من الرجال والنساء على السواء ، ثم عاد الصليبيون فرحين مهللين الى بلدهم قد فاضت أيديهم بأوفر الغنائم وأحسن الأسلاب .

## - ٢١ -

كان لأمير مصر ما يبرر سوء ظنه بمملكة بيت المقدس ورأى الفرصة مواتية لغزوها إذ ذاك بسبب وقوع عاقلها فى الأسر ، ومن ثم أمر باستدعاء قوات اضافية من كل أرجاء مصر ، كما أمر ولاية المدن الساحلية الذين لم تكن لهم مهمة سوى الاهتمام بها بأعداد السفن وتجهيز الأسطول ، فتم فى الحال كل ما هو لازم للمقاتل بحرا .

وما كادت السفن السبعون تأخذ للأمر أهبطه حتى عبر الأمير ( الأفضل ) الصحراء بجيش برى ضخم ، وعسكر قرب عسقلان حيث بقى هنا مع فيالقه ، على حين أبحر الأسطول الى مدينة يافا وألقى مراسيه أمامها ، ثم نزلت القوات البحرية الى البر فى أعداد ضخمة ، وأحاطوا فى الحال بالمدينة من كل نواحيها احاطة السوار بالعصم ، وشنوا سلسلة من المناوشات العدوانية المتواصلة مستهدفين من ورائها مضايقة عدوهم ، ولما كان عدد المدافعين بالغ القلة فقد استطاع المحاصرون الاقتراب آمنين من سور المدينة اقترابا شديدا مكنهم من نقضه فى كثير من المواضع ، ولو كان قد تسنى لهم متابعة الهجوم فى اليوم التالى أيضا لانهارت الأسوار كلها تحت ضرباتهم ولاسقطاعوا الاستيلاء على المدينة عنوة لقلة من بها من المدافعين عنها .

الا أن البطريرك واستاس جرنبيه الكونستابل الملكى وغيرهما من كبار رجال المملكة ركزوا فى هذه الأثناء كافة القوات التى استطاعوا

جمعها فى سهل قيسرية عند موضع يقال له « القاقون » واستعدوا للقتال ، وبعثوا بهم الى يافا ، فلما وصل خبر تقدمهم الى اُسماع رجال القوات المصرية المحاصرة الموجودة أمام المدينة ارتدوا سراعا الى سفنهم خوفا من مجيء قواتنا ، ونزل رجال البحرية الى قواربهم وأمسكوا بمجاديقهم فى انتظار ماسوف يحدث لقواتهم البرية التى كانوا يعرفون انها قريبة من العدو ، واما الصليبيون فقد أخذوا فى التقدم الى الامام فى هذه الأثناء رافعين صليب المسيح ، وقلوبهم عامرة بالايمان ، مستعنين بعطف الرب ، مما زاد فى أملهم فى أن تكون لهم اليد العليا وأن يكون النصر حليفهم ، وتقدمت صفوفهم حتى صارت قرب موضع اسمه « ابلين » فواجهت العدو الذى جاء بجيوش رتبها خير ترتيب على مألوف عادته وبصورة ترحى بأنهم عازمون على الاشتباك مع الصليبيين ، لكنهم ماكادوا يطالعون تنظيمنا الرائع ، ويتذكرون الدليل البين على بأسنا حتى دب الوهن فى أوصالهم ، ومع أنهم بدعوا وكأنهم الأسد الضارية الا أنهم صاروا الآن أجبن من الأرانب وأرادوا أن يتحاشوا القتال بل أنهم ندموا أشد الندم على أنهم سعوا اليه بأنفسهم وتمنوا لو أنهم لم يفعلوا ذلك قط .

ويقال أن مجموع قواتنا عامة بما فيها شتى طبقات العامة بلغ قرابة سبعة آلاف شخص . اما العدو فكان فى ستة عشر ألف رجل مدججين بالسلاح خرجوا للحرب ، بالاضافة الى العاملين فى الأسطول من أهل السفن ، ولكن روح الصليبيين المعنوية كانت عالية وان اضطربت قلوبهم لما واملأت نفوسهم بالخوف من الله فاستغاثوا به يطلبون العون منه ، واندفعوا على خصومهم بسيوفهم اندفاعا شديدا دون أن يتركوا لهم لحظة يلتقطون فيها أنفاسهم رغم خطر الموت المحقق بهم ، اذ كان القتال وجها لوجه .

وتملك المصريين الدهشة من قوة الصليبيين وجراتهم ، فقد شاهدوا بأعينهم وتأكدوا مما نزل بهم من الضربات صدق الأخبار التي جاءتهم عنهم ، وان لم يمنعهم ذلك من الاستعداد لهم . فنشطوا في مصارعتهم وردوا ضرباتنا العنيفة بعنف مثلها ، لكنهم لم يكونوا لنا ندا في الاقدام ولا في الشجاعة ، ففشلت محاولتهم ضدنا ، واضطروا للفرار مخلفين وراءهم معسكرهم الذي كان يفيض بكل صنوف الثروة والمتعة ، ولم يكن يشغلهم سوى النجاة بأنفسهم .

وتحمس الصليبيون في مطاردتهم الى أبعد ماوسعتهم المطاردة ، واعمكوا فيهم السيف حتى لم ينج من جموعهم الكثيفة الا شردمة لم يبلغها القتل ولم يجر عليها الأسر حتى ليقال ان من مات من العدو في ذلك اليوم بلغ سبعة آلاف رجل .

ثم انقلت جندنا منصورين الى معسكر العدو فوجدوا به ثروات المصريين ممثلة في كميات كبيرة من الذهب والفضة وشتى انواع الأوعية الثمينة والخيم والفساطيط والجياد والدروع والسيوف ، فقسموا الغنائم بينهم حسب قوانين الحرب ، وعاد العسكر الى بلادهم أثرياء فوق الوصف .

ما كاد نبأ نكبة الجيش البرى يصل الى سمع أهل الأسطول حتى أبحروا الى مدينة عسقلان التي كانت لاتزال في قبضة المصريين فكانت ملجأ آمنا لهم ، وقد سمعوا هنا تفصيلا أتم عن هزيمة الجيش .

\* \* \*

وقد مات في هذه الأثناء أنستاس « جرنبيه » وكان رجلا عاقلا ، محمود السمائل ، القوا اليه بادارة دقة شئون المملكة أثناء

غياب الملك ، فلما مات نصبوا مكانه الرجل الطيب الذكر « وليم دى بيورى » صاحب طبرية ، وكان ممدوحا وجيها ، ولما نمت الى علم دوج البندقية «دموينجو ميكانيلى » ، خبر الصعاب التى املت بمملكة الشرق أمر باعداد الأسطول الذى خرج مؤلفا من أربعين قرقورة وثمان وعشرين شينى ، وأربع سفن كبار ملائمة لحمل الأمتعة ، وأبحر فى هذا الوقت متجها الى سورية، وصحبه فى حملته هذه بعض كبار رجال بلده ، فلما بلغوا جزيرة قبرص علموا أن الأسطول المصرى قد أبحر الى ساحل يافا فى سورية حين بلغه خبر اعتزام البنادقة المجيء ، وكان أسطولهم لا يزال راسيا هناك وان نظرت الىه المدن البحرية بكثير من الشك والارتياب ، فكان هذا النبا مؤديا بالدوج لأن يأمر بالرحيل فى ساعته ، وأسرع بالابحار الى الشاطئ القريب من يافا ، وكان مستعدا للمقاتل ، لكن جاءه الخبر ان الأسطول المصرى غادر يافا راجعا الى ناحية عسقلان ، ذلك لأن الأنباء المحزنة عن النكبة التى بلغهم خبر وقوعها لجيشهم البرى فى المعركة التى كانت بينه وبين الصليبيين حملتهم على الارتداد الى مدينة تكون تحت سيطرتهم ، فلما جاء الى البنادقة جواسيسهم بهذا النبا أداروا دفة سفنهم فى الحال الى عسقلان متطلعين فى لهفة لأن يشتبكوا فى قتال مع الأسطول المصرى ان كان لا يزال هناك ، واذا كانوا أهل تجربة عظيمة ومهارة فائقة فى مثل هذه الأمور فقد أعدوا سفنهم للحرب على أحسن صورة ممكنة .

كان فى هذا الأسطول البندقي بعض سفن ذات منقار اكبر من السفن ذات المجاذف التى تسمى بالشوانى ، وقد جهزت كل واحدة منها بمائة مجذاف يحتاج كل واحد منها الى رجلين ، وبالإضافة الى هذا كله كانت هناك - كما قلنا - أربع سفن أكبر حجما من هذه لحمل المؤنة والآلات والأسلحة وكل ما يحتاجونه وقد وضعت

هذه السفن والقراير فى المقدمة حتى اذا رآها العدو من بعيد ظننا سفنا تجارية ولم يحسبها سفن الخصم • وسار من ورائها السفن العراض ، وهكذا مضت القوة على هذا النسق متجهة شطر الساحل ، وكان البحر هادئا أشد الهدوء ، والريح فى جانبهم ، وأسطول العدو على مقربة منهم ، حتى اذا أخذ الصبح فى الاشرار وأعلنت آلهة الفجر طلوع النهار أدرك المصريون ان الأسطول المسيحي يتقدم نحوهم ، فلما طلع النهار رأوه قريبا منهم غاية القرب فتملكهم الفزع ، واستبدت بهم الدهشة ، وانطلقوا الى مجاديفهم ، وقد تأكد لديهم أن القتال واقع لامحالة راحوا يصيحون بالبحارة ويلوحون لهم بأيديهم ان يقطعوا الحبال وينتزعوا المراسى ثم يجمعون النوتية ويمتشقون أسلحتهم •

### - ٢٣ -

فى غيرة هذا الارتباك والفزع تناثرت عقد نظام العدو غاية التناثر، وفى وسط هذه المعمة أخذ قارب من قوارب البندقية - وعليه الدوق - ينساب بسرعة أمام غيره ، وشاعت الصدمة ان يرتطم هذا المركب بالسفينة التى كانت تحمّل قائد الأسطول المصرى وكان الارتطام قويا بالدرجة التى أدت بالأمواج لأن تبتلع مركب العدو بمن عليها من المجدفين •

وانطلقت القراير البندقية الأخرى بنفس السرعة ، ونجحت كل واحد منها تقريبا فى قلب واحد من مراكز العدو ، وتلى ذلك معركة حامية الوطيس حارب فيها كل جانب الآخر حربا لا هوادة فيها ، واستحضر القتل ، ومما لا يكاد يصدقه العقل ان الذين شاركوا فى هذه المعركة أكدوا تمام التاكيد ان دماء القتلى كانت تغطى المنتصرين وظلت مياه البحر - فى دائرة قطرها ميلان - حمراء قانية

بسبب الجثث التى القيت هناك ومن الدم الذى كان ينساب من السفن وغطت السواحل الجثث التى لفظها البحر حتى فسد الهواء وعم الطاعون المنطقة المحيطة بها بسبب جيف الموتى العفنة •

واحتدم القتال فى الأحياء المجاورة لأن أحد الجانبين كان يحارب حربا ضارية ، والجانب الآخر يجاهد كل المجاهدة ويقاومه نفس المقاومة ، ثم شاءت ارادة الله فى النهاية ان يكتب النصر للبنادقة ، قادبر العدو وولى ، واستولى البنادقة على أربعة شوان من شوانيه ، كما أخذوا كثيرا من القراقرير ، وكذلك سفينة كبيرة قتل أميرها ، وهكذا أحرزوا نصرا خالدا الى الأبد •

لم تكد الرحمة العلوية تمنح شعبنا هذا الفوز حتى اصدر الدوج أوامره بمواصلة الإبحار تجاه مصر من غير تريث ولا إبطاء ، وكان أمله ان يلتقى رجاله ببعض أسطول العدو ، ومن ثم فقد أبحروا مصاقبين للساحل حتى بلغوا العريش احدى المدن البحرية القديمة الرابضة على حافة الصحراء ، وتم كل شئ وفق ما أرادوا حتى وافاهم رسول بالخبر اليقين وأنبأهم بكل ما سوف يصادفونه ، ذلك انهم بينما كانوا يجتفون بهمة فى تلك المياه ان بهم يلحقون عشرة من سفن العدو على مسافة غير بعيدة عنهم ، فاتجهوا فى إبحارهم سراعاً شطرها واستولوا عليها بالقوة فى أول نزال بينهم وبينها ، فقتلوا بعضاً ممن كان على ظهرها وأخذوا الباقين أسرى ، وكانت هذه السفن محملة بالبضائع القادمة من الشرق ، وأعنى بها التوابل والأقمشة الحريرية ، فوزع البنادقة تلك الاسلاب فيما بينهم حسب مالوف عاداتهم ، فامتلت أيديهم بالثروة ، ثم سحبوا معهم القوارب التى استولوا عليها ، ثم يعمروا وجوههم شطر مدينة عكا حيث أرسوا هناك •

سرعان ما وصل الى بيت المقدس نبأ رسو دوج البندقية على سواحلنا بقوة بحرية ، وعلم الناس كيف انتصر الدوج على العدو انتصارا قشيبا ، ومن ثم قام « جورموند » بطرك القدس ووليم دى بيورى الكونستابل الملكى وأمين خزانة الملكة ومستشار الملك « باينز » مع رؤساء الأساقفة والأساقفة وغيرهم من وجوه اهل الدولة فأرسلوا الى الدوج سفارة من أحكم رجالهم وأشرفهم يحملون اليه والى قواد البندقية وقواد الجيش تحيات البطرک والبارونات والشعب ، ويشرحون لهم فرحة اهل القدس وتطلعهم فى لهفة الى قدوم البنادقة اليهم، ويدعونهم للتمتع بكل ما تستطيع الملكة تقديمه لهم كما لو كانوا مواطنين للمدينة ، ويذكرون لهم ان الجميع على اتم استعداد وشوق لضيافتهم اكرم ضيافة حسبما تقتضيه الفرائض الانسانية الواجبة عليهم ، وأبدى الدوج رغبته فى زيارة الأماكن الطاهرة ، وهى رغبة دينية كان يتطلع اليها منذ سنوات طويلة غابرة ، كما أبدى رغبته فى الحديث الى الأمراء الذين كانوا قد بعثوا اليه من قبل دعوة قلبية ، لذلك فانه خلف وراءه للرعاية عددا كافيا من اهل الحجى ، وشد رجاله الى القدس غير مستصحب معه سوى كبار رجالاته ، فلما بلغ المدينة قوبل بترحاب كريم وأحاطوه بأعظم آيات التشريف والتعظيم ، فاحتفى فيها بعيد ميلاد سيدنا ، وألح عليه أمراء الملكة الحاحا صساقدا أن يهب نفسه بعض الوقت لخدمة المسيح ورفعته الممكة، فكان رد الدوج عليهم انه لم يأت الا وفى نفسه تحقيق هذا الغرض ، وانه آلى على نفسه الا أن يهب ذاته لهذا الهدف ، ولما كان البطرک وكبار رجال الملكة موجودين فقد انعقد الاجماع على مهاجمة احدى المدن الساحلية ولاشئ سوى ذلك ، وان ينصب الهجوم على مدينة صور أو عسقلان لأن جميع المدن

— بدءاً من نهر مصر حتى أنطاكية — قد صارت بفضل الرب ملك يميننا • غير أن رغباتنا تباينت تبايناً شديداً حول هذه النقطة ، وأوشك الأمر أن يؤدي إلى نزاع خطير ، لأن ممثلي بيت المقدس والرملة ويافا ونابلس وما حول هذه المدن بذلوا قصارى سعيهم كي يوجهوا الحملة ضد عسقلان باعتبارها أقرب ما تكون إليهم ، وأنها لا تكلف جهداً كبيراً ولا تتطلب المال الكثير •

أما الرجال من أهل عكا والناصرية وصيدا وبيروت وطبرية وجبيل وغيرها من مدن الساحل فكانوا على العكس من ذلك ، إذ أصرروا على أن تتجه الحملة ضد صور ، وحجتهم في ذلك أنه لما كانت صور مدينة عظيمة وشديدة التحصين فإنه يجب بذل جميع الجهود الممكنة لجعلها تحت سيطرتنا حتى لا يتمكن العدو من اتخاذ أرضها معبراً إلى بلادنا فيستطيع أن ذاك معاودة الاستيلاء على الناحية كلها •

كان من جراء هذا الاختلاف الشديد في الآراء أن أوشكت المسألة على التأجيل تأجيلاً فيه المضرة ، غير أنه عن طريق جهود بعض الوسطاء رأى أنه من الأوفق أن يحسم هذا النزاع بالقرعة ، وزيادة على ذلك فإن الطريقة التي اتخذت لعمل القرعة كانت سوية لا حيف فيها ولا غبن ، فقد وضعت على المذبح قصاصتان من الورق كتب على واحدة منهما كلمة « صور » وعلى الأخرى « عسقلان » ، ثم جرى بيتيم صغير يرىء وكلفوه أن يختار أحدهما بعد أن عرفه الجميع أن الجيش سوف يزحف من غير نقاش على المدينة المكتوبة على الورقة المسحوبة ، فوقع الاختيار على « صور » •

وقد عرفت هذه التفاصيل من شيوخ معينين اكسوا تأكيداً باتاً أنهم كانوا شهود عيان لكل هذه الأحداث التي ذكرناها •

وبعد اقرار هذه التفاصيل اجتمع البطررك المعظم وكبار رجالات هذه المنطقة مع الناس فى مدينة عكا حيث كان اسطول البنادقة راسيا فى مرفأ أمين بالميناء ، وتبادل الفريقان الايمان الغليظة على ان يلتزموا جميعا بشروط الاتفاق الذى ارتضوه ، وأعدت جميع التجهيزات اللازمة لحملة من هذا النوع .

حتى اذا كان اليوم السادس عشر من شهر فبراير ١١٢٤ ضرب الحصار برا وبحرا على مدينة صور .

## - ٢٥ -

ورغبة منا فى الا يخلو الكتاب من وثيقة بشأن الأحداث التى جرت فى الأزمنة السالفة قاننا ندرج هنا وثيقة هامة تدل على ما جرى ، وهى نسخة من الامتيازات التى تضمنتها الاتفاقية المبرمة بين البنادقة وكبار رجال مملكة بيت المقدس وهى كالاتى :

« باسم الثالوت المقدس الذى لا يتجزأ ، وباسم الواحد الآب والابن والروح القدس : انه فى زمن حكم البابا «كاليسيوس» الثانى وهنرى الرابع (١٨) امبراطور الرومان العظيم والذى يحكم أولهما كنيسة رومة وثانيهما يحكم الامبراطورية ، وفى نفس العام الذى عقد فيه بروما مجمع أقر السلام بمشيئة الرب بين الكنيسة والدولة بخصوص الخاتم والصولجان فان «دومينيجو ميكيلي» دوج البندقية ودلماشيا والكروات وأمير الامبراطورية اى جمهورية البندقية جاء وفى صحبته نفر كبير من الفرسان واسطول قوى من السفن ، جاء مدافعا عن المسيحيين الذين هم فى أشد الحاجة لدفاعه وقدم مباشرة

---

(١٨) الصواب ان يقال « الخامس » .

من ساحة انتصاره على أسطول الوثنى التابع للـك بابلـيون ، بعد أن  
أنزل به هزيمة نكراء أثناء رسوه أمام شواطئ عسقلان .

وهى وثيقة مدونة فى ذيل هذا الكتاب ، ومن ثم سوف تبقى  
مسليمة لا يعثرها التغيير و لا التبديل ولا تشجب فى المستقبل .  
سواء بالنسبة له أو لشعبه بل تظل محفوظة على الدوام أمين .

« أنه سوف يكون للبنداقية فى كل مدينة من مدن الملك المشار اليه،  
والموجودة تحت حكم خلفائه كذلك وفى جميع مدن باروناتـه . . سوف  
يكون فى كل هذه المدن للبنداقية كنيسة خاصة بهم وشوارع خاص بهم  
بأكملـه ، وكذلك يكون لهم ميدان وحمام ومخبز ، ويكون ذلك حقا لهم  
يتوارثونه ، ولا يدفعون عن ذلك أبدا أى ضرائب ، كما لو كان  
ذلك ملكا للملك ذاته .

« ويكون لهم فى الميدان المطجود ببـيت المقدس مثلما يكون للملك  
ذاته ، لكن اذا أراد البنداقية أن يقيموا بعكا فى حيهم هناك فرنا  
وطاحونة وحماما وتكون لهم موازينهم ومكاييلهم لكيل النـيـذ  
والزيت وعسل النحل فبسمـح بذلك بالمجان لكل شخص ساكن هناك  
دون معارضة ، ويسمح له بالطبخ أو الطحن أو الاستحمام من غير  
رسم يدفعه كما هو الحال تماما فيما هو ملك خاص للملك ، ويحق  
لهم أن يستعملوا المكاييل والموازين وأدوات الكيل كما يلى :

اذا أراد البنداقية المتاجرة فيما بين بعضهم البعض الآخر  
فيجب عليهم أن يستعملوا موازينهم الخاصة بهم ، أى موازين  
البندقية ، واذا باع البنداقية بضائعهم لشعوب أخرى غير شعبهم  
فعلـيـهم أن يبيعوا بموازينهم الخاصة ، أى بموازين البندقية .

« اما اذا باع البنداقية أو تسلموا أى شىء للمتاجرة فيه من أى

شعب أجنبي عنهم ليس ببندقى فيؤذن لهم أن يأخذوا بالميزان الملكى  
ويثمن معلوم ، ومن أجل هذه الامتيازات فليس على البنادقة أن  
يدفعوا أى ضريبة سواء ما جرت العادة بدفعها أو لأى سبب آخر :  
أيا كان هذا السبب ، وسواء أكان ذلك عند الدخول أو البقاء أو  
البيع أو الشراء ، وسواء أكانوا مقيمين أو فى اثناء مغادرتهم  
البلد .

ولن يكون البنادقة ملزمين لأى سبب من الأسباب بدفع أى  
ضريبة الا فى حالة مجيئهم أو ذهابهم حاملين الحجاج على سفنهم  
الخاصة ، وحينذاك يكونون ( حسب جمرك الملك ) ملزمين باعطاء  
الثالث للملك نفسه .

« ونوافق ملك بيت المقدس - وكلنا نيابة عنه - أن ندفع لدوج  
البندقية من دخول صبور يوم الاحتفال بعيد الرسولين بطرس  
وبولص ثلاثمائة قطعة بيزنطية شرقية سنويا كما هو المتفق عليه .

« ويضاف الى ذلك اننا نتعهد لك أيها الدوج دوج البندقية  
ونتعهد لشعبك اننا لن نأخذ شيئا أكثر من تلك الشعوب التى تتاجر  
معكم فوق ما اعتادوا دفعه ، ولا نأخذ منهم أكثر مما نأخذه من  
أولئك الذين يتاجرون مع الشعوب الأخرى .

« وبالإضافة الى ذلك فان ذلك القسم من نفس المكان وشارع  
عكا الذى يوجد فى أحد أطرافه دار « بطرس » « زنى » ، وفى الطرف  
الأخر دير القديس ديمتريوس ، وكذلك أيضا جزء آخر من نفس  
الشارع الذى فيه بيت خشبى واحد وبيتان من الحجر كانا من قبل  
كوخين من القصب الفارسى ، هما نفس ما خصصه بلدوين ملك  
بيت المقدس فى الأصل للطوبائى مرقص فتمنح الى الدوج « اردولافو »  
وخلفائه نظرا للاستيلاء على صيدا .

« وأنتى » لأقول اننا نؤكد منح هذه الأماكن للقديس مرقس ولك أنت أيها السيد دومينيغو ميكيلي دوج البندقية ولخلفائك بمقتضى هذه الوثيقة .

« واننا لنعطيك الحق فى أن تمتلك على الدوام هذه المواضع وان تفعل بها ما تريد .

« اما فيما يتعلق بالجزء الآخر من نفس الشارع الممتد فى خط مستقيم من بيت « برنارد دى نيف شاتل » الذى كان من قبل تابعا لجون جوليان حتى بيت جبلبرت اليافاوى الذى هو من أسرة « سنت لو » فاننا نعطيكم نفس السلطة التى للملك .

« وبالإضافة الى ذلك فانه لا يجوز لأى بندقى فى جميع أملاك الملك أو فى جميع أملاك باروناته أن يدفع أى ضريبة سواء فى السخول أو فى الإقامة أو فى الخروج تحت أى حجة ، وانما يكون حرا تماما كما لو كان فى البندقية ذاتها .

« لكن اذا حدث وكان لأى بندقى قضية قانونية أو مقاضاة فى أى تجارة أو عمل ضد بندقى آخر فان الفصل فى هذه القضية يكون فى محكمة البنادق ، كما انه اذا شعر أى شخص ان له نزاعا أو قضية ضد أحد البنادق فيكون نظرها والفصل فيها فى نفس محكمة البنادق ، لكن اذا اشتكى بندقى شخصا آخر ليس ببندقى فان النظر فى هذه الشكوى يكون فى محكمة الملك .

« كذلك فانه اذا مات بندقى وكان موصيا بوصية قبل موته أو غير موص بوصية ( وهى التى نقول نحن عنها انها بلا لسان ) فسان أملاكه تؤول الى إشراف البنادق وتكون تحت رقابتهم .

« وإذا حدث لبندقى أن تحطمت سفينته فانه لا يتكبد خسارة أى شىء من أملاكه ، أما اذا كان موته فى جنوح السفينة فان الأملاك التى يتركها سوف ترد الى ورثته أو البنادقة الآخرين » وزيادة على ذلك فانه يكون للبنادقة نفس صلاحيات العدالة ونفس الحقوق التى للمواطنين من أى شعب يكونون ساكنين فى شارع وبيوت البنادقة مثل ما للملك عن حقوق على شعبه .

« وأخيرا فانه يكون للبنادقة ثلث مدينتى صور وعسقلان وملحقاتهما ، وثلث جميع الاراضى المتصلة بذلك من يوم عيد القديس بطرس ، ويسرى هذا فقط على الأراضى التى هى خاضعة الآن للشرقيين ( أى المسلمين ) ولم تصبح بعد فى قبضة الفرنجة .

« فاذا قدر بمساعدة البنادقة أو بأى وسيلة أخرى ان منح الروح القدس احدى هاتين المدينتين ، أو كليهما ان شاء الرب . لتكونا فى يمين المسيحيين فان ثلث هذه المدينة أو ثلثى هاتين المدينتين - كما قيل - يملكه البنادقة تمام التملك ويكون لهم سلطات تنظيمية فى هذه النواحي التى تصبح وراثية الى الأبد دون أى اعتراض أو معارضة ، شأنهم فى هذه الملكية شأن الملك فى تملك الثلثين من المدينة .

« ومن ثم فاننا جورموند بطرك بيت المقدس سنحمل الملك نفسه - اذا شاء الرب ان يطلق سراحه من الأسر - على أن يصادق بالتأكيد على الاتفاق المذكور أعلاه كاملا غير منقوص ، لكن اذا أقيم غيره ملكا على مملكة بيت المقدس فاننا سنحمله على تنفيذ العهود المشار اليها قبل اعتلائه العرش والا رفضنا اعتلاءه العرش ، كما ان خلفاء البارونات ، وأى بارونات جدد فى المستقبل سوف يكونون ملزمين بالموافقة على نفس الاتفاق وبالطريقة ذاتها .

» أما فيما يتعلق بأنطاكية فإننا نعرف تمام المعرفة بأن الملك بلديون الثانى وعدكم أن يكون لكم فى أنطاكية نفس الترتيب كما هو الحال فى بقية المدن الأخرى التابعة للملك ، وإن شعب أنطاكية يؤكد برضائه التام الاتفاق الملكى المبرم معكم .

» ونحن جورموند بطرك بيت المقدس وكذلك أساقفتنا ورجال الدين والبارونات وأهل بيت المقدس نمحضكم النصيحة ونسدى اليكم العون ، ونعدكم أن ننفذ بدقة وبايمان صادق كل ماسوف يكتب به البابا الينا بشأن هذا الأمر وإن تنفذ جميع الأمور السالفة المشار اليها لمراعاة شرف البنداقية .

» وأؤكد بخط يدى أنا جيرموند الذى هو برحمة الرب بطرك بيت المقدس الأشياء المكتوبة أعلاه .

وأنا أبريمار رئيس أساقفة قيصرية أؤكد مثله هذه الأشياء ذاتها .

وأنا برنارد أسقف الناصر ، أؤكدها أيضا .

وأنا اشيتيفوس أسقف بيت لحم ، أؤكدها أيضا .

وأنا روجر صاحب اللد وأسقف كنيسة سنت جورج أؤكدها أيضا .

وأنا جلدوين رئيس دير سنت ماري فى وادى يهوشافاط أؤكدها أيضا .

- وأنا جيرارد مقدم القبر المقدس ، أؤكد لها أيضا .
  - وأنا ايكارد مقدم هيكل السيد ، أؤكد لها أيضا .
  - وأنا أرنولد مقدم جبل صهيون أؤكد لها أيضا .
  - وأنا وليم دى بيورى كونستابل الملك أؤكد لها أيضا .
- « كتب هذا فى عكا بيد بابنس مستشار ملك بيت المقدس فى  
سنة ١١٢٣ فى الدورة الثانية » .

\* \* \*

هنا ينتهى الكتاب الثانى عشر

## صدر من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ  
د • عبد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر  
اعداد : رشوان محمود جاب الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة  
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة  
د • محمد نعمان جلال
- ٥ - غارات اوربا على الشواطىء المصرية فى العصور  
الوسطى  
عطية عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ج ١  
لمعى المطيعى

٣٨٥

( م ٢٥ - الحروب الصليبية )

- ٧ - صلاح الدين الأيوبي  
د ٠ عبد المنعم ماجد
- ٨ - رؤية الجبروتى لازمة الحياة الفكرية  
د ٠ على يرككات
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل  
د ٠ محمد أنيس
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية  
محمود فوزى
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية  
شكوى القاضى
- ١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير  
د ٠ نبيل راغب
- ١٣ - اكذوبة الاستعمار المصرى للسودان  
د ٠ عبد العظيم رمضان
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة  
د ٠ سييدة اسماعيل كاشف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامى  
د ٠ على حسن الخريوطلى
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر  
د ٠ حلمى أحمد شلبى

- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى  
د • محمد نصر فرحات
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة الملوكية  
د • على السيد محمود
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين  
د • أحمد محمود صايون
- ٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى  
د • محمد أنيس
- ٢١ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ١  
توفيق الطويل
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر  
جمال بدوى
- ٢٣ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢  
توفيق الطويل
- ٢٤ - الصحافة الوفدية  
د • نجوى كامل
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى  
ترجمة : د • عبد الرحيم مصطفى
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة  
د • سعيد اسماعيل على
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج ١  
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج ٢  
ترجمة : محمد فريد أبو حديد

- ٢٩ - مصر فى عهد الاخشيديين  
د ٠ سيدة اسماعيل كاشف
- ٣٠ - الموظفون فى مصر  
د ٠ حلمى احمد شلبي
- ٣١ - خمسون شخصية وشخصية  
شكرى القاضى
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٢  
لمعى المطيعى
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الافريقى  
د ٠ خالد الكومى
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية  
د ٠ يوتان لبيب رزق
- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة  
عبد الحميد توفيق زكى
- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والغرب ج ٢  
ترجمة : د ٠ احمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣٧ - الشيخ على يوسف  
تأليف : د ٠ سليمان صالح
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى  
العصر العثمانى
- د ٠ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان  
د ٠ جميل عبيد

- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨  
د ٠ عبد المعتم الدسوقي الجميعى
- ٤١ - محمد فريد الموقف والناسا  
رفعت السعيد
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور  
محمد شفيق غربال
- ٤٣ - رحلة فى عقول مصرية  
ابراهيم عبد العزيز
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر  
العثمانى  
د ٠ محمد عفيفى
- ٤٥ - الحروب الصليبية  
تأليف : وليم الصورى  
ترجمة : ١٠ د ٠ حسن حبشى
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الامريكية ١٩٣٩ : ١٩٥٧  
تأليف : د ٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث  
تأليف : ١٠ د ٠ لطيفة محمد سالم
- ٤٨ - الفلاح المصرى  
تأليف : د ٠ زييد عطا
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية  
تأليف : ١٠ د ٠ عبد العظيم رمضان

- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية  
تأليف : د ٠ سهير اسكندر
- ٥١ - تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية  
اعداد : د ٠ عبد العظيم رمضان
- ٥٢ - مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى  
القرن الثامن عشر  
تأليف : د ٠ الهام محمد على ذهني
- ٥٣ - اربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك  
د ٠ محمد كمال الدين عز الدين على
- ٥٤ - الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى  
تأليف : د ٠ محمد غففى

# الفهرس

## الصفحة

مقدمة	٥
الكتاب السابع :	
الشقاق بين الصليبيين وزحفهم الى بيت المقدس	١١٠
الكتاب الثامن :	
خاتمة رحلة الحج : الاستيلاء على القدس	٧٩
الكتاب التاسع :	
جود فروى حامى القبر المقدس ببيت المقدس وانطاكية	١٣٩
الكتاب العاشر :	
الملك بلدوين الأول وازدياد رقعة المملكة	١٨٩
الكتاب الحادى عشر :	
خاتمة عهد بلدوين الأول وفتوحات اخرى بالقدس وانطاكية	٢٥٣
الكتاب الثانى عشر :	
بلدوين الثانى : الاضطرابات فى شمال سورية	٣٣١

رقم الايداع ١٩٩٢/٧١٤٦

---

I.S.B.N. 977 — 01 — 3113 — X الترقيم الدولى

---

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب







يعتبر كتاب الحروب الصليبية لوليم الصورى مصدراً أساسياً لما شاهده المؤلف فى معظم مراحل هذه الحرب ، واشتراكا فى بعض أحداثها ، إلى جانب ما توفر له من الاطلاع على كثير من الوثائق الهامة فى لغات كان يتقن بعضها ، قراءة وكتابة ، كالاتينية واليونانية والفرنسية القديمة والعربية .

هذا إلى جانب توليه منصب مستشار ملك بيت المقدس ، ورئيس أساقفة صور ، ومشاركته بالرأى فى توجيه هذه الحرب فى بلاد الشام ومصر ، وفى كثير من أحداث تلك الحقبة .

وقد توفر له مترجم ضليع ومؤرخ كبير ، جزل العبارة هو الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، الذى ترجم كثيراً من الأصول الأولى للعصور الوسطى ، وقد أضاف للترجمة من التعليق ما دل على أستاذيته .

ويسعد أهلية أن تكون هذه الترجمة العربية القائمة على مراجعة الترجمتين الانجليزية والفرنسية ضمن سلسلة تاريخ المصريين التى يرأس تحريرها الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان .



0334300

مطابع المير

٤٧٥ قرشاً